

النفسية والإعلام

للأدب العربي

تأليف

د. عبد العزيز شرف
أستاذ الإعلام الدينامي

د. محمد عبد المنعم غفاجي
الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر

دار الجيّد
بيروت

0164440



Bibliotheca Alexandrina

النَّفْسِ وَالْإِعْلَامِ

التفسير والإعلاوي للأدب العربي

تأليف

د. عبد العزيز شرف
أستاذ العلوم الإسلامية

د. محمد عبد المنعم غفاجي
الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر

دار الجليل
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

مفهوم التفسير الاعلامي

مدخل

إن الاتجاهات النقدية التي تصطبغ بصبغة قضائية كما يقول «جون ديوي» قد أفسدت مفهوم «النقد» نفسه، ذلك أن الحكم النهائي الحاسم يغلق السبيل أمام تجدد الطبيعة البشرية، وعلى العكس من ذلك الحكم الذي ينمو ويتطور في مضمار الفكر، كإدراك واع قد تحقق بنفاذ وعمق.

ولا شك أن الأدب أو الفن بوجه عام - كما يقرر تولستوي - هو أحد وسائل الاتصال بين الناس، ومن هنا فإن تفسير الأدب يحتاج إلى مناهج أخرى غير تلك التي تصطبغ بصبغة قضائية، ولقد شهد القرن العشرين إقبالا شديداً على الطريقة «التنقيبية» التي ولدت على أيدي «سانت بوف» و«تين» و«لانسون» في القرن الماضي، وبولغ فيها - تحت تأثير النزعة الألمانية: نقد وتحقيق النصوص، دراسة التحريفات الطارئة على النص، تفسير الأثر الأدبي بسيرة حياة الكاتب وبيئته وجيله الأدبي.

ولم تلبث دوجماتية الذوق أن تراجعت في مطلع القرن العشرين أمام معنى النسبية والتواضع، وفقد النقد ادعائه الطفولي الباطل في الشرح، واتجه حثيثاً إلى تفسير الآثار الأدبية بواسطة التحليل الداخلي الذي تدعمه جميع المناهج الخارجية، وهو الأمر الذي يسعى إليه حثيثاً وبشكل علمي: منهج التفسير الإعلامي للأدب. . بهدف مقاومة الطلاق الذي يهدد العلاقات لا بين الكاتب والناقد وحدهما، بل بينهما وبين القارئ أيضاً.

التفسير الإعلامي وطبيعة الأدب:

والتفسير الإعلامي يقوم على أساس من فهم طبيعة الأدب، وأنها تقوم في جوهرها على أساس اتصالي، فكما أن الإنسان ينقل أفكاره إلى الآخرين عن طريق «الكلام» فإنه كما يقول تولستوي: «ينقل إلى الآخرين عواطفه عن طريق الأدب أو الفن، ومعنى هذا أن الأدب لا يخرج عن كونه أداة تواصل بين الأفراد، يتحقق عن طريقها ضرب من الاتحاد العاطفي أو التناغم الوجداني فيما بينهم، ولما كان الناس يملكون هذه المقدرة الفطرية على نقل عواطفهم إلى الآخرين عن طريق الحركات والأنغام والخطوط والألوان والأصوات وشتى الصور اللفظية، فإن كل الحالات الوجدانية التي تمر بالآخرين من حولنا هي بطبيعة الحال في متناول إحساساتنا فضلاً عن أن في وسعنا أيضاً أن نستشعر عواطف أخرى أحس بها غيرنا من قبل منذ آلاف السنين».

فأساس التفسير الإعلامي إذن يتمثل في الجوهر الاتصالي للأدب، ذلك أن معظم خصائص العقل البشري التي تميزه عن غيره ترجع - كما يقول ريتشاردز - إلى كونه أداة للاتصال «حقاً أن التجربة لا بد أن يتم تكوينها قبل أن يبدأ توصيلها، غير أن التجربة عادة تأخذ شكلها المألوف لأن وجوب توصيلها أمر محتمل الوقوع، ولقد جعل قانون الانتقاء الطبيعي القدرة على الاتصال لدى الإنسان عاملاً ذا أهمية بالغة، وأهمية الاتصال، أكثر ما تكون في ميدان الفنون ففي الفنون تظهر عملية التوصيل في أسمى صورها، ولا شك أن أكثر المسائل الفنية صعوبة وأشدّها تعقيداً ستوضح لنا طبيعته في الحال إن نظرنا إليه من ناحية عامل التوصيل».

وبدءة يحتاج الاصطلاحان: «اتصال واتصالات» إلى إيضاح. «فالالاتصال» ببساطة هو عملية الاتصال، والاتصالات هي الوسائل التكنولوجية المستخدمة لتنفيذ هذه العملية والاتصال - إذن - هو حقيقة أساسية للوجود الإنساني والعملية الاجتماعية. والاتصالات تمثل شتى الطرق التي يؤثر

بها شخص في شخص آخر أو يتأثر بها. وقد تكون هذه الطرق مباشرة وشخصية مثلما ينشد الشاعر العربي شعره في سوق عكاظ مثلاً، أو غير مباشرة ولا شخصية عندما يتوسل الأديب بالصحيفة أو التلفزيون لنقل رسالته الإبداعية. فالاتصال - هو حاصل العملية الاجتماعية. وهو الذي يجعل التفاعل بين الجنس البشري ممكناً، ويمكن الناس من أن يصبحوا كائنات اجتماعية.

ويرى «إدوارد سابير» أن هناك فرقاً بين الاتصال والاتصالات. فالفرد - في رأيه - يعني ما يسميه بالعمليات الأولية أي السلوك الشعوري واللاشعوري الذي يقوم به الاتصال. وعنده أن العمليات الأربع هي: «اللغة» والايماء بأوسع المعاني، والكلمة، وتقليد السلوك الظاهري للآخرين، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة يمكن أن تسمى بشكل غامض: بالايماء الاجتماعي، وهو يستخدم الجمع «الاتصالات» للدلالة على ما يطلق عليه الوسائل الثانوية، وهي الأدوات والنظم التي تساعد على القيام بالاتصال، ويرى سابير أن التفرقة بين اللفظين لها أهميتها التاريخية والاجتماعية. ذلك أن البشرية كلها قد منحت العمليات الأولية: كاللغة والايماء. وتقليد السلوك والايماء الاجتماعي. على أن الحضارات المتقدمة نسبياً فقط هي التي طورت الفنون الثانوية المتطورة. وتشترك كل الفنون في ناحيتين: الأولى - أنه بالرغم من اختلافها مادياً فإن مهمتها الرئيسية هي إيجاد الاتصال اللغوي في المواقف التي يستحيل فيها الاتصال المواجهي، والثانية هي أن كل الفنون الثانوية تقدم الوسائل غير المباشرة التي يمكن بها تنفيذ العمليات الأولية للتقليد والايماء الاجتماعي فهي وسائل غير مباشرة. إذ أن الراديو مثلاً لا يقوم بالاتصال نفسه وإنما يستطيع القيام بذلك فقط عندما يستخدمه شخص من الأشخاص لإرسال رموزه. وقد استطاع الإنسبان عن طريق اختراع هذه الوسائل الفنية وتحسينها بزيادة عددها أن يحرر عملية الاتصال من قيود الزمان والمكان.

والأدب فن الإبانة عما في النفس، والتعبير الجميل عن مكنون الحس، والتصوير الناطق للطبيعة، والتسجيل الصادق لصور الحياة ومظاهر

الكون ومشاهد الوجود. الأمر الذي يؤكد ما نعينه من الطبيعة الاتصالية للأدب كفن من الفنون الرفيعة التي يعبر كل منها بطريقة الخاصة عن مظاهر الحياة وخوارج النفوس، فيهب الشاعر بجماله وروعته. ولكنه يمتاز بأنه يجمع بين اللحن والموسيقى والفكرة في النحت والجمال في الرسم ويزيد عن هذه الفنون بالإفصاح والإبانة، والنهوض بأكثر مهام الحياة الثقافية والاجتماعية والتهذيبية.

فهو يصور ما في النفس من فكرة أو عاطفة تصويراً جميلاً، ثم ينقل هذا التصوير إلى نفوس القراء وآذان السامعين. فيؤثر فيهم ويهز خواطرهم ويوقظ مشاعرهم، ويعينهم على فهم الحياة، ويوجههم إلى أرفع المثل وأنبل الغايات، ولذلك كان الوسيلة المثلى التي نهضت بعبء الثقافة العامة، يؤديها بشتى الطرق ومختلف الألوان، والأداة القوية التي اصطنعها الرسل والحكماء والمصلحون. فلقد بلغ رسالة الدين على ألسنة الأنبياء. وشع بنور الحكمة على أفواه الحكماء، ومن طريق الكمال للمصلحين، وكان بعد هذا عماد النهضة السياسية والاجتماعية والفكرية يسجلها ويسايرها ويغذيها.

والأدب يصور جمال الحياة، ومباهج الطبيعة ومشاهد الجمال ومفاتيح الحسن، ومجالي الأنس، ويحمل ما قبح من الحياة، وينير ما أدهم من الخطوب، ويهدد ما فدح من الآلام، وينقل ذلك إلى النفوس، فتستروح له الخواطر المكدودة، وتخف إليه القلوب اليائسة، وتحيا عليه الآمال المحتضرة، فيحيل اليأس أملاً، والوحشة أنساً، والحزن مسرة، والضيق انطلاقة.

وهكذا ترى مدلول كلمة (أدب) يتسع ويضيق تبعاً لاختلاف الظروف والعصور وتبعاً لمعنيها الخاص والعام، يتسع فيشمل كل ألوان المعرفة، ويضيق فيقف عند الكلام الجيد من مآثور الشعر والنثر وما يتصل به، وترى كلا من هذين المعنيين يتسع حيناً ويضيق حيناً كذلك. وقد لوحظ مثل هذا في الأدب الأوروبي، فإن لكلمة (ليتراتور) عند الفرنج معنيين: معنى عاماً ومعنى خاصاً. فالمعنى العام دلالتها على كل ما صنف في أي لغة من الأبحاث العلمية والفنون الأدبية. أما المعنى الخاص فيراد به التعبير عن مكنون الضمائر

ومشوب العواطف بأسلوب إبداعي أنيق مع الإلمام بالقواعد التي تعين على ذلك^(١).

ومن هنا نرى اختلاف الكتاب الغربيين في تعريف الأدب، فهذا (إمرسن) الأمريكي يقول: الأدب سجل لخير الأفكار، وهو تعريف للأدب بالمعنى العام. ويقول (برك): «نريد بالأدب أفكار الأذكياء ومشاعرهم مكتوبة بأسلوب يلذ القارئ وهو على عنايته بجمال الأداء يسمح للنظريات العلمية أن تطرق باب الأدب. أما (سانت بيغ) الناقد الفرنسي فالأدب عنده هو الأسلوب الجميل الذي يصور الحقائق الإنسانية^(٢)، وهذا هو الأدب بالمعنى الخاص.

وإذن فلكلمة الأدب معنيان: المعنى العام وهو كل ما أنتجه العقل من أنواع المعرفة حتى الطبيعة والنحو، سواء أثار شعورك وأحدث في نفسك لذة فنية أو لم يثر ولم يحدث.

والمعنى الخاص وهو الكلام الجيد من الشعر أو النثر الذي يثير شعور القارئ أو السامع ويحدث في نفسه لذة فنية كاللذة التي يحسها عند سماع الغناء أو توقييع الموسيقى أو رؤية الجمال. هو التعبير الجميل عن معاني الحياة وصورها هو ماثور الشعر الجميل أو النثر البليغ المؤثر في النفس المثير للعواطف. فلا بد فيه من معان تثير العواطف وصياغة جميلة تؤدي بها هذه المعاني.

وهذا الأدب بالمعنى الخاص هو الذي نعني بدراسته والتوفر عليه، وهو الأدب الحق الذي يتصل بالنفس ويلد المشاعر ويخاطب العاطفة، أما النظريات العلمية فحقائق مجردة لا تستثير عاطفة ولا تلذ شعوراً، لأنها تخاطب العقل وحده.

كلمة أدب ومادتها:

إذن فما هذا الأدب الذي تلك وظيفته، وهذه رسالته؟ وقبل أن نجيب

(١) الزيات ص ١٢.

(٢) أصول النقد الأدبي للشايب ص ١٧.

على ذلك ينبغي أن نبحث أولاً في مادة الكلمة ونشأتها وأطوارها التاريخية:
فالأدب - بسكون الدال - الدعاء ومنه (المأدبة) بضم الدال وفتحها،
وفي الحديث عن ابن مسعود: إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتعلموا
من مأدبته. والمأدبة والأدبة صنيع الدعوة أو العرس يدعى إليه الناس، كما
يقول له (مدعاة).

وأدب يأدب أدباً - من باب ضرب - دعا إلى الطعام، فهو أدب كما قال
طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب منا ينتقر^(١)
والجمع أدبة ككتاب وكتبه، قال الإمام علي كرم الله وجهه: أما إخواننا
بنو أمية ففداة أدبة. وأدب القوم على الأمر جمعهم عليه، وفي الجمع دعوة.
قال أبو ذؤيب الهذلي:
وكيف قتالي معشراً يآدبونكم على الحق ألا تأشبهه بباطل^(٢)
والأدب كذلك الأمر العجيب كالأدبة.

قال الأصمعي: جاء فلان بأمر أدب أي عجب مدهش، أو هو
العجيب والدهشة كقول منظور بن حية الأسدي يصف أزي الناقة أي
سرعتها ونشاطها: (حتى أتى أزيها بالأدب) أي بالعجب.

أما الأدب - بفتح الدال، فهو الذي يتأدب به الأديب من الناس، أو
هو الظرف وحسن التناول، أو هو كل رياضة محمودة يخرج بها الإنسان في
فضيلة من الفضائل. ويقال أدب وأرب فهو أديب أريب. وتأدب واستأدب.
والبعر المذلل أديب^(٣).

(١) الجفلى محركة: الدعوة العامة، النقرى كجمرى الدعوة الخاصة.

(٢) تأشبهه: تخطئه.

(٣) راجع هذه المواد في الأساس للرخشري واللسان والقاموس وشرحه، مادة «أدب».

متى وكيف نشأت؟:

لم ترد كلمة أدب - بفتح الدال - في القرآن الكريم. على الرغم من خفتها، وعلى الرغم من ورود أكثر من آية في معناها. وشدة اتصالها بأغراضه وموضوعاته ولم ترد كذلك في اللغات السامية الأخرى كالسريانية والعبرية التي تعد من أخوات العربية، فيما يقرره الباحثون^(١).

ولكنها ترددت بنصها أو مادتها في بعض ما نقل إلينا من آثار الجاهلية، كما في حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند، وكانت قد شرطت عليه ألا يزوجه من أحد حتى يصفه من غير أن يسميه، فكان مما وصف به أبا سفيان ابن حرب حين خطبها قوله: «يؤدب أهله ولا يؤدبونه». وكان مما ردت به عليه: «وسأخذه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي»^(٢). وفي كتاب النعمان ابن المنذر إلى كسرى مع وفد العرب: «وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم» وفي كلام علقمة بن علاثة أمام كسرى: «فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك. بل لو قسمت كل رجل منهم، وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له في آبائه أنداداً وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب معروف»^(٣). وقال الأعشى:

جروا على أدب مني بلا نزق ولا إذا شمرت حرب أغمار

وهي في هذه النصوص مستعملة في المعنى الخلقي من تهذيب النفس وترقيق الطبع وتحلية الخلق، واتباع الطريقة المحمودة والعادة الحسنة وكريم الأخلاق وموروث الشئال.

وجاء الإسلام فاطردت الكلمة في مجراها، وترددت في كثير من النصوص على لسان النبي ﷺ وصحابته. فقد ورد أن رسول الله ﷺ كان

(١) الأدب الجاهلي لطلح حسين ص ٢٠.

(٢) الأمالي ١٠٤ ج ٢.

(٣) العقد الفريد ٩٩ ج ١.

يخاطب وفود العرب على اختلاف لهجاتهم التي لا يهتدي إلى معرفتها بعض العرب، فيفهم عنهم ويفهمهم، حتى قال له علي رضي الله عنه: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم الوفود بما لا نفهم أكثره، فقال الرسول الكريم ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد». والتأديب هنا معناه التعليم.

ونظراً لأن الكلمة لم ترد في القرآن الكريم، ولندرة ورودها في الأدب الجاهلي، وعدم وجودها فيما عرف من اللغات السامية، كانت هذه النصوص الجاهلية موضع شك وارتياب عند كثير من اللغويين والباحثين والمستشرقين.

كما كان الحديث النبوي «أدبني ربي فأحسن تأديبي» موضع التردد وعدم الاطمئنان عند بعضهم^(١).

وقد حدا هذا بهم إلى أن يلتمسوا للكلمة أصلاً التمثل أو الفرض. لأنها لم تنبع في رأيهم إلا في العصر الأموي.

يقول بعضهم إنها أخذت من الأدب بمعنى الدعاء إلى الطعام. لأن الأدب يأدب الناس ويدعوهم إلى المحامد. أو من الأدب بمعنى العجب، لأن الأدب يعجب منه لحسنه. ويعجب من صاحبه لفضله^(٢): وهذا رأي يعوزه الدليل القاطع. فضلاً عن أن المعهود عند العرب استعمال الكلمة بنصها عند استعمالها في معنى آخر. فلماذا فتحت الدال؟

يرى الدكتور نلينو المستشرق الإيطالي أن بين الأدب والدأب اتفاقاً في المعنى الأصلي وهو السنة والعادة، فظن أن العرب جمعوا دأباً على آداب بالقلب كما جمعوا بئراً على آبار، ثم اشتقوا من هذا الجمع على توالي الحقب مفرداً جديداً هو الأدب، ولكن في رأي الأستاذ حلقة مفقودة، وهي أن جمع دأب على آداب لم يرد في أثر ولم ير في معجم^(٣).

وقد احتال الأب أنستاس الكرمل في أن يجعل للكلمة أصلاً يونانياً،

(١) طه حسين الأدب الجاهلي ١٩.

(٢) اللسان وشرح الكاتب للجواليقي ١٣، ١٤.

(٣) أصول الأدب للزيات ص ٨.

ولكنه انتهى برأيه إلى الظن والتخمين. فإنه يرى أن الأدب صنعة الأديب الوارد في اللغة اليونانية باللفظ والمعنى، فمن معاني الأديب عندهم الحسن الغناء اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة المثير لهوى جلسائه بأنغامه الشجية وحديثه الرقيق.

ويرى بعضهم أنها نقلت عن بعض العرب من غير القرشيين في العصر الإسلامي ثم ذاعت ونقلت من المعنى الخلقي إلى المعنى الاصطلاحي في العصر الأموي^(١).

وهناك من يفرض أنها دخلت العربية من لغة السومريين الذين عمروا جنوبي العراق من أقدم العصور، وأخذها عنهم الساميون الطارئون عليهم، إذ كان معنى (أديب) عندهم (إنسان) ثم نقلت عندهم من أديب إلى آدم، واحتفظت العربية بالأصل السومري واستعملته فيما يؤدي معنى الإنسانية أو الأدمية من كرم الخلال وما يتصل به^(٢).

هذه آراء الباحثين في تاريخ كلمة (أدب)، وهي كما ترى إنما تضرب في مجاهل الخدس والتخمين، وليس فيها دليل قاطع أو سند صحيح يدعوهم إلى الشك فيما حمل على الجاهليين من نصوص، وما نسب إلى الرسول ﷺ من حديث.

ونحب أن نقول لهم: إذا كانت المسألة مسألة احتمال وظن، فما الذي يمنع احتمال صحة هذه النصوص الجاهلية؟ وهل يدفع الاحتمال باحتمال؟ وينقض الظن بظن؟ وإذا كانت ندرة هذه النصوص هي التي حملتكم على الشك فيها، فلم لا يجوز أن تكون هذه الكلمة وردت في نصوص كثيرة أصابها ما أصاب الأدب الجاهلي من الضياع والتحريف؟ أما القرآن الكريم فإنه لم يستوعب ألفاظ اللغة القرشية جميعاً، وأما الحديث الشريف فإنه ليس بذي الطول الذي يلتبس لفظه على الحافظين حتى يشك فيه. فوجود الكلمة

(١) الأدب الجاهلي ص ٢٠.

(٢) أصول الأدب للزيات ص ٩ وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ١.

فيه دليل على وجودها في الجاهلية، لأن الرسول ﷺ لم يرتجلها ارتجالاً، وإنما استعملها استعمالاً بدليل فهم الإمام علي لها دون سؤال أو مراجعة.

كيف نشك في هذه النصوص إذن وندفعها برأي محتمل غير قاطع، أو وجه مخترع غير ثابت؟ وإذا كان كل نص منها لا يفيد الرجحان أفلا يكون في مجموعها ما يفيد إن لم يفد اليقين؟ على أن هذه النصوص ونحوها إذا سلم انتحالها، تبين لنا على الأقل رأي المتحليين في عرب الجاهلية. وكيف كانوا يتصورون حياتهم الاجتماعية والأدبية والسياسية. وهذه الصورة تشير إلى أن معنى كلمة أدب من الناحية التهذيبية كان معروفاً قبل الإسلام. ألا يدل هذا على أن كلمة الأدب عرفت في الجاهلية لأداء هذا المعنى؟

وأخيراً فإن وجود أخواتها المشتركات معها في المادة والقربيات معها في المعنى مثل بدأ وأبد ودأب. يدل على أن كلمة أدب - ويندر أن ترد هذه الكلمات بدونها لحقتها - دارت معها في الحياة العربية الجاهلية^(١).

الأطوار التاريخية لمدلول كلمة أدب:

كانت هذه الكلمة تدل في أول أمرها - كما رأينا - على رياضة النفس وتكوينها على ما يستحسن من السيرة والخلق. وعلى اكتساب الأخلاق الكريمة. واصطناع السيرة الحميدة. ولهذا يقول الجواليقي في شرح أدب الكاتب: «والأدب الذي كانت تعرفه العرب هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم». وكذلك كانت في الجاهلية. فلما كان صدر الإسلام أضيف إلى مدلولها تعليم المرء ما أثر من المحامد والمعارف. وصارت تدور حول المعنى التعليمي كما في حديث الرسول ﷺ - إلى جانب دورانها حول المعنى الخلقي والنفسي.

فلما كان العصر الأموي شاع استعمالها، وأخذت مشتقاتها تتعدد؛ ومعانيها تتمايز. وأصبحت عنواناً جديداً على التعليم الفذ والتربية الممتازة. ونشأت مهنة جديدة للجماعة من الأساتذة الممتازين الذين ينشئون الطبقة

(١) أصول النقد الأدبي للشايب ص ٣، ٥.

العليا وينهضون بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء وكانوا يسمون (المؤدبين). وهؤلاء يدرسون لتلاميذهم الشعر وما يتصل به من نسب وأيام وأخبار ونحو ذلك من المعارف التي تكون الثقافة الأدبية. وهي غير المعارف التي كانت قوام الثقافة الدينية للمسلمين في ذلك الحين وهي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وما يتصل بهما من تفسير وفقه وفتاوى. وعلى هذا دخل في مدلول كلمة أدب ما يليق به المعلم (المؤدب) إلى تلميذه من كل ما يمنحه حظاً من المعرفة والثقافة الأدبية^(١).

وإذن فقد صارت كلمة أدب في ذلك العهد تؤدي معنيين ممتازين:

أحدهما: هذا المعنى الخلقي التهذيبي وهو أخذ النفس بالمرانة على الفضائل وكريم الشيم. ثم التأثير بهذه المرانة لاكتساب الأخلاق الفاضلة والسيرة الحميدة. ومن هذا تسمية عبدالله بن المقفع كتابه «الأدب الصغير والأدب الكبير»، لاشتغالها على قوانين وأصول من تمسك بها صار أديباً أي فاضلاً مؤدباً مهذباً ومنه قول زياد في خطبته البتراء: «أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن لي قناتكم^(٢)». وقول بعض الفزاريين من شعراء الحماسة:

أكنيه حين أنادي به لأكرمه ولا ألقبه؛ والسواة القلب
كذلك أدبت حتى صار من خلقي أي وجدت ملاك الشيمة الأدب
وما أنشدته الجاحظ:

وإني على ما كان من عنجهيتي ولوثة أعرابيتي لأديب^(٣)

(١) ويلاحظ أن لفظ الأدباء ظل يطلق على العلماء المؤدبين حتى أواخر القرن الثالث الهجري حين استقلت العلوم، وضعفت الرواية، وغلبت العجمة ولهذا قالوا. ختم تاريخ الأدباء بالمرد وثعلب، وانفرد الشعر والكتاب بمزية اللقب (معجم الأدباء طعة فريد رفاعي ١٢٢ ج ٥).

(٢) البيان والتبيين للمحافظ ٥٨ ج ٢.

(٣) العنجهية الحمق والجهل، واللوة الهيج والحمق، والمراد بذلك كله جفاء الأخلاق.

وقول سالم بن وابصة :

إذا شئت تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

والثاني: المعنى التعليمي القائم على رواية الشعر والنثر وما يتصل بهما من نسب وخبر ومثل ونحو ذلك من المعارف غير الشرعية، التي كان يقوم بتدريسها المؤدبون المعلمون. ومن ذلك قول عبد الملك لمؤدب ولده «أدبهم برواية شعر الأعشى» وقول عمر بن عبد العزيز لمؤدبه: كيف كانت طاعتي لك وأنت تؤدبني؟ قال: أحسن طاعة. قال: فأطعني الآن كما كنت أطيعك^(١).

وقد بقيت مادة الأدب تدل على هذين المعنيين منذ القرن الأول الهجري إلى الآن مع تعديل بسيط يتناولهما ضيقاً وسعة خلال القرون التالية، حتى أثر قولهم: الأدب أدبان. أدب النفس وأدب الدرس^(٢).

ولما نشأت بعض العلوم العربية كاللغة والنحو والصرف في منتصف القرن الثاني؛ دخل ما وضع من هذه الأصول في مدلول الأدب، إلى أن ازدهرت الحضارة العباسية وصحبتها النهضة العلمية وقويت حركة التأليف والترجمة، تلك الحركة التي انتهت فيما بعد باستقلال هذه العلوم بأسائها، باستيفاء عناصرها وقواعدها، واتساع حركة التأليف فيها.

حتى إذا كان القرن الثالث رأينا مادة الأدب تؤدي المعاني الآتية:

أولاً: المعنى الخاص وهو الشعر والنثر وما يتصل بهما من أخبار وأنساب وأيام وأحكام نقدية ثم النثر الفني الذي جوده الكتاب. وظهرت بهذا المعنى كتب معروفة كالبيان والتبيين للجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة، والكامل للمبرد ٢٨٥هـ وطبقات الشعراء لمحمد بن سلام

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٠١ ج ١.

(٢) لسان العرب مادة أدب.

٢٣١هـ وغيرها مما نجد فيه الأدب الخالص مع مسائل لغوية ونحوية وآراء في النقد الأدبي، ومعارف قصصية.

ثانياً: المعنى العام الذي يتناول المعارف الإنسانية، وأنواع الفنون الجميلة والرياضة ونحو ذلك من كل ما يوسع الثقافة، ويكسب الشخص ظرفاً وأناقاً، فأطلق الأدب على الغناء. قال ابن خلدون: «وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن (الأدب) لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه...». وكان من أثر تقلب العرب في أعطاف النعيم، لما ورفت ظلال العيش في مدن العراق والجزيرة، أن أولعوا بالمنادمة والتأنتق. فأطلقوا الأدب على الأناقة في اللباس والطعام، واللباقة في الحديث والكلام، وحسن التناول والمنادمة، وخدمة الملوك والأمراء، والبراعة في الصيد أو اللعب، وكل ما من شأنه تكوين الرجل المستنير، وهذا صار لفظ الأديب يرادف لفظ الظريف، أو المثقف أو المستنير ولهذا يقول التبريزي في شرح الحماسة: «وكان الأدب اسماً لما يفعله الإنسان فيترين به في الناس» ويقول صاحب اللسان: «الأدب الظرف وحسن التناول».

ويدلنا على أن الأدب كان يطلق على جميع ما ترجم من العلوم ونقل من الألعاب والفنون ما روى عن الحسن بن سهل الوزير العباسي أنه قال: «الأدب عشرة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية وواحدة أربت عليهن. فأما العود والشطرنج ولعب الصوالج فشهرجانية، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس، وأما الواحدة فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس^(١). وقد بقى هذا المعنى العام وزاد اتساعاً في القرن الرابع كما سيأتي:

ثالثاً: هذه العلوم الأدبية اللازمة لاستكمال ثقافة الأديب، والاستعانة بها على إنشاء الأدب وفهمه وتذوقه ونقده. كاللغة والنحو والنسب والاختبار والنقد وهي العلوم التي كانت عماد الثقافة العربية.

(١) أصول الأدب للزيات ص ١٠.

رابعاً: أدب النفس. وقد اتسع هذا المعنى فتناول كل أسلوب مستحسن في علم أو عمل من خلق فاضل، وسيرة محمود، وقوانين يلزمها كل ذي حرفة أو منصب. ومن الكتب في هذا المعنى أدب الكاتب لابن قتيبة، وباب الأدب في صحيح البخاري، وفي حماسة أبي تمام، وأدب النفس لأبي العباس السرخسي. ويستمر التأليف في هذا النوع من أدب السلوك على توالي القرون. كأدب النديم لكشاجم المتوفي سنة ٣٥٩هـ. وأدب الدنيا والدين للماوردي ٤٥٠هـ وآداب الصوفية للنيسابوري ٤٤٥هـ. وآداب البحث والمناظرة^(١).

ولما جاء القرن الرابع كانت العلوم اللغوية منفصلة عن الأدب، وبقي النقد يحاول الاستقلال والانفصال، وكان كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري مقدمة لنشاط هذا الفن ومحاولة الوجود الاستقلالي، وكذلك كتاب الموازنة للآمدي والوساطة للجرجاني، ونحو ذلك من الكتب والرسائل التي استطاع النقد بها أن يؤسس استقلاله، فلم يكد ينتهي القرن الرابع ويحل الخامس، حتى تم له الاستقلال على يدي عبد القاهر، وحيث نشأت علوم البلاغة؛ وبهذا أصبح الأدب يؤدي:

أولاً: المعنى الخاص، الذي وقف به عند الشعر والنثر، بعد انفصال النقد والبلاغة عنه. وذلك في القرن الرابع الهجري.

ثانياً: المعنى العام. وقد بقي على سعته يتناول جميع الآثار العقلية عدا الشرعية، فقد جاء في الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفا، وهي من آثار القرن الرابع: «اعلم يا أخي بأن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس: منها الرياضية، ومنها الشرعية الوضعية، ومنها الفلسفية الحقيقية. فالرياضية هي علم الآداب. وهي تسعة أنواع: أولها علم الكتابة والقراءة، ومنها علم النحو واللغة، ومنها علم الحساب والمعاملات، ومنها علم الشعر والعروض، ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها، ومنها

(١) أصول النقد الأدبي للشايب ص ٩.

علم الحرف والصنائع، ومنها علم البيع والشراء والتجارات وسرد السير والأخبار...).

فلما انتهى القرن الخامس وقف الأدب عند الشعر والنثر، وتحدد معناه الخاص بما يجري عليه الاستعمال اليوم، وبما يقرب من معناه في القرن الأول، فقد أريد به مآثور الشعر والنثر.

أما المعنى العام فقد ضاق مدلوله بعد إخوان الصفا، ولم يعد الأدب يطلق على الفنون والصناعات وجميع العلوم غير الشرعية، بل أصبح قاصراً على علوم اللغة العربية، وإن لم يعين أحد هذه العلوم حتى أواخر القرن الخامس. فلما أنشئت المدرسة النظامية ببغداد، وجعل لدراسة الأدب فيها مكان جعلوا علوم العربية ثمانية: النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم. ثم جاء الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨هـ فعرف علوم الأدب بأنها علوم يحتز بها عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة، وجعلها اثني عشر علماً بإضافة المعاني والبيان والإملاء والإنشاء إلى علوم المدرسة النظامية^(١) ثم تتابع العلماء والأدباء وهم يختلفون في حصرها، حتى ابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨هـ وما زالوا يختلفون حتى عصرنا الحالي^(٢).

وتأسيساً على هذا الفهم، فإننا نحاول دراسة الأدب العرب في ضوء منهج التفسير الإعلامي.

ونسأل الله التوفيق، فجل من لا يخطئ تحيزاً أو قصوراً في عالم البشر؟

المؤلفان

(١) في أصول الأدب للزيات ص ١١.

(٢) أصول النقد الأدبي للشايب ص ١٢.

الفصل الأول

التفسير الإعلامي للأدب

ونحن هنا حينما نسعى إلى التفسير الإعلامي للأدب العربي، فإننا نحاول الإفادة من الدراسات الإنسانية العامة، ودراسات الإعلام والاتصال بالجمهور، بخاصة، لطرح افتراضات حول استخدام هذا الأسلوب الجديد في تفسير الأدب العربي.

فإذا كنا قد طرحنا الافتراض الأساسي، وهو أن الأدب يقوم على جوهر اتصالي، فإن عمليات التفسير الإعلامي، للأدب، تقوم على أساس من العبارة، الإعلامية الشهيرة:

من ؟ : (الأديب)

يقول ماذا؟ : (الرسالة الإبداعية)

لمن : (الجمهور المتلقي)

وبأية وسيلة؟ : (وسائل الاتصال بالجمهور)

وبأي تأثير ؟

ونضيف إليها تعديل ريموند نيكسون الذي يتصل بالموقف العام للاتصال، والهدف من العملية الاتصالية، بحيث تصبح العبارة على هذا النحو ملخصة لعمليات التفسير الإعلامي للأدب بصفة خاصة:

«من - يقول ماذا - لمن - وما هو تأثير ما يقال - وفي أي ظروف - ولأي

هدف - وبأية وسيلة؟

فالتفسير الإعلامي للأدب يقوم على أساس من الوحدة الاتصالية، فالأديب والمضمون والوسيلة والمستقبل والاستجابة، هي جميعاً حلقات متصلة

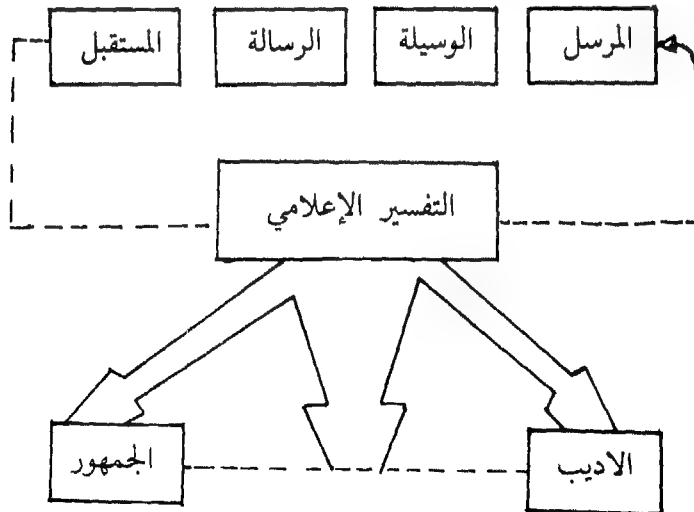
في سلسلة واحدة. وينهار العمل الأدبي؛ إذا ما اعترت هذه السلسلة نقطة ضعف معينة في أية حلقة من حلقاتها. فالعمل الفني الحقيقي؛ كما ذهب إلى ذلك تولستوي أيضاً - هو «ذلك الإنتاج الصادق الذي يحو كل فاصل بين صاحبه من جهة؛ وبين الإنسان الذي يوجه إليه من جهة أخرى؛ ثم هو أيضاً ذلك الإنتاج العامر بالعاطفة الذي يكون من شأنه أن يوحد بين قلوب كل من يوجه إليهم».

ونخلص مما تقدم إلى أن:

- من ؟

هي دراسة الأديب المرسل مبدع «الرسالة» أو الأثر الأدبي. وهنا يفيد التفسير الإعلامي في دراسة «من؟» من المنهج المستمد من علوم الطبيعة لمعرفة المؤثرات الذاتية التي عملت في تكوينه وما إلى ذلك، مما يمكن أن يفيد من دراسات «برونتيير» و «سانت بوف». ولكن هذا المنهج وحده لا يكفي في دراسة المرسل. إذ لابد من الإفادة من المناهج الأخرى: كالمناهج الاجتماعية والتحليل النفسي وما إلى ذلك مما يلقي الضوء على «المرسل» كعنصر أساسي من عناصر العملية الإبداعية. ذلك أن مكان «المرسل» يبين من النموذج التالي:

التفسير الإعلامي



ومن أشهر ما كتب في النقد في السنوات الأخيرة كتاب «تحليل النقد». لنورثروب فراي؛ وفي رأي فراي أن الأشكال - أي الصور والأخيلة - التي يدفع بها الخيال إلى الدنيا هي التي تصنع القيم لا للأدب وحده بل لكل التركيبات اللفظية، وهو يقول في آخر كتابه: أليس صحيحاً «أن التركيبات اللفظية في علم النفس وعلم الأجناس وعلم الأديان والتاريخ والقانون وغيرها من كل ما يتكون من ألفاظ ركبت بنفس الطريقة التي ركبت بها الأساطير والأمثال التي تجد لها في الأدب، صورتها النظرية الأصلية؟». فالأساطير أي الرواية الخيالية بعبارة أخرى هي المعادلات الرياضية في جميع التركيبات اللفظية الممكنة ولذلك كما يقول فراي نرى الناقد يمسك بيده «مفتاح أرض الأحلام، بمعنى أن الناقد يمسك بيده مفتاح كافة الصور اللفظية وهو في مركز يمكنه من لحام «جميع الحلقات المكسورة بين الخلق والمعرفة، بين الفن والعلم والخيال والإدراك... وهذا - كما يبدو بوضوح - هو النتيجة الاجتماعية والعملية لجهود الناقد» ولقد فسر فراي تفسيراً واضحاً مفصلاً الهدف النهائي الذي رمى إليه كوليردج بجهوده الواسعة التي لم تتم، بل إنه استطاع أن يصف - بطريقة أكمل مما فعل أرنولد - ما هي الوظيفة الاجتماعية الواجبة للنقد في العصر الحديث، وسبب ذلك أن فراي أتيح له أكثر مما أتيح لأرنولد من علم النفس وعلم الأجناس والقصص الأسطوري المقارن، كما أتيح له في مؤلفات بيتس وجوير وإيليوت؛ ما كان يدعو إليه أرنولد من إنتاج أدبي حديث كاف.

وتتساءل مع روبرت لانجباوم Robert Langbaum^(١)، إذا كان فراي مكتملاً لفكر كوليردج وأرنولد فما هو الجديد إذن في النقد الأدبي؟ الجديد - كما يقول - هو ذلك الكم الهائل من النظريات غير الأدبية التي تمكن الناقد الأدبي الحديث من تبرير وتطوير وتطبيق الأفكار البديهية الرومانسية الخاصة بوجود الخيال والخاصة بصدق ما يتصوره الخيال، وأهم هذه النظريات مستمد من ثلاثة ميادين من ميادين الفكر غير الأدبي: وأحد هذه الميادين هو النظرة

(١) كاتب مؤلف امريكي معروف، ومن أهم ما كتبه «شعر الخبرة».

الحالية إلى التاريخ التي ظهرت على يد هيجل، وهي النظرة القائلة إن العقل يتطور تطوراً تاريخياً وأن الواقع يتطور معه، وذلك لأن كل عصر يصنع صورة ذهنية لواقعه وكل عصر له نظرتة إلى الدنيا. وكلها صادق من حيث أن الصور الذهنية صادقة والأدب وهو أصدق تعبير عن هذه النظرات إلى الدنيا هو سجل للالهام التاريخي؛ وهو عند أتباع هيجل نهاية الإلهام.

والثاني وهو الدراسة المقارنة للأساطير القديمة في مؤلفات مثل «الغصن الذهبي» لفريزر، فبالكشف عن العناصر المشتركة بين مختلف الأساطير تبين هذه الدراسات أن جميع الأساطير صادقة كصدق الصور الذهنية وأن هذه الأساطير لها معانيها العميقة، وهكذا يستطيع الناقد الحديث أن يبرر التدوق الرومانسي لما هو بديع، والعقيدة الرومانسية القائلة بأن هناك شيئاً عميقاً في كل ما هو بديع، وإن كان الرومانسيون لم يستطيعوا دائماً أن يقولوا ما هو هذا الشيء...

والثالث والأهم هو اكتشاف فرويد - وهو في الواقع تسمية أكثر منه اكتشافاً - للعقل الباطن وتحليله له، فحين جعل فرويد من العقل الباطن شيئاً يتناول الإدراك... شيئاً عاملاً... فإنه يعزز ما يقول به الرومانسيون من أن العقلين جعلوا الإنسان مجرد جزء من عقله. فالخيال هو الاسم الذي أطلقه الرومانسيون على العقل البشري وهو يعمل، وقد يقال إن الشعر الرومانسي يتخصص في إعطائنا بالخيال إحساساً بالجانب المستتر من العقل، ولكن نقاد القرن الماضي لم تكن لديهم المفردات اللغوية التي تمكنهم من أن يقولوا الكثير عن هذا الجانب المستتر. وإنما كانوا يستطيعون الاستجابة بالحس لوجوده في الشعر ويتحدثون بعد ذلك عن هذه الاستجابة، أو كانوا بعبارة أخرى يمارسون النقد الانطباعي كما فعل أرنولد وكما فعل بيتر من بعده.

الفصل الثاني

الرسالة الإبداعية

أما العنصر الثاني في التفسير الإعلامي للأدب فهو:

يقول ماذا؟

ويقصد به «الرسالة الإبداعية» وما تنطوي عليه من «مضمون» وكيفية التعبير عن هذا المضمون وتحريره في رموز لتكوين «الرسالة» والمرسل يضع رسالته في شكل معين أو جنس أدبي معين وصيغة محدودة من الرموز أو الكلمات.

وفي هذا العنصر يفيد التحليل الإعلامي من المناهج والنظم التي تقررت فائدتها للنقد الأدبي، ومنها: العلوم الاجتماعية، فقد أفاد النقاد من التحليل النفسي وعلم النفس الجماعي، والتجريبي والأكلينيكي وعلم النفس الاجتماعي، واستعار النقد من علوم الاجتماع المتزاحمة، كما يقول «ستانلي هايمن»: نظريات ومقومات عن طبيعة المجتمع والتغير الاجتماعي وصلة هذه بالأدب والظواهر الثقافية الأخرى. كما يفيد من المذاهب الأنثروبولوجية والفولكلورية والدراسة الأدبية والدراسات القديمة في اللغويات وفقه اللغة والدراسات الدلالية الحديثة. وكذلك العلوم الطبيعية والحيوية والفلسفة.

وحين يضيف المنهج الإعلامي هذه المناهج إليه في دراسة «الرسالة الإبداعية» وما حولها من عناصر، فإنه ينظر إلى العملية الإبداعية نظرة متكاملة، فالفنان العظيم - كما يقول مالرو هو «ذلك الكيماوي الساحر الذي اهتدى أخيراً إلى السر في صناعة الذهب، وإن كان لا يصنع الذهب - بطبيعة

الحال - من أي شيء كائناً ما كان، فليس الفنان من العالم بمثابة الناسخ أو الناقل، بل هو منه بمثابة المنافس أو الخصم المناضل.

ولعل التفسير الإعلامي بالقياس إلى هذا التشبيه، هو المنهج الذي يوضح التجربة الإبداعية ويجلوها. مفيداً، من منهج الإعلام الذي يعتمد الفروض والملاحظة وإجراء التجارب والقياس، إلى جانب الفكر النظري والتأملات الحضارية، وهناك دراسات تجريبية عديدة ركزت على عنصر «الرسالة» نفيد منها في تفسير الأدب، مثل الدراسة التي أجريت حول تركيب عرض الموضوعات ذات الزوايا المختلفة ووجهات النظر المتعددة. والدراسة التي أجريت حول أثر المواد المعارضة للقضايا بعد الاقتناع بها. كما نفيد من دراسة «هوفلاندو فايس» الإعلامية حول أثر المرسل في الإقناع ومدى تأثير الثقة به في الوصول إلى الهدف، ثم دراسة «جانيس وفيشياخ» حول المضمون وأثره في الجماهير.

وهذه الدراسات في مجموعها تدرس الأجزاء أو العناصر التي تؤلف في مجموعها العمل الأدبي، وكيف ترتبط سوياً، وعلى أي نحو تسهم في القيمة الجمالية للرسالة وهذه العناصر هي التي يتركب منها كيان الرسالة الإبداعية مادة وشكلاً وتعبيراً.

أما المادة «فتدل على «قوالب البناء» الحسية التي تتركب منها الرسالة الإبداعية - من أصوات وألفاظ، إلخ. وفي الرسالة الإبداعية ترتب هذه القوالب وتنظم على نحو معين - هو «شكل الرسالة». غير أن الرسالة الإبداعية أكثر من مجرد ترتيب لعناصر مادية. فعندما ندركها جمالياً، نجدها تنطوي على انفعالات، وصور وأفكار، ونجد في الشعر «حزناً» وفي الرواية «تشاؤماً» وهناك عنصر آخر يوضح في بعض الأعمال الفنية وإن لم يكن في كلها. وقد أسماه جيروم ستولنيتز - بموضوع العمل الفني Subject matter أي الموضوعات والحوادث التي تصور في الفن التمثيلي كالدراما والتصوير التقليدي^(١) والمقصود من تحليل بناء الرسالة الإبداعية أن يصدق على كل

(١) جيروم ستولنيتز: (ترجمة د. فؤاد زكريا): النقد الفني ص ٣٢٢، ٣٢٥.

فن - وعلى ذلك فلا مفر كما يقول ستولنيتز - من أن يكون التحليل على مستوى عال من العمومية وأن تختار نفس ألفاظ «المادة» و«الشكل» و«التعبير» لتتسم بالشمول الشديد فهي «مقولات» أي أنها تصنف أوجه الشبه بين عناصر مختلف الموضوعات الأدبية وعلى ذلك فليست المقولات الثلاث بديلاً عن الدراسة التجريبية للعمل الفني، وما كان يمكن أن تكون كذلك، إذ أنها أكثر تجريداً من أن تسمح بهذا. ولابد لنا من أن نكسوها لحناً، بأن نتيين ما هي الأمثلة الخاصة بالمادة والشكل والتعبير التي تتمثل في الأعمال الفردية. فالمقولات معالم إرشادية للتحليل الفني. وهي توضح طريقة إجراء التمييز بين عناصر العمل. ولكن لا يمكن استخدامها على نحو مثير إلا وهي مقترنة بما لدينا من معرفة من الفنون الخاصة. وما الهدف من تحليل البناء الفني، شأنه شأن التفكير النظري الجمالي عامة سوى توضيح المفاهيم التي نستخدمها عند الكلام عن الفن^(١). فهو إذن معين لا غناء عنه. بالنسبة إلى التفسير الإعلامي للأدب. ومع ذلك فهو لا يدعي سوى أنه الخطوة الأولى في عملية تحليل القصائد والقصص والروايات والمسرحيات... إلخ.

ومنذ بداية هذا البحث، سنجد أن العلاقة المتبادلة بين مقولات الأدب تبلغ من الوثوق حداً يسترعي النظر بحق، ذلك لأننا سنبدأ بأبسط العناصر. وأكثرها أولية - وهو «المادة» المحسوسة للرسالة الإبداعية. ومع ذلك فإن نفس معنى هذا اللفظ يؤدي بنا إلى التفكير في «الشكل». فاللفظان مرتبطان إذ أننا نجد المادة قائمة بذاتها أبداً، بل إن لها على الدوام شكلاً ما. فالعناصر المحسوسة للعمل تنظم دائماً على نحو ما. حتى لو كان الشكل يفتقر إلى الوضوح والانتظام، وعلى العكس من ذلك، فإن الشكل يتعلق على الدوام بمادة ما؛ ومن هنا كان الشكل ذو الدلالة «عند» بل Bell ترتيباً للخطوط والألوان وما إليها^(٢).

كذلك تظهر العلاقة المتبادلة بين المادة والشكل حين نظر إلى المادة على

(١) جيروم ستولنيتز: (ترجمة د. فؤاد زكريا): النقد الفني. ص ٣٢٢، ٣٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٥.

نحو آخر، فعندما يأخذ الأديب على عاتقه عملية الإبداع، لا تكون الرسالة من خليط من المناظر والأصوات اعتباطاً، بل إن أحجار بناء العمل تكون قد نظمت بالفعل في نمط ثابت - هو الوسيط الفني Medium وأوضح أمثلة الوسيط الفني هو السلم الموسيقي إذ لا يوجد في الفنون الأخرى فن يستطيع أن يفخر بأن الوسيط أو «الوسيلة» التي يستخدمها تتسم بها القدرات من التنظيم الدقيق المحدد المعالم^(١).

وعلى ذلك. فإن «مادة» العمل الفني تتألف من العناصر الحسية، التي قد تكون بصرية وسمعية، والتي اختيرت من الوسيط أو «الوسيلة». هذه العناصر في مجال الموسيقى هي الأنغام والأعمدة التوافقية Chords والسكون وعليها ألا ننسى هذا الأخير. إذ أنه بالطبع من أكثر الوسائل الموسيقية فعالية^(٢).

ويظهر أن هذا المعنى الذي انتهينا إليه في تفسير الأدب لا يزال يستثير فضول القارئ ويتطلب شيئاً من الإيضاح والتفصيل. فقد كان الأدب في أخص معانيه يطلق على المأثور من الشعر والنثر وما يتصل بهما. فما شأن هذه اللذة الفنية؟ وما شأن هذه المعاني التي تثير العواطف وتهز المشاعر؟

والواقع أن نظر النقاد العرب في مزايا الأدب وخصائصه إنما كان ينصرف إلى اللفظ والمعنى، فهما عنصرا الأدب وعموداه، وبلاغة الكلام عندهم في لفظه أو معناه أو كليهما، وتستطيع أن ترجع إلى ما كتبه ابن قتيبة في مقدمة كتابه عن ضروب الشعر مما حسن لفظه أو جاد معناه أو جمع بينهما أو خلا منهما.

وربما كان عبد القاهر أوسع هؤلاء النقاد مدى وأبعدهم قدراً وأوفرهم ذوقاً وأدقهم ملاحظة، وبحسبك أن تقرأ ما كتبه ابن قتيبة هذا في موضوعه المذكور عن قول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

(١) المرجع السابق ص ٣٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٧.

ثم تقرأ ما كتبه عبد الفاهر عن هذه الأبيات^(١)، لتعرف إلى أي حد استطاع أن يحللها إلى العناصر الأدبية التي حددها وسماها النقاد المحدثون في الأمم الغربية.

أما هذه العناصر أو الأركان أو المقومات في رأي النقاد المحدثين فأربعة:

أولاً: العاطفة أو التجربة الشعرية:

وهي الحالة التي تشبع فيها نفس الأديب بموضوع أو مشاهدة وتؤثر فيها تأثيراً قوياً يدفعه إلى الإعراب عما يحس به... وهي من أهم عناصر النص الأدبي التي تميزه من النصوص العلمية وغيرها من الأخبار العادية والصحافية، بما تظهر من شخصية الأديب، وتصور من ذوقه ومزاجه وفكره وروحه، وبما تكسبه للأدب من صفة الخلود.

فالنص الأدبي يمتاز بتردد الناس على قراءته وحرص القارئ على الرجوع إليه ليغذي فكره وشعوره. تقرأ مثلاً مرثية أبي العلاء:
غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

فتثير في نفسك عاطفة الأسى والحزن، وتنقل إليك إحساس الشاعر وتأثره الذي تشبعت به نفسه ومزاجه وروحه وتفكيره ونحو ذلك من عناصر شخصيته. ثم تترك القصيدة إلى أن تدعوك الدواعي لإثارة هذه العاطفة في نفسك بوفاة صديق مثلاً فتعود إلى مبعثها عند أبي العلاء المعري فتقرأ قصيدته لتظفر مرة ثانية بهذه اللذة النفسية وهكذا دواليك.

وأما النظريات والمسائل العلمية فإنها على ما تحوي من حقائق خالدة قابلة للنسخ في صور وأساليب أخرى أو الإعراض عنها ونسيانها. كما أن الشخصية معدومة فيها وإن ظهرت فليست في قوة الشخصية الأدبية ووضوحها.

(١) أسرار البلاغة (١٤ - ١٧) طبعة المنار.

ونقاد الأدب المثالي يشترطون في العاطفة الصدق، فالغزل المصطنع في شعر البحري وأبي تمام والمنتبي مثلاً حسن الرصف والوصف، ولكنه دون غزل جميل، والعباس بن الأحنف، وابن زيدون وسواهم من الشعراء المحبين، لأنه خال من العاطفة الصادقة التي تمس القلب وتلذه، إذ تثير فيه شعور المحبين. وكذلك يشترطون استواءها في النشاط؛ قالوا إن شاعراً رثى المتوكل بقوله: (مات الخليفة أيها الثقلان) فقالوا: جيد؛ نعى الخليفة إلى الجن والإنس في نصف بيت؛ ثم قال: (فكأنني أفطرت في رمضان) فضحكوا منه؛ لانقطاع عاطفته وعدم استوائها في الشاعرية.

ثانياً: الحقيقة أو الفكرة:

وهي عماد العاطفة؛ فهي لا تحيا دون الاعتماد على حقيقة من الحقائق. وإلا فكيف نأسى ونحزن إذا لم تكن هناك حقيقة مرة هي فكرة الموت وسلطانه؛ وعظمة البلى وآثاره، وعناء الحياة ومهزلتها في مرثية أبي العلاء. وكيف نتلظى حسرة وأسفاً إذا لم نستشعر الحقيقة الواقعة في أن الأيام تعبت بنا وتفقدا حياتنا فلا نستردها ولا نعود إليها في قوله:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تخطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
إن الأدب الذي يخلو من الحقائق سخف وعبت لا يليق بالعلاء.

ثالثاً: الخيال:

وهو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة: وإنما يمتاز الأدب بقدرته على عرض الأشياء بأشكالها وألوانها كالرسم والتصوير؛ ليشير العاطفة ويلهبها؛ وقد رأيت خيال المعري في تصويرنا بالزجاج الذي لا يعاد له سبك. وتصوير الأيام في صورة المحطمة العابثة، وإن شئت فاقراً قول البحري في رثاء المتوكل:

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه وإذ دعرت اطلاؤه وجأذره^(١)
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل أستاره وستائره

(١) السرب: الجماعة من الطيور أو الوحش أو الإنسان. الأطلاء: جمع طلا وهو ولد الطيبة ساعة بولد. الجأذر. جمع جؤذر وهو البقرة الوحشية. دعر: ريع وأخيف والمراد نساء القصر.

إنه لا يأمر بالحزن والغضب؛ ولا يجلجل بفداحة الخطب وجلل المصاب، بل يسلك طريق التصوير المؤثر؛ فيعرض علينا صوراً أليمة تثير غضبنا فنغضب كما غضب؛ وتهز مشاعرنا فنحزن كما حزن. وكذلك فعل المعري في مراثيته من عرض صور الأصوات والأجسام والقبور والنجوم وغيرها حتى أبكى الناس.

رابعاً: العبارة أو الصورة أو الأسلوب:

وهي الأداة التي تنقل ما في نفس الأديب إلى غيره ليشعر بما شعر، ويحس بما أحس؛ في نفسه الحقيقة تسيطر عليها العاطفة ويصورها الخيال، فما الذي ينقل هذه العناصر النفسية ويذيعها غير العبارة أو (نظم الكلام) والعبارة عنصر هام من عناصر الأدب بل هو أهمها في رأي بعض النقاد، لأن القدرة على إثارة العواطف - التي هي وظيفة الأدب - إنما تعتمد اعتماداً قوياً على جمال العبارة ووفائها بحق الخيال والعاطفة والحقيقة، بحسن/بسبكها وتأليفها وكونها مرآة صافية آمنة لما في نفس الأديب، تلائم موضوعه رقة وعذوبة؛ أو ضخامة وفخامة... ويعتمد الشعر بنوع خاص على الموسيقى الداخلية التي مصدرها الألفاظ؛ إلى جانب موسيقى الوزن والقافية وهي موسيقى لا يمكن تحديدها. لأنها تعتمد على الذوق الفني الرفيع... ولاشك أن الصياغة بمثابة الجسم والعاطفة بمثابة الروح. فإذا كان الجسم قوياً أضفى على الروح قوة وجمالاً.

هذه هي عناصر الأدب عند المحدثين^(١)... اقرأ قول المتنبي:

طلبته موعلى الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب
يهز الجيش حولك جانيه كما نفخت جناحيها العقاب

فقد ملأت نفسه بعاطفة الهيبة والإجلال نحو ممدوحه، فأراد أن ينقل هذا الإحساس إلى نفوس السامعين بتصوير عظمته وهيئته، فاعتمد على الخيال في تولين الفكرة لإثارة النفوس، وإلهاب العواطف حتى تستشعر سلطانه وبأسه على الأعداء، فالسحاب يخشى أن يفتشه، وهو يمشي كالعقاب

(١) راجع كتاب اصول النقد الأدبي للشايب.

في وسط جيشه الذي يهتز جانباه من حوله قوة وبأساً كجناحي العقاب، وأدى ذلك في لفظ قوي ضخم يلائم العظمة والقوة والإرهاب.

واقراً قول أبي المتاهية:

أنته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

لتجد الخليفة الجدير بالخلافة، وقد طلبته الخلافة وسعت إليه، تجرر أذيالها في اختيال، وتسرع إليه في انقياد، وهكذا يعمل الخيال عمله في تصوير الحقائق وتلوين الأفكار.

واقراً للبحري:

شواجر أرماع تقطع بينها . شواجر أرحام ملوم قطوعها
إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

فقد استطاع أن يشعرنا بالحسرة التي استولت على نفسه من قتال ينشب بين الأقارب يعقب الندامة والأسف، فهذا هو عنصر العاطفة، وقد أثارتها في نفوسنا تلك الصورة المحزنة لهذه الرماح المشتجرة التي تقطع الأرحام، وهذه الدماء التي تريقها الحرب والدموع التي تسكبها الندامة. وهذا هو عنصر الخيال الذي يقوم على الفنون البيانية من تشبيه واستعارة ونحوهما، أما عنصر الحقيقة فهو القتال الذي وقع بين حيين متقاربين... وأخيراً هذا الأسلوب الجميل الذي عرض فيه البحري خواطره وصوره هذا العرض البديع، هو العنصر الرابع.

وتستطيع أن تتناول حقيقة مصلوب معلق في الهواء فتتخيل في هذه الحقيقة ما تخيله الأنباري في رثاء مصلوب، فتثير ما شئت من عاطفة الرثاء أو الإعجاب كما أثارها وتقول معه:

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوق قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات

فهذا هو الأدب: فن الإبانة عما في النفس من أحاسيس وانفعالات

وتسجيل صور الحياة ومظاهر الكون تسجيلاً يثير في نفوس الناس لذة فنية ومتعة شعورية.. وهذه هي مقاييسه في نظر النقاد المحدثين على ضوء مذاهب النقد الحديثة التي ستعرض لها قريباً... يقول الراجعي: «في عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافاً إليها الفن، ويجيء التعبير مزيداً فيه الجمال. وتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها ورنينها الموسيقي، وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المذهب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى الذي هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معاً. وبهذا يهب لك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالندى وأحداثها مارة من خلال نفسك، وتحس الأشياء وكأنها انتقلت إلى أنك من ذواتها...».

وأدب اللغة العربية هو ماثور شعرها الجميل ونثرها البليغ المؤثر في النفس المثير للعواطف، وما يتصل به مما يعين على فهمه وتذوقه ونقده من لغة وأخبار وأيام وأنساب ونحو ذلك مما قد تمس الحاجة إليه في فهم الأدب. كالإلمام بأطراف من الفلسفة ومذاهبها والفلك والعقائد والنحل، فإن مثل هذه الألوان من المعارف تتردد كثيراً في النصوص الأدبية كما في شعر أبي العلاء والمتنبي وغيرهما. والأدب صورة الحياة ومرآتها، تتمثل فيه جوانب النهضة، ومظاهر المدنية، وأدوات الحضارة، وألوان الثقافة، ومرافق الحياة، ونوازع النفوس لكل أمة من الأمم في كل عصر من العصور. ولهذا يقول ابن خلدون: «الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف»^(١).

ويقول ابن قتيبة: من أراد أن يكون عالماً فليلتزم فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم.

وعلى هذا النحو نجد أمهات الكتب الأدبية كالأغاني والأملالي والكامل والعقد الفريد والبيان والتبيين.

(١) المقدمة ٤٨٨ - ويلاحظ أن هذا ليس تعريفاً للأدب بمعنى هذه النصوص التي ندرسها وننشئها وإنما هو في الواقع تعريف لما يسمى التأديب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الأدب وفهمه ونقده.

تاريخ أدب اللغة ونشأته :

١ - كان منهج المؤلفين من أدباء العربية في كتبهم ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء، ورواية آثارهم الأدبية، ونقدها أو شرحها وتحليلها، وقد يوازن بينها وبين غيرها من الآثار، مع الإلمام ببعض أصول الأدب والشعر، ونحو ذلك مما تجده ماثلاً مفرقاً في كتبهم الكثيرة، أو مجتمعاً قليلاً في بعض الكتب، وقد برزوا في هذه النواحي تبرزاً قوياً ظهر في كتبهم، كوفيات الأعيان لابن خلكان، وفوات الوفيات للكتبي، وبغية الوعاة للسيوطي. ومعجم الأدباء لياقوت، وفي الأغاني لأبي الفرج، وبتيمة الدهر للثعالبي. وقلائد العقيان للفتح بن خاقان، ونفح الطيب للمقري، والعمدة لابن رشي. والمثل السائر لابن الأثير، والمقدمة لابن خلدون، والموازنة للأمدى وغيرها.

غير أن ما في هذه الكتب لا يعدو - في الجملة - أن يكون أخباراً مفردة غير مرتبطة، لا تحدد عسراً من العصور، ولا تصور الحياة الأدبية قوة وضعفاً في زمن من الأزمنة، ولا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصنعة والمذهب، ولا تذكر ما عرا النثر والنظم من تحول وتفلت فهي أدب لا تاريخ.

٢ - وجاء المستشرقون فجمعوا هذه المسائل المفرقة، واستمدوا منها أصولاً أعانتهم على بحث تاريخ أدب العرب على ضوء بحوثهم في تاريخ آدابهم فقد بحثوا عصور الآداب العربية، وردوا إلى كل عصر آثاره الأدبية، وحللوها المؤثرات العامة التي أثرت في كل فترة قوة أو ضعفاً، وعنوا بدراسة أعلام الأدب وبيان مذاهبهم، وما يكون من تأثير القديم في المحدث، وما يكون من المشابهة والفروق التي تباعد بين الشعراء والكتاب أو تقرّبهم، وغير ذلك من الدراسات التي لم يعهدها أدباء العرب والتي نسميها نحن الآن «تاريخ الأدب العربي».

فتاريخ أدب اللغة إذن علم يبحث عن أحوال اللغة وآدابها، ويصور ما يختلف عليها من رقي وانحطاط في مختلف العصور والأطوار، ويعنى بتاريخ

الناهين من أهل الصناعتين، ونقد مؤلفاتهم، وتأثير بعضهم في بعض بالفكر والصناعة.

وهو إذن علم حديث النشأة، ابتدعه الإيطاليون في القرن الثامن عشر، وعني به المستشرقون في القرن التاسع عشر، وقد ظل مجهولاً في الشرق حتى اشتد اختلاطه بالغرب فكان أول من نقله إليه المرحوم الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه في دار العلوم.

ثم تتابع المؤلفون على هذا النهج كالاسكندري في الوسيط وجورجي زيدان في (تاريخ آداب اللغة العربية) والرافعي في (تاريخ آداب العرب) والزيات في (تاريخ الأدب العربي) وغيرهم من أساتذة الجامعة والأزهر.

أما كتابا (الوسيلة الأدبية) للمرصفي، و(المواهب الفتية) لحمزة فتح الله، فهما على نهج الكتب القديمة، وهي كما ذكرنا من كتب الأدب لا من كتب تاريخ الأدب. لأن الأدب كما رأينا هو نفس النصوص الشعرية والنثرية. وتاريخه هو العلم الذي يبحث في أحوال هذه النصوص وأطوارها والعوامل السياسية والاجتماعية والإقليمية التي أثرت فيها.

وهكذا نرى تاريخ الأدب يتصل بالتاريخ العام من حيث حاجة كل منهما إلى الآخر. فالتاريخ السياسي يحتاج إلى تاريخ الأدب في استظهار بعض الصور الأدبية التي تتصل بالأخلاق مما يعينه على تحليل التقلبات السياسية ونحوها. والتاريخ الأدبي يحتاج إلى التاريخ السياسي في استنباط الصورة الأدبية الصحيحة بما يعرضه الأخير من النظم السياسية والاجتماعية المؤثرة في الأدب وفي حياة الأديب أو الشاعر، فكلاهما متأثر بالآخر ومؤثر فيه.

هذا ومؤرخو الأدب يقسمون عصور تاريخ الأدب إلى أقسام، حسب الخصائص الفنية لكل مجموعة من الآثار الأدبية متأثرة بمؤثرات خاصة من النظم الاجتماعية والسياسية والدينية، وهذه الأقسام هي: العصر الجاهلي ويقدرونه بقرن ونصف قبل الإسلام، وعصر صدر الإسلام من البعثة إلى سنة ٤١هـ. والعصر الأموي من ولاية معاوية سنة ٤١هـ إلى سنة ١٣٢هـ،

والعصر العباسي من سنة ١٣٢هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ، ثم عصر الدول المتتابعة حتى زمن محمد علي سنة ١٢٢٠هـ. ثم عصر النهضة الحديثة من محمد علي إلى اليوم.

وهذا في الواقع تقسيم تقريبي مبني على مسaire اللغة العربية للانقلابات السياسية والاجتماعية، إذ الواقع أن هذه العصور متداخلة، نظراً لأن هذه المسيرة تكون بطيئة وتأثر الأدب بهذه الانقلابات يكون تدريجياً، بعد أن تتشبع نفوس الأدباء بالأحداث الجديدة.

الأدب الانشائي:

هو ما تعبر به من شعر أو نثر عما تحس به من الخوالج والعواطف والخواطر نحو الطبيعة، سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها في نفسك وتجسدها في قلبك، متمثلة في عواطفك وميولك وأهوائك، أم خارجية تراها في الجبال والبحار والسماء والنجوم والرياض والأحداث المختلفة. فإذا هزك منظر من مناظر الطبيعة، أو راقك مشهد من مشاهدها، أو اختلجت نفسك بعاطفة من عواطف الحب أو البغض أو الرثاء أو الازدراء، وصورت ما أحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع، فإن هذا التصوير الذي يتمثل في شعرك أو نثرك يسمى أدباً إنشائياً، لأنك أنشأته بعد أن لم يكن، وارتجلته مقلداً به الطبيعة التي يظهر ابتئاسها وغضبها مثلاً في عصف الريح وقصف الرعد واضطراب البحر، ويتجلى ابتسامها ورضاها في ضوء الشمس وعرف الزهرة وتغريد الطائر.

وإذن فموضوع الأدب الإنشائي للطبيعة داخلية أو خارجية.

الأدب الوصفي:

أما الأدب الوصفي فهو ما يتناول القصيدة أو الرسالة من الأدب الإنشائي بالوصف والنقد والتقريض، فيثني عليها ويطنرها إن رضي عنها، وينقدها ويعيبها إن سخط عليها. فهذا النقد أو التقريض لا يصور الطبيعة تصويراً مباشراً، ولا يصور تأثر صاحبه بها، وإنما يصف الكلام الذي قيل في

تصوير الطبيعة: فموضوعه إذن هو الكلام لا الطبيعة، هو القصيدة التي تصور البحر لا البحر نفسه.

فالأدب الوصفي إذن هو الذي نسميه نقداً، ولا شك أنه وجد بعد الأدب الإنشائي، وتستطيع أن تدخل فيه تاريخ الأدب، إذ كان مما يعالجه هذا التاريخ الموازنة والخصائص الفنية ونحوها.

وبهذا تستطيع أن تقسم الأدب الوصفي إلى قسمين: أحدهما النقد الذي يبين ما يمتاز به الأدب الإنشائي من المحاسن والعيوب، والآخر تاريخ الأدب وقد عرفت مهمته في بيان أحوال الأدب وأطواره.

الأدب الذاتي والأدب الموضوعي:

الأدب الذاتي هو الذي يعبر فيه الأديب عن خواطره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته. فالشعر الغنائي - وهو قسم التمثيلي والقصصي - من الأدب الذاتي لأن الشاعر يتغنى فيه بعواطفه الذاتية وخواجه النفسية وآماله وآلامه، وليس معنى هذا أنه مجرد من الصبغة الموضوعية، بل معناه أن الصفة الذاتية هي الراجحة فيه.

والأدب الموضوعي هو ما لا يعبر به الأديب عن عاطفته أو ميوله الخاصة، ولا ينطق بلسان نفسه، وإنما يعبر به عما يجول بخواطر غيره فالأدب التمثيلي والقصصي من الأدب الموضوعي، لأن الشاعر أو الكاتب إنما يعبر فيهما عما يجول بخواطر الأشخاص الذين يتحدث عنهم، ويعبر عن آرائهم وينطق بلسانهم، فهو كالمؤرخ يسرد الحادث التاريخي في أسلوب بليغ دون أن يصيغ عباراته بنزعته وميوله وآرائه الخاصة.

وفي مجال الأدب يكون الوسيط أو الوسيلة المستخدمة في الاتصال بالجمهور هي الألفاظ، ولذلك فإن موضوع العلاقة بين اللغة والأجناس الإعلامية يتطلب نوعاً من الاتفاق حول المصطلحات الأساسية، وربما يعن لنا أن نصطنع هنا المنهج الذي يصطنعه علماء اللغة اللسانية^(١) عندما يفترضون

(١) د. عبد الحميد يونس: اللغة الفنية في عالم الفكر ص ٣٦.

وجود أصول مشتركة لجميع أو معظم اللغات اللسانية التي يتوصل بها الناس إلى الإبانة عن أنفسهم والاتصال بغيرهم، وهم يتصورون أن هناك سلالات لغوية وأن كل سلالة إنما انحدرت عن أصل اطلقوا عليه مصطلح اللغة الأم^(١) وعلى هذا النهج يستطيع الدارس لعلاقة اللغة بهذه الأجناس الإعلامية أن يفترض أيضاً وجود لغة يمكن أن تعد بمثابة الأم لجميع الفنون التي استوعبتها الحضارة.

وإذا كنا قد ذهبنا إلى أن الوظائف الإعلامية هي التي خلقت الوسائل أو الأجناس الإعلامية، فإننا نستطيع أن نطرح هنا قانوناً إعلامياً يذهب إلى أن اللغة هي الجنس الإعلامي، ذلك أن كل جنس أو وسيلة من وسائل الإعلام أثار كل منها أملاً أو أثار سخطاً. على حد تعبر «بارنو»^(٢) وأصبح كل منها وسيلة للتأثير ذات قوة وسيطرة على عقول الناس. ولكن هذه القوة واحدة بينهما جميعاً، ذلك أنها ليست كامنة في الوسيلة ذاتها وإنما في النزعات المغمورة في أعماق الناس^(٣)، والتي يعبر عنها باللغة الإنسانية.

جاءت وسائل الإعلام فأظهرت تلك النزعات لكنها لم تخلقها، كما أن مصدر هذه القوة نفسه متاح لهذه الوسائل جميعاً. وإذا كان المصدر واحداً فإن الأساليب مختلفة، لأن لكل جنس إعلامي أسلوبه وخصائصه، الأمر الذي يجعل الرسالة الإعلامية ليست مضموناً فحسب... «فن تطبيق الكلام المناسب للموضوع وللحالة وللوسيلة الإعلامية على حالة المستقبل»، فاللغة في كل وسيلة من وسائل الإعلام تتميز بطبيعة جنسها الإعلامي الذي ينحو نحو اختيار اللغة والأسلوب والبلاغة. ولذلك فإن لغة الجنس الصحفي لها خصائص تتميز بها عن لغة الجنس الإذاعي المسموع مثلاً وليس ثمة تعارض بين الأجناس الإعلامية، فالجنس الإذاعي المسموع لم يقض على الجنس الصحفي المقروء، وقد أثبتت دراسات عديدة أن الاستماع إلى الراديو

(١) د. عبد الحميد يونس: اللغة الفنية في عالم الفكر ص ٣٦.

(٢، ٣) د. عبد الحميد يونس: اللغة الفنية في عالم الفكر ص ٣٦.

لا يتنافس بالضرورة مع قراءة المادة المطبوعة وإن كان يتكامل معها، فاللغة في كل وسيلة أو جنس إعلامي تختلف باختلاف القدرة الإقناعية لهذه الوسيلة أو ذاك الجنس الذي له إمكانيات وخصائص ومميزات.

ويقول الجاحظ عن النبي عليه الصلاة والسلام «أنه لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعظة. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسدل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ»^(١).

وتأسيساً على هذا الفهم يذهب الجاحظ إلى أنه «إن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ ألفاظ المتكلمين إذ كانوا لتلك العبارات أفهم وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحسن وبها أشغف ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقبوة لكل تابع ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس وليس وفرقوا بين البطلان والتلاشي وذكروا الهزية والهوية والماهية وأشبه ذلك... وإنما طارت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني».

ولعل دراستنا في البرهان تثبت أنها كانت أول دراسة علمية للاتصال وألوانه وفنون تحريره ففيه دراسة للمنظوم والمثنو والخطابة والترسل وأدب الجدل وأدب الحديث، وفيه دراسة لخصائص الرسالة الاتصالية كالتشبيه واللمح والرموز والوحي والاستعارة والتقدم والتأخير وقلة التكلف والمشكلة

(١) البيان والتبيين ١/١٧.

في المطابقة، ولقد تميز البرهان بدراسة الوسيلة أو «قناة الاتصال» من حيث ارتباطها بالرسالة حين تحدث عن البيان باللسان و«البيان بالكتاب» وبذلك يكون قد أجهل الحديث عن الاتصال الذي لخصه «لازوبل» في قوله المأثور من - قال ماذا - في أية قناة - لمن - ما كانت النتيجة والأثر؟ ذلك أن الاتصال كما يقول «شرام» - يحاول إقامة مشاركة مع المستقبل، فالمرسل يحاول توصيل معلوماته أو مشاعره التي يحولها إلى كلمات مسموعة: (بيان باللسان) أو مكتوبة (بيان بالكتاب) على حد تعبير ابن وهب. فالوسيلة هي المنهج الذي تنقل به الرسالة من المرسل إلى المستقبل، فكما يتطلب انتقال الصوت من مصدره إلى أذن المستمع وسيطاً تنتقل فيه الموجات الصوتية، كذلك يتطلب انتقال الرسالة من المرسل إلى المستقبل أو بالعكس وسيلة ما تسمى أحياناً قناة. ومن هذه الوسائل أو القنوات اللغة اللسانية والاشارات والرسم والتمثيل الخ... وتستخدم الاختراعات الحديثة مثل السينما والراديو والتلفزيون في توصيل الرسالة إلى عدد كبير من الناس^(١).

فاللغة وهي الرموز اللفظية المسموعة (البيان باللسان) والمكتوبة (البيان بالكتاب) من أهم وسائل الاتصال استخداماً وأكثرها شيوعاً، ولذلك ذهبنا إلى أن اللغة هي الوسيلة أو الجنس الإعلامي، ذلك لأننا لانستطيع بحال من الأحوال أن نفصل بين اللغة والوعاء الذي يحملها إلى المستقبل وقد تعرفنا على الارتباط الوثيق بين الرسالة والجمهور، وضرورة المشاركة بينهما، وهذا الجمهور هو الذي يستقبل رموز التحرير ويعمل على ترجمتها إلى آراء وأفكار.

ونستعير هنا تعبير «الأجناس الإعلامية» من دراساتنا في الأدب وبحوثه «فالأجناس الأدبية» بالفرنسية Genres Littéraires وبالألمانية Literarischen Gattungen وبالأسبانية Género Literario أما في الإنجليزية فلم يستقر التعبير Literary genres إلا أخيراً في أوائل القرن العشرين، وكان النقاد الإنجليز يستخدمون أحياناً كلمة Species Kinds أي أنواع أو أصناف، وكذلك الحال

(١) د. فتح الباب عبد الحليم والدكتور ابراهيم حفظ الله: وسائل التعليم والإعلام ص ١٠٩.

في بحوث النقاد في أمريكا ولا يزال بعضهم يستخدم مع الكلمة المستعارة من الفرنسية الكلمات الأخرى السابقة^(١).

وهذا التعبير في تصورنا من أكثر التعبيرات تصويراً لفنون الإعلام التي ترتبط بالوسائل الإعلامية المختلفة ارتباطاً لا انفصام له بحيث تغدو «اللغة هي الوسيلة أو الوسيط Medium».

وإذا كان هذا التعبير يصدق على الأدب فهو يصدق على الإعلام بالدرجة الأولى. ولقد كان نقاد الأدب اليوناني وعلى رأسهم «أفلاطون وأرسطو» ولا يزال النقاد في الآداب المختلفة على مر العصور، ينظرون إلى الأدب بوصفه أجناساً أدبية ونحن هنا ننظر لفنون الإعلام على أنها أجناس إعلامية أي قوالب عامة فنية تختلف فيما بينها - لا على حسب محرريها أو عصورها أو مكانها أو لغاتها فحسب - ولكن كذلك على حسب بيئتها الفنية وما تستلزمه من طابع عام يشتق أساساً من طابع الوسيلة الإعلامية ومقوماتها المميزة لها عن غيرها من الوسائل، وهو الطابع الذي يفرض نمطاً من التعبير مميزاً من حيث الصياغة التعبيرية الجزئية والتحرير الإعلامي العام الذي ينبغي ألا يقوم إلا في ظل الوحدة الفنية للجنس الإعلامي وهذا واضح كل الوضوح في الفن الإذاعي والفن الصحفي والفن المرئي في التلفزيون والسينما، بوصفها أجناساً إعلامية يتوحد كل جنس منها على حساب خصائصه مهما اختلفت اللغات والأشكال التي ينتمي إليها.

فالأجناس الإعلامية إذن صيغ أو قوالب فنية عامة ترتبط بوسائل الإعلام، وتقوم على أساس من هذا الارتباط مميزاتها وقوانينها الخاصة. وهي تحتوي على فصول أو مجموعات ينتظم خلالها الإنتاج الفني الإعلامي، على ما فيها من اختلاف وتعقيد. فالفن الصحفي يحتوي على فصول من التحرير مثل: فن الخبر الصحفي وفن الحديث الصحفي وفن المقال وفن التحقيق الخ، من شتى فنون التحرير وقوالبه في الصحافة. كما نجد أن الفن الإذاعي

(١) غنيمي ملال: الأدب المقارن ص ١٢٩.

يحتوي على مجموعات أخرى مثل: فن الخبر الإذاعي - الحديث الإذاعي التعليق - التمثيلية الإذاعية - البرامج الخاصة الثقافية.. الخ من الفنون التي تمثل في مجموعها جوهر «الجنس الإذاعي» في أجناس الإعلام، وهي الفنون التي ينطبق عليها بوصفها «رسائل» قانون اللغة هي الرسالة، وفي الأدب يحدث نفس الشيء تقريباً حيث يختلف مستوى «التعبير اللغوي بين الأجناس الأدبية على نحو ما نجد في الشعر من: ملحمة ومأساة وشعر تعليمي»^(١).

وتأسيساً على هذا الفهم، فعلينا أن نميز في قانون: «اللغة هي الوسيلة» بين الجنس الصحفي، والجنس الإذاعي، والجنس المسرحي في الأجناس الإعلامية على وجه الأجمال، وسنجد أن الجنس الإذاعي المسموع يمثل فيه الصوت مكان الرمز المدون في الجنس الصحفي، ويفتقد العنصر المرئي في الجنس التلفزيوني أو السينمائي، ولكننا في الأجناس الإعلامية نجد «مجمعا» للفنون إن صح هذا التعبير. فهي تضم في أعطافها حضارة بأسرها بما في ذلك العادات، والتقاليد، ومقومات الكيان الاجتماعي العام. ولكل جنس إعلامي مقوماته الخاصة وقوانينه، واستعدادات يتطلبها وفقاً لطبيعة وسيلة الإعلام التي ينتسب إليها، وطبيعة الفن الذي يتوسل به. وعلى هذا تشبه الأجناس الإعلامية إلى حد ما الكائنات والأجناس. على نحو ما هو معروف في التاريخ الطبيعي بأنها مجموعة من الأفراد تتفق في الصفات. بحيث يمكن وضع كل مجموعة تحت اسم خاص. وفي نفس الوقت تنفصل عن المجموعات الأخرى لما لها من صفات لا تتفق مع صفاتها الخاصة. وهكذا نجد أن الجنس الإذاعي مثلاً يتميز بمجموعة من الفنون الخيالية والواقعية الإعلامية والتعبيرية التي تتفق في الصفات العامة رغم ما بينها من فوارق لا تؤثر على طبيعتها العامة.

وإذا كان بوالو Boileau وغيره من النقاد في القرنين السابع عشر والثامن عشر قد ذهبوا إلى اعتبار الأجناس الأدبية قوالب جامدة وصوراً ثابتة غير

(١) نظرية الأنواع الأدبية لمؤلفه M.L' Abbé C. Vincent ترجمة د. حسن عون ص ٢٧.

متحركة تتكون في زمن ما من أجزاء متعددة، ولا تخضع في المستقبل لأي تغيير فإن ثورة الإعلام والدراسات المرتبطة بوسائله وفنونه وتأثيره دحضت هذا الاتجاه. ذلك أن الأجناس الإعلامية توجي دائماً بقبولها للتطور والرقى شأنها شأن الأجناس الحيوية، أو بعبارة أخرى فإن اللغة في كل جنس إعلامي تتميز بخصائص كل وسيلة. فاللغة في مستواها الصحفي مثلاً تسمح للقارئ بالسيطرة على ظروف التعرض الإعلامي، وقراءة الرسالة أكثر من مرة، فضلاً عن أن لديه فرصة تطوير الموضوع في مساحة أكبر، وفقاً لأهميته. وتشير التجارب إلى أن المواد المعقدة من الأفضل تقديمها مطبوعة عن تقديمها شفها، ولو أن نفس المزية لا تسري على المواد البسيطة السهلة ومن الأفضل استخدام التحرير الصحفي في مخاطبة الجماهير المتخصصة والجماهير صغيرة الحجم. لأنه يقتضي من القارئ جهداً أكبر من ذلك الذي يقتضيه التحرير في الأجناس الإعلامية الأخرى.

فالقارئ لا يحس بأنه شخصياً جزء من عملية التحرير الإعلامي، كما يشعر مستمع الراديو أو المشاهد للسينما. لأنه لا يشعر بأن الحديث موجه إليه شخصياً ولكنه في نفس الوقت جزء من العملية أو مشترك فيها أكثر، لأنه مضطر إلى المساهمة الخلاقة في نوع من أنواع الاتصال غير الشخصي. ويفترض بعض الباحثين أن مثل هذه المساهمة الخلاقة لها مزايا إقناعية^(١).

وتأسيساً على هذا الفهم يمكن القول أن اللغة في التحرير الإعلامي عن طريق الوسيلة تعني أن المستوى اللغوي لا يستقل عن تكنولوجية وسائل الإعلام ذاتها، فالكيفية التي يتم بها التحرير اللغوي في كل جنس على حدة تؤثر وتتأثر بمضمون تلك الوسائل.

وإذا كان الاكتفاء بدراسة العلاقة الواضحة بين اللغة والمحتوى الثقافي لا يعني شيئاً أكثر من أن اللغة لها أساس ثقافي أو حضاري كما يفعل علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع، فإن هناك الآن بعض العلماء يحاولون إثبات أن

(١) د. جيهان رشقي الأسس العلمية لنظريات الإعلام، ص ٣٤٢.

الشعوب التي تتكلم لغات مختلفة تعيش في «عالم من الواقع» مختلفة، وأن اللغات التي يتكلمونها تؤثر بدرجة كبيرة في مدركاتهم الحسية وفي أنماط تقليدهم، وأنها بذلك حسب تعبير «سابير» تكون هي العامل الأساسي في توجيه الحقيقة الاجتماعية أو الواقع الاجتماعي Social Reality الذي يعيش فيه الناس الذين يتكلمون تلك اللغات، فالناس لا يعيشون في العالم الموضوعي الخارجي وحده. كما أنهم لا يعيشون في عالم النشاط الاجتماعي فقط كما يظن الكثيرون من العلماء. وإنما هم خاضعون لرحمة اللغة التي يتخذونها أداة وواسطة للتعبير، فعالم الواقع والحقيقة يركز إلى حد كبير بطريقة لاشعورية على العادات اللغوية للجماعة، ولا توجد لغتان متشابهتان تشابهاً كافياً بحيث تعتبران ممثلتين لنفس الحقيقة، أو الواقع الاجتماعي، فالعالم الذي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم متميزة إذن وليست عالماً واحداً ألصقت عليه أسماء وعناوين مختلفة^(١).

وعلى ذلك ففي البلدان التي تعم فيها وسائل الاتصال يكون لدى المرشح السياسي فرصة كبيرة لمعرفة ما لم يعرفه الناس عن طريق هذه الوسائل، ومن دراسة عمليات السياسة دراسة دقيقة انتهى الرأي إلى أن وسائل الاتصال لا تغير تغييراً مباشراً في قرار نسبة كبيرة من الناخبين عمن تمنحه صوته، ولكنها ذات تأثير كبير فيما يتحدث عنه الناس في أثناء الحملة من شتى الوسائل فهي بتركيزها الانتباه على مسائل معينة دون غيرها تستطيع أن تجعل هذه المسائل دوراً أكبر تؤديه في الحملة الإعلانية. . . كذلك يهدف الكثير منها إلى تركيز الانتباه على صنف معين أو سلعة ما، يصدق هذا بنوع خاص في الحالات التي لا يوجد فارق كبير بين السلع المتنافسة اللهم إلا في الاسم. في مثل هذه الحالات أثبت الإعلان قدرة الوسائل الإعلامية على تركيز انتباه الجميع على اسم معين دون أسماء أخرى.

ويتميز الأدب إذن، بحمايته لوسيلة أو وسيط معين، فلديه وعي زائد

(١) د. احمد ابو زيد مجلة عالم الفكر - ابريل ١٩٧١

Sapir, E. Language, Harcourt Brace N.Y. 1921, pp. 21 30

بطابع الألفاظ، ونظراً لأن المادة ليست جامدة، بل هي نابضة حية، فإنها تعمل على توجيه مجرى النشاط الإبداعي «إنك لا تستطيع أن تصنع من الفخار نفس ما يمكنك أن تصنعه من الحديد الخام، إلا إذا كان ذلك غصباً وافتعلاً... فالإحساس الذي يبعثه العمل يكون مختلفاً كل الاختلاف... ذلك لأن المعدن يتحداك، ويستحثك... على أن تصنع منه شيئاً معيناً، حينما أحسست بتماسكه ومرونته^(١). وهناك قدر كبير من النشاط الخلاق مكرس لاستغلال الجاذبية الحسية للمادة، والاسترشاد بإيجاءاتها^(٢).

ولا تتمثل قيمة المادة في جاذبيتها للحواس فحسب، صحيح أن «مرآها» أو «تسمعها» يلذ لنا، ولكنها ليست كذلك فحسب، بل إن المادة «معبرة» وهنا أيضاً نجد أن الحديث عن أحد أبعاد الرسالة الإبداعية يؤدي إلى الحديث عن بعد آخر^(٣).

(٢٠١) جيروم ستولنيتز: نفس المرجع ص ٣٢٨.

(٣) ستولنيتز: نفس المرجع ص ٣٢٩.

Bernard Bosanquet: Three Lectures on Aesthetic (London Macmillan, 1923).

الفصل الثالث

لِمَنْ ... ؟

إن العنصر الثالث في التفسير الإعلامي للأدب هو عنصر «المستقبل» (لمن؟) من حيث تفسيره للرسالة الإبداعية وفك رموزها، وهنا تصبح الرسالة الإبداعية شائعة بين الجماهير المستهدفة والجماهير الأخرى أيضاً، وفي هذا العنصر يعني التفسير الإعلامي باستجابة المستقبل للأثر الأدبي ومدى تأثيره به وتقبله له. وهذا كله يتوقف بطبيعة الحال على مدى التناغم والتوافق بين المرسل والمستقبل. ويقول الدكتور إبراهيم إمام في كتابه «الإعلام والاتصال بالجماهير»: «إن المرسل إذا كان ضعيفاً في كتابته، أو غير واثق من نفسه، أو ليست لديه المعلومات الكافية عن موضوعه، فإن ذلك يؤثر على الاتصال، وإذا كانت الرسالة غير مصاغة بالطريقة الفعالة، فإنها تقف في سبيل نجاح الاتصال. كما أن الوسيلة نفسها لا بد وأن تكون من القوة والمرونة بحيث تصل الرسالة الإبداعية إلى المستقبل في الوقت المناسب والمكان المناسب، مهما حدث من تداخل أو تنافس مع الرسائل الأخرى، كما أن المستقبل نفسه وقدرته على حل الرموز بالطريقة المطلوبة من أهم العناصر لإتمام الدورة الاتصالية، فكفاءة المرسل وقدرته على معرفة الهدف والوصول إلى النتائج المطلوبة وإتقان الصياغة، وفعالية وسائل الاتصال، وقدرة المستقبل على حل الرموز، لا بد وأن ينظر إليها على أنها عناصر متعددة لعملية واحدة».

ذلك أن الميزة الرئيسية للأدب والفن بوجه عام - كما يقول تولستوي - إنما تنحصر في قدرته على محو شتى الفواصل بين الناس، لكي يحقق ضرباً من الاتحاد الحقيقي بين الجمهور والفنان. فإذا ما وجدنا أنفسنا بإزاء (عمل)

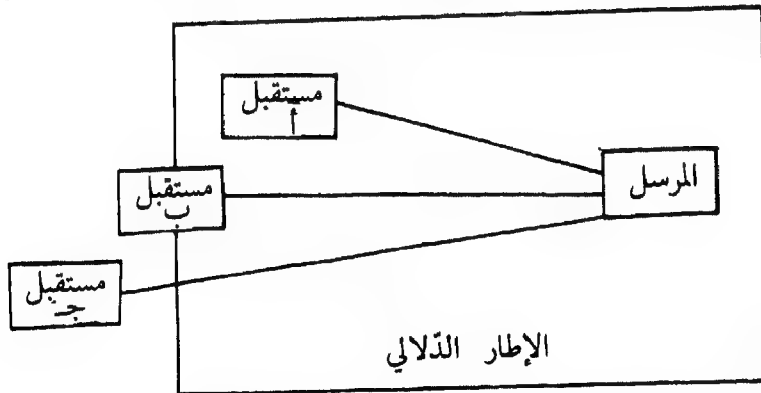
لا نشعر بأننا متحدون، مع صاحبه (مرسله) ومع غيره من الناس الذين يوجه إليهم هذا العمل، كان معنى ذلك أننا لسنا إزاء «عمل فني» بمعنى الكلمة، أما إذا شعرنا بأن ثمة رابطة حقيقية تجمع بيننا وبين صاحب العمل كان معنى ذلك أننا بإزاء عمل فني يصدق عليه لفظ «الفن» بحق. وإذن فإن محك صدق العمل الفني كما يرى تولستوي إنما هو مدى انتشاره عن طريق «العدوى Contagion» لأنه كلما كانت العدوى أقوى كان الفن أصدق بوصفه فناً، ودرجة العدوى الفنية - عنده - تتوقف على شروط ثلاثة تفيدنا في التفسير الإعلامي:

أولاً: الأصالة أو الفردية أو الحدة في العواطف المعبر عنها.

ثانياً: درجة الوضوح في التعبير عن هذه العواطف.

ثالثاً: إخلاص الفنان، أو شدة العواطف التي يعبر عنها.

وهذه الشروط الثلاثة لا تكفي للتناغم بين المرسل والمستقبل من وجهة نظر التفسير الإعلامي للأدب، بل ينبغي أن تكون «الخبرات» مشتركة أيضاً بين «المرسل» و«المستقبل» فالمستمع باللغة العربية عن نظرية النسبية لأينشتاين لن تسعفه معرفته باللغة العربية في فهم المضمون، ما لم يكن قد درس شيئاً من علم الطبيعة والرياضيات، حتى يتمكن من متابعة المحاضرة. وهذا ما يعبر عنه بالإطار الدلالي، فكلما كان المرسل والمستقبل يتفاهمان في إطار دلالي واحد، كان ذلك أقرب ما يكون إلى الفهم، ويعبر عن ذلك على النحو التالي:



فالمستقبل (أ) يقع داخل الإطار الدلالي للمرسل، فهو يفهم الرسالة كلها، والمستقبل (ب) كاد أن يقع داخل الإطار الدلالي، فهو يفهم أشياء ولكنه لا يفهم أشياء أخرى. أما المستقبل (ج)، فإنه لا يفهم شيئاً مما يقوله المرسل، لأنه يقع خارج إطاره الدلالي تماماً.

ومن ذلك تبين أن تولستوي لم يفتن إلى الوسائل التي تجعل الاتصال حقيقة. فالاتصال - كما يقول التفسير الإعلامي - يتم بامتدادات أنفسنا، وهو في كل امتداد يتمثل خصائصه، كما أنه يفتن إلى أن تأثير الأفراد بالعمل الفني يختلف من فرد إلى آخر بدليل أننا نجد أفراداً يتحمسون لبعض الأعمال الفنية، كما نجد «المستقبل أ» في النموذج السابق، في حين يعجز غيرهم «مثل المستقبل ج» عن تمييز ما فيها من عناصر وجدانية وعاطفية، ثم نتساءل مع الدكتور زكريا إبراهيم، كيف يتهيأ لنا أن نعرف حينما نكون بصدد قصة وقصيدة، ما إذا كانت العواطف التي تثيرها في نفس المتلقي مشابهة للعواطف التي استشعرها الفنان نفسه؟ بل كيف يتسنى لنا أن نحكم بأن «المرسل قد استشعر حقاً تلك الأحاسيس التي يبعثها في نفس المستقبل» ألا تدلنا التجربة على أن الفن ليس تعبيراً عن انفعالات الفنان بقدر ما هو براعة خاصة في إثارة مثل هذه الانفعالات لدى الآخرين، عن طريق وسائل فنية قد يبتدعها «المرسل» لهذا الغرض؟ حقاً إن انفعالات المرسل الخاصة قد تجد منفذاً إلى أعماله الفنية، ولكن كثيراً من علماء الجمال قد وضحو لنا أنه ليس يكفي أن يكون الفنان مشبوب العاطفة حتى تحيي أعماله الفنية عامرة الشخصية والأصالة والموهبة، فليست «الرسالة الإبداعية» مجرد عاطفة أو انفعال، بل هي صنعة ومهارة. ومن أجل ذلك لا يعني التفسير الإعلامي باطلاق «حكم قضائي» على العمل الأدبي «الرسالة» وإنما يعني بما يسميه «ديوي»: «الخبرة الأصلية الوافية»، وهي ليست بالأمر اليسير الذي يسهل الوصول إليه، بل إن تحصيلها هو محك لقياس الحساسية الأصلية أو الفطرية ومدى نضج الخبرة من خلال الاتصالات الواسعة. هذا إلى أن الحكم من حيث هو فعل تضطلع فيه بالبحث المحكم المضبوط إنما يتطلب حصيلة ثرية وبصيرة منظمة، وإنه لمن

الأيسر لنا أن «نخبر» الناس بما ينبغي لهم أن يؤمنوا به، عن أن نعي أنفسنا بمهمة التمييز الوحيد، ولاشك أن الجمهور حين يعتاد هو نفسه أن يتلقى أحكامه بدلاً من أن يدرب على البحث التأمل فإنه سرعان ما يؤثر طريقة تلقي الأحكام».

ويذهب «ديوي» إلى أن مقارنة موقف الناقد من العمل الفني، بموقف الفنان من موضوعه (وهو ما يفسره التفسير الإعلامي عندنا) قد تكون كفيلاً بالقضاء على النظرية الانطباعية.

ذلك أن «الانطباع» الذي يملكه الفنان لا يتكون هو نفسه من مجموعة من الانطباعات بل هو يتكون من عناصر موضوعية تترجم أو تكيف عن طريق العيان التخيلي، والموضوع مشحون بالمعاني المنبعثة عن الاتصال بعالم مشترك.

وفي الحضارة السمعية يبين فارق آخر جوهري بين الاتصال الشخصي، والاتصال الجماهيري، ذلك أن الاتصال الشخصي يتم بين الجماعات الصغيرة، حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً، فيتناقشون ويتحدثون ويتبادلون الرأي والمشورة ويدركون انطباعات أحاديثهم على أنفسهم، ولعل في هذا الفهم، ما يجعلنا نذهب مع العقاد إلى أن الأديب بكلمة واحدة هو «المحدث في جميع العصور، وقيمته في كل عصر تختلف باختلاف حديثه ومن يحدثه ومن يتطلب منه الحديث، سواء كان حديثه مما تسمعه الأذان أم تعيره الأعين في صفحات الأوراق، وهذه الصفة وحدها كان أديب الزمن القديم محدثاً في مجلس الصبح أو محدثاً في مجلس الأمير... وبهذا المعنى أصبح أديب الزمن الحاضر محدثاً لقرائه ومستمعيه، ولو لم يجمعه بهم مجلس أو مقام»^(١).

ولكنه في العصر الحديث يتصل بالجماهير من جانب واحد، ولا تتاح للقارئ أو المستمع أو المشاهد طريقة سهلة لكي يوجه الأسئلة أو يعقب أو يستوضح ما عرض عليه، وإذا كان الأديب، المحدث «في الاتصال الشخصي

(١) حياة قلم ص ٣٢٣.

يمتاز، بتعديل الرسائل المتبادلة على ضوء رجع الصدى، Feedback من المستقبل إلى المرسل، فإن الأديب المحدث في وسائل الاتصال بالجمهور يفقد هذه الميزة الكبيرة، ولكنه يحاول التعويض عنها بدراسات يجربها المنهج الإعلامي على الجماهير وميولها واتجاهاتها، كما يعني بتحليل رسائل المستمعين أو المشاهدين أو القراء، ويهتم اهتماماً كبيراً بالنقد الذي ينشر في الصحف العامة والمتخصصة.

وقد أدرك العقاد^(١) أن التغير في الأدب بين أمس واليوم يتمثل في أن الحديث كان بالأمس موقوفاً على سامع واحد أو سامعين قلائل، فأصبح اليوم موجهاً إلى مئات وألوف لعلهم لا يجتمعون بالمحدث في مكان^(٢).

وربما صح أن شيئاً آخر قد تغير بهذا الصدد، وهو أن الأدب، حينما كان بضاعة تنتظر الجزاء - لم يكن ينتظر جزاءه فيما مضى من غير الآحاد القلائل، وأن الأديب كان يدون أخاذه في الورق ليقراه كل من حصل عليه، ولكنه لا ينتظر الجزاء الذي يغنيه في عيشه من هؤلاء القراء، وإنما ينتظره من فرد يتصل به ويعول عليه.

«وأما اليوم فالأديب على نقیض ما كان بالأمس أنه ينتظر هذا الجزاء ممن يوجه إليهم حديثه على يد المطبعة أو المذيع، وهم مئات وألوف في وطنه وفي غير وطنه وفي زمنه وغير زمنه لا يلقاهم ولا يلقونه في أغلب الأحوال. وذلك هو من باب الخير الكثير... وذلك أيضاً هو من باب الشر المستطير... لأن استغناء الأديب عن هذا السيد أو ذاك قد فتح له باب الاستقلال في المعيشة والاستقلال بالرأي، والاستقلال بالشعور.

إلا أنه قد يغني عن هذا السيد أو ذاك ثم يتقيد بهذه الجماعة أو تلك واستعباد الجماعة شر من استعباد الآحاد.

وليس من المحتم أن تستعبد الجماعة محدثها لأن الجماعة طوائف شتى

(١، ٢) نفس المرجع ص ٣٢٤.

من الناس ولمن يحدث هذه الطوائف أن ينص الحديث لمن شاء منها ويضيق به على غيره، فله ولا شك أن يختار وإن صعبت عليه الموازنة بين أسباب الاختيار.

وهناك باب من أبواب الحرية يطرقه من يستطيع حين يشاء... فيتحدث المتحدث العصري وحده، كأنما يتحدث لنفسه... ويسمعه من يريدون أن يسمعوه وهو لا يأخذ نفسه بكلفة المجلس في محضر الأمير أو أشباه الأمير.

ذلك أن الأديب في الاتصال الجماهيري حين يختار الفئة التي يوجه إليها رسالته، فإن هذه الفئة بدورها لها الحق في رفض أو اختيار ما تشاء من الرسالة... فالناس هم الذين يقررون ما يرغبون في استقباله من وسائل الاتصال، وهم الذين يقررون هل يقرأون صحيفة أو مجلة أو يستمعون إلى الإذاعة أو يشاهدون التلفزيون أو السينما. وهم الذين يختارون ما يريدون من البرامج، كما يحددون الأوقات التي تناسبهم^(١).

وقد أصبح الاتصال بالجماهير بعد التقدم التكنولوجي في المجتمع قادراً على الوصول إلى عدد ضخم من الناس، ولهذا السبب لا يتطلب الأمر وجود عدد كبير من وسائل الاتصال كما كان في الماضي، فإذاعة قصيدة في جميع أنحاء البلاد عن طريق الصوت البشري لم يعد بحاجة إلى آلاف الرواة، بل يكفي شبكة إذاعية واحدة لتوصيل هذه الرسالة إلى ملايين الناس في نفس الوقت. وهذا يشبه تماماً لما يحدث في أنظمة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية حيث يؤدي الإنتاج الضخم للسلع بقليل من المصانع إلى إنتاج كميات كبيرة من سلعة معينة^(٢).

ويختلف الأدب في الاتصال الجماهيري عنه في الاتصال الشخصي أيضاً من حيث انعدام الطابع المواجهي، وفقدان صفة التخاطب مع فرد بعينه أو

(١) د. إبراهيم امام: الإعلام والاتصال بالجماهير ص ٢٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩.

أفراد بأعيانهم، وقد ذكر البغدادي في خزانة الأدب أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعاب به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش. فإذا استحسنته روي وكان فخراً لقائله، وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه^(١).

والأسواق العربية وسيلة من وسائل الاتصال الشخصي التي تبرز طابعه المواجهي حيث كان العرب يجتمعون فيها ويتناشدون الأشعار ويتناقدون. فكان ذلك عاملاً من عوامل ترقيق الألفاظ وتدقيق المعاني وترقية النقد بفضل صفة التخاطب التي يتميز بها الاتصال الشخصي، ويروى عن سوق عكاظ أن النابغة الذبياني برز في نقد الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض، كما فضل الأعشى والخنساء على غيرهما من الشعراء، وعابوا هم عليه الاقواء في قوله:
أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلنا غداً وبذاك حدثنا الغراب الأسود

فغير شطر البيت وتنبه إلى أن الأقواء معيب وتحرز عنه فيما بعد إلى جانب ذلك ما فعلته قريش في أنها وقفت موقف المتخير الناقد تختار من كل قبيلة أحسن ما عندها من ألفاظ وأساليب وتبسط سلطان لغتها على القبائل الأخرى فكان الشعراء يشعرون بلغة قريش، وهذا أثر من آثار الاتصال الشخصي كذلك.

وكان النقد المروي لنا يقوم على أساس من الطابع المواجهي لهذا الاتصال الشخصي، فنقد طرفة بن العبد مثلاً المتلمس إذ يقول:
وقد أتتني الهمة عند احتضاره بناسج عليه الصيعرية مكدم
فقال طرفة: استنوق الجمل: لأن الصيعرية سمة في عنق الناقة لا في عنق البعير.

وفي العصر الأموي قامت سوق المربد في البصرة وسوق كناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهلية، بل لقد تحولوا إلى ما يشبه «مسرحين

(١) محمد هاشم عطية: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ص ٢٢٣.

كبيرين - كما يقول الدكتور شوقي ضيف^(١) - يغدو عليها شعراء البلديتين ومن يفد عليهما من البادية لينشدوا الناس خيراً ما صاغوه من أشعار، واستطاع جرير والفرزدق أن يتطورا في سوق المربد بفن الهجاء القديم، فإذا هو يصبح مناظرة واسعة في حقائق عشريني الشعارين وحقائق قيس وقيم ويحاكمهما كثير من الشعراء، ويتجمع لهم الناس يصفقون كلما مر بهم نافذ الطعنة ويهتفون ويصيحون^(٢). ومن يقرأ أخبار جرير الذي كان يهاجيه - فيما يقال - ثلاثة وأربعون شاعراً يجد أن الدافع إلى اشتباكه مع بعض الشعراء يعود إلى تقييحه لبعض قوله وإلى تقييحه هو لبعض أقوالهم وبيان أنها تخرج على قواعد التعبير الجيد، ونسوق لذلك مثلاً واحداً هو تهاجيه مع عمر بن لجأ التيمي، فقد سمعه جرير ينشد في أرجوزة له يصف إبله:

قد وردت قبل أنى ضحائها وتفرس الحيات في خرشائها^(٣)

جر العجوز الثاني من ردائها

فتعرض له يقول: كان الأولى بك أن تقول: «جر العروس» لا جر العجوز التي تتساقط خوراً وضعفاً، واستشطاء عمر غضباً فهجاه واحتدم بينهما الهجاء ومدار ملاحظة جرير على انتخاب الكلمة الملائمة للسياق وكثيراً ما يتعرض بعض السامعين للشعراء وهم ينشدون فيبدون بعض ملاحظاتهم البيانية والتعبيرية^(٤) وهذا أثر من آثار الاتصال الشخصي وطابعه المواجهة، من ذلك ما يقال من أن ذا الرمة كان ينشد بسوق الكناسة في الكوفة إحدى قصائده فلما انتهى منها إلى قوله:

إذا غير النأي المحبين لم يكدر رسيس الهوى من حب مية يبرح

(رسيس الهوى: ابتداءه)

(١) شوقي ضيف: البلاغة - تطور وتاريخ ص ١٦.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٦ - أغاني ط دار الكتب ١٠، ١٥.

(٣) أنى: وقت، من أنى يأنى إذا حان وقته. ضياء الأبل: مراها في الضحى - الخرشاء جلد الحيات. نفس المرجع السابق ص ١٦.

(٤) المرجع السابق ص ١٦.

صاح به ابن شبرمة: أراه قد برح؛ وكأنه لم يعجبه التعبير بقوله: «لم يكد» فكف ذو الرمة بزمامها وجعل يتأخر بها ويفكر ثم عاد فأنشد:
إذا غير النأى المحبين لم أجد رسيس الهوى من حب مية يبرح^(١)

وفي الأغاني أن ضوء بن اللجلاج تعرض للأخطل يزري على بعض معانيه في المديح والهجاء^(٢) من ذلك مدحه لعكرمة بن ربعي أحد سادة بني ربيعة ونحورهم الفياضة في الجود والكرم، إذ قال فيه من قصيدة طويلة:
قد كنت أحسبه قينا وأخبره فالיום طير عن أثوابه الشر

فقد ظنه قينا وهو سيد نابه، وكأنما خانته التعبير أو خانتها الصور الخيالية. والتفسير الإعلامي للأدب، يعنى في دراسة المستقبل بالتجارب نذكر منها تلك التي أدت إلى نظرية التناقض الإدراكي والتناقض الانفعالي وعلاقتها بالاتجاهات النفسية... وتلك التي تتعلق بقابلية الأفراد للإقناع والتأثر وعلاقة ذلك بتكوين الشخصية وهي التجارب التي تجعلنا نذهب مع «تولستوي» إلى أن الفن لا يقل أهمية عن الكلام، لأنه لو لم تكن لدينا تلك المقدرة على التعاطف مع الآخرين عن طريق الفن، لبقينا متوحشين منعزلين يحيا كل منا بمنأى عن الباقين، أو لظللنا فرادى عاجزين عن تحقيق أي توافق فيما بين بعضنا والبعض الآخر، وكما أن اللفظ هو أداة اتصال فكري هام بين بني البشر، فإن الفن هو أداة اتصال عاطفي هام بين الناس أجمعين. فالفن ضرب من النشاط البشري الذي يتمثل في قيام الإنسان بتوصيل عواطفه إلى الآخرين، بطريقة شعورية إرادية مستعملاً في ذلك بعض العلامات الخارجية.

فإذا رجعنا إلى نموذج الإطار الدلالي، فإننا سنجد أن الخبرة - كما يذهب ديوي^(٣) إلى ذلك - نتيجة وقرينة، ومكافأة (أو جزاء) لتفاعل الكائن

(١) الدكتور شوقي ضيف: نفس المرجع ص ١٧ - أغاني ص ساس ١١٨/١٦.

(٢) الدكتور شوقي ضيف: نفس المرجع ص ١٧ - الأغاني ص دار الكتب ٢٩٥/٨.

(٣) جون ديوي (ترجمة د. زكريا ابراهيم): الفن خبرة ص ٤٠ وما بعدها.

الحي مع بيئته، وهو التفاعل الذي إذا تحقق على أكمل وجه، تحول إلى مشاركة واتصال... هذا ولما كانت الأعضاء الحسية - بأجهزتها الحركية المتصلة - هي الوسائل التي تكفل تحقيق هذه المشاركة، فإن أي طعن (بل كل طعن) يلحق بها، سواء كان عملياً أم نظرياً، لا بد من أن يكون في وقت واحد نتيجة وسبباً لضيق خبرتنا الحية وتبلدها.

ويذهب ديوي^(١) تأسيساً على ذلك إلى أن كلمة «حس Sense» في اللغة الإنجليزية، تستوعب نطاقاً أوسع، فهناك «الحس» و «الحاس» و «الحساس» و «المحسوس» ورقيق الحس Sentimental (أو العاطفي) الخ... ويخلص من ذلك إلى أن هذه الكلمة تكاد تتضمن تقريباً كل شيء، ابتداء من الصدمة الجسمية والانفعالية الصرفة حتى المدلول أو المعنى، يعني دلالة الأشياء الماثلة في الخبرة المباشرة. وكل حد من هذه الحدود، يشير إلى مظهر أو جانب واقعي - من حياة الكائن العضوي أثناء تحققها من خلال الأعضاء الحسية. ولكن كلمة Sense تشير إلى المعنى المجسم في التجربة بطريقة مباشرة في كل ما يجري حوله من أحداث في العالم، وهذه المشاركة هي التي تجعل من روعة هذا العالم وبهائه حقيقة واقعية يلمسها الإنسان من خلال الكيفيات التي يدركها في تجربته، ولا موضع هنا لإقامة تعارض بين هذه المواد من جهة، وبين الفعل من جهة أخرى لأن الجهاز الحركي و«الإرادة» هما الوسيلتان اللتان تكفلان لهذه المشاركة الاستمرار والتوجيه. كذلك لا موضع لمعارضة تلك المواد (أو العناصر) بالذهن، لأن الذهن هو الوسيلة التي تصبح المشاركة بمقتضاها فعالة مثمرة عبر الإحساس، أو هو الواسطة التي تستخرج عن طريقها المعاني والقيم، لكي تستبقي وتحتزن، وتجهز لما يستجد من خدمات في مضمار عمليات اتصال المخلوق الحي بالبيئة المحيطة به^(٢).

فدراسة الإطار الدلالي للمستقبل في التفسير الإعلامي تستتبع بالضرورة

(١) جون ديوي (ترجمة د. زكريا إبراهيم): الفن خبرة ص ٤٠ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق

دراسة الموقف الاستطقي، والواقع أن الموقف الذي نتخذه هو الذي يتحكم فيه فنحن لا نرى أو نسمع أبداً كل شيء في بيئتنا دون تمييز، وإنما - كما رأينا في نموذج الإطار الدلالي - ننتبه إلى بعض الأشياء، على حين أننا لا ندرك غيرها إلا بطريقة باهتة. وقد لا ندركها على الإطلاق - كما حدث مع المستقبل ج - وهكذا فإن الانتباه انتقائي - أي أنه يركز على سمات معينة من البيئة المحيطة بنا، ويتجاهل الأخريات، وعندما يتضح لنا ذلك، نستطيع أن ندرك مدى النقص في الفكرة القديمة القائلة إن البشر ليسوا إلا كائنات تستقبل بطريقة سلبية كل المنبهات الخارجية، وأي واحد من هذه المنبهات، وفضلاً عن ذلك فإن الأغراض التي تكون لدينا في وقت الإدراك هي التي تتحكم في تحديد ما نختاره لكي نندبه إليه، فأفعالنا في عمومها تتجه نحو هدف ما، ولكي يحقق الكائن العضوي هذا الهدف، فإنه ينتبه بدقة لكي يعرف ما الذي سيفيده في البيئة وما الذي سيضره، ومن الواضح أنه عندما تكون للأفراد أغراض مختلفة، فإنهم يدركون العالم على أنحاء مختلفة. بحيث يؤكد أخدمهم أموراً معينة يتجاهلها غيره^(١).

وعلى ذلك فإن إدراك المستقبل للشيء يكون عادة محدوداً مجزئاً: فهو لا يرى منه إلا سماته المرتبطة بأغراضه وما دام مفيداً فإنه لا يبدي به اهتماماً كبيراً. والإدراك - كما يقول ستولنيتز^(٢) - لا يعدو أن يكون تحديداً وقتياً سريعاً لنوع الشيء وفوائده، وعلى حين أن الطفل لا بد له أن يبذل جهداً ليعرف كنه الأشياء وأسماءها واستعمالاتها الممكنة، فإن البالغ لا يفعل ذلك، بل إن التعود جعله يقتصد في إدراكه، بحيث يستطيع التعرف على الشيء وفائدته على الفور تقريباً، ومع ذلك فإن الإدراك لا يقتصر على الطابع «العملي» وحده في أية حالة من الحالات، ذلك لأننا نوجه، انتباهنا من آن لآخر، نحو شيء معين لمجرد الاستمتاع بمراه أو سماعه أو ملبسه، وهذا هو الموقف «الاستطقي» في

(١) جيروم ستولنيتز النقد الفني: دراسة جمالية وفلسفية ص ٤٢ وما بعدها.

(٢) نفس المرجع ص ٤٣.

الإدراك، وهو يظهر حيثما أصبح الناس مهتمين بمسرحية أو رواية، بل إنه يحدث حتى في وسط الإدراك العملي.

وإذا كان العنصر الأساسي في أي موقف اتخاذ اتجاه إيجابي أو سلبي نحو ما هو مدرك^(١)، فإن الوعي الاستطقي موجه دائماً بطريقة إيجابية نحو موضوعه، فنحن نركز انتباهنا على الموضوع الذي «يستأثر باهتمامنا» كما يقول التعبير الشائع، وبمجرد كون منفعة الموضوع لم تعد تدخل الحسبان، يثبت أننا نرحب بوجود الموضوع لمجرد كونه على ما هو عليه بالنسبة إلى أبصارنا أو أسماعنا ولقد اعترف المفكرون بالقيمة الكامنة للتجربة الاستطقية بقدر ما اعترفوا بوجود «التأمل المنزه عن الغرض» ذاته^(٢).

وهكذا، فإن الانتباه والتفسير الانتقائي يتمثلان في تجربة الفنون كما يتمثلان في تذوق الطبيعة، وبقدر ما يشير العمل الفني إلى الاتجاهات التي ينبغي على الإدراك والتفسير السير فيها، يكون مجال النشاط الإيجابي للمشاهد أقل مما هو في حالة تذوق الطبيعة، غير أن الفارق بين الإثنين، كما حاول ستولنيتز أن يثبت إنما هو فارق في الدرجة، وليس من الصواب أن نجعل منه تقسيماً ثنائياً قاطعاً.

وفي عملية الاتصال الأدبي نشعر بنوع من الألفة والقربة مع الشخص الذي صاغ العمل أماناً، وهو شعور لا نحس به عند إدراكنا للطبيعة كما يقول ستولنيتز، فقد نحس بالامتنان للجهود التي زودتنا بهذا العمل الممتع، أو قد نتأثر بالعقبات وعوامل الإحباط التي اضطرت الفنان إلى التغلب عليها، أو قد نشعر ببساطة، برابطة تربطنا بإنسان آخر يتحدث إلينا من خلال أدبه بطريقة مباشرة مؤثرة.

وثانياً قد نعجب ببراعة الأديب، ونحترم الخبرة التي تمكنها من

(١) نفس المرجع ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤.

السيطرة على وسيطه الفني ومن استخدامه ونقدر بساطة الخطوط التي تمكن بها المصور من أن يحقق تأثيراً ضخماً^(١).

لهذه الأسباب ينبغي أن نعترف مع ستولنيتز^(٢) - بأن تذوق الأدب ينطوي في كثير من الأحيان على قيمة زائدة، ومع ذلك ينبغي علينا أن نعترف معه أيضاً بأن الاهتمام بالفنان المبدع لا يؤدي دائماً إلى زيادة القيمة الاستيطيقية للفن، فمن الممكن أن يكون له تأثير عكسي تماماً. وهذا يحدث عندما نقبل على العمل الأدبي من أجل كشف حياة الأديب وشخصيته أو معرفة معالم منها. أو عندما يشغلنا تماماً البحث عن أسلوب الأديب، ففي كلتا الحالتين لا تكون للعمل أهمية إلا من حيث هو وسيلة لشيء آخر.

ففي الحالة الأولى يستخدم وثيقة متعلقة بحياة الفنان، وهذا يؤدي في كثير من الأحيان إلى صبغ الموضوع بصبغة رومانتيكية. إذ أن المشاهد يقرأ فيه ما يعرفه من قبل عن حياة الفنان أو الأديب.

وفي الحالة الثانية، يستخدم العمل كأنه «عينة معمل» لدراسة مشكلات أسلوبية طبيعية، ومن هنا كان من الواجب مراعاة الحكمة في الاهتمام بالفنان المبدع، خشية أن يصبح «غير مرتبط بالموضوع irrelevant» من الوجهة الجمالية^(٣).

وفي العصر الحديث تخضع الدراسات الإنسانية والفنية في بعض فروعها لما خضعت له الأبحاث الطبيعية، فهنا اعتُمد فن التوسل بالعقل الإلكتروني لينوب عن الباحثين في استخلاص النتائج وتحليلها بل وتصنيفها إلى إيجابيات وسلبيات يؤخذ ببعضها ويتنكب عن بعضها الآخر. ومهما بلغت حياة الإنسان في العصر الحاضر من التعقيد، فإنها لا يمكن أن تستغني عن الانطباعات والمشاعر والأحاسيس التي لا يفيد فيها الإحصاء ولا يقيسها الجهاز المعلمي قياساً مضبوطاً دقيقاً، وتبدو العلاقة بين الفنون من ناحية وجماهير المتدوقين لها

(٢،١) نفس المرجع ص ٦٨ - ٦٩.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٦٨ - ٦٩.

من ناحية أخرى من الظواهر التي تحتاج إلى قياس ومتابعة، ولكنها في الوقت نفسه تسمو على العلاقة بين المؤسسات التجارية وجماهير المستقبلين عليها للبيع والشراء، لأن طبيعة التفاعل بين الفن والجماهير تجمع في أعطافها بين الحس والإدراك والتأمل والتفكير.

الفصل الرابع

مَا هُوَ تَأْثِيرُ مَا يُقَالُ؟

في هذا العصر يعنى التفسير الإعلامي بدراسة تأثير «الرسالة الإبداعية» مفيداً من دراسات الباحثين والمهتمين بالاتصال الجماهيري، ومن الشواهد التي تقدمها المصادر العديدة، ونذكر هنا محاولة «كلابار» في تجميع نتائج البحوث الاتصالية والربط بينها ذلك أنه قام بمراجعة أكثر من ألف بحث ومقالة علمية وخرج في النهاية بنتائج إيجابية نشرها في كتابه المعروف «آثار الاتصال الجماهيري» منها أن الاتصال الجماهيري ينبغي أن ينظر إليه كأحد العوامل المؤثرة في التفاعل الاتصالي.

وتأسيساً على هذا الفهم ينظر التفسير الإعلامي للرسالة الأدبية على أنها لا تنفصل عن الموقف العام بحال من الأحوال، ذلك أنها ليست منعزلة تؤدي إلى نتائج معينة، كما أن الأدب حين يتصل بالجماهير يعمل على دعم وتعزيز الاتجاهات السائدة، أكثر مما يعمل على تغييرها، ولكن ليس معنى هذا أن الرسالة الأدبية في الاتصال الجماهيري لا تحدث أثراً في التغيير والتحول، ولكن هذا الأثر مرهون بشروط معينة أهمها وجود عوامل أخرى مساعدة على التغيير ووقوف العوامل التعزيزية - أي التي تدعم الاتجاهات السائدة - عن العمل.

وقد برز الاهتمام كذلك بدراسة التأثير اللاشعوري في الجماهير من أجل التحكم في السلوك والسيطرة على العقول، ويمكننا أن نفسر الأعمال الأدبية السوفياتية التي يرضى عنها الحزب الشيوعي على هذا الأساس، ذلك أن الأدب السوفياتي يرتبط بنظرية بافلوف، بحيث نقول مع الدكتور إمام: «إنه

إذا. كان القدماء قد استخدموا وسائل السحر للسيطرة على عقول الناس به فإن الجديد في نظرية بافلوف، أنها تعتمد على الوسائل الفسيولوجية أكثر من غيرها».

ومن أكبر الرواد البلغاء أبو عثمان الجاحظ، أبلغ الناس في زمنه، وأعلام منزلة في الفصاحة والبيان؛ ويدل أدبه على وعي بهذا العنصر الاتصالي وعلى يقظة إحساسه الفني، وعلى شدة رهافة ذوقه الأدبي؛ ولا عجب فقد خلق ناقداً كما يخلق الشاعر شاعراً؛ وكانت ملكة النقد فيه شديدة.

ومن ثم سما ذوقه، ودق شعوره، وعمق إحساسه بالأساليب، وصار متمكناً من اللغة؛ يفرق بين لفظة ولفظة؛ وبين أسلوب وأسلوب؛ ويضع ذوقه موضع الفيصل في كل مشكلات اللغة والأدب والنقد والبيان.

وإذا كان الذوق هو الحكم في مسائل الأدب، وهو القوة - التي يقدر بها الأثر الفني، وهو الاستعداد الفطري والمكتسب الذي يساعد الأديب على تقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته بقدر ما يستطيع، فإن الجاحظ قد بلغ في ذلك ما لم يبلغه أحد غيره، لطول روايته وقراءته ومدارسته لبلاغة العرب، ولأثر البيئة والعصر في نفسه؛ بيئة البصرة، وعصر نفوذ الخلفاء العباسيين؛ الذي أثرت فيه اللغة، وازدهر الأدب؛ وعلت فيه منزلة البلاغة.

والأدباء يختلفون في أمر الذوق: أفطري هو أم مكتسب، ويكادون يذهبون إلى أنه في أصله، هبة طبيعية تولد مع الإنسان. فيعبر عنها بصفاء الذهن، وخصب القريحة؛ وجمال الاستعداد. ويظهر أثر ذلك في ميل الناشئ الموهوب منذ الطفولة إلى كل جميل من الأدب والفن ومحاولة تقليده وبعد ذلك يأتي التهذيب والتعليم؛ فليس من شك أن الدرس ينمي الذوق ويهذبه ويسمو به إلى درجة محمودة؛ فالأديب ذو الفطرة الذواقة يفيد من قراءة الأدب ومعالجة الفنون، فتراه بعد قليل مصقول الذوق، ثاقب الذهن يضع يده على العبارة البليغة، والخيال الجميل، ويدرك صدق العاطفة، وينفر من كل مضطرب من الأدب كاذب، ويكون لتربيته العقلية والعلمية دخل كبير في

كمال أحكامه الأدبية واتزانها، كما يكون أقدر على إنشاء الأساليب البارعة، وصوغ الأخيصة النادرة، وصدق التعبير عن أسمى العواطف وأقواها. وإذا سألته عن سر البلاغة أو العي استطاع التعبير، وأصاب وجه الصواب^(١).

ويلخص الجاحظ ذلك كله في الحيوان. فيقول: ويد الإنسان لا تكون إلا خرقاء ولا تصير صناعاً ما لم تكن المعرفة ثقافاً لها، واللسان لا يكون أبداً ذاهباً في طريق البيان، متصرفاً في الألفاظ، إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به منقلة له، واضعة له في مواضع حقوقه، وعلى أماكن حظوظه^(٢).

وسمع الجاحظ^(٣) من ينشد أرجوزة أبي العتاهية، التي سماها «ذوات الأمثال» حتى بلغ قوله:

يا للشباب المرح التصابي
روائح الجنة في الشباب

فقال للمنشد: قف. ثم قال: انظروا إلى قوله «روائح الجنة في الشباب» فإن له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة، إلا بعد التطويل، وإدامة التفكير، وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه.

وأسلوب الجاحظ أظهر صورة لجلال ذوقه الأدبي وعظمته ودقته، هذا الأسلوب الذي توضع فيه الألفاظ مواضعها، وتأخذ فيه الجمل حظها من الروعة والبلاغة، وحسن النظم.

كان الجاحظ يرمي إلى الإفهام والوضوح والإبانة، وينحو نحو استعمال الألفاظ التي تجلو الحقيقة وتقربها إلى الأذهان. ويقول: «من حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً، وتلك الحال له وفقاً، ويكون الاسم لا فاضلاً ولا مفضولاً ولا مقصراً ولا مشتركاً، ولا مضمناً، ويكون تصفحه لمصادره في

(١) راجع ١٢١ أصول النقد الأدبي للشايب - ١٩٦٠ القاهرة.

(٢) ١: ١١٦: ١١٧ الحيوان.

(٣) ٢: ٣٦٦ عصر المأمون.

وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مونقاً، وهول تلك المقامات معاوداً، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم».

ويقول: «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة، وغشاه من نور الحكمة، على حسن نية صاحبه، فإذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صاحبه صحيح الطبع، بعيداً من الاستكراه، منزهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة».

ويقول: «ومتى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه، وكان لذلك الحال وفقاً ولذلك القدر لفقاً، وخرج من سهاجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قمينا بحسن الموقع، وحقيقاً بانتفاع المستمع، ولا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة، ومتى كان اللفظ كريماً في نفسه، متخيراً من جنسه، وكان سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حبيباً إلى النفوس، واتصل بالأذهان والتحم بالعقول، وهشت له الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخف على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، ومن أعاره من معرفته نصيباً، وأفرغ عليه من محبته ذنباً، حجب إليه المعاني، وأسلس له نظام اللفظ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكليف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم...».

ويقول كذلك: «تفل الحز، وتصيب المفصل، وتقرب البعيد، وتظهر الخفي، وتميز الملتبس، وتخلص المشكل، وتعطي المعنى حقه من اللفظ، كما تعطي اللفظ حقه من المعنى. وتحب المعنى إذا كان حياً يلوح، وظاهراً يصبح، وتبغضه إذا كان مستهلكاً بالتعقيد، ومستوراً بالتقريب، وتزعم أن شر الألفاظ ما أغرق المعاني وأخفاها، وسرها وعماها، والألفاظ عندك مارق وعذب، وخف وسهل، وكان موقوفاً على معناه، ومقصوراً عليه دون ما سواه، لا فاضل ولا مقصر، ولا مشترك ولا مستغل، قد جمع خصال البلاغة، واستوفى خلال المعرفة، فإذا كان الكلام على هذه الصفة لم يكن اللفظ بأسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب. وصار السامع كالقائل، والمتعلم كالمعلم،

وخفت المؤونة واستغنى عن الفكرة. وماتت الشبهة، وظهرت الحجة»^(١).

ولأجل ذلك كله كانت ألفاظ الجاحظ دقيقة واضحة الأداء، واقعية حسية، بعيدة عن الخشونة والغرابة، بعدها عن التعقيد والإغراب، قريبة كل القرب من الإفهام، وكان الجاحظ يراعي مقتضى الحال في كل مقال.

وكان ذوق الجاحظ يدور في مجالات العلم والحقائق والثقة، فليس هو بالرجل الفسيح الخيال، وليس أدبه بأدب العاطفة التي تستبد به، لأنه رجل الحياة وحقائقها ورجل الفكر والاعتزال والفلسفة والعقل والمنطق، ينشد الحقيقة من أعماق قلبه، ويسعى ليدركها، ويجد طويلاً ليعثر عليها، فإذا أدركها حاول التعبير القوي الواضح عنها، تعبيراً يحيط بها، ويقربها إلى الذهن ويظهر جميع دقائقها، قريبة إلى الأفهام، ومن ثم نأى الجاحظ عن أساليب المجاز، على قدر ما يستطيع، فإن اضطر إلى تشبيه أو استعارة أو كناية، أتى بها إذا كانت أقرب طريق للوضوح والإبانة، لا لأنها أداة زخرف فني، أو وسيلة ترف بياني.

وكان الجاحظ صاحب باع طويل في صنعة الكلام، وأسلوب الكتابة ينفذ إلى القلوب، ويخترق الأفتدة ويناجي العواطف، ويمتلك المشاعر، ويصل بقلمه المصقول، وبيانه القوي إلى خلجات النفوس، وخفاء الضمائر وله من ذهنه المتوقد. وعقله الكبير. ما جعل لمنطقه من التأثير، وما لحجته من الرهبة، وما ساعده على الوصول إلى غايته.

ولا يشك أحد أن الجاحظ كان نادرة من نوادر الزمن، ولأسلوبه مميزات جعلته صاحب طريقة عرف بها، فهو حريص على الإطناب، حرصه على المعنى وتحليله واستيعابه وتفصيله والتهوين من أمر العظيم حتى يصغر، والتعظيم من أمر الصغير حتى يعظم، وكان المرحوم عبد العزيز البشري الكاتب المصري المشهور يحتديه في هذا المضمار، ومن أسباب الإطناب عند الجاحظ مذهبه في الاستطراد دفعاً للملل القارئ، ومزجه الجد بالهزل والهزل

(١) ١٩٥ رسائل الجاحظ.

بالجد، استجلاً لنشاطه، والجاحظ كذلك مهتم باللفظ والأسلوب والصورة والخيال والموسيقى والتوقيع الفني لجملة غاية الاهتمام.

وكان يقول: ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي اللسان عذب ينابيع البيان، إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى^(١).

وذوق الجاحظ الأدبي دعاه إلى فلسفة أسلوبية خاصة متميزة... أساسها: الكلمة وحسن اختيارها، واللفظة ووضعها في مواضعها. فقد كان ذوقه شديد المعرفة بوقع الكلمة في نفس القارئ، دقيق التمييز بين حي الألفاظ وميتها، وسهّلها وصعبها، وجملها وقبيحها، وملاك الأمر عنده هو التبيين والإفهام.

دعا إلى سهولة اللفظ وعذوبته وسياحته وبلاغته، ويسره، وقال: قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ويقول: إن سخيّف الألفاظ مشاكل لسخيّف المعاني، وقد يحتاج إلى السخف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل والفخم، ويرى أن لكل قوم ألفاظاً حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ في الأرض، وصاحب كلام منشور وكل شاعر وصاحب كلام موزون، فلا بد أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها ليديرها في كلامه. وإن كان واسع المعنى، كثير اللفظ، غزير المعاني.

ويقول: ورأيت في هذا الضرب من هذا اللفظ، ما دمت في المعاني التي هي عبارتها والمادة فيها، أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود، وأدع التكلف لما عسى أن لا يسلس، ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة، وأرى أن ألفظ بالآفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً في صناعة الكلام، مع خاص أهل الكلام، فإن ذلك أخف عندي وأخف لمؤنتهم علي، ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، وقبيح بالمتكلم أن يفتر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة، أو أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام، وهو في صناعة الكلام داخل. ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل.

(١) ١٦ : ٨٧ معجم الأدباء.

وتأليف الكلام أو نظمه هو مظهر البلاغة وصورتها، وبه تتبين بلاغة الكلمة، وكان الجاحظ يعني بجودة السبك، وبراعة الديباجة، وعذوبة الأسلوب، عناية فائقة. ويرى أن المعاني مفتوحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والحضري. وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير الألفاظ، وسهولة المخرج. وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك فلما الشعر صناعة وضرب من النسيج، وجنس من التصوير^(١).

وذكر الجاحظ أن المعاني مبسطة إلى غير غاية. وممتدة إلى غير نهاية وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، فبذلك تقرب من الفهم وتحليها العقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً، الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان.

ولكل معنى - شريف أو ضيع، هزل أو وجد، أو حرفة أو صناعة - ضرب من اللفظ هو حقه ونصيبه، والذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه.

وكان الجاحظ يعجب بمذهب المحدثين، الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها، وأصلحتها، وفتحت للسان باب البلاغة. وأشارت إلى حسان المعاني.

ويرى أن الذي تجود به الطبيعة، وتعطيه النفس سهلاً، أهدأ أمراً، وأحسن موقعاً، في القلوب، وأنفع للمستمعين، من كثير خرج بالكد والعلاج.

ومن أثر الذوق عند الجاحظ تفضيله لشعر المحدثين، ونقده للمتعصبين للشعر البدوي. فلقد حارب العصبية ضد المحدثين، واستشهد في كتبه بشعرهم وروى لهم، واستجاد كلامهم، والعصبية لا تدع صاحبها يصدر حكماً

(١) ٣: ١٣١ الحيوان.

عادلاً، قال أبو عثمان عن النواصي: كان أبو نواس عالماً برواية، مع جودة الطبع وجودة السبك، والحدق بالصنعة، وإن تأملت شعره فضلكه، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية. أو ترى أن أهل البدو أبداً أشعر. وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك. فإنك لا تبصر الحق من الباطل، مادمت مغلوباً محكوماً بالعصبية الظالمة^(١).

وينقد كذلك العصبية ضد المولدين في موضوع آخر من الحيوان بمثل هذا الأسلوب^(٢). وهكذا نجد الجاحظ يدعو إلى تقدير الجيد ممن كان وفي أي زمن كان. يقول: والقضية التي لا أحتمش فيها، ولا أهاب الخصومة، «أن عامة شعراء العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدين والناطقة، وليس ذلك بواجب في كل ما قالوه، وقد رأيت أناساً منهم يهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في رواية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان^(٣).

وقد سار على نهج الجاحظ في ذلك ابن قتيبة في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء»، وابن المعتز^(٤)، وسواهما، فدعوة ابن قتيبة «ولم يقصر الله الشعر والبالغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم^(٥)» هي مشتقة من دعوة الجاحظ، ونابعة من معينه.

وهكذا يتجلى لنا الذوق الأدبي عند الجاحظ في أدبه. الذي امتاز بالإبداع والسهولة واليسر، يدخل من نفس القارئ مدخل صدق، ويجمع بين الدياجة الحسنة، والمعنى الدقيق، واللفظ المونق، والفكاهة البارة، والسخرية النادرة، والجد في موضعه، والهزل في موضعه، لا يتكلف ولا

(١) ٢ : ٢٧ الحيوان.

(٢) ٣ : ١٣٠ الحيوان.

(٣) ٢ : ١٣٠ الحيوان.

(٤) راجع رسائل ابن المعتز، وابن المعتز وراثته تأليف د. عبد المنعم خفاجي.

(٥) الشعر والشعراء ط القاهرة ١٩٣٢.

يتعسف يصور لك خلجات الروح، وآهات النفس، وأزمات العقل، ويرسم لك الغامض من المعاني، حتى لكأنها تكاد تلمسها لمساً، ويصف لك المعلوم والمجهول. ويحدثك عن المعقول والمنقول..

ومن أروع الصور التي رسمها الجاحظ صورة خصي يصور حنينه إلى جمال المرأة وسحرها، وهو «أبو المبارك الصابي» وكان الخلعاء والوزراء يبعثون إليه، ويسمعون منه، ويسمر عندهم الذي يجدون عنده من الفهم والإفهام. وطرف الأخبار، ونوادر الكتب، وكان قد أربى على المائة، وفي هذه الصورة الأدبية الرفيعة يصور الجاحظ أبا المبارك غزلاً مولعاً بالجمال يسمع نغمة المرأة، فيظن أن كبده قد ذابت، ويظن مرة أخرى أنها قد انصدمت، ويظن ثلاثة أن عقله قد اختلس^(١).

الصدق والبهاء والروعة والسحر والإبداع والبساطة هي كلها عناصر أدب الجاحظ، وخصائص فنه، وبلاغته قطعة من نفسه، وصورة لمذهبه وطريقته ولا تجد ذوقاً أشد رهافة وإحساساً بالجمال من ذوق أبي عثمان، الشديد الشعور بجمال اللفظ والعبارة والصورة، فهو يتخير من الألفاظ أروعها، ومن العبارات أجودها، ومن الصور أوضحها وأدقها في تصوير ما يريد الإبانة عنه.

وكلما حصف الذوق، وقوي الشعور الفني والإحساس بالجمال في نفس صاحبه، كان إدراكه للجمال أيسر وأعمق، وأوضح من كل شيء، وهكذا كان أبو عثمان - بما وهبه الله من أسباب التمييز الفني والإدراك الذوقي لمواضع الجمال والبلاغة في الأسلوب - يتميز بأسلوبه الخاص، وعبارته التي هي له وحده وبشخصيته الفنية المستقلة التي لا يشاركه فيها أحد سواه، ومن قوة ذوق الجاحظ الأدبي، كانت تنبعث دائماً عنه كل عناصر الصدق والجمال والعمق في أدبه.

(١) ١: ١٢٥ - ١٢٨ الحيوان، ولعل الجاحظ كان يصور حرمانه هو من المرأة ومن الاستمتاع بجمالها في هذه الصورة البارعة.

للجاحظ أسلوبه وعباراته وألفاظه وصوره الخاصة به، وله شخصيته الواضحة في كتابته ونثره الفني، والخلود الأدبي دائماً مدين لشخصية الأديب الفنية وملكيته لعبارته، لأنهما مقياسه الصحيح وميزانه العادل.

ولن نجد أديباً كأبي عثمان يتمثل في أدبه هذان العنصران كاملين واضحين تمام الوضوح، فشخصيته الفنية تظهر في كل ما كتب وصور من أدب وحكمة وفي كل ما ألف وأنتج من تآليف ورسائل، إن له أسلوبه الخاص به وعبارته التي هي له وحده، وصوره التي لا يستطيع أن يجاريه فيها، فليس مقلداً لغيره ولا تابعاً في هذا لسواه، فله رصيد ثمين من اللغة والبلاغة والبيان، وهو يملك عبارته ملكية خاصة، فهي له، وليست لغيره، وعندما نقرأ أسلوباً من أساليبه نعرف أنه له وحده، ولو أنك ألقيت قطعة من أدبه بين عشرات من القطع الأدبية لأدباء آخرين، لما صعب عليك أن تميز كلام الجاحظ من غيره، ما دمت تملك أسباب الذوق والخبرة بمذاهب الكلام وطرائق الأدباء.

وستجد من ظهور شخصيته، ووضوح مذهبه، وتميز عبارته، ونصاعة بيانه، ما يرشدك إليه، ويعرفك به، فأسلوبه لا ينازعه فيه منازع لأنه خاص به. وهذا قلما تراه كثيراً لغيره من الأدباء^(١).

ولقد اهتدى العربي بذوقه، وإحساسه الفني، ووجدانه الأدبي إلى ما يشبه الأصول التي يحتذيها في كلامه، وينسج على نطها أدبه، وتحدث منذ العصر الجاهلي عما استطاع أن يفصح عنه من أشباه هذه الأصول والقواعد ومناهج الأداء.

وفي القرن الأول بدأ اللحن الإعرابي في الظهور بتأثير الموالي واختلاط العرب بالعجم فجهد العلماء في وضع قواعد النحو العربي، ثم جهدوا في تدوين ألفاظ اللغة بعد ذلك. واستشرت عدوى اللحن البياني، وأصبحت الألسنة لا تستطيع «البيان والتبيين» فأخذ العلماء العرب في بحث مشكلات

(١) راجع ٢ : ٣٤٠ أمراء البيان لمحمد كرد علي.

البيان العربي واتجهوا إلى الدراسات الأدبية والبيانية، وإلى بحث عناصر بلاغة الكلام، وتوجيه أذهان الأدباء والكتاب إلى المقبول من الأساليب وطرق الأداء، وإلى التفكير في المعنى، ومراعاة شتى المقامات والأحوال، وكتب عناصر هذه الثقافة البيانية تظهر عند طبقتين:

الأولى: طبقة رواة الأدب العربي من البصريين والكوفيين والبغداديين، من أمثال: خلف، والأصمعي، وأبي عبيده، وأبي زيد، ويحيى بن تميم، وعمرو بن كركرة، وابن سلام، وأستاذهم هو: أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية^(١) وهو من أعلام البصرة وشيوخها (٧٠- ١٥٤هـ)^(٢). ومن عامة رواة الأدب والبيان. الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، والسبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها، وفتحت للسان باب البلاغة، كما يقول الجاحظ، دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب، والإخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل، واللغويين الذين لا يرون إلا كل شعر فيه غريب^(٣).

وبجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم في الآفاق من أمثال: ابن هرمة وبنار وصالح بن عبد القدوس وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبان اللاحقي ومنصور النمري وأشجع السلمي وسلم الخاسر وابن أبي عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن يسير والعتابي ومسلم وأبي تمام^(٤). وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بيت بني هاشم وبني العباس، ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية، ولاسيما المعتزلة

(١) ١ : ٢٠٦ البيان والتبيين، ١١ : ١٦٠ معجم الأدباء.

(٢) ١ : ٣٢٣ العبر للذهبي.

(٣) ٣ : ٢٢٤ البيان.

(٤) ١ : ٥٤ البيان.

وفرق المتكلمين، الذين رأهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء^(١).

والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قد قوماً أمثل طريقة في البلاغة منهم، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً^(٢)، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم^(٣)، وحكم مذهبهم في نقد البيان^(٤).

وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريران والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم، ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية، وأخذوا يحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الأدب والكتابة والبيان، ويدعون إلى آراء تمس الذوق، وترضي العقل واتجاهات الحضارة، كما أخذوا يلقتون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم، كما نرى في محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلي (٢١٠هـ) في أصول البلاغة، التي يقول فيها الجاحظ إن بشراً: مر بإبراهيم بن جبلة وهو يعلم الفتيان الخطابة، فوقف بشر، وقال: اضربوا عما قال صفحاً واطووا عنه كشحاً، ثم دفع إليهم بصحيفة من تحبيره وتنميته، وتحتوي على عناصر للبلاغة وأصول البيان^(٥)، ويعد أحمد أمين في ضحى الإسلام بشر بن المعتمر المؤسس الأول لعلم البلاغة العربية^(٦).

ومن هذه الطبقة: أبو العلاء سالم مولى هشام، وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ^(٧)، وابن المقفع، وسهل بن هارون والحسن والفضل ابنا سهل، ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن

(١) ١ : ١٠٦ البيان.

(٢) ١ : ١٠٥ البيان.

(٣) ٣ : ٣٢٥ البيان.

(٤) ١ : ٢٤٠ البيان.

(٥) ١ : ١٠٤ البيان.

(٦) ٣ : ١٤١ و ١٤٢ ضحى الإسلام.

(٧) ١ : ٥١ البيان.

يوسف وابن الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم، وهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان والبلاغة، هي وجماعات المتكلمين والمعتزلة الذين أثاروا كثيراً من المشكلات البيانية عن قصد وعن غير قصد.

وظهر الجاحظ والبلاغة العربية في أوج أزدهارها: شعراً ونثراً ومحاضرة وحواراً وجدلاً وتأليفاً وسواها، كما ظهر وعناصر البيان العربي تكاد تخطو في طفولتها العلمية نحو الشباب والقوة والوضوح والتمايز والاستقلال، وهو راوية وكاتب وأديب ومتكلم، فاستفاد من جميع هذه الجوانب فائدة كبرى أهلته لأن يتصدر حلقات البيانيين، وأن يصبح إمام البلاغيين، لأثره في هذا الجانب، ولمكانته الأدبية، إذ كان يوصف ويحق ما وصف، بشيخ الكتاب.

ولقد خدم الجاحظ البيان العربي بالكتابة فيه، وجمع مختلف الآراء والمذاهب في عناصره وأصوله وألوانه، في جميع كتبه، وخاصة في كتابه الخالد «البيان والتبيين»، وما نجده من آراء ضئيلة في هذه الجوانب في مثل «الكتاب» لسيبويه وكتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة فإنما هو قليل من كثير مما نجده في كتب الجاحظ.

والآراء التي سجلها الجاحظ عن البيان والبلاغة في كتابه «البيان» تمثل مختلف الأذواق والمدارس والثقافات. وهي بذرة صغيرة، استنبتها الجاحظ حتى أنبتت نباتاً حسناً مثمراً.

والجمع والإحصاء أول خطوات البحث دائماً، ووسيلة إلى التجديد والابتكار، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها، وشخصية أبي عثمان فيما يجمعه واضحة وضوحها فيما يبتكره من آراء ومذاهب.

وحسبنا أن نقرأ في «البيان» البلاغة كما صورها بشر بن المعتمر^(١). أو كما رآها ابن المقفع^(٢). أو كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة^(٣). فلهذه

(١) ١ : ١٠٤ البيان - السندوبي

(٢) ١ : ٩١ البيان.

(٣) ١ : ٧٩ البيان.

النصوص وغيرها قيمة كبيرة. وقد عد بعض الباحثين بسببها الجاحظ مؤسس البيان العربي، لأن ما جمعه من نصوص يوضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربي. ويعطينا صورة مجملته لشأته^(١).

على أن للجاحظ آراء كثيرة في البيان والبلاغة أبداهها في مناسبات مختلفة، وأكثرها كانت نقداً لآراء في البيان والبلاغة، سمعها أوقراها، ومن هذه الآراء الجاحظية عرضه لتنافر الحروف والكلمات بما دعا فيه إلى أن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج^(٢). وتقريره لكلام بليغ في أن بلاغة الكلام أن يسابق لفظه معناه ومعناه لفظه^(٣). وتقريره لبلاغة الاستهلال مستدلاً برأي لابن المقفع حولها^(٤)، ولرأي إبراهيم بن محمد في البلاغة، وأنه يكفي من حظها ألا يؤتي السامع من سوء إفهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع^(٥). واختلف العلماء^(٦) في الخطابة وهل تستجد فيها الإشارة والحركة، فذهب النظام إلى ذلك، ورأى أبو شمر عكس هذا الرأي، فيذكر الجاحظ ذلك ويميل إلى رأي النظام. محلاً رأي أبي شمر... واختلف كذلك فيما إذا كان السميت والجمال من تمام آلة البليغ أم لا؟ فذكر الجاحظ ذلك وذهب مذهب سهل بن هارون في عدم عدهما من أدوات البلاغة^(٧).

وكثرة الكلام هل تعد عيياً أو بلاغة. يرى الجاحظ الأول ويرد على إياس الذي ذهب إلى الثاني^(٨). وتكرير الحديث اختلف فيه أيضاً ففضل

(١) طه حسين - ص ٣ مقدمة نقد النثر.

(٢) ١ : ٦٢ البيان.

(٣) ١ : ٩١ البيان.

(٤) ١ : ٩٢ البيان.

(٥) ١ : ٧٥ المرجع .

(٦) ١ : ٦٩، ٧٧ و ٧٨ المرجع .

(٧) ١ : ٧٦ المرجع

(٨) ١ : ٨٢ المرجع.

الجاحظ الكلام حوله وأدلى برأيه فيه^(١). وكذلك اختلف في الاقتباس من القرآن الكريم والشعر في الخطبة، فذكر الجاحظ ذلك وروى مذاهب البلغاء فيه^(٢)، ويحلل تعريف العتايي للبلاغة بأنها كل ما أفهمك الغرض^(٣)، وكذلك اختلف في الصمت: أم محمود أم مذموم، فذكر الجاحظ ذلك ورأى أن الصمت عي لا بلاغة^(٤). وإجادة الأديب لفن من فنون الأدب دون فن يتحدث الجاحظ حولها ويناقش الآراء فيها ويذهب إلى أن اختلاف المواهب تدعو إلى ذلك^(٥). ويعجب الجاحظ ببلاغة الكتاب^(٦)، وحديث الأعراب الفصحاء^(٧) وبلاغة المتكلمين والنظارين^(٨)، ويتحدث عن البلاغة عند كثيرين من الأدباء راوياً وصف ثمانية لبلاغة جعفر بن يحيى^(٩)، وواصفاً هو بلاغة ثمانية^(١٠)، ويصف بلاغة بليغ يحذر من سحر الكلام وأثره^(١١)، والجاحظ هو نفس هذا البليغ، إذ كثيراً ما يتكلم أبو عثمان فيخرج آراءه في معرض الرواية عن سواه.

ويذم الجاحظ بلاغة المتقعرين^(١٢) ومذاهب الشعوية في العرب وبيانهم^(١٣)، يناقش الرأي حول أداة الكتابة والشعر، وهل كانت في رسول الله

(١) ١ : ٨٤ و ٨٥ المرجع.

(٢) ٢ : ١٩ المرجع.

(٣) ١ : ١٢١ المرجع.

(٤) ١ : ١٤٣ - ١٤٨ و ١٨٣ - ١٨٥ و ٢٠٥ البيان.

(٥) ١ : ٥١ و ١٥٠ و ١٥١، ٢ : ٢٥٩ البيان.

(٦) ١ : ١٠٥، ٣ : ٢٢٥ المرجع.

(٧) ١ : ١١٠ المرجع.

(٨) ١ : ١٠٦ المرجع.

(٩) ١ : ٨٥ المرجع.

(١٠) ١ : ٨٩ المرجع.

(١١) ١ : ١٧٦ و ١٧٧ المرجع.

(١٢) ١ : ٢٤٠ البيان.

(١٣) ١ : ١٥ و ١٦ المرجع.

ﷺ معدومة، ويدلي برأيه في ذلك^(١)، ويعلل لأمية الرسول وعدم قرضه للشعر^(٢)، ولقوله ﷺ: نحن معشر الأنبياء بكاء^(٣)، إلى غير ذلك مما يمثل شخصية الجاحظ في بعض ما ناقش فيه رجال البيان في أوضح صورها، وأكمل ذروتها، وإذا كان مؤلف «البرهان» لم يعترف بأهمية كتاب «البيان والتبيين» في مجال البحث البلاغي^(٤)، فإن أبا هلال العسكري قد نوه به وإن وصف بحوثه في البيان بأنها موجزة مفرقة^(٥)، ويرى ابن شهيد في رسالته «النوابع والزوايع» أن الجاحظ لم يكشف في كتاب «البيان» عن وجه تعليم البيان ضئلاً بالفائدة، وشحاً بثمرة العلم^(٦)، ولعله يرى أن الجاحظ لم يعلم الناس في كتابه أساليب البلاغة، ولم ينتج فيه ناحية تطبيقية، وهذا رأي غير عادل ولا دقيق، والجاحظ في كتابه يعرف البيان بأنه ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته^(٧)، ويلخص البلاغة في أنها «بيان وتبيين»، وقد ذكر أبو عثمان مذاهب النقاد فيه، وفصل الحديث حوله^(٨) وحول عناصره^(٩).

كما تحدث في الكتاب عن الخطابة والنثر والشعر حديثاً مطولاً مفرقاً ويكرر الجاحظ في كتابه اصطلاحات بيانية مثل صناعة المنطق^(١٠)، وصناعة الكلام^(١١) التي يقول فيها إنها جوهر ثمين وهي العيار على كل صناعة والزمَام

(١) ٣: ٢٣٠ و ٢٣١ المرجع

(٢) ٢: ٢٢٨ المرجع.

(٣) ٣: ٢٧٦ المرجع.

(٤) ص ١ البرهان.

(٥) ص ٦ و ٧ الصناعتين - ط صبيح - القاهرة.

(٦) ١٩٨ الذخيرة لابن بسام.

(٧) ١: ٦٨ و ٨٥ البيان.

(٨) ١: ٣٠ و ٣١ و ٣٣ و ٤٤ - ٤٦ و ٥٨ - ٦٤ و ٦٦ و ٦٧ و ١٠٦ - ١٠٨ و ١١٠ و ١٢١ و ١١ و ١٧٦ و ٣٣٩، ٢: ١٥٤ و ١٥٥ البيان.

(٩) مواضع متفرقة من «البيان».

(١٠) ١: ٦٧ و ٦٩ و ٢٠٩ و ٢٤٢ البيان.

(١١) ١: ٦٩ و ٢٢٠.

لكل عبارة، وهي لكل تحصيل آلة ومثال^(١).

ودعا الجاحظ في «البيان» إلى مذهب أدبي جديد في اللفظ والأسلوب والمعنى والنظم ومراعاة شتى المقامات والأحوال، إلى غير ذلك، مما هو أليق بمذاهب المحدثين، وبالحضارة التي آلت إليها حياة العباسيين، والجاحظ يدعو إلى عذوبة المحدثين ورقتهم وإلى البعد عن مذاهب البداوة التقليدية في الأدب والبيان. وذلك في مواضع كثيرة متفرقة في كتابه.

على أن الجاحظ له شخصية الواضع لأصول البلاغة والبيان في كتابه الكبير «البيان».

فقد عرض لألوان كثيرة من البيان، فذكر البديع^(٢) والسجع^(٣) والاستعارة^(٤). والتقسيم^(٥) والاستطراد^(٦) والكناية^(٧) والتشبيه^(٨) كما عرض للإيجاز^(٩) والقلب^(١٠) وغيرها من الأساليب، ولم يعرض لهذه الألوان عرض البلاغيين - فيما بعد - لها، بل عرض الأديب المتذوق الناقد.

وعرض الجاحظ كذلك للمجاز^(١١) وللأسلوب الحكيم^(١٢) والجاحظ أول من لقب «المذهب الكلامي» بهذا الاصطلاح^(١٣)، ويقرر مذهب «المساواة» في

(١) ٢ : ٨٥ زهر الآداب ط ١٩٥٣ الحلبي - القاهرة.

(٢) ١ : ٥٤ و ٥٥، ٣ : ٢٤٢ البيان (السندوبي).

(٣) ١ : ١٩٤ و ١٩٥، ٣ : ١٦ البيان.

(٤) ١ : ١١٥ و ١١٦ و ١٩٢ البيان.

(٥) ١ : ١٧٠، ٢ : ٩١ و ٩٢ البيان.

(٦) ١ : ١٣٨، ٣ : ١٠٥.

(٧) ١ : ١٨٠ المرجع.

(٨) ٢ : ٢٢٩، ٣ : ٣٤٣.

(٩) ١ : ٨١، ٢ : ١٩٨.

(١٠) ١ : ١٨٠، ٣ : ٣١.

(١١) ٥ : ٤٢٥ الحيوان.

(١٢) ٢ : ٢٠١ و ٢٠٢ البيان.

(١٣) ٢ : ٧٦ العملة لابن رشيق، ١٠١ البديع لابن المعتز.

البلاغة في كتابه «البيان» حين ينادي بأن الألفاظ على أقدار المعاني^(١).

المتكلمون المعتزليون وفي مقدمتهم الجاحظ كان لهم فضل كبير في الكشف عن أصول علم البلاغة، وإثارة بحوثها، وبجهده بدأت تتكون البلاغة، وتتضح معالمها، ورأي الجاحظ الذي جهر به وهو أن «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك^(٢)» رأي مشهور، وهو ما ذهب إليه كثيرون من البلاغيين، ومن الأدباء كابن خلدون^(٣)، ويقول شيلر: «الشكل في الفن هو كل شيء، والمعنى ليس شيئاً مذكوراً»^(٤).

وهكذا نرى الجاحظ صاحب مذهب في البيان والبلاغة وصناعة الكلام وهو مذهب تأثر به كل البلاغيين في جميع العصور... وقد كان لأبي عثمان وزنه عند شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) حتى لنجده ينوه به وببلاغته في مقدمات كتبه^(٥)، ويستدل بأرائه في الإعجاز^(٦)، وينقل عنه كثيراً من الآراء في مختلف المشكلات والبحوث البيانية^(٧)، وكان عبد القاهر لا يحل أحداً كما يحل الجاحظ، ولا يحترم رأياً كما يحترم رأيه، وكذلك كان الكثير من علماء البلاغة، وضرب عبد القاهر الجرجاني المثل ببلاغة الجاحظ وخاصة في مقدمات كتبه، وكان الجاحظ أفصح الناس وأبلغهم لساناً، وقد ضرب المثل ببلاغته، حتى قيل: من دلائل الإعجاز إيمان الجاحظ به، وكان أبو عثمان يرى أن البلاغة موجودة في كل أدب وأمة، كانت لليونان وكان أرسطو عالماً

(١) ٦ : ٨ الحيوان.

(٢) ٣ : ١٣١ الحيوان، ٥٧ الصناعتين، ودلائل الاعجاز للجرجاني ١٦٧ و ١٦٨.

(٣) ٥٧٧ المقدمة.

(٤) ١٠٥ مملكة الجمال لقراءة.

(٥) ١٤ اسرار البلاغة، ٦٧ دلائل الاعجاز.

(٦) ١٦٣ دلائل الاعجاز.

(٧) راجع ١٦٧ و ١٦٨ و ٢٥٣ و ٤٠ دلائل الاعجاز تحقيق المراغي.

بكلاتهم وتفضيله ومعانيه^(١) وكانت للفرس والهند والعرب بلاغة، وبلاغة العربي إنما هي بديهة وارتجال، وبلاغة الهند لا تنسب إلى امرئ ولكنه لا ينفىها. وبلاغة الفرس ناتجة عن نظر وتدبر، وكان يرى أن الإنسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو الهندية أو الرومية^(٢).

ومع أن الجاحظ من المتكلمين ويجهلهم^(٣)، إلا أنه كان يرى أن اصطلاحات المتكلمين لا يجوز للبليغ أن يستعملها، كما لا يجوز للمتكلمين استعمال ألفاظ الاعراب في جدهم في علم الكلام، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل^(٤) وقول الجاحظ «ولكل مقام مقال» هو أساس التفسير الإعلامي للموقف الاتصالي العام، وهو معنى قول البلاغيين «البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته».

ومن أجل كل ما تقدم يعد الجاحظ في رأينا هو الواضع الأول لعلم البيان العربي، والمؤسس بحق لأصول البلاغة، وقد جعله ابن خلدون من السابقين في التأليف فيها^(٥)، ورأى طه حسين أنه أول من اهتم بالبلاغة، وأنه مؤسس البيان العربي حقاً^(٦)، وجهوده في هذا المضمار هي الأساس الأول الذي قامت عليه علوم البلاغة، والأصل الذي احتذاه المبرد في «الكامل» وابن المدبر في «الرسالة العذراء»، وابن المعتز في «البديع»، وثعلب في «قواعد الشعر»، وابن عبد ربّه في «العقد الفريد» وأبو هلال في «الصناعتين»، وسواهم.

(١) ٣ : ٢٧ البيان (الخانجي).

(٢) ١ : ٣٢ الحيوان.

(٣) تمنى الجاحظ لخير الطب والمرضى أن يكون الأطباء هم المتكلمين كما سبق، وتخرج من نقد من تحرم بحرمة الكلام وشارك المتكلمين في الصناعة (٦ : ٣٧ الحيوان).

(٤) ٣ : ٣٦٨ الحيوان، ويرى الجاحظ أن البليغ قد يستعمل الفاظ المتكلمين نظراً (١ : ١٣١ البيان طبع الخانجي).

(٥) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون.

(٦) ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر.

والنصوص الأدبية الغزيرة التي أوردها الجاحظ في «البيان» وغيره من مؤلفاته كانت هي المادة الأولى التي جمع منها علماء البلاغة شواهدهم في المعاني والبيان البديع. وكتاب «البيان» بما حوى من روائع الشعر والنثر يعد أخطر أثر في الأدب كما هو أخطر أثر في علم البيان العربي، وهكذا أورث أبو عثمان الأدب العربي درة متألقة بهذا الكتاب، كما أورث اللغة العربية كتباً يجلبها الأدباء إجلالاً كإجلال العابد لكتابه^(١).

والجاحظ - بكتابه «البيان»، وبما جمع فيه من آراء في البلاغة، وبما أضاف إليها من جديد مبتكر من آرائه هو - لا شك - شيخ البلاغين، والمؤسس لعلم البلاغة العربية، على النحو الذي يفيد منه التفسير الإعلامي إفادة كبرى.

ولقد كانت تجارب بافلوف على الإنسان والحيوان الركيزة التي تقام عليها فكرة تطويع الإرادة الحرة للإنسان وتسخيرها لإرادة الغير.

ومن هنا فإن الأدب السوفياتي يخرج من دائرة الإبداع الأدبي، إلى دائرة الدعاية، وغسيل الدماغ بكل محاولات للضغط وتحويل المذاهب السياسية. فهو أدب يرمي إلى الاغتصاب النفسي والسيطرة على السلوك، والظفر بتأييد الجماهير بأي ثمن وبأية وسيلة.

والصورة الأخرى تكشف عن الأدب الحق، نضرب لها مثلاً فيما لاحظته العقاد عن الأدب الشعبي في مصر والذي عرفناه سبعة قرون متوالية، ولم نعرف له صيغة عامة غير الصيغة الإنسانية التي تعم جميع الطبقات في جميع الأوقات». على أي موضوع كان الأدب الشعبي يدور بمصر منذ القرن السادس للهجرة؟ إنه كان يدور على ملاحم أبي زيد الهلالي والزناقي خليفة والوزير سالم وسيف بن ذي يزن وغيرهم من أبطال هذا الطراز، وقد اختلفت الهيئة الحاكمة خلال هذه القرون من الدولة الفاطمية إلى الدولة الأيوبية إلى

(١) ٩٩ النقد المنهجي عند الجاحظ.

دول الممالك إلى الدولة العلوية واختلفت كذلك الأحوال الاقتصادية من رواج النقل في تجارة المشرق والمغرب إلى انقطاع الصلة بينهما إلى نشأة الزراعة القطنية إلى تجدد المعاملات التجارية بين القارات الشرقية والغربية وفي جميع هذه القرون كانت قصة أبو زيد الهلالي هي هي، وقصة الزير سالم على نسختها الأولى، وقصة الزوين والتبابعة مسموعة في القرن الثالث عشر كما كانت تسمع قبل ذلك بثلاثة وأربعة قرون.

«وهذا هو رأي الشعب في الأدب الشعبي، لا سلطان عليه للطبقة الحاكمة لأن هذه الطبقة الحاكمة كانت تجهل اللغة التي نظمت بها قصائد السيرة الهلالية وما شابهها، ولأن قبائل بني هلال وبني تغلب وبني من شئت من الأبناء لم يكن لها سلطان على الدولة الحاكمة ولا كانت الدولة الحاكمة معترقة بهم أو جارية في نظام المجتمع على مثالهم. فلماذا أقبل الشعب على تلك الملاحم يسمعها ولا يمل سماعها سبعة قرون أو تزيد؟».

ومن ذلك يتضح أن التفسير الإعلامي يذهب نحو المفهوم الصحيح للأدب وهو لذلك يسعى - في ادبنا العربي - إلى مقاومة الدعوات التي تستر وراء اسم «الأدب الهادف» - الذي «يتجه الكتابة نظماً ونثراً وقصة ودراسة إلى وجهة الدعاية المذهبية التي يروجها أعداء القومية والوطنية وأعداء الثقافة الخالدة من كل تراث مأثور» على حد تعبير العقاد رحمه الله، كما يقاوم التفسير الإعلامي التستر وراء الشعبية لتسويغ الإسفاف السهل على الادعاء، أو تسويغ القضاء على الشعب بالجهل الأبدي، الذي يقصر مطالعته على موضوعات لاتعلو بالقارئ عن طاقة الأمية وما يشبه الأمية من سقط المتاع، ويقاوم التفسير الإعلامي كذلك الدعوة إلى هدم «قواعد الفنون التي تظهر حيناً من جانب العاجزين عن التعبير الفني بقواعده الأصيلة، وحيناً آخر من جانب المتواطئين على الهدم والتحليلين له كل يوم من وراء الستار بعلّة جديدة» كما يقول العقاد أيضاً.

الفصل الخامس

وَفِي أَيِّ الظُّرُوفِ؟

العنصر الخامس في التفسير الإعلامي هو الموقف العام للاتصال الأدبي، فالاستجابات التي تحدث نتيجة لمثير معين، في موقف اتصالي معين، لا تحدث بطريقة آلية أو كيميائية كتأثير الضوء على السطح الحساس مثلاً وإنما - يعتمد على محصلة العوامل الشخصية والقوى الثقافية التي يمثلها كل شخص في الموقف. فالأديب والمتلقي يخلعان على الأشياء من المعاني ما يخلعانه وفقاً لخبرات كليهما الماضية وطريقة فهم كليهما للحياة، ولذلك فإن الأديب مسئول عن جعل رسالته الإبداعية تحتل منطقة البؤرة بدلاً من الحاشية في شعور المستقبل.

ولذلك فإن التفسير الإعلامي يدرك مزالق الاعتماد على مجرد أحكام الرسالة الأدبية وإهمال دراسة الموقف الاتصالي، كما تفعل مناهج التفسير الأدبي الأخرى التي تركز إلى مجرد التعرض للاتصالي، ظناً أن إدراك الأثر الأدبي أمر مضمون ومؤكد بمجرد نشره على الناس، فالجهاير تدرك ما تريد أن تدركه وتعزف عما لا تهتم به، وقد يتأثر المستقبل بجزء معين من الرسالة فيقفز من تعميم الجزء على الكل، أو أنه على العكس من ذلك ينظر إلى الرسالة الأدبية في ضوء إطار أكبر، كالحكم على قصة من القصص مثلاً على ضوء الموقف العام والاتجاه العام من موضوعها.

ولذلك ينظر التفسير الإعلامي للأدب على أن جوهره الاتصالي عملية متصلة الحلقات متبادلة، تتطلب دراسة المستقبل كما تدرس المرسل، فتعنى

بدراسة دوافع المستقبل وقيمه وطريقة إدراكه ومعاني مدركاته على اعتبار أن الإدراك محصلة مجموعتين من العوامل البنائية، والذاتية، كما يعنى بدراسة العادات الاتصالية فهناك من يفضل الإذاعة وهناك من يفضل الكتاب وهناك من يفضل الصفحة الخ.

ويلفت فيرنج النظر إلى أهمية هذه القضية قائلاً: «إنه ليس من الممكن تبسيط عملية الاتصال إلى حد اعتبارها مجرد نقل معلومات وأفكار أو وحدات ذات معنى من مصدر إلى آخر، ولذلك فإنه يصر على اعتبار المستقبل مفسراً وليس مجرد جهاز تسجيل، ومن ناحية أخرى يثير «كولمان» و«ومارسن» وحدة العملية الاتصالية، فالمرسل والمضمون والوسيلة والمستقبل والاستجابة هي جميعاً حلقات متصلة في سلسلة واحدة، وتنهار عملية الاتصال كلها إذا اعترت هذه السلسلة نقطة ضعف معينة في أية حلقة من حلقاتها.

العوامل المؤثرة في الأدب

عرفنا أن الأدب مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية، وتسجيل لأحداثها وأحوالها ومشاعرها وخواطرها، يخضع لما تخضع له، ويتأثر بما تتأثر به، لأنه التعبير الصادق عما تضطرب به النفس من مشاعر وخواطر وأخيلة، وهذه المشاعر والخواطر والأخيلة تتأثر بعوامل الطبيعة وأحوال العيش وأنواع العقائد وأطوار المجتمع وتقلبات السياسة ونحو ذلك؛ فالأدب صورة إقليمية. والأديب ابن بيئته. وإذن فمن واجب مؤرخ الأدب أن يعرف هذه العوامل. لأنها تعينه على فهم الأدب وتذوقه ورده إلى أصوله وتفسيره. كما أن من واجب دارس الأدب أن يضيف إلى الإلمام بذلك المؤثرات الخاصة التي لا يست حياة الأديب الشخصية، ووجهه. ووجهه مذهبه ولونت مزاجه وتفكيره.

فمن أهم العوامل التي تؤثر في الأدب بوجه عام.

أولاً: الاستعداد الفطري: فليس كل إنسان يتأثر بما يحيط به، فيصور تأثره في الشعر أو النثر، وإنما يستطيع ذلك من رزق صفاء الطبع ورقة الشعور ودقة الإحساس، وموهبة في الأدب، وبعض الناس يتاح له من ذلك

حظ يسير، وبعضهم يتاح له أوفر الحظ. ومنهم من جبل على تبدل الشعور ونكد الخاطر واستغلاق الطبع، فلا يتأثر بما حوله حتى يصور تأثره في شعر أو نثر.

وعلى هذا النحو ترى الأمم تختلف في استعدادها الفطري، وتباين في نصيبها من هذا الحظ، وقد أتيح للأمة العربية أن تكون أقوى الأمم شاعرية، وأشعر الأمم السامية، لفراغ العرب وشدة حسهم وتوقد قرائحهم وصفاء سمائهم. وسكون صحرائهم وحريرتهم واستقلالهم، وحنينهم وهيامهم، ولكثرة حلهم وترحالهم. وكذلك كان حظ الأمة اليونانية كبيراً من هذا الاستعداد الفطري، وتلك الموهبة الغريزية، فكانت أمة شاعرة. أما الأمة الرومانية فلم يتح لها غير حظ يسير لم يكن شيئاً. بجانب ما أتيح لها من مواهب أخرى هيأت لها النبوغ في الحرب والسياسة والتشريع.

ثانياً: الأقليم والمناخ: تختلف طبائع الأقاليم وأجواؤها، فيختلف تأثيرها في نفوس الناس وأحوالهم ونظام اجتماعهم، لأن طبيعة الأقليم هي التي تنهج لسكانه سنن المعيشة، ونظام الاجتماع. وتكون أخلاقه وطباعه، ومناظره هي التي تربى ذوق أبنائه، وتغذي خيال كتابه وشعرائه، ولقد يكون الإقليم صحراوياً وقد يكون جبلياً، وقد يكون سهلاً، وقد يقرب من البحر أو تشقه الأنهار، وكل عامل من هذه العوامل يؤثر تأثيره الخاص في الحياة المادية والمعنوية لمن يعيشون في ظلاله. . . فالشعر الجاهلي قد تأثر أشد التأثر بطبيعة البادية وحياة البدو، فالفاظه خشنة كجبالها، ومعانيه وحشية كأوابدها، وأساليبه متشابهة كصخورها وأخيلته مجذبة كقفرها، وهو صورة صادقة لهذه الطبيعة، يتمثل فيه وصف الصحراء والسراب والأباعر والغزلان والكتبان والأطلال والجبال أكثر من أي شيء آخر.

اقرأ لامرئ القيس:

ترى بعمر الأرام في عرصاتها
وقيعانها كأنه حب فلفل

كأني غداة البين يوم تحملوا
لدى سممرات الحي ناقف حنظل^(١)
فمن لنا سرب كأن نعاجه
عذارى دوار في ملاء مذيّل^(٢)
كأن ثبيرا في عرائن وبله
كبير أناس في بجاد مزمل^(٣)

واقراً للناطقة:

ومهمه نازح تعوي الذئاب به
نائي المياه عن الورد مقفار^(٤)
جاوزته بعلى عداة مناقلة
وعر الطريق على الأحزان مضمار^(٥)
كأنما الرحل منها فوق ذي جدد
ذب الرياد إلى الأشباح نظار^(٦)
واقراً للبيد في تشبيه ناقته بالبقرة الوحشية:
أفتلك أم وحشية مسبوعة
خذلت وهادية الصوار قوامها^(٧)

-
- (١) السممرات. جمع سمرة: الشجرة. نقف الحنظل استخراج حبه ونقفه انهمر دمه لحرارته.
(٢) عن: عرض. السرب: القطيع. دوار اسم صنم. المذيّل طويل الأطراف.
(٣) ثبيرا: جبل. عرائن وبله: طغيان وبله. البجاد كساء مخطط، أي أن المطر ترك في الجبل خطوطاً كمخطوط البجاد.
(٤) المهمة: الوادي الموحش.
(٥) على عداة: شديدة وصف للناقة. مناقلة: سريعة نقل القوائم، الأحزان المشي في الحزن.
(٦) ذو الجدد: ثور الوحش فيه خطوط بيض وحمراء، الذهب: البقع. والزيادة الارتداد أي أنه قلق لا يستقر.
(٧) مسبوعة: أكل السبع ولدها. خذلت: تأخرت عن البقر. الصوار جماعة البقر وهاديتها متقدمتها التي تهديها أي أن ملاكها هادية الصوار.

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم
 عرض الشقائق طوفها وبغامها^(١)
 علقت تبلد في نهاء صعائد
 سبعاً تواماً كاملاً أيامها^(٢)
 فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحي
 واجتاب أردية السراب أكامها^(٣)

فلما انبث العرب في الأقاليم المتحضرة تأثرت آدابهم بها، وكان شعرهم فيها غير شعرهم في الجزيرة، بل كان شعرهم في كل إقليم يختلف عنه في الأقليم الآخر... وهكذا ظل عامل الطبيعة يفعل فعله، حتى رأيناه يخالف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الأندلس، فقد وجد شعراء العرب في الأندلس الطبيعة المترجة الشاعرة من مروج مطرزة بالزهر، وجبال مؤزرة بالنبت وأنهار تلتف كالأساور على معاصم الهضاب، وخصائل تمتد كالأهداب على العيون العذاب، هذا إلى الأمطار المتصلة، والمناظر المختلفة، فدبجوا الشعر تدبيج زهرها. وسلسلوه سلسلة أنهارها، ونوعوا فيه وجددوا في أوزانه وقوافيه، حتى أصبحنا نقرأ مثل هذا الشعر الرقيق في وصف بلنسية لمروان بن عبد الله!

كان بلنسية كاعب وملبسها سندس أخضر
 إذا جئتها سترت نفسها بأكامها فهي لا تظهر

ووصف هذا المنظر لابن خفاجة:

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لمى الحسناء
 متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتنفه مجر سماء
 وغدت تحف به الغصون كأنها هذب تحف بمقلة زرقاء

(١) خنساء: قصيدة الأنف. الفرير: ولد البقرة.

(٢) علقت: تحيرت. تبلد: تردد. الصعائد: المرتفعة ونهاؤها: نهايتها.

(٣) اللوامع: الآل. اجتاب: لبس.

وهذا العامل هو الذي يخالف كذلك بين الأدب في مصر وبينه في الشام والعراق، فالطبيعة المصرية مسالمة لاتزعج بالزلازل، ولا تهتز بالعواصف، ولا يهيجها البرد القارس، ولا يلذعها لحر اللافح، فجوها لا يكاد يختلف، ومناظرها لا تكاد تتغير، وهذا طبع أهلها على المحافظة والوداعة والفكاهة والكسل، وجاء الشعر المصري منضد اللفظ جيد السبك بطيء التجدد هادئ الأسلوب، يتناول الأمور في اعتدال ورفق ولين، بينما نرى الشعر الشامي شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد قلق الأساليب، بسبب نشاط الحياة وتعدد المناظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة. وبينما نرى الشعر العراقي قوياً ثائراً ساخطاً متوثباً متوقد الشعور من إسراف الطبيعة في الحر والبرد وغلبة البدواة على السكان.

وقد أخذ عامل الطبيعة يضعف بسهولة المواصلات وانتشار المدنية، حتى أصبحنا نرى التقارب بين شعراء هذه الأقطار في المذاهب الأدبية والصناعة الفنية والروح والخيال، وسيزداد هذا العامل ضعفاً في المستقبل، ولكنه سيحتفظ بتأثيره على كل حال.

ثالثاً: خصائص الجنس: فالجنس الآري يميل إلى الاستقصاء والتفصيل والتعليل والتعمق، بينما يميل الجنس السامي إلى التعميم والإهمال والبساطة لذكاء قلبه وحدة خاطره، وهكذا يتميز كل جنس بخصائصه وسياته، وهي خصائص تؤثر في الإنتاج الأدبي وتبدو فيه بصورة واضحة، ف شعر العرب يختلف عن شعر اليونان والأوربيين في المذهب والخيال والغرض، وشعر ابن الرومي مثلاً يختلف عن شعر ابن المعتز مع أنها نشأ في بلد واحد وعصر واحد، فابن الرومي يحلل ويتعمق ويستقصي، بينما يعم ابن المعتز ويحتمل ويتبسط لأنه عربي أصيل، وإنك لتحس أثر هذا العامل حين تقرأ للنابغة الشاعر العربي الجاهلي قوله:

ولست بمستبق أحداً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب؟

ثم ترى هذا المعنى عند بشار بن برد وكيف حلل فيه واستقصى وكرر

وزاد في التصوير حتى صور في أبيات ما كان يصوره النابغة في بعض بيت.
قال بشار:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذي لا فعائبه
فعرش واحداً أو صل أخاك فإنه
مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذ أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاريبه؟
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلاً أن تعد معائبه

رابعاً: الحضارة والاجتماع: فالحضارة والرخاء مما يؤثر في الذوق، ويزيد في الصور والمناظر، وفي معنى الأدب وأغراضه، فالمعاني التي تخطر للمتحضرين غير المعاني التي تخطر لأهل البادية، والأغراض التي يقول فيها أهل الحضر غير أغراض البدويين، والألفاظ الحضرية تلائم الحياة المتحضرة رقة وعدوبة ووضوحاً وحسن استقصاء، ولهذا نجد الفروق عظيمة بين شعر العرب قبل أن يتحضروا، وبعد أن تحضروا في مصر والشام والعراق والأندلس. وكذلك نرى الفروق عظيمة بين شعرهم إبان ازدهار حضارتهم وشعرهم بعد انحطاط الحضارة الإسلامية حين تغلب الترك والتتار، ومن هنا عاد إلى الأدب العربي رونقه ورقية بوجه عام حين أخذت الحضارة تزدهر منذ كانت النهضة الحديثة.

ومن شواهد تأثير الحضارة والحياة الاجتماعية في الأدب أن مدن الحجاز حينما زخرت بالمال ونعمت بالفراغ، منذ خلافة عثمان إلى أواخر القرن الأول للهجرة، غرق أهلها في اللهو، وعكفوا على الغناء، وشرقوا بالنعيم واستسلموا للصباغة، وانقطع شعراؤها إلى الغزل فاقتنوا فيه وتصرفوا في معانيه، كعمر وجبل وكثير.

ومن الشواهد كذلك ظهور الشعر العامي في بغداد والأندلس في عصر

واحد، ففي بغداد ظهر (الموالي) على لسان صنائع البرامكة، وشعر (القوما) الذي كان ينادي به رعاع العامة في طوافهم بالليل في شهر رمضان وفي الأندلس ظهر الموشح والزجل، ونبغ فيهما النوايع. ولكن البغداديين استهجنوا أدب العامة وعزفوا عنه، بينما استحسنته الأندلسيون ونبغوا فيه، والسبب في ذلك أن بغداد كانت أرستقراطية «لأنها موطن الأشراف وذوى الأحساب والثروة» فكانوا يترفعون عن الشعب وأدبه، ويأنفون من مجاراته أما الأندلس فكانت ديمقراطية غنية، لم يعتز أحد فيها بالنسب لتساوهم فيه، ولا بالثروة لعموم الرخاء وحسن توزيع الثروة، لذلك لم يترفع الشعراء والأدباء فيها عن تقليد الأدب العامي وتدوينه.

خامساً: العلم: وهو لون من ألوان الحضارة له أثره وخطره في ترقية العقل وتقوية الشعور وتنمية التصور، وخلق أنواع طريفة من الأدب، فإذا صرفنا النظر عن منظومة ابن عبد ربه في التاريخ وألفية ابن مالك في النحو، فإننا نلاحظ أن انتشار العلوم قد أحدث نوعاً من القصص الخيالية تمتاز فيها حقائق العلم بروعة الخيال وغرابة الحوادث تحقيقاً لرأي أو تشويقاً للعلم، كما صنع ابن الطفيل الأندلسي في رسالة (حي بن يقظان) فقد شرح في هذه القصة كيف يستطيع الإنسان بمجرد عقله أن يتدرج من المحسوسات البسيطة إلى أسمى النظريات العلمية، ولكنه يعجز عن إدراك أرقى الحقائق بغير وحي من الله أو هداية نبي.

وللتاريخ تأثير كبير في الأدب، فهو مادة لا بد منها لثقافة الأديب يستمد منها فيما يكتب، ويستعين بها فيما يفكر، وكثيراً ما كانت أحداثه مادة الأدب وخاصة في العصور الحديثة، حيث أصبحت موضوعاً مهماً للقصص التاريخية، كما فعل شكسبير في بعض قصصه في الأدب الإنجليزي، وكما فعل جورج زيدان وأحمد شوقي وغيرهما في الأدب العربي. ومن ناحية أخرى نرى بعض الكتابات التاريخية نفسها قطعاً أدبية كما في تاريخ الطبري. بل إن بعض الكتب التاريخية كتب أدبية بأكملها، وهكذا يكون التاريخ من أهم العناصر التي تنشئ النثر الفني، وقد قالوا إن كتاب هيرودوت هو أقدم كتاب منشور

رائع عرفه الأدب اليوناني.

وللعلوم فضل ظاهر على اللغة في المادة والأسلوب، وأثر قوي في ترقية النثر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح.

ولم يرتق النثر في أمة إلا بعد رقيها في الحضارة والعلم، لأن النثر لغة العقل كما أن الشعر لغة الخيال، فالنثر العربي لم يرق إلا في ظلال الحضارة.

هذا وقد يختلف تأثير انتشار التعليم في الأدب باختلاف ما يكون له من مدى، فانتشار العلم في العصور القديمة كان نسبياً مقصوراً على طائفة خاصة، فكان الأدب أرسطوياً أو قريباً من الأرسطراطية، فأما في العصور الحديثة حين أتيح العلم للناس جميعاً فقد أصبح الأدب ديمقراطياً شعبياً، وأخذ الأدباء يفكرون حين ينشئون في طبقات من الناس لم يكن يفكر فيها أسلافهم.

سادساً: الدين: وللدين وما يتصل به من أخلاق ومعتقدات تأثير كبير في الأدب، فإنه يخلق موضوعات جديدة، ويؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الأدب، ولا بدع فالدين قوام الحياة النفسية للشعوب، ومن ثم كان أثره واضحاً في كل ما يصدر عنها من آثار مادية ومعنوية، فالآثار المادية الفنية كالمعابد والمساجد والكنائس والتماثيل، أما المعنوية فمنها هذه الأناشيد الدينية التي هي مبدأ الشعر في كل أمة كالأناشيد (رع) عند المصريين، وأناشيد (آرفيه) عند اليونانيين. ومنها هذا السجع الذي كان يجري على ألسنة الكهان في الجاهلية، والذي يظن أنه مبدأ الشعر العربي. وكثير من الديانات صحبه كتاب مقدس يعد مثلاً أدبياً ممتازاً كالقرآن الكريم، والأدب التمثيلي أثر من آثار بعض الديانات اليونانية، وقد أوجد الدين الإسلامي الأدب الصوفي وشعر الزهد، ونهض بالخطابة الدينية التي تلقى في محافل الصلاة العامة ومقامات الوعظ، ونحو ذلك، مما يدلنا على أن تأثير الدين في الحياة الفنية قوي عميق، وهو فوق ذلك يهذب النفس، ويرقق الشعور، ويسمو بالإنسان إلى مستوى رفيع.

سابعاً: الحياة السياسية: وللنظام السياسي أثره في خلق فنون من الأدب أو ازدهار بعض ألوانه، أو انحطاط بعضها، فالنظام الاستبدادي العنيف ينتج ألواناً من الأدب يظهر فيها التملق والتفاق والإسراف في تمجيد أصحاب السلطان، ومن ثم يزدهر في المدح، كما يظهر الأدب الرمزي الذي يضطر إليه بعض الأدباء في تصوير الظلم والفساد، فيهربون من الصراحة التي تؤدي بهم إلى الرمز والإيهام، أو اصطناع الحيوان لإجراء ما يروون على لسانه، على النحو الذي نراه في كتاب (كليلة ودمنة)، أو (جنة الحيوان) أو (المعذبون في الأرض) لطفه حسين. وبعض الشعراء الذين يتسترون وراء موضوعات رمزية، وفي ظلال الحرية والنهضة السياسية تزدهر الخطابة ولاسيما الخطابة السياسية، ذلك النوع الذي تخلفه الحرية السياسية والحياة الديمقراطية والأنظمة الدستورية، كما حدث في النهضة المصرية التي أخرجت أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول، وكذلك يزدهر الشعر الحياشي والوطني ونحوهما من الشعر السياسي الذي تصنعه الأحزاب السياسية كما كنا نرى وكما رأينا في صدر الدولة الإسلامية، وفي ظلال الاستبداد يخفت صوت الخطابة، ويذهب الأدب الصريح الصادق الذي يمثل الحرية الفردية والاجتماعية.

وتعمل السياسة عملها في رواج بعض الفنون وانتشارها، ففي خلافة معاوية انتشر الهجاء المقلع في العراق لأنه ساسه بالتفريق وإحياء العصبية ليشغل الناس عن الخصومة في خلافته بالخصومة في أمر الشعراء مثلاً، وانتشر الغزل في الحجاز لأنه اعتقل شباب الهاشميين في مدنه، وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال والفراغ.

وقد يكون ضعف السياسة قوة للأدب كما حدث من ازدهار الأدب بعد انصداع شمل الخلافة بعد عهد المتوكل واستقلال الولاة في فارس ومصر والشام والمغرب بسبب المنافسة بين هؤلاء الولاة.

ثامناً: اتصال الشعوب: وقد تكون الصلة بين الشعوب حرية فتصل بين الغالب والمغلوب ويتفتح كل بما عند الآخر، فقد تأثر الرومان بحضارة اليونان وآدابهم لهذا السبب، كما أفاد العرب من الفرس والروم وسائر البلاد

التي فتحوها، على أن الحروب بين الشعوب تنمي فنوناً حماسية وربما أوجدت الشعر القصصي. فالإلياذة الإغريقية تدور على حروب اليونان لأهل طروادة والشاهنامه الفارسية على تاريخ الأكاسرة ووصف الحزب بين أهل إيران وأهل طوران. وهكذا كان الشعر القصصي أو الملاحم التي خلا منها الشعر العربي لعوامل ترجع إلى البيئة والاقليم والدين. على أن عامل الحروب قد أثر في النثر العربي والشعر العامي، فإن نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بني هلال ونحو ذلك، كما أثر في الشعر الفصيح الذي يصور أيام العرب ووقائعها في الجاهلية.

أما الاتصال السلمي بين الشعوب فيتيح لها أن تتبادل الثمار العقلية والفنية وغيرها، وتتواصل بالجوار والمصاهرة، وهكذا يأخذ بعضها من بعض ويقلد بعضها بعضاً، فتنشأ في الأدب فنون لم تكن معروفة، وتتطور الفنون التي كانت معروفة، وقد تضعف فنون كانت قوية قبل الاتصال، فهذه دولة العباسيين في بغداد ودولة الأمويين في قرطبة كانت حضارة كل منهما نتيجة اختلاط شعوب مختلفة، لكل شعب منها خصائصه، فالتقت العقلية السامية بالعقلية الآرية، وكان لهذا اللقاح أثر في الفكر، مما يعلل لنا وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وابن الرومي وغيرهم، وأثره في الاتجاه يظهر في الأغراض الجديدة كالغزل بالملذكر مثلاً الذي ولده هذا الاختلاط.

وقد اتصلت مصر والشرق العربي بأوروبا منذ القرن الماضي فتطورت الحياة الأدبية فيهما تطوراً ملموساً، وتأثر الأدب المصري بالأدب الأوروبي في أساليبه ومذاهبه.

تاسعاً: التقليد والاحتذاء: والتقليد فطري في الإنسان لا يستطيع بدونه أن يتكلم أو يتعلم، ولولا الاحتذاء لما كانت فنون الآداب، فالشعر والنثر إنما يصاغان على قواعد وأساليب خاصة، وما مراعاتها إلا اقتداء الأديب بمن سبقه وترسم خطاه.

وللتقليد في الآداب أثر ظاهر، فالشعر اللاتيني عاش زمناً على تقليد

الشعر اليوناني، كما قلد الأوريون اليونان في الشعر التمثيلي وغيره من الملاحم، وظهر أثر التقليد في الأدب العربي الحديث فظهر الشعر التمثيلي على يد شوقي وغيره من الشعراء، وظهرت الأقصوصة والقصة والرواية وغير ذلك مما أضاف إلى فصوله فصلاً خالدة.

والأدب الفارسي والأدب التركي قد تأثرا بالأدب العربي، فقرض الفرس شعراً بالأوزان العربية؛ أما الأتراك العثمانيون فإنهم حين أخذوا يدونون أشعارهم في القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الأوزان العربية مدداً لأوزانهم القديمة.

عاشراً: وهناك عوامل أخرى كثيرة تؤثر في الأدب بعضها خاص وبعضها عام، لا يمكن حصرها وإن كان ينبغي أن نذكر منها أيام العرب وأسواقها وستحدث عنها في فصل خاص، وكذلك النقد الذي يرشد الأدباء إلى المناهج الصالحة، والغناء الذي يهذب ألفاظ الشعر ويرقق حاشيته ويذيع الأدب وينشره بين جميع الطبقات، فيرتفع بأذواق العامة وأفكارهم وأساليبهم كما نرى في عصرنا الحالي الذي يردد فيه العامة شعر شوقي وغير شوقي مما يغنيه عبد الوهاب أو تنشده أم كلثوم. ويجب ألا ننسى مجالس الأدب التي كان يعقدها أمثال عبد الملك بن مروان وما لها من أثر كبير في النهوض به، والمنافسة في روايته كما لا ننسى أثر تشجيع الأدباء وإجازاتهم مما يدعوا إلى الإبداع والإبداع، وغير ذلك مما يؤثر في الأدب.

والخلاصة في ذلك أن أي أثر في الحياة يظهر في الأدب لأنه صورتها وترجمتها وتاريخها^(١).

ومن ذلك يتضح أن الموقف الاتصالي العام الذي يعبر عنه في نظرية الإعلام بهذا التساؤل «في أي ظروف؟» أمر جوهري لتفسير الأدب، ومن ذلك أننا حينها ندرس الأدب الأندلسي مثلاً لا يمكننا بحال من الأحوال أن

(١) من مصادر هذا البحث. أصول النقد الأدبي للأستاذ أحمد الشايب، في أصول الأدب للأستاذ الزيات. التوجيه الأدبي للدكتور طه حسين. مقالة للدكتور أحمد صيف في مجلة دار العلوم.

نتجاهل الموقف الاتصالي العام للذي أبدع فنوناً أدبية جديدة، كان المرسل والمستقبل على وفاق فيها، ذلك أن العرب قد دخلوا الأندلس، واستراحوا من الفتح والجهاد، فرجعوا إلى طبيعتهم المتأصلة فيهم، وإلى الملكة التي نشأوا عليها، وورثوها في دمائهم، وهي قرض الشعر، وخاصة أن الشعر هو غذاؤهم الروحي ومتعتهم النفسية، ومرآة لحياة العربي الاجتماعية والعقلية والسياسية، يتغنى به في حله وترحاله، ويصور فيه ما يجول بخلد من حب وبغض، ويرسم فيه ما يحيط به من جمال الطبيعة، وما تلهمه به هذه الجنة الساحرة من روائع القصيد.

ولما أقام العربي في هذه البيئة، وعاش عيشة فراغ وخيال، ظهر الشعر العربي متشحا بمطارف الخيال البديع، وخاصة لما رآه العربي من جمال طبيعة هذه البلاد، وظل يعيش بعقله وخياله في البادية ومراثيها، فكانت معيشتة تمثل حياتين: حياة الحضر التي يحياها، وحياة البادية التي يتمثلها في خياله وأحلامه، وكان شعره منبعثاً من هذين الأثرين، فظهر فيه جمال الفطرة وجزالة البداوة، ونضارة الحضارة، ورقة الخيال، وكان في صور الطبيعة ما يلهم قريحته بأجل صور الوصف، وأروع قصائد التصوير، وجود الشعراء حيث رسموا في شعرهم كل شيء وقع عليه نظرهم، ومر بخاطرهم.

وقد كان الشعر أسبق أنواع الأدب ظهوراً في هذه البيئة الجميلة، وذلك لأن الشعر مظهر الثقافة العربية، ولأنه مرآة لحياة العربي العقلية والاجتماعية يشدو به حيثما نزل، وأيان ارتحل، ولأن ذلك جزء من كيان طبيعة العربي لا يمكنه الاستغناء عنه، أو اطراح الشدو به، على أن العرب حين امتزجوا بسكان البلاد، واعتنقوا الإسلام كثير من سكان البلاد الأصليين، وتعلموا العربية وآدابها وبلاغاتها، نشأ جيل جديد من المولدين أخذ الشعر صناعة لا طبعاً، ولكنه أقبل على قرض الشعر إقبال العربي الأصل لتعلق الطبع دائماً بالشعر وحنين الخيال إليه، ولقد ذاع الشعر بين جميع الطبقات، وأقبل الناس على نظمهم، سواء منهم الخلفاء والأمراء والوزراء والفقهاء والحكماء والأدباء والنساء.

مدى عناية الأندلسيين بالشعر:

١ - لم يكن للشعر في أوائل الفتح مجال، لأن العرب كانوا جد مشغولين بالجهاد والغزو، وتوطيد دعائم الأمن وتنظيم الملك والدولة، فلم يتح لهم ذلك فراغاً يهدأون فيه لنظم الشعر وقرضه.

٢ - ولما قام ملك بني أمية، فتح الخلفاء صدورهم للشعراء والأدباء في مجالس الأدب والغناء، وأفاضوا عليهم الأموال، واتخذ الشعراء الشعر وسيلة التقرب إلى الحكام وكبار القوم، بمدحهم والزلفى إليهم، ووصف مجالسهم وقصورهم ومعالم الحضارة في بلادهم، حتى كان الشعر وسيلة إلى الثراء والجاه والنفوذ، وظهر في عصر الأمويين العديد من الشعراء، من أمثال ابن هانئ الأندلسي، وابن دراج القسطلبي، وأحمد بن شهيد، وسواهم، وكان تشجيع الملوك والأمراء والوزراء للشعراء بالغاً للغاية، فلا عجب إذا ازدهر الشعر على مختلف أنواعه، وأخذت حاشية الشعراء ترق، وإحساسهم الفني يرهف. وبلغ من زيادة مكانة الشعر أن نظمه الملوك والأمراء والوزراء، فمن ذلك قول الداخل من أبيات بعث بها إلى أخته بالشام:

قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

٣ - وكان عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الشعر والأدب في الأندلس، ظهر فيه كثير من فحول الشعراء، كابن زيدون، وابن خفاجة وابن وهبون وابن عمار، والمعتمد بن عباد ملك أشبيلية، وصار الشعر يجري على كل لسان، حتى إنه كان - كما يقول ابن حيان - باستطاعة الفلاح الذي يحرث الأرض أن يرتجل الشعر في أي موضوع يعن له، وأخذ ملوك دول الطوائف وأمراؤها ووزراؤها يحتفون بالشعراء ويتنافسون عليهم، وعلى ضمهم إلى بطانتهم، فينظمون لهم المدايح ويسطرون ما يفعلون من مآثر ومحامد، فلا بدع إذا كثرت شعراء ذلك العصر وعظم شعر المدح، وجرى حتى على السنة الملوك والأمراء والوزراء، وكان المعتمد شاعراً مجيداً، ينظم الشعر ويتذوقه

وينقده، ولم يكن يستوزر إلا من كان أديباً أو شاعراً.

٤ - وفي عهد المرابطين ظهر ابن قزمان، واستحدث في الشعر فن الزجل، وظهر فيه وفي عهد الموحدون الكثير من الشعراء، وفي مقدمتهم: ابن خاقان وابن سهل، وسواهم.

٥ - وقامت دولة بني الأحمر، وهي من أصول عربية سليمة، فشجعت الأدباء والشعراء، وعنت بسباع الشعر صوت في كل مناسبة وكل حدث، وفي كل انتصار لبني الأحمر على المسيحيين الأسبانيين، وكثر الشعراء في عهدهم، ومن أشهرهم لسان الدين بن الخطيب. ثم انتهى الحكم العربي في الأندلس عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م. فانتهدت العربية وآدابها في هذه البلاد، وإن بقي تأثير الشعر الأندلسي في الشعر الأوربي في أسبانيا وفرنسا وجنوبي إيطاليا زمناً طويلاً، فالطابع الذي اتسم به الشعر الفرنجي من وصف مناظر الطبيعة، وتصوير جمالها، ومن الشعر الغنائي، والمقطوعات الشعرية المقفاة التي تحاكي الشعر العربي في أفكاره وأخيلته، لا يختلف عن طابع الشعر الأندلسي، مما يشهد أن الأوربيين نهلوا من معين الشعر الأندلسي، وكان الشعر الفرنسي يحاكي الشعر الأندلسي، ويأخذ عنه صناعة الشعر والقوافي، بل إن الملاحم القشتالية احتوت ألفاظاً عربية مثل الدليل والقاضي والطلائع والغارة وسواها، مما يشير إلى أثر الأدب الأندلسي في الشعر الأندلسي في صميم هذه الملاحم ومعظم ما جاء به دانتي الشاعر الإيطالي مأخوذ عن محيي الدين بن عربي. سواء في الصور أم في الأمثال والأصطلاحات والأساليب الفنية، وقد اصطفي الشعر الأنسابي بصبغة أندلسية اعترف بها النقاد والباحثون.

أسباب ازدهار الشعر في الأندلس:

١ - روح الشاعرية الموهوبة المتأصلة في نفس العربي أينما كان وحيثما ارتحل.

٢ - تعدد البواعث التي كانت تلهم الشعراء الشعر، وتدفعهم إلى قرضه.

٣ - كثرة جمهرة العرب في الأندلس، وتمكن السلطان في أيديهم،
وشدة عنايتهم باللغة العربية وآدابها.

٤ - طبيعة بلاد الأندلس وما فيها من المناظر المختلفة والامصار المتصلة
والأدواح الظليلة، والأنهار الجارية، والسهول الخصبة، والجبال المكسوة،
والمروج الموشاة بألوان الزهر، والقصور الشاهقة والرياض الغناء، كل ذلك
أكسب المواهب انطلاقاً، والوجدان لطفاً، والمعاني دقة، والألفاظ جمالاً
وروعة.

٥ - عناية الملوك والأمراء بقرض الشعر حملت الشعب جميعه على
الإقبال عليه، حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب، وجمالاً لكل عالم،
أولع به الفقهاء والنحاة والفلاسفة، والرياضيون، والأطباء والمؤرخون، كما
أولع به كثير من النساء حتى نبغن فيه وبارين الرجال، وقلن الجيد الممتع منه،
من مثل حمدونة الأندلسية.

خصائصه الفنية:

وقد تميز الشعر الأندلسي بميزات واضحة في ألفاظه وأساليبه. وفي معانيه
وأخيلته:

١ - فأما من حيث الألفاظ والأساليب، فقد تميز بسهولة في اللفظ،
وسلاسة في التراكيب، وذلك أثر لسهولة طباعهم، ولين أخلاقهم، ورقة
الطبيعة الأندلسية وجمالها، ولإرسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع ولا
تحميل للألفاظ ما لا تطيق من المعاني المزدحمة، حتى جاء شعرهم جاريماً مع
الطبع، متساوياً مع الفطرة، فضلاً عن أنهم لم يبالغوا في الأخذ بفنون البديع
من تورية وجتناس وطباق وغيرها، وما كان يقع لهم من ذلك في عباراتهم كان
أكثره جيلاً مقبولاً، لأن الشعراء كانوا لا يأخذون من هذه الأنواع البديعية إلا
ما كانت تجود به قرائحهم من غير تعمل ولا إجهاد خاطر، وإن كان ابن
هاني الأندلسي يكاد وحده يتميز بطابع البداوة في ألفاظه وأساليبه، فقد أحيا

القعقة البدوية في شعره، وتناول من الألفاظ الغريب المعن في البداوة من مثل شيطم وما شابهه.

٢- وأما في المعاني فإنك تجد معاني الشعر الأندلسي واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء، لقلة المشتغلين منهم بالفلسفة واضطهاد علومها في الأندلس، وبغض العامة لها، وكثيراً ما كان الشاعر الأندلسي يطرق المعاني المعروفة. ولكنه بما يولد ويركب ويغرب ويدع في الصناعة يخيل للناظر أنه أتى بالجديد المبتكر، وإنما المبتكر التوليد والخيال، والمعاني الجزئية، وهذا كان سمة لابن هاني، وإن كان له أحياناً من المعاني الجديدة ما يسلكه في عداد الشعراء المبتكرين المجددين، أنظر إلى قوله:

قمن في مأثم على العشاق ولبسن السواد في الأحداق
ومنحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق

ومن المعاني الطريفة التي كان يلم بها الشاعر الأندلسي أحياناً قول ابن برد في وصف انبلاج الصبح، مع ما حلاه به من غريب التشبيه المبتكر:

وكان الليل حين لوى ذاهباً والصبح قد لاحا
كتلة سوداء أحرقها عامداً أسرجها مصباحا

٣- وقد غلب على الشعر الأندلسي الخيال البديع، الذي نراه في ملكات الشعراء ضروب الجمال المنتشرة في شبه جزيرتهم، وساعدهم ذلك على أن يجودوا التشبيه، ويكثرُوا من استعمال المجاز والكناية في شعرهم. ولا بدع فقد كانت الأندلس مباءة الخيال ومسرحه بما ركب الله في طبيعتها من فنون السحر والجمال. لذلك أتى شعراء الأندلس منه بالعجب العجائب في أشعارهم فلهم التشبيهات البديعة والاستعارات الفاتنة والتوليدات العجيبة والأخيلة الرائعة انظر إلى قول حمدونة بنت زياد تصف وادياً:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا الذمن المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتها فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد العظيم
ومن إمعانهم في الخيال فشا في كلامهم هذا النوع البديعي المعروف
بحسن التعليل، فقل أن نجد شاعراً لم يستعمله، ومن أمثله قول أبي بكر
ابن زهر:

وموسدين على الأكف خدودهم قد غلهم نوم الصباح وغالي
مازلت أسقيهم وأشرب فضلهم حتى سكرت ونالهم ما نالني
والخمر تعرف كيف تأخذ ثارها إني أملت إناءها فأمالني

اغراض الشعر الأندلسي:

طاب للعرب العيش في الأندلس، وتمكن سلطانهم هناك وأخذوا يعنون
بنظم الشعر في شتى الأغراض المطروقة في المشرق، من مدح وهجاء ورثاء
وفخر وحماسة وتهنئة ووصف وغزل وخر وندمان ونساء وغلان وعبث ومجون
وزهد وتصوف. غير أنهم فاقوا المشاركة في أغراض أخرى لأسباب اقتضتها
طبيعة بلادهم ونظام معيشتهم وطريقة تثقيفهم:

(أ) فمن الأغراض إلى قصر فيها الأندلسيون عن المشاركة ولم يجاروهم
فيها:

١ - شعر الزهد والحكمة.

٢ - شعر الآراء الفلسفية بألوانه المتعددة من نقد النظم وأساليب الحكم
وأخلاق الناس، وذلك لضعف ثقافة الفلسفة وعلومها في إقامتهم، ومحاربة
آرائها هناك، ولأن عقلية الشاعر المشرقي كانت على العموم أوسع نطاقاً من
عقلية أخيه الأندلسي.

(ب) ومن الأغراض التي فاقوا فيها المشاركة: الوصف، ولاسيما وصف
المنظر الطبيعية، وجمال الكون، حيث وصف الشاعر الأندلسي الرياض
والبساتين والأشجار والأزهار والثمار والطيور، ووصف السحاب والبرق

والمطر وقوس قزح والبرك والأنهار والبحار، وتوسعوا في ذلك حتى أحلوه محل النسيب في صدور القصائد، ووصفوا أساطيل البحر لكثرة اتخاذها لحرب العدو، وسير الجيوش، ونشوب المعارك، والقصور والتماثيل والفوارات، ومجالس اللهو وآلاته والطرب والسمر، وكل ذلك أثر لجمال طبيعة بلادهم وسحر مناظرها وتعدد مشاهداتها البديعة.

(ج) ومن الأغراض الجديدة التي نظموا فيها:

١ - رثاء الممالك الزائلة: وذلك حينما تقلص ملك المسلمين واستولى أعداؤهم على مدنها وحصونهم، كقول صالح بن شريف الرندي يرثي الأندلس:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءت له أزمان

٢ - الاستغاثة والاستنجاد بالنبي ﷺ وكبار الصالحين، وترغيب ملوك الإسلام في إنقاذ البلاد، وقد كثر ذلك في القرنين: الثامن والتاسع، حين توالى عليها غارات الأسبان، ومن ذلك قصيدة ابن الأبار يخاطب ملك المغرب ومنها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

٣ - نظم العلوم والفنون: وذلك لشدة عنايتهم بالعلوم وحرصهم على استظهارها.

أشهر الشعراء الأندلسيين:

نبغ في الأندلس كثير من الشعراء، منهم: ابن عبد ربّه الأندلسي (٢٤٦ - ٣٢٨هـ)، وابن هائف (٣٢٦ - ٣٦٣هـ)، والغزال يحيى بن حكيم الشاعر المطبوع (١٥٦ - ٢٥٠هـ). وابن زيدون (٣٩٤ - ٤٦٣هـ) وابن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣هـ). وابن وهبون المتوفي قبل عام ٥٣٣هـ. والأعشى التطيلي المتوفي قبل عام ٥٤٢هـ. وابن برد الأصغر الذي قتل عام ٤٣١هـ.

وأبو حفص الأكبر المتوفي عام ٤٢٨هـ وابن دراج القسطلبي (٢٤٧ - ٤٢١هـ).
وابن الحداد المتوفي عام ٤٨٠هـ. والفتح بن خاقان المتوفي عام ٥٢٩هـ. ولسان
الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦هـ).

بل إن فن الموشحات الأندلسية قد جاء نتاجاً للموقف الاتصالي العام
في هذه البيئة الجديدة. ونتعرف بداءة على هذا الفن.

فالموشحة من الطباء والشاء والطير: التي لها طرتان من جانبيها، أي
خطوط في الجانبين. وديك موشح إذا كان له خطتان - أي خطان - كالوشاح.
وثوب موشح إذا كان فيه وشي. وسمي الموشح موشحاً لأن خرجاته وأغصانه
كالوشاح له.

والسبب الأول في اختراع الموشحات هو الغناء^(١)، لأن أوزانها أحفل
بالغناء والتلحين الذي كان ضرورياً عند شعراء الأندلس من أوزان
الشعر^(٢). واتخذ في أول الأمر أداة للهو والمجون، ثم استعمل بعد ذلك في
أغراض الشعر الأخرى.

والموشحات فن جديد من فنون الشعر الأندلسي: يمتاز بجماله الفني،
وكثرة صوره الشعرية، وكثرة قوافيه، وأدواره وأوزانه الكثيرة التي تلائم
الموسيقى والغناء.

وتنسب لابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦هـ) أول موشحة من الموشحات الفنية
المعروفة، وهي: أيها الساقى إليك المشتكى... إلخ.

وإذا كانت صحيحة النسبة لابن المعتز تكون أول موشحة عرفت في
الأدب العربي، والباحثون يختلفون في ذلك اختلافاً كبيراً.

على أن من الباحثين من ينكر أنها لابن المعتز، ويقول: إن الموشحات
فن أندلسي خالص سبق الأندلسيون إلى ابتكاره، وموشحة «أيها الساقى» هي

(١) ١٦٣: ٣ تاريخ آداب لغة العرب للرافعي.

(٢) ص ٢٤٣ السلافة

لابن زهر لا لابن المعتز^(١)، ويذكر ابن معصوم في كتابه، «السلافة»^(٢) أن الموشحات من ابتداء مقدم بن معافر.

أوزان الموشحات:

لم يلتزم الأندلسيون في الموشح قافية واحدة أو وزناً واحداً، لأنهم وجدوا أن إيجاد وزن يناسب النغم أسهل من إيجاد نغم يناسب الوزن، ومن أجل ذلك كان الموشح تابعاً لما تقتضيه الأنغام، فتارة يوافق أوزان الشعر العربية التي ابتكرها الخليل، وتارة يخالفها. ويقول ابن سناء الملك المتوفي عام ٦٠٨ هـ في كتابه «دار الطراز» المخطوط بدار الكتب المصرية: الموشحات تنقسم إلى قسمين:

١ - ما جاء على أوزان أشعار العرب وهو قسمان: أحدهما ما لا يتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التي جاءت فيها عن الوزن الشعري وما كان من الموشحات على هذا النسخ فهو المزدول المخدول، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا الضعاف من الشعراء، وذلك نحو قول القائل:

يا شقيق الروح من جسدي أهوى بي منك أم لم؟

فهذا من المديد، وكقول الآخر، وهو ابن المعتز:

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

فهذا من الرمل. . والثاني ما تخللته كلمة أخرجته من الوزن مثل قول

ابن بقي:

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذب كفاني

٢ - والثاني هو ما لا مدخل فيه لشيء من أوزان الشعر، وهو القسم

(١) معجم الأدباء لياقوت ترجمة ابن زهر

(٢) ٣١٢: ٢ المرجع.

الكثير، والجسم الغفير، والقدر الذي لا ينحصر، وأوزانه كثيرة منها «مستعملن فاعلن فعيل» مرتين. ومنها: «فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن» مرتين.

أسلوب الموشح وأغراضه:

١ - أما أسلوبه فعربي، في ألفاظه وتراكيبه، وقد تكون بعض ألفاظه غير معربة، وكان كلما تقدم الزمن به زاد عدم العناية بالإعراب فيه وإن كان لا يخرج في جملته عن الأسلوب العربي، وذلك عدا الخرجة وهي آخر قفل من الموشح، وهي غالباً تكون فكاهة عذبة ونادرة حارة، ملحونة اللفظ، جارية على لسان ناطق أو صامت، ويرى بعض النقاد خلو الموشح من اللحن، وأنه كالشعر في إعرابه، وقال ابن سناء: اللحن لا يجوز استعماله في شيء من ألفاظ الموشح إلا في الخرجة خاصة، ويقول أحمد ضيف في كتابه «بلاغة العرب في الأندلس» نقلاً عن بعض المتأخرين: إن الموشحة كالشعر في إعرابه وإن كانت تخالفه في أوزانه.

٢ - وأما أغراض الموشحات فقد كانت تنظم أولاً للغناء، والمعاني الوجدانية المتصلة بالتلحين كالغزل والوصف، ولما شاع الموشح وانتشر بين الشعراء شاع نظمه في شتى أغراض الشعر، من الفخر والرثاء والهجاء والوصف والتهنئة والوعظ والشكر، وسواها.

شعراء الموشحات في الأندلس:

أول من ثار على الأوزان القديمة وابتدع الموشحات كما يروى هو مقدم ابن معافر الفريري من شعراء الأمير عبدالله بن محمد المرواني^(١) في القرن الثالث الهجري، وهو الذي نوع أوزانها وأدوارها، وعنه أخذ أحمد بن عبد ربه صاحب (العقد الفريد) المتوفي عام ٣٢٨هـ، وكان ذلك في القرن الرابع

(١) تولى الحكم مدة طويلة (٢٧٥ - ٣٠٠هـ).

المجري وعن هذين أخذ الناس، ثم سال سيل الموشحات في المغرب
والشرق، فبرع بعدهما عباقرة الوشاحين في الأندلس، وفي مقدمهم: عبادة
القزاز المتوفي سنة ٤٢٢هـ. شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية من ملوك
الطوائف، ومن موشحاته قوله:

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم
لا جرم من لحا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن
ملوك الطوائف، ثم جاء بعده ابن رافع رأسه، شاعر المأمون بن ذي النون
صاحب طليطلة من ملوك الطوائف. ثم جاءت الحلبة التي كانت في زمن
الملثمين، وعلى رأسهم الأعمى التطيلي م عام ٥٢٠هـ، ثم يحيى بن بقي،
وابن باجة الفيلسوف عام ٥٣٣م، وابن اللبانة م عام ٥١٧هـ، واشتهر بعد
هؤلاء في فجر دولة الموحدين: ابن شرف، وابن زهر الفيلسوف، وبعد هذه
الطبقة طبقات جاءت بالغرائب، ومنهم: ابن سهل الإسرائيلي الأشبيلي م عام
٦٤٩هـ وأبو حيان النحوي، ولسان الدين بن الخطيب م ٧٧٦هـ.

طريقة نظم الموشحة:

ذكر ابن سناء الملك في كتابه (دار الطراز) عدة طرق فنية لنظم
الموشحات وترتيب أبياتها:

(أ) وأظهر طريقة في نظمها هي كما ذكرها ابن سناء وابن خلدون
وسواهما أن تتألف الموشحة من أقفال وأبيات، فالأقفال هي ما اتفقت وزناً
وأجزاء وقافية، والأبيات هي ما اتفقت وزناً وأجزاء واختلفت قافية غالباً.
وينقسم الموشح باعتبار جزأيه إلى:

١ - تام وهو ما تألف من ستة أقفال وخمسة أبيات وابتدئ فيه
بالأقفال.

٢ - أقرع وهو ما تركب من خمسة أفعال وخمسة أبيات وابتدئ فيه بالأبيات.

فمثال الأول قول ابن التلمساني:
قمر يجلو دجى الغلس بهر الأبصار مذ ظهرا
آمن من شينة الكلف
عذت من حبيه بالكلف
لم يزل يسعى إلى تلفي
بركاب الدل والصلف

فالقفل^(١) «قمر النخ». والبيت هو «آمن» إلى «الصلف». والموشح تام لأنه مبتدأ بالقفل.

ومثال الثاني قول الآخر:
سطوة الحبيب أحلى من جنى النحل
وعلى الكتيب أن يخضع للدل
أنا في حروب مع الحندق النجل
ليس لي يدان - بأحور فتان - من رأى جفونه - فقد أفسد دينه.

فمن قوله «سطوة» إلى «النحل» بيت. ومن «ليس لي» إلى «دينه» قفل، والموشح أقرع لأنه بُدئ ببيت.

٢ - والطريقة الثانية في نظم الموشح، هي أن تجعل الموشح أسباطاً وأغصاناً، وتلتزم عدد الأغصان التي في كل سمط وأحرف قوافيها إلى

(١) القفل الأخير من الموشح يسمى خرجة، وهي أساس الموشحة، وعليها تنبني، كما أنها جماع بلاغتها عند الأدباء، والغالب كما يقول الباحثون أن يكون الخروج إليها وثباً واستطراداً، وأن تكون قولاً مستعاراً على بعض السنة الناطق أو الصامت، ويكثر أن تكون على السنة النساء والصبيان والسكري، ويجب حينئذ أن يكون في البيت الذي قبلها: قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت أو نحو ذلك.

آخر الموشح ، ومن أمثلة ذلك قول عبادة القزاز:

١	٢	٣	٤
بدر تم	شمس ضحا	غصن نقا	مهلك شم : سمط
ما أتم	ما أوضحا!	ما أورقا؟	ما أنم : سمط
لاجرم	من لحا	قد عشقا	قد حرم : سمط

فكل سطر من هذا الموشح يسمى سمطا، وهو يشتمل على أربعة أغصان والأغصان التي تحت كل رقم متحدة القافية في جميع الأسباط.

٣- ومن طرق نظم الموشح كذلك. أن تأتي بيتين تسميهما اللازمة يتفق الحرفان اللذان في صدرهما «عروضيهما» كما يتفق الحرفان اللذان في عجزيهما «ضربيهما» ثم تتبع اللازمة بأدوار مركبة من خمسة أبيات، ثلاثة منها تتفق الحروف التي في صدرها كما تتفق الحروف التي في أعجازها، أما البيتان الأخيران فيكونان مثل بيتي اللازمة. ومن أمثلة ذلك موشحة ابن سهل الإسرائيلي:

دور:

أيهما السائل عن جرمي لديه	لي جزاء الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحا من وجنتيه	مشرقاً للشمس فيه مغرب ^(١)
ذهب الدمع بأشواقه إليه	وله خد بلحظي مذهب

لازمة:

فهو عندي عادل إن ظلما	وعذولي نطقه كالخرس
ليس لي في الأمر حكم بعدما	حل من نفسي محل النفس

(١) المعنى: حمرة المشرق قبل طلوع الشمس في الأفق وحمرة شفقها بعد الغروب، مستعارة من وجنتيه الحمراء.

دور:

منه للنار بأحشائي ضرام تتلظى كل حين ما تشا
هي في خديه برد وسلام وهي حرو حريق في الحشا
أتقي منه على حكم الغرام أسداً ورداً وأهواه رشا^(١)

لازمة:

قلت لما أن تبدي معلما وهي من الحاظه في حرس
أيها الآخذ قلبي مغنما اجعل الوصل مكان الخمس^(٢)

٤ - ومن الطرق كذلك أن تأتي بموشحة تجعل أولها بيتاً تلتزم فيه التقفية في صدر الشطر الأول وعروضه، وصدر الشطر الثاني ضربه، وتسمي هذا البيت قفلة أو مذهباً، ثم تأتي بثلاثة أشطر أخرى تلتزم فيه التقفية أيضاً لكن على حرف آخر. وتسمى هذه الأشطر دوراً، ثم تعود وتأتي بيت مقفى كالأول ومتحد معه في حرف التقفية ويسمى قفلة، ثم تأتي بدور وقفلة أخرى وهكذا إلى سبعة أدوار في الأكثر... ومن أمثلة ذلك موشحة سناء الملك. ومنها:

قفلة:

واحل لي: حتى تراني عنك في معزل
قلل: فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور:

من ظلم في دولة الحسن إذا ما حكم فالسدم يحول في باطنه والندم^(٣)
والقلم يكتب ما سطر فوق القمم

(١) ورد: بين الكميت والأشقر الرشا: الطي إذا قوى واشتد.
(٢) يريد خمس الغنيمة وهو يصرف على الدولة. وياقها يصرف على الجيش.
(٣) السدم: الهم.

قفلة :

من ولي: في دولة الحسن ولم يعدل يعزل إلا لحاظ الرشأ الأكحل

دور:

لا أريم: عن شرب صهباء وعن عشق ريم

فالنعيم: عيش جديد ومدام قديم^(١)

لا أهيم: إلا بهذين، نقم يا نديم

نشأة الزجل:

الزجل لغة التطريب ورفع الصوت، زجل فهو زاجل وزجل، والزجل كذلك في اللغة الصوت... وسمي هذا اللون من ألوان الأدب زجلاً لرفع الصوت فيه وترجيئه به في الإنشاد، ويسمى الشعر العامي، والأندلس بيئة الزجل الأولى كالמושح، وإن كان قد تأخر عن الموشحات في النشأة الأدبية قليلاً، وهو نوع من الشعر العامي... وقد ذاع فن الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التي نشأ بها، واشتمل على أنواع من الشعر كالغزل والوصف، وكثيراً ما كان الزجل أصدق في التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح لقربه من تعبير العامة واشتماله على عباراتهم المألوفة وعدم احتياجه للتكلف في الصناعة واختيار الألفاظ.

ولما ذاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلامته وتنميق كلامه. وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريّة، من غير أن يلتزموا فيها إعراباً. واستحدثوا بذلك فناً سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة، وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية: أبو بكر بن قرمان، فلم تظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها

(١) لا أريم: لا أعدل، والريم: الطي.

واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه، وكان لعهد المثلثين، وتوفي عام ٥٥٥هـ وهو إمام الزجالين على الإطلاق، وجاء بعد ابن قزمان، مدغليش، وابن جحدر، وسهل بن مالك وابن الخطيب والألوسي.

أمثلة للزجل:

١ - يقال: إن أبا بكر بن قزمان الطرطبي حين كان صغيراً في المكتب دخل عليه صبي صغير مثله، فهداه وأجلسه بجانبه، وصار يجيبه، فرآه الفقيه على ذلك فضربه، فكتب في أعلى اللوح هذا المطلع:

الملاح أولاد إماره والوحاش أولاد نصاره
وابن قزمان جا يغفر ما قبل له الشيخ غفاره

فاطلع الفقيه على اللوح فراقه هذا المطلع، فقال: هجوتنا بكلام مزجول - يعني مقطوعاً يترنم به - فسمي زجلاً.

٢ - وقال قاسم بن عبود الرياحي في ختام زجل له:

ما أعجب حديثي إش هذا الجنون؟
نطلب وندبر أمراً لا يكون؟
وكم ذا نهون أمراً لا يهون؟
واش مقدر ما نصبر لبعده الحبيب؟

فن المقامات:

وكذلك يمكن تفسير ظهور المقامات في الأدب العربي، في ضوء هذا العنصر الإعلامي: «وفي أي ظروف؟» ونبدأ بتعريف المقامة. ثم نتحدث عن ظروف نشأتها:

ما هي المقامة:

١ - يقول الشريشي في شرحه لمقامات الحريري: «المقامات المجالس، واحداً منها مقامة. والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة.

لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى، قال الأعلام: المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير، والبديع نفسه يبين ذلك بقوله في المقامة الوعظية: «قال عيسى بن هشام: فقلت لبعض الحاضرين: من هذا؟ فقال شخص قد طراً لا أعرفه، فاصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبىء عن علامته» فالمقامات جمع مقامة، وهي: كالمقام، اسم مكان من قام بالمكان بمعنى أقام فيه، وعلى هذا المعنى قول المسيب بن علس:

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

ثم توسع في استعمال اللفظ، فانتقل إلى الدلالة على الجماعة المقيمة بالمكان وبهذا المعنى جاءت في قول زهير بن أبي سلمى:

وفيهم مقامات حسان وجوهم وأندية يتناها القول والفعل

ثم انتقل مرة أخرى ليدل على الكلام الذي يلقي في مجلس من المجالس، كما استعملت كلمة مجلس في هذا المعنى أيضاً، وسمي بها الشريف المرتضى دروسه التي كان يلقيها على تلاميذه، ودونها في أماليه فصلاً سمي كل واحد منها مجلساً على هذا الاستعمال الأخير، وعقد ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار فصلاً لكلام الزهاد بين أيدي الملوك، وجعل عنوانه: «مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك» وقال الجاحظ في كتابه «البخلاء» فيما قال: ويذكرون من الشعر الشاهد، والمثل، ومن الخير الأيام والمقامات.

٢- هذا هو معنى المقامة اللغوي، أما معناه الفني فهو هذا الفن البليغ البديع المنمق، الذي صيغ في أسلوب قصص لطيف، يمثل قصة وقعت لشخص أو أشخاص، يتخيلهم الكاتب، ويضع على ألسنتهم حواراً يجتهد فيه في التحسين والتزيين والوشي، ويلتزم فيه السجع أو يكثر منه، ويودعه ما أراد له ذوقه من طرائف وروائع وملح وبدائع ونقد، للأشخاص والمجتمع، ووصف للأمم والبلاد والناس..

ولقد كان من أثر اتصال كتاب العربية بالفرس، وتنقلهم في أفغانستان

وخراسان وبلاد فارس: أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية، وخالطوا العامة من الناس، وسمعوا شيئاً من أقاصيصهم وأحاديثهم، وعرفوا بعض الأشخاص الذين يتحدث بأوصافهم وأخلاقهم. وكان بعض هؤلاء الكتاب يجيدون اللغة الفارسية. وربما كانوا يعجبون بها وبأساليبها، فأخذوا في محاكاة بعض تلك الأحوال والكتابة على نمطها باللغة العربية. وقد كان أثر الحياة الفارسية قبل هذا العصر قد دخل في لغة العرب، بما كتبه ابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما، فظهر أثر ذلك في الكتابة النثرية، فلما كان هذا العصر ظهر أسلوب المقامات المحتوي على قصص قصيرة، يصف فيها الكاتب أحد الناس وأخلاقه، ويذكر فيها بعض الحوادث والأماكن بأسلوب مسجع طريف، وكان النثر إلى هذا العصر مقصوراً على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الأدبية، ولم يكن الأسلوب القصصي قد تسرب بعد إلى الكتابة العربية؛ فلما كتب بديع الزمان مقاماته، كانت تلك المقامات نوعاً جديداً في أساليب النثر العربي؛ وسار على أسلوب الهمداني من جاء بعده من الكتاب أصحاب المقامات كالحريري وغيره.

وواضح من المقامات المروية عن البديع والحريري أن الكدية (الشحاذة) أهم أغراضها، ومن ثم قيل عن المقامات إنها تطلق على ما يقصه أهل الكدية والشحاذون من الأدباء بلغة عربية فصيحة تعد في أسلوبها من نماذج النثر الفني الرفيع في الأدب العربي.

ظهور المقامات ونشأتها:

١ - نسب الحريري في مقدمة مقاماته فضل ابتداء المقامات إلى بديع الزمان وعلامة همدان، وكذلك يجعل الثعالبي البديع أبا عذرتها، وأصل نشأتها.

ولكن الحصري يقول: «ولما رأى - البديع - أبا بكر بن دريد أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينايع صدره، واستتجها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضائير. في معارض

أعجمية، «وألفاظ حوشية، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفاً وتقطر حسناً»^(١). ويقول الدكتور زكي مبارك معلقاً على هذا الكلام: مؤدى ذلك أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات، وأنه حاكى فيها ابن دريد في أحاديثه، ولكن لا ينفي ذلك أن البديع له فضل في نشأتها. وظاهر أن هذه الأحاديث هي ما دونه صاحب الأمالي في كتابه من أحاديث ومجالس لغوية يرويها عن ابن دريد، ويذهب البعض إلى أن هذه الأحاديث المدونة في «الأمالي»^(٢) مصنوعة منتحلة على ابن دريد، والبعض الآخر يذهبون إلى أن ابن دريد قد اخترع هذه الأحاديث ونحلها لبعض الأعراب ليجعل منها صوراً عربية تروى وتحكى وتحتذى رداً على الشعبيين وعلى الفرس الذين أخذوا يحبون لغتهم وأدب بلادهم القديم في عصر ابن دريد، ولتكون هذه الأحاديث نماذج للتعليم^(٣). وينفي باحث أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامات كما عرف عند البديع^(٤)، وكان ابن دريد كاتباً لآل ميكال، وكانوا ولاية على فارس.

وذهب أحد الباحثين إلى أن أبا المظهر الأزدي صاحب «حكاية أبي القاسم البغدادى» التي كتبها عام ٣٠٦هـ هي الأصل الذي احتذاه البديع في مقاماته، وأن الأزدي هو مبتكر فن المقامة، وشخصية أبي القاسم البغدادى في حكايته هي شخصية أبي الفتح الإسكندري.

٢ - ويروى لابن فارس الإمام اللغوي المتوفى عام ٣٩٠هـ مقامات، ويقول فيه جورجى زيدان: «له فضل التقدم في وضع المقامات، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء نسقه، وعليها اشغل بديع الزمان، تلميذ ابن

(١) ١: ٢٣٥ زهر الآداب.

(٢) مثل حديث مصاد بن مذعور وما جرى له مع الجوارى الطوارق بالخصى الذي يذكر بالمقامة الرصافية للبديع وما فيها من حيل اللصوص، ومثل مقام بعض الأعراب بالمسجد الحرام مستجدياً، مما يشبه مقامات عيسى بن هشام بالمسجد مكدياً.

(٣) ص ١٣٧ دراسات في الأدب.

(٤) ص ٢٠٧ بديع الزمان للشكعة.

فارس» ويقول فيه ابن خلكان: لابن فارس رسائل أنيقة. ومسائل في اللغة اقتبس منها الحريري صاحب المقامات ذلك الأسلوب، ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطبية.

٣- ثم جاء بديع الزمان فرويت له خمسون مقامة، والراجح أنه أنشأ أربعمئة مقامة، على ما روى الثعالبي وياقوت وابن خلكان، ويؤكد ذلك البديع نفسه في رسالته إلى أبي المظفر، حيث يقول: «ومن أملى من مقامات الكدية أربعمئة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ومعنى، حقيق الإنهاج لكشف عيوبه»^(١). والظاهر أن أكثر مقامات البديع قد ضاع. ولم يبق إلا ما تضمنته مقاماته المطبوعة.

ومن كتاب المقامات بعد البديع: ابن نباته السعدي م ٤٠٥هـ. والحريري ٥١٦هـ. وأبو الهيجاء الأصفهاني الذي ألف مقاماته عام ٤٩٠ هـ وتوفي في القرن السادس. وكذلك ابن الجوزي م ٥٩٧هـ. ثم ابن الوردي، والشيخ العطار، وأحمد فارس الشدياق، وناصر اليازجي، وعبدالله فكري، وسواهم.

المقامة والقصة:

والمقامات هي صور للقصة القصيرة، ونموذج لها، ففيها من القصة القصيرة العقدة، وتحليل الشخصيات^(٢).

وتحسب المقامات من أول بذور النثر القصصي في الأدب العربي، لأنها ترمي إلى تصوير بعض النفوس والأشخاص بطريق قصصي، ولولا انصراف الكتاب إلى الصناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة في سبيل النثر القصصي الذي يصور حياة النفوس والاجتماع. على أن أسلوب المقامات تمشي

(١) ٢٢٧ رسائل البديع.

(٢) ١: ٢٠٧ النثر الفني لزكي مبارك.

في الأدب العربي، وذاع أثره في بلاد المشرق والمغرب، لولوع الناس بالصناعة اللفظية.

ويشير أسلوب المقامات - على اختلاف عصور أصحابها وأمصارهم - إلى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية عليهم غالباً. وأنها من ناحية الموضوع كانت محاولة كبيرة لخلق القصة الفنية، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها، وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف، وبذلك تراها كانت تنحدر بانحدار الأدب جيلاً إثر جيل، من استمسك في الأساليب، إلى هلهلة وركاكة جرياً وراء البديع ومراكمة بعض الزخارف فوق بعض.

وتعتمد القصة الناجحة أكثر ما تعتمد على العقدة، والعرض وعنصر الحركة والمفاجأة والوقائع المثيرة والتفاصيل الدقيقة، وتسجيل ألوان من الحياة الاجتماعية... وهذه الأصول متوفرة في كثير من المقامات التي تدخل في باب القصة من أوسع الأبواب. ومن أمثلة ذلك المقامة الموصلية، والاسدية وسواهما^(١).

لماذا نشأ فن المقامة:

١ - من الطبيعي أن توجد المقامة في الأدب العربي فهي قصة قصيرة مستطرفة تروى، وحوار يؤثر، ومن طبيعة الإنسان أن يقص قصصه وقصص الآخرين. وقد ساعد رقي النثر الفني في القرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة بأسلوب رائع جذاب مشوق، ومن تمام التشويق اختار البديع موضوع مقاماته في الكدية، وقلده في ذلك الحريري وسواه، والحريري كذلك يقلد البديع في فن المقامة، بمعارضته له فيها إذ أنشأ خمسين مقامة على نمط المروى للبديع^(٢).

(١) راجع ٢٧٩ وما بعدها بديع الزمان للشكعة.

(٢) سبق أن قلنا أن البديع كتب أربعمئة مقامة، ويرجع البعض أنه لم يقل إلا أربعين مقامة عارض بها أحاديث ابن دريد الأربعين، وهذا خطأ، ومقامات البديع المطبوعة خمسون في طبعة الشيخ محمد عبده، وإحدى وخمسون في طبعة الجوائب، وثلاث وخمسون في طبعة أخرى، وقد اسقط الإمام محمد عبده المقامة الرصافية لما اشتملت عليه من فحش ومجون.

٢ - ويذكر البعض أن المقامات مقتبسة من أصل فارسي، ولكن الباحثين المنصفين من عرب وفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت في الأدب الفارسي قبل البديع. إذ لم تعرف المقامات في الأدب الفارسي قبله ولا في عصره، وإنما عرفت بعده بقرن ونيف؛ وأول مقامات كتبت بالفارسية هي للقاضي حميد الدين البلخي الذي بدأ بإنشائها عام ٥٥١هـ، وتوفي عام ٥٥٩هـ - ١١٦٤م كما يقول براون، ويؤكد محمد تقي بهار في كتابه «تاريخ تطور النثر الفارسي» أن لفظ مقامة من اختراع البديع وأن كل اختراع في الأدب العربي كان له صدى في الفارسية، وأن حميد الدين قلده البديع والحريري في مقاماته، ويذكر الأنوري إعجاب الفرس وافتانهم بمقامات حميد الدين هذه^(١).

٣ - ويذكر بعض المستشرقين أن أساطير التوراة عند اليهود، وقصة لقمان، قد أوحى إلى بديع الزمان بفكرة المقامات، وكذلك يذكر آخرون أن قصص جحا في الآداب الفارسية والتركية والعربية من ملهات البديع لفن المقامات... وهذا استنتاج لا يؤيده الدليل، فالواقع أن الظروف السياسية والاجتماعية والعقلية، والأدبية والفنية في المجتمع العربي أوحى إلى كاتب عربي هو البديع بإنشاء القصة الصغيرة وكتابتها.

سمات مقامات البديع وخصائصها:

١ - الحوار في المقامة عند البديع يدور بين رجلين هما: عيسى بن هشام الراوية، وأبو الفتح الإسكندري البطل، وكلاهما شخص خيالي مجهول كما يقول الحريري، ويذكر بعض الباحثين أن عيسى بن هشام الراوية كان شيخاً للبديع، ومنهم مؤلف «تاريخ همدان» أبو شجاع شيرويه م ٥٠٩هـ، وينقل ذلك عنه ياقوت في معجم الأدباء، ولعل ذلك وهم نشأ من قول البديع في مطلع مقاماته: حدثنا عيسى بن هشام.

(١) راجع ٢١٢ بديع الزمان للشكعة.

٢ - وموضوع مقامات البديع هو الكدية، ولكنها تتناول مع ذلك نقد المجتمع الإسلامي في القرن الرابع، وتصوير حياة المسلمين الاجتماعية والعقلية والأدبية في هذا العهد تصويراً رائعاً.

٣ - ولعل البديع كان يقصد بمقاماته إلى كتابة نماذج أدبية رائعة يحثها الشباب في دراستهم وحياتهم الأدبية، أو لعله كان يدل بما له من قدرة على صياغة الأساليب، واختيار الألفاظ، والتأنق في الجمل والتعبير. فألفاظها مختارة عذبة. يندر فيها الغريب، وأسلوبها منمق يكثر فيه السجع والجناس والطباق، وغيرهما من ألوان البديع، ويضمنه بما يناسب المقام من: قرآن أو حديث أو حكمة أو مثل أو شعر. ولكن يؤخذ عليها أن الجانب الفني فيها للقصة غير متكامل، فالحبكة القصصية ضعيفة، والحوادث غير متسلسلة، والحوار ينقصه التشويق، والعقدة والمشكلة التي تنتهي بحلها القصة ضئيلة أو معدومة.

مقامات الحريري:

١ - وقد أنشأ الحريري (٤٤٦ - ٥١٦هـ) خمسين مقامة وفق العدد الذي بقي لنا من مقامات البديع، وبنائها على الكدية، كما فعل البديع. ويقول في مقدمتها: «وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة، وهموم ناضبة خمسين مقامة. تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية، والفتاوى اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية، مما أملت جميعه على لسان أبي زيد السروجي^(١) وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري.

(١) هو فيما يقال المطهر بن سلام البصري النحوي ٤٥٠هـ، لزم الحريري وتأدب عليه وتخرج به فيجعل مقاماته رواية على لسانه، أما الحارث بن همام فيعني به نفسه، وقيل أن الحريري ذكر أن السروجي كان شحاذاً بليغاً وحكيماً فصيحاً، ورد من البصرة فوقف في مسجد بني حرام، فسلم ثم سأل الناس وذكر أسر الروم ولده، فذكر الحريري ذلك في المقامة الحرامية.

٢ - ونالت مقامات الحريري في عصره وبعد عصره شهرة فائقة، حتى قال فيها ياقوت في (معجم الأدباء): «لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب عرفته» فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة، واتسعت له الألفاظ وانقادت له جوامع البراعة، حتى أخذ بأزمته ومهلك ربقتها، فاختار ألفاظها، وأحسن نسقها، حتى لو ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع في صدره، ولا يرد في قوله، ولا يأتي بما يقاربها، فضلاً عن أن يأتي بمثلها، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة، وبعد الصيت، والإنقان في استحسانها من المواقف والمخالف ما استحقت وأكثر». ولكانتها صارت نموذجاً فنياً يقتدي به الشباب والأدباء في صناعة الإنشاء، ويحفظه المتأدبون والشداة، كسباً للموهبة وتنمية للذوق. . وشرحها كثير من العلماء من بينهم الشريشي م ٦١٩هـ، وعبد اللطيف البغدادي م ٦٣٩هـ. والعكبري م ٦١٦هـ، وابن الأنباري ٥٧٧هـ، وابن الخشاب ٥٦٧هـ. وسواهم.

٣ - ويذكر الحريري أنه ألفها استجابة لمن إشارته حكم وطاعته غنم، وقد اختلف في تفسير ذلك: ف قيل هو الخليفة المستظهر بالله كما في رواية الشريشي أو شرف الدين أنوشروان بن خالد أحد وزراء المسترشد بالله على ما روى ياقوت وابن خلكان، وابن طباطبا، أو ابن صدقة أحد وزراء المسترشد أيضاً كما رواه ابن خلكان على نسخة كتبها الحريري، أو عامل البصرة ووالها في بعض نقول الشريشي، أو هو أحد أعيان البصرة في نقل آخر له.

٤ - والموضوعات التي بنى عليها الحريري مقاماته، هي كتلك التي اختارها البديع وشغل بها بطله، من نقد وحوار أدبي، وهداية وإرشاد وجدل وحجاج ومعاية وإلغاز، مع ما يتبع ذلك من وصف الأشخاص والمواضع، وإخراج البطل في صور مختلفة من صور الساسانيين، الذين انتشروا في تلك الأزمان، واحتالوا على الكدية والاستجداء باتخاذ مظاهر الوعاط، والعلماء، والمفتين والغزاة، وأبناء السبيل، والأعراب، والحواة، والسحرة، والمشعوذين.

وقد أربى الحريري في ذلك على البديع فتزيد عليه في باب الألغاز بما

اقتبسه عن ابن فارس، من المعاياة بالمسائل الفقهية، وزاد كذلك التلاعب بالصياغات اللفظية التي غالى فيها، كإنشاء رسالة تقرأ من أولها، ومن آخرها بوجه، أو رسالة تقرأ رداً وطرداً فلا يحيلها الانعكاس، أو رسالة تتكون من كلمات معجمة، فمهملة، فمعجمة، فمهملة على التوالي من أولها إلى آخرها. أو رسالة يراعي في تأليفها تتابع الإهمال والإعجام بين الحروف من غير إخلال. إلى أشباه ذلك من ضروب العبث الذي لا يفيد، ولا يجدي منه المعنى أو اللفظ أي جدوى، اللهم إلا الضعف والتكلف الممقوت.

٥ - والصنعة البديعية عند الحريري متكلفة. فقد أجهد فيها نفسه، وأعمل من أجلها خاطره، وتأنق كل التأنق في اختيار جملها، ورصف أساليبها، وأكثر فيها من البديع والوشي والزينة إكثاراً. وحلاها بحلل ثقيلة من السجع والجناس والتورية والطباق، ولم يبال بالغريب من الألفاظ يتصيد، والحوشي يستعمله مع ما أورد فيها من حكمة ومثل، وما ضمن من شعر، وما اقتبس من قرآن وسنة، وقد أرهقت الصنعة معانيه إرهاقاً شديداً.

أثر المقامات في اللغة والأدب:

١ - أدى ظهور المقامات في الأدب العربي، إلى غنائها في الألفاظ والأساليب والأخيلة والمعاني.

٢ - أضافت المقامات إلى الأدب العربي فناً أدبياً جديداً لم يكن له وجود من قبل هو فن القصة القصيرة.

٣ - قدمت المقامات نماذج أدبية جميلة للأدباء والمتأدبين ليحتذوها ويحاكوها ويسيروا على منوالها، مما يساعد على قوة الملكة والموهبة.

٤ - وقد أحييت المقامات كثيراً من مفردات اللغة وأساليبها، ومن صور الاداء والتعبير فيها.

٥ - وكتب المقامات وشروحها والدراسات التي وضعت حولها، كل ذلك كان ثروة للغة العربية وآدابها.

٦ - وقد أسهمت المقامات في بناء النهضة الأدبية الحديثة في مصر والعالم العربي، إذ كانت المقامات من أوائل ما طبع في مصر، فتداولتها الأيدي، وتناولها القراء، يتأدبون بها، ويتخرجون عليها في صناعة النثر.

٧ - وقد ظهر فن أدبي جديد متأثر بفن المقامة، وهو ضرب من الإنشاء فيه مشابه من المقامة، وإن كان ليس منها إذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفني، وهو مقالات قصار، تعتمد على الإيجاز وتقصّد إلى الوعظ والحكمة، وتسدي النصيح والخبرة وثمرة التجربة إلى القراء، وليس فيها حوار ولا لها راوية ولا بطل، ولا تساق لغرض الكدية. وهذا الفن تجده في مثل كتاب أطواق الذهب لعبد المؤمن الأصفهاني، وكتاب أطواق الذهب للزنجشري، وأسواق الذهب لأحمد شوقي.

٨ - وللمقامات بجانب هذه الحسنات آثار سيئة في اللغة والأدب، إذ كانت الصناعة البديعية اللفظية المتكلفة السائدة فيها ذات أثر على فن الأدب وأسلوبه وعلى ملكات المتأدبين والشدة، وأشاعت فن الأحاجي، والألغاز في الأدب، وأبعدت الشباب خلال أوائل عصر النهضة عن الأصول الأدبية الأولى التي تمتلئ ثمارها بالطبع والملكة والموهبة القوية.

بين البديع والحريري:

يقول الحريري في مقدمة مقاماته: «البديع سباق غايات، وصاحب آيات، والمتصدي بعد لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته».

وهذا يدلنا على فضل البديع وسبقه، والحقيقة أن مقامات البديع أكثر انطباعاً. وأشد انسجاماً، وأبعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة، أما مقامات الحريري فأبدع فنوناً، وأبرع خيالاً، وألطف فكاهة، وأكثر أمثالاً، وقد نالت شهرة أكثر مما نالته مقامات البديع، وترجمت إلى اللغات الأوروبية.

فالحريري أشهر من كتب المقامات بعد البديع وقد نسج على منواله، وكرر أغراضه بأسلوب جزل، وإكثار من الكلمات الحوشية، وترديد للشعر القديم.

الفصل السادس

لأيّ هدف؟

لا يمكن تقويم العملية الاتصالية في الأدب إلا على أساس الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه، ولا نعني هنا بحال من الأحوال ما يسمونه «بالأدب الهاحف» وإنما نعني أن الأدب «عمل اجتماعي»، ذلك أنه حين يتوصل بوسائل الإعلام، فإنه يشتق أحداثه ومواقفه من الهيئة الاجتماعية ومن الثقافة السائدة، بما فيها من اتجاهات وقيم ومعايير، وتقاليد، فالاتصال الجماهيري - كما يقول الدكتور إمام - تجسيد لثقافة الأمة وحضارتها والأدب حين يتصل بالجماهير لا بد وأن يكون انعكاساً صادقاً لهذه الثقافة أو الحضارة. ومن خلال ذلك يقوم بتعميق المفاهيم الشائعة في المجتمع وترسيخ القيم السائدة فيه، وتثبيت العلاقات القائمة.

إن الأدب في الاتصال الجماهيري يقدم فلسفة حياة زاخرة بالقيم والمعايير من خلال أجناسه المختلفة. والفن في رأي «جيو» (١٨٤٥ - ١٨٨٨م) مثلاً إنما ينبع من صميم الحياة نفسها، وأن الجمال إن هو إلا شعور خصب مليء بالحياة، ولا يكتفي «جيو» بأن يقول إن الحياة الوفيرة المليئة هي منذ البداية حياة جمالية، بل يقرر أيضاً أن الفن لا يخرج عن كونه نشاطاً اجتماعياً تنحصر غايته في الحياة والواقع نفسه.

ولقد اهتم البحث الأدبي قديماً وحديثاً بلغة الأدب، وكان هناك إجماع على أن الشاعر والأديب يستخدمان اللغة استخداماً خاصاً، وقد بحث «أربسطو» موضوع اللغة بحثاً مستفيضاً، ونعتبر الملاحظات الهامة التي تقدم بها

في هذا الموضوع مفتاحاً لفهم الأدب ووظيفته الاجتماعية وخصائصه الفنية^(١). وكذلك قام بعض العلماء المحدثين ببحث الفروق الأساسية بين الاستخدامات المختلفة للغة في مجالات الأدب والعلم والحياة اليومية^(٢)، وهنا بطبيعة الحال من يضعون حداً فاصلاً بين لغة الأدب ولغة الحياة اليومية وهي مسألة تحتاج إلى إعادة النظر^(٣)، «فنحن نستطيع أن نميز بسهولة نسبية بين لغة الأدب ولغة العلم، ولكننا لا نستطيع أن ندعي دائماً أن لغة الحياة اليومية ليست لغة انفعالية، لاسيما بعد أن غزت، في الأدب العربي الحديث، جنساً أدبياً هائلاً هو الدراما، ومن قبل كانت اللغة العامية هي لغة الأدب الشعبية بما تحمله من طاقات انفعالية عالية.

وإن التقصير الإعلامي، لايفصل بين اللغة ووسائل الاتصال بال الجماهير ولكنه ينظر إلى اللغة الفنية على أنها من أبرز الوسائل في تطوير حياة الإنسان، لما تتسم به من القدرة على التغير، للاحتفاظ بالاصالة في وقت واحد. وإذا اختلفت اللغات الفنية باختلاف وسائل الإعلام والاتصال بالجماهير، فإنها تتفق في المصدر والسياق التاريخي والوظيفة حيوية كانت أو جمالية، ويذهب الدكتور يونس، إلى أن استقلال كل وسيلة عن الشعيرة القديمة المتكاملة قد جعل اللغة الفنية بمذلولها الشامل تتشعب - كما تتشعب اللغة اللسانية - إلى لهجات.. لهجة تتوسل بالكتابة أو اللون أو الخط، ولهجة تتوسل بالكلمة، وثالثة تتوسل بالصوت أو اللحن، ورابعة تتوسل بالحركة أو الإشارة، ومع هذا كله تخضع لهجات اللغة الفنية لقانون واحد، في أطرها العامة ومسارها الثقافي وتشارك في مقومات رئيسية، جعلت مصطلحات هذه اللهجة يمكن أن تستخدم في الحكم على لهجة أخرى وتقومها، فنحن نستعمل مصطلح الإيقاع

(١) د. عبد المنعم اسماعيل: نظرية الأدب ومناهج البحث الأدبي ص ٢٧. بحث ارسطو موضوع اللغة في مواضع كثيرة من كتابه عن الخطابة، وانظر كتابه عن السياسة وعلم الطبيعة.

(٢) د. عبد المنعم اسماعيل: نفس المرجع السابق ص ٢٧.

(٣) د. عبد المنعم اسماعيل: نفس المرجع السابق ص ٢٧.

في فنون التشكيل كما نستعمله في فنون التمثيل والحركة، ونستخدم ألفاظاً تدل على البناء أو التركيب فيها جميعاً.

وفي ضوء هذا العنصر الإعلامي، «لأي هدف» يمكن أن نتعرف على ماهية الأدب الإسلامي مثلاً، وما يقصد به الأدب الإسلامي ينسب إلى الإسلام ويستمد جميع أصوله منه ويتأثر به وحده في كل شيء في ألفاظه وأساليبه، في معانيه وأخيلته، في نصوصه ومرائيه، في أفكاره وثقافته، فهو أدب يستمد أفكاره وقيمه من الإسلام، وينسج على منوال القرآن الكريم، وله رسالة كبيرة وبخاصة في عصرنا الحاضر، فهو يعمل على إيجاد يقظة إسلامية ووعي إسلامي، يقف في مواجهة الأفكار الغربية الموجهة.

والأدب العربي منذ ظهر الإسلام حتى اليوم يمكن أن يقال عنه: إنه أدب إسلامي، لأن جميع الذين ينشئون عرب أو من سكان البلاد العربية وأغلبهم مسلمون، ولكن الأدب الإسلامي بالمعنى الخاص يطلق على الآداب العربية بعد ظهور الإسلام إلى نهاية عصر الأمويين عام ١٣٢هـ.

وجميع الآراء تتفق في أن نهاية عصر الأدب الإسلامي هي نهاية حكم بني أمية وإن كانت الآراء في بداية هذا الأدب تختلف اختلافاً كبيراً.

فريق من الدارسين يذهبون إلى أن الأدب الإسلامي ظهر منذ بعثة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، واستمر يؤدي رسالته طيلة عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين وعصر بني أمية، لأن نزول القرآن غير من مجرى الأدب العربي تغييراً خطيراً وكبيراً وواضحاً. وكل من أنشأ أدباً بعد البعثة المحمدية فقد تأثر بالقرآن والإسلام تأثراً ما على نحو من الأنحاء، ومن هؤلاء طه حسين «المجمل في الأدب العربي» و«المفصل في الأدب العربي»، وأحمد حسن الزيات في «تاريخ الأدب العربي» والإسكندري وغيره في كتاب «الوسيط».

وفريق من علماء الأدب يرون أن الأدب الإسلامي لم يظهر على الحقيقة إلا على أيدي الأجيال التي ولدت ونشأت وعاشت في الإسلام ويغلب على

هؤلاء أن يكونوا قد عاشوا في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢هـ) لأنهم لم يتأثروا إلا بالإسلام، ولم يعيشوا إلا فيه ولم يكن بينهم وبين حياة الجاهلية صلة من الصلات فشعراء العصر الأموي إسلاميون وكتابه أدباء، وهذا ما سار الخفاجي عليه في كتابه: «الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام» و«الحياة الأدبية في عصر بني أمية» وغيرهما، وكذلك ما سار عليه جورجى زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» وكارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» وشوقي ضيف في سلسلة كتبه عن تاريخ الأدب العربي، ومحمود مصطفى في كتابه «الأدب العربي وتاريخه - الجزء الأول» وغيرهم. وهؤلاء يقصدون الأدب الذي ظهر في عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين على أيدي طبقات المخضرمين ممن أدركوا الجاهلية والإسلام وعاشوا فيها وتأثروا بمختلف المؤثرات التي أثرت في أدبهم، فأدبهم هو أدب المخضرمين، أما أدب شعراء وكتاب العصر الأموي فهو وحده الأدب الإسلامي بهذا المفهوم الخاص فيه.

أما الفريق الأول من الدارسين فيطلق على شعراء عصر صدر الإسلام إلى قيام دولة بني أمية مخضرمين وإسلاميين على السواء.

بين الجاهلية والإسلام:

كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تساميهما منزلة، ومكانة لا تدانيها مكانة، فهو ديوان مآثرهم، وسجل مفاخرهم واللسان الناطق بما لهم من فضل وما هم عليه من مجد أثيل وعز شامخ. وما من حرب تقوم بينهم إلا كان هو الذي أهاج نارها وأوقد سعيرها، وشب لظاها، وأشعل لهبها.

ولا تفتح مغاليق الأنفس ولا تلين قساوة القلوب، ولا تنال العطايا والهبات ولا تجزل المنح، إلا بالقول الساحر، والشعر البليغ الذي يزدلف به الشاعر إلى ما يريد من رغبة، ويحتال به على ما يبغي من غرض، ولا تعمل مجالس السمر ومحافل العلية إلا بما ينشد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيدة.

بيد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم ﷺ كانت قد انحرفت

في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهيبة والخلق القويم الذي تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع، فكان يصف المرأة أقبح وصف، وهتك الحريات، ويخرق الحجب والأستار، ويشير العصبية ويوقد الحمية، ويحرض الناس على الاقتتال والتناحر، ويبعثهم على التقاطع والتدابير والتنافر، فكان بهذا السم وبهذه الروح من معاول الهدم وأسباب الدمار التي منيت بها الحياة العربية.

ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة، دعوة العفة في القول، والعقل والأدب الذي يليق بالمسلم، فحرم على الناس الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحذرهم من باطل القول وزوره، ومن سيئ الظن وخداعه وغروره، ودعا أوليائه وأتباعه إلى أن يتعدوا عن كل رذيلة، ويمتنعوا عن كل موبقة، وأن يكفوا عن القول والفعل إذا كان في ذلك ما يؤدي نفس مسلم.

أما الإسلام فيهم روح العصبية، وأخذ في نفوسهم حمية الجاهلية، وحظر عليهم أن يلما بما يثير النفس أو يذكر بالخصومات أو يحرك كامن الأحقاد ومستور الضغائن.

حرم عليهم شرب الخمر، لأنها رجس من عمل الشيطان، وأوجب عليهم حفظ الفروج وغيض البصر وكف الأذى وصيانة الحرمات، ومن هنا وجد الشعراء الذين دخلوا في الإسلام وأشربوا روحه، واهتدوا بهديه، ووجدوا أدباً غير الأدب، وروحاً غير الروح، وأسلوباً في الخطاب غير الأساليب التي اعتادوها، وطرائق غير الطرائق التي ألفوها، ونحواً من بلاغة الكلام السمع العفيف تندق أعناقهم وتنقطع نياط قلوبهم دون أن يبلغوا مداه أو يقتربوا من حده.

وجد الشعراء أن أداتهم تعطلت، وأن سبيلهم لما كانوا يتناولون من المعاني والصور قد قطعت، وأن ما كانوا يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو تحرج، قد حظر عليهم الإسلام أن يلما منه إلا بما عفا لفظه وشرف معناه.

من أجل ذلك تحولوا عن معانيهم التي أجادوها وجودوها وأبدعوا فيها، إلى المعاني التي يقرها الدين الجديد ويرتضيها، بل إن من شعرائهم من امتنع عن قول الشعر في الإسلام، لأن الله أبدله به خيراً منه، فإن لبيداً لم يؤثر عنه في الإسلام على ما يروى إلا قوله:

الحمد لله الذي لم يأتني أجلي

حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ثم امتنع بعد ذلك عن الشعر إلى أن وافاه أجله. وقد أرسل إليه عمر يسأله: ماذا أحدثت من الشعر في الإسلام؟ فقال: أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران.

والواقع أن تحول الشعر عن روحه ومشربه في الجاهلية إلى روح جديدة، وحياة جديدة، ومعان جديدة، ربما ضاقت بها شياطين الشعر، وتخلفت فيها أخيلة الشعراء، هذا التحول قد عاد إلى الشعر بشيء من الضيق وانقباض الأفق، وجعل شعراء الإسلام يحفلون عن كل معنى يتسم بسممة جاهلية أو تنفر منه التعاليم الإسلامية، وفرق بين شاعر يتنهب كل معنى يعن له، ويقتنص منه كل فكرة تنهياً أمامه في أي موضوع وفي أية ناحية، وبين شاعر يستولي عليه التحرج من كل ما يخالف دينه ولا يلتزم مع عقيدته.

فهذا الخطيئة لم يرقق الإسلام له طبعاً، ولم يهذب له نفساً، ولم يغير له من سمته، ولم يعدل له من سلوكه، فبقي شعره على ما كان عليه جاهلي النزعة زائحاً بكل ما يحمله الشعر من معنى خبيث أو هجاء مقذع، حتى لقد حبسه عمر بن الخطاب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن هدهد بقطع لسانه، وأخذ عليه العهد ألا يتناول أعراض المسلمين.

وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الإسلام بدمه ولحمه، فترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية، ولم نر له بعد ذلك شعراً قوياً إلا في قوله في منافحة أعداء الإسلام ومكافحة خصوم الرسول ﷺ وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه في الجاهلية من القوة إلى الضعف.

موقف الإسلام من الشعر:

على أن الإسلام لم يهجن من شأن الشعر إلا لما يحمله من المعاني التي لا تتفق وجلاله، ولا تناسب وقاره وكماله، ولم يغض من شأن الشعراء إلا لما يبدو منهم من سمات وخلات لا يرضاها الدين ولا ترتاح إليها الأخلاق الكريمة، قال تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴿^(١).

أما ما عدا ذلك فقد كان النبي ﷺ ينصت للشعر ويستمع إلى الشعراء ويقول: «إن من الشعر لحكمة»، وكان يأمر حسناً أن يرد على خصومه ويهجو أعداءه.

وقد وفد على رسول الله ﷺ وفد بني تميم - بعد فتح مكة المكرمة - ودخلوا المسجد وقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فأذن لخطيبهم، فقام عطار بن حاجب بن زرارة، فأمر رسول الله ﷺ قيس بن ثابت فرد عليه، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا يقسم الربع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القنزع^(٢)

فلما فرغ الزبرقان بن بدر أمر رسول الله ﷺ حسانا بالرد عليه فارتحل حسان قصيدته:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريره
تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعا

(١) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦.

(٢) القنزع: السحاب.

فلما فرغ حسان من قصيدته، قال الأقرع بن حابس أحد رجال الوفد:

«والله إن هذا الرجل - يعني محمداً - لمؤق له^(١): لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا...» ثم أسلموا.

فنحن نرى أن الشعر حين أخلص في وجهته، وسلم بما كان يدنسه من هتك الأعراض وكشف الأستار... كان من أسلحة الدعوة الجديدة، والألسنة المجاهدة المكافحة في سبيل تثبيت دعائمها، واستقرار قوائمها، ومن هنا نستطيع أن ندرك رسالة الشعر في هذه الفترة التي صلحت فيها الأخلاق وتطهرت القلوب واستنارت الأفئدة، وأظل الناس عهد وادع، يجمله حسن الأدب وجمال الخلق وعفة اللسان وساحة المقال.

كانت رسالة الشعر إذ ذاك رسالة سمحة لا تعرف الفحش، ولا تحب الجهر بالسوء، ولا تألف الخوض فيما حرم الله؛ فهي رسالة مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة، ودعوته الحقبة إلى معاملة الناس أكرم معاملة.

أما من بقي على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فيما يقول وينشد فقد نعى عليه الإسلام سلوكه وحاربه المسلمون أعنف حرب، لأن لسانه ظل سادراً في غيه ممعناً في كفره لم يدخل فيما دخل فيه الناس أفواجاً من دين رب العالمين وشريعة أحكم الحاكمين.

ولقد أرسل النبي ﷺ محمد بن سلمة ورهطاً من الأنصار فقتلوا كعب ابن الأشرف من شعراء المدينة اليهود لأنه شبب بنساء المسلمين.

وهذا صابئ بن الحارث البرجي هجا بعض بني جرول بن نهشل فافحش في هجائهم، حتى رمى أمهم بالكلب، فاستعدوا عليه عثماني بن

(١) أي مهمل له في أمره.

عفان فحبسه وقال: لو أن رسول الله ﷺ حي لأحسبته نزل فيك قرآن وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك.

ولقد حبس عمر النجاشي الشاعر الذي هجا بني العجلان، رهط ابن مقبل بقوله:

وما سُمِّي العجلان إلا بقولهم
خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

وكذلك حبس الخطيئة حين أفحش في هجو الزبرقان بن بدر وهدهد بقطع لسانه لولا أنه فزع إليه، واستلطف لديه واستشفع بأفراخ زغب الحواصل ليس لديهم ماء ولا شجر.

وهكذا أصلح الإسلام العقائد والنفوس وهذب الألسنة، ووجه رسالة الشعر إلى أسمى الأهداف وأنبأ الغايات.

أغراض الشعر في صدر الإسلام:

هجر الشعراء الأغراض التي تتنافى والدين وتعاليم الإسلام: كالغزل الفاحش والفخر الكاذب، والهجاء المقذع ومن استمر على الهجاء كالخطيئة حبس وزجر من الخلفاء الراشدين وموقف عمر من الخطيئة معروف...

وكذلك بطل الكلام في الخمر ووصفه، والميسر وفتيانه، والجزور التي ينحرونها، وفي تملق الناس بالمدح، وفي صيد الوحش وطرده... مما كان يعده المسلم المتأثر بالعقيدة الإسلامية عبثاً ولهواً.

وكان كثير من هذه الأغراض شديد الصلة بحياتهم في الجاهلية كالخمر والميسر وحياة البطولة والصراع، والأنخذ بالثأر والرغبة في الانتقام والتشبيب والاستهتار والفجور في الحب، ومن أجل ذلك كان فيها أجود أشعارهم، وأملؤها بالقوة والروعة والعاطفة، وهذا يفسر لك بعض الحق فيما يقال من أن الشعر ضعف في صدر الإسلام.

واقصروا في نظم الشعر على هذه الأغراض الآتية:

١ - الدعوة إلى الإسلام ومبادئه ومناضلة خصومه، وكان من أشهر الذائدين عن الدعوة ورسولها الكريم: حسان (٦٠ق هـ - ٥٤هـ)، وكعب ابن مالك (٢٧ق هـ - ٥٠هـ)، وعبدالله بن رواحة (٩ هـ)، وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام والرسول بشعرهم: ابن الزبيري وضرار بن الخطاب، وأبو سفيان، وهبيرة بن أبي وهب، (٢٧ق هـ - ٥٦هـ) وأبو عزة الجمحي.

٢ - هجاء أعداء الدعوة في عصر النبوة وهجاء أصحاب الديانات الزائفة بعد عصر النبوة.

٣ - رثاء من استشهدوا في غزوات الرسول ﷺ في الفتوحات الإسلامية الكثيرة، ومن قتل ظلماً من خلفائه وكبار أصحابه.

٤ - الفخر والتباهي بالانتصار على جيوش الفرس والروم، والتمدح بشجاعة المسلمين وأبطالهم، ووصف المعادل والحصون وآلات القتال التي لم يكونوا عرفوها، وأنواع الحيوان الذي لم يشاهدوه، ومنه الفيلة التي حارب الفرس عليها العرب، ووصف جبال الثلج والأنهار العظام وسفائن البحر، وسوى ذلك مما ملئت به كتب المغازي والفتوح، وتكثر في هذا النوع الأراجيز.

٥ - الحكمة: وقد كثرت في الشعر في هذا العصر بتأثير ثقافة القرآن الكريم والدين والتجارب الكثيرة التي أفادوها في الحياة، يقول حسان أو حفيده سعيد:

وإن امرأ يمسي ويصبح سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيد

ويقول الخطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

ويقول كعب بن زهير:

- ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
- ٦- المدح: وأشهر شعرائه حسان والنابغة الجعدي وكعب بن زهير والخطيئة، وفي هذا الفن يبدو أثر الإسلام في معانيه وألفاظه.
- ٧- كما نظموا في الوعظ والتزهيد في الدنيا والدعوة إلى تقوى الله. متأثرين في ذلك بالإسلام.

معاني الشعر وأساليبه والقائه:

(أ) وقد بدأت معاني الشعر في هذا العصر تتأثر تأثراً واضحاً بالإسلام والقرآن الكريم وأخذ يغلب عليها:

- ١- العمق والدقة والفهم والاستقصاء وترتيب المعاني والأفكار.
- ٢- ظهور المعاني الإسلامية والعاطفة الدينية في الشعر: وغلبتها عليه، وتوليدها من العقائد الإسلامية.

(ب) كما بدأ الشعراء يتأثرون بالقرآن الكريم وبحديث رسول الله ﷺ تأثراً ظاهراً في الأسلوب والأداء والألفاظ مما أحدث تغييراً واضحاً في أسلوب الشعر في هذا العصر.

- ١- فقد أخذوا يهجرون الحوشي والغريب والمبتذل، وتردد في شعرهم كثير من الألفاظ الإسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والإسلام والجنة والنار إلخ...

- ٢- وأخذوا يعنون بجمال السبك وعذوبة الكلام وانتقاء الألفاظ.
- ٣- وكثر في شعرهم الاقتباس من القرآن الكريم كما سبق، واستعمال ألفاظه والتأثر بأساليبه وتشبيهاته.

ولقد عرضنا من قبل بعض الأمثلة التي توضح أثر القرآن الكريم في الشعر روحاً وأسلوباً، ومعظم الشعر الإسلامي يتجلى فيه هذا التأثير بالإسلام في معانيه وأغراضه وأساليبه وألفاظه، فما نزال نستمع إلى حسان من غير ما

سبق. وهو يقول في أبي بكر:
والثاني اثنين في الغار المنيف وقد
طاف العدو به إذ صعد الجبلا

ويقول:
شهدت بإذن الله أن محمداً
رسول الذي فوق السموات من عل
وإن الذي عادى اليهود ابن مريم
رسول أتى من عند ذي العرش مرسل
وأن أخوا الأحقاف إذ يعزلونه
يقوم بدين الله فيهم فيعدل

ويقول:
فما المال والأخلاق إلا معارة
فما استطعت من معروفها فتزود
متى ما تقد بالباطل الحق يأبه
وإن قدت بالحق الرواسي تنقد

ويقول في استشهاد حمزة يوم أحد:
فإن جنان الخلد منزله بها
وأمر الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكموفي النار أفضل رزقهم
حميم وما في جوفها وضريع

وقد رأينا تأثيره بالأسلوب والألفاظ من قبل في قوله:
عزیز علیه أن یحیدوا عن الهدی
حریص علی أن یتقیموا ویهتدوا

وقوله:
لتهجوه ولست له بكفاء؟
فخیرکما لشركما الفداء

كما رأينا تأثر معن بن أوس في قصيدته التي يقول فيها:
فما زلت في لبني له وتعطفي
عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفض له من الجناح تالفاً
لتدنيه مني القرابة والرحم

شعراء المدر والوبر:

والأقدمون يقسمون الشعراء المخضرمين إلى طائفتين متميزتين:

- ١ - شعراء الوبر من أعراب نجد واليامة وبواديها.
 - ٢ - وشعراء المدر وهم أهل القرى، كالمدينة المنورة، ومكة المكرمة والطائف، وقرى عبد القيس في البحرين والحيرة بسواد العراق.
- ويرون أن شعراء أهل نجد واليامة والبوادي أفحل من شعراء أهل القرى وأجزل لفظاً وأضخم أداءً وأوسع مذهباً في تنويع أساليب الكلام..
وإن كان شعرهم لا يخلو من حوشية في العبارة، ومنهم كان فحول الشعراء،
ويرون أن شعراء المدر ألين شعراً وأرق لفظاً، وألطف كناية، وأدمل أسلوباً، وأن أشعرهم جميعاً أهل المدينة المنورة، ومنهم كان شعراء النبي ﷺ الذين نافحوا عنه الشعراء الناشئين في قريش بعد أن لم يكن لها شعر يذكر.
وأن شعر الأنصار من الأوس والخزرج في هذا العصر لان في اللفظ وهان في المعنى عما كان عليه في الجاهلية.

وعملوا ذلك بأن الإسلام نسخ كثيراً من بواعث الشر التي تثير النفوس وتشعل الأحقاد: كالعصبية الجاهلية، وحب الانتقام، والأخذ بالثأر والشوة بالخمر، والهجاء الكاذب، وأكثر ما يجيش بالخواطر عند احتدام الشرور، وتسكن إليه النفس عند الرضا والسرور.

وأمر آخر ذكره، وهو أن كثرة تلقيهم آيات بهذا القرآن الكريم المعجوز ونزوله بينهم كل حين بما يبهرهم ويأخذ بمجامع قلوبهم، صغر قيمة

شعرهم في أعينهم، واستضعفوا معانيهم وأسلوبهم بالإضافة إلى معانيه وأسلوبه فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليه، ومثلوا لذلك بقوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الإسلام، وشموخ شعر أمية بن الصلت في الجاهلية واستخذائه في الإسلام لمكان حسده لرسول الله ﷺ.

قال الثعالبي^(١): كان حسان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً؛ ويغبر في نواصي الفحول، ويدعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء ويقول مثل قوله في بني جفنة ملوك غسان:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شم الأنوف من الطراز الأول

فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان ملكاً تراجع شعره وكاد يرق في قوله ليعلم أن الشيطان أصلح للشعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك.

وأكبر من ذلك أن ليبدأ العامري وهو من أفحل شعراء الجاهلية، عندما انقطع إلى حفظ القرآن الكريم ومدارسته، انقطع عن قول الشعر في الإسلام؛ ويقولون إن من لم يتعرض لهذا الإفحام والانهيار من أعراب البوادي بقي شعره إلا قليلاً على غرار شعر الجاهلية من أمثال الخطيئة وكعب ابن زهير، وكل هذا كلام مقبول في جملة.

ولكن كثيراً من النقاد يرون أن بعض ما يستضعف من شعر شعراء مكة المكرمة والطائف مدسوس عليهم.

أغراض الشعر الأموي:

أما أغراض الشعر الأموي فقد كانت هي أغراض الشعر الجاهلي، من

(١) ٨٠ خاص الخاص للثعالبي ط ١٩٠٨.

مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف ونسيب وغير ذلك من الأغراض القديمة، التي نجدها ممثلة في الشعر الأموي أتم تمثيل.

ومن البدهى أن الشعراء في هذا العصر قد طرّقوا جميع الأغراض التي تناولها الشعراء من قبل كالممدح والفخر والهجاء والرثاء والغزل، ونحو ذلك من الأغراض العامة التي يتداولها الشعراء في كل عصر، بيد أن هذه الأغراض قد تأثرت بما جد من مظاهر الحضارة وألوان الترف، وتشكلت بصورة البيئة وأحوال المجتمع وظروف السياسة.

وقد نشأت أغراض لم تكن موجودة من قبل، كالشعر السياسي الذي كان صدى لهذه الخصومات السياسية، والعداوات القبلية، والمنافرات الحربية، وكأنواع من الغزل لم تكن معروفة من قبل، وهي الغزل العذري والغزل القصصي، وألوان من وصف البلاد المفتوحة، ونحو ذلك من تصوير لعقيدة دينية، أو دعوة إلى زهد وتقشف، مما استدعته مظاهر الحياة الجديدة وملابساتها وكالشعر الشعبي الذي جد في هذا العصر، وشعر الرجز.

فالأغراض الجديدة هي:

١ - الشعر السياسي عند شعراء الأحزاب السياسية كقطرى والطرماح، والكميت وجريز والفرزدق، والأخطل وعبيدالله بن قيس الرقيات.

٢ - شعر الشعوية أي الذين يسوون بين العرب وغيرهم من العناصر أو يفضلون العجم على العرب، ومن هؤلاء إسماعيل بن يسار وإخوته محمد وإبراهيم، وهم من عنصر فارسي، والحيقطان الشاعر وهو من سلالة حبشية، وابن رباح وهو من أصل زنجي، وسواهم.

٣ - الغزل القصصي ومن شعرائه عمر بن أبي ربيعة والحارث المخزومي.

٤ - الغزل العذري ومن شعرائه جميل وكثير وقيس بن الملوّح وقيس بن ذريح وتوبة العامري صاحب ليلي الأخيلية، وسواهم.

على أن هذه الأغراض جميعها قد اختلفت باختلاف الأقاليم، وتأثرت بأحوال البيئات، ففي الحجاز كثر الترف، وفاض الثراء، وشغل شباب الهاشميين بما أتيج لهم من فراغ ونعيم، عن المطالبة بالملك، والاشتغال بالسياسة، وانصرفوا إلى مجالس الغناء ومشاهدة الجمال، فشاع لذلك الغزل العذري، والغزل القصصي.

وفي العراق كثرت الأحزاب واضطربت العصبيات، واستحكم الخلاف السياسي، واشتدت المعارضة لبني أمية، فكان الشعر صورة واضحة لما يعمل في المجتمع من حياة ثائرة، وفتنة عارمة، وخصومات عنيفة، فهو قوي عنيف يكثر فيه الفخر والهجاء، ويصطبغ بالصبغة البدوية الجزلة، وفي هذه البيئة ولد الشعر السياسي الذي يعد جديداً في هذا العصر.

أما الشام فكان مهد الملك، ومقر الخلفاء، ومثابة الشعراء، وكعبتهم التي يحجون إليها، حاملين ما جادت به خواطرهم، وفاضت مشاعرهم، ثم يعودون وقد احتقبوا سني الجوائز، وعظيم الصلات. وفي ظلال الخلافة بالشام جرت ريح للشعر رخاء، تطرق أبواب أغراضه الأخرى في رفق ويسر: من وصف ومدح ونحو ذلك وستكلم هنا عن الشعر السياسي كمثال يوضح العنصر الإعلامي الذي ندرسه:

الشعر السياسي:

قامت خلافة الأمويين على أسنة الخراب والرماح وعاشت كذلك مدة حياتها تجالذ خصوماً أقوياء، وأعداء ألداء، يجرحونها بالألسنة، ويقاومونها بالأسنة، وكان لكل حزب من خصومها شعراء يتعقبون مثاليها، وينددون بسياستها، ويثيرون الحفاظ عليها.

وكان كل شاعر من هؤلاء يشيد بحزبه، ويؤلف القلوب حوله، ويهجو خصومه السياسيين، ويرثي شهداء جماعته.

١ - هؤلاء الشيعة يقف بجوارهم شراء كثيرون، فهذا الكميت^(١)

(١) الكميت بن زيد الأسدي ولد بالكوفة سنة ٦٠هـ، وشأها وأخذ عن علمائها وأدبائها وروى =

ينافح عن بني هاشم ويدافع عن حقهم في الخلافة فيقول من قصيدة له مشهورة:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب	ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب
ولم تلهني دار ولا رسم منزل	ولم يتطربني بنان مخضب
ولا أنا بمن يزجر الطير همه	أصاح غراب أم تعرض ثعلب ^(١)
ولا السانحات البارحات عشية	أمر سليم القرن أم مر أغضب ^(٢)
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى	وخير بني حواء والخير يطلب ^(٣)
إلى النفر البيض الذين يحبهم	إلى الله فيما نالني أتقرب
بني هاشم رهط النبي فلإني	بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خففت لهم مني جناحي مودة	إلى كنف عطفاه أهل ومرحب ^(٤)
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلاء	مجنأ على أدنى أذم وأقصب ^(٥)
وأرمي وأرمي بالعداوة أهلها	وإني لأوذى فيهم وأؤنب

= كثيراً من شعر الأقدمين وأخبارهم، وكان عالماً بلغات العرب وأنسابها ومفاخرها ومطالبها حتى لقد ناظر حماداً في الرواية فغلبه وأفحمه وقد برع الكمي في الخطابة والشعر، وتعصب في شعره للهاشميين كأكثر أهل الكوفة، وجاهر بذلك ودافع عن حقهم في الخلافة وندد بحكم الأمويين، ومجد آل البيت ومدحهم غير عابء بغضب بني أمية، وقتل عام ١٢٩هـ، وكان هارون مولى الأزدي يرد على الكمي في افتخاره بالعدنانية، ويفخر بقحطان (٧: ٧٥ الحيوان - الخانجي).

(١) الزجر: الاستدلال على ما يتوقع من الحوادث المستقبلية بأصوات الحيوانات وحركاتها وأحوالها، وقد كان ذلك شائعاً بين العرب ولهم فيه قصص أشبه بالخرافات.

(٢) السانحات: الطير المتجه من اليسار إلى اليمين والعرب يتفاءلون بها ويستبشرون. والبارحات: ضده، والأعضب: المكسور القرن.

(٣) النهى جمع نهي - بضم النون فيهما - وهي العقل.

(٤) خفض جناح المودة: كناية عن كمال الطاعة والحب والامتنان، والكنف: الحمى والموتل، وعطفاه: جانباه. ومعنى البيت أن الشاعر يميل إليهم ويصفهم مودته ويجد فيهم أهلاً له مرحبين به.

(٥) المجن: الترس يتقي به المحارب ضربات عدوه، وأقصب - على البناء للمجهول - اشتتم وأعاب.

فما ساءني قول امرئ ذي عداوة
 فقل للذي في ظل عمياء جونة
 بأي كتاب أم بأية سنة
 وقالوا ترابي هواه ورأيه
 وأهل أحقاد الأقارب فيكم
 بخاتمكم غصبا تجوز أمورهم
 إذا اتضعونا كارهين لبيعة
 أقاربنا الأذنون منكم لعل
 لنا قائد منهم عنيف وسائق
 وقالوا ورثناها أبانا وأمنا
 يرون لهم حقا على الناس واجبا
 بعوراء فيهم يجتديني فأجذب^(١)
 يرى الجور عدلا لا أين تذهب^(٢)
 ترى جبههم عارا علي وتحسب؟
 بذلك أدعى فيهم وألقب^(٣)
 وينصب لي في الأبعدين فأنصب^(٤)
 فلم أر غضبا مثله يتغصب^(٥)
 أناخوا لأخرى والازمة تجذب^(٦)
 وساستنا منهم سباع وأذؤب^(٧)
 يقحمنا تلك الجرائيم متعب^(٨)
 وما ورثتهم ذاك أم ولا أب^(٩)
 سفاها. وحق الهاشميين أوجب^(١٠)

-
- (١) العوراء: الكلمة النابية أو الفعل القبيحة. ويجتديني يطلب مني اتباعه. فأجذب: امتنع عليه، والمعنى، أن الأعداء يشتموني بسببهم ويحاولون صرفي عنهم فلا استجيب لهم.
 (٢) العمياء: الضلالة. والجونة: السوداء. لا أين تذهب. دعا عليه بالألا يعرف قصده.
 (٣) ترابي: نسبة إلى أبي تراب وهو علي رضي الله عنه.
 (٤) ينصب لي فيكم - بالبناء المجهول - أعادي وأحارب.
 (٥) تجوز: تنفذ وتمضي. يتغصب: يغتصب.
 (٦) أتضعوننا: أخضعوننا. أناخوا لأخرى: دبروا الأمر لبيعة أخرى والازمة: جمع زمام. وتجذب: تؤخذ غلابا، والمعنى أنهم يكرهون الناس على البيعة لأمرائهم واحداً بعد آخر ويتوسلون لذلك بالحيلة والقهر.
 (٧) العلة: بكسر العين - الحدث يشغل صاحبه عن رعاية شئونه: والأذؤب. جمع ذئب، والمعنى أنهم شغلوا الهاشميين بالأحداث المتتابعة من قتل واضطهاد وتشريد، وانطلقوا هم كالوحوش الضارية يبطشون بالناس ويخيفونهم.
 (٨) المراد بالقائد والسائق: الخلفاء والولاة، ويقحمنا: يكافنا ويحملنا. والجرائيم: جمع جرثيم: وهي التراب المجتمع في أصول الشجر تسفيه الريح فيتأذى الناس منه.
 (٩) ورثناها: أي الخلافة.
 (١٠) سفاها - بفتح أوله - جهلا ونخفة حلم .

والقصيدة هذه هي إحدى هاشميات الكميث، وهي من عيون الشعر العربي وروائعه، وهي إحدى نماذج الشعر السياسي الذي نشأ في هذا العصر.

٢ - وهؤلاء الخوارج يقفون دائماً للدولة كالشجى في الحلوق، والقذى في العيون، ترصد لهم الدولة أعتى القوى، وأنضى الأسلحة، فلا تستطيع أن تخضع لهم شوكة، أو تضعف لهم قوة، أو تسكت لهم لساناً. فهم بما تغلغل في قلوبهم من عقيدة، واستقر في نفوسهم من مذاهب، لا يفتأون يجالدون الحاكمين في عنف، ويصارعون مخالفينهم في الرأي، في قسوة مرة وصلابة عنيفة، وهذا قطري بن الفجاءة يصف موقعة دارت فيها رحى الحرب بينهم وبين أهل البصرة، في يوم دولا ب، وهي بلدة بالأهواز، في قصيدته التي يقول فيها:

لعمرك إني في الحياة لزاهد	وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتني يوم دولا ب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا	تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم	بجنات عدن عنده ونعيم

فهو بهذا يعتبر أعداء حزبه كفاراً، تستباح دماؤهم، ويعد قتل الخوارج شهداء باعوا نفوسهم بجنات النعيم.

وهذا عمران بن حطان (٨٩هـ) وكان مغالياً في التعصب على (علي) يمدح ابن ملجم قاتله:

لله در المرادي الذي سفكت	كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسي عشية غشا بهضربته	مما جناه من الآثام عريانا
يا ضربة من كريم ما أراد بها	إلا ليلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأفكر فيه ثم أحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا

٣- وهؤلاء الأمويون كانوا أسبق الناس في ابتداع هذه البدعة، واستنسان هذه السنة، وإثارة الشعراء وتحريضهم على خصومهم. أثاروا الأخطل شاعرهم على الأنصار، فهجاهم بقوله:
ذهبت قریش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمام الأنصار
عما اضطر النعمان بن بشير الأنصاري إلى الدخول على معاوية، متألماً شاكياً قائلاً في قصيدة له:

وإني لأغضي عن أمور كثيرة سترقى بها يوماً إليك السلام

وقد كثر الشعراء الذين يهجون الأمويين، وينتقدون سياستهم، وكان شعراء الأمويين الكثيرون، يصدون هذه الحملات، ويردون على هذه الانتقادات، ويمدحون بني أمية، ويهجون خصومهم، فهذا أعشى ربيعة يقول في مدح عبد الملك وهجاء الزبيرين:

آل الزبير من الخلافة كالتى عجل التاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لاتناموا عنهمو كم للغواة أطلتمو إمهالها
إن الخلافة فيكمو لافيهمو ما زلتمو أركانها وئمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا فانفض بيمينك فافتتح أقفالها
وهذا الأخطل يقول:

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجد يوماً صارم ذكر
الخائض الغمر والميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر
في نبعة من قریش يعصبون بها ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا أنف إذا ألت بهم مكروهة صبروا
لايستقل ذوو الأضغان حربهمو ولا يبين في عيدانهم خور
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
بني أمية نعمالكم مجللة تمت فلا منة فيها ولا كدر

وهذه القصيدة تكاد تختصر فنون الأخطل الشعرية كلها، وهي التي

مدح بها عبد الملك بن مروان بعد انتصاره على مصعب بن الزبير، وكان لها
ولأخرى مثلها في الأدب العربي وحياة القبائل العربية شأن عظيم، بدأ
الأخطل هذه القصيدة بذكر أحبته الذين فارقه وارتحلوا عنه فقال في مطلعها:
خف القطين فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى في صرفها غير

ثم وصف حزنه لفراق هؤلاء الأحبة وذهوله وهو ينظر في آثارهم
ويتبعهم طرفه كثيباً مولها؛ فشبه نفسه في هذه اللحظة بالسكران قد عبث به
الخمر، أو المسحور قد ملك السحر عليه أمره، وانتهز هذه الفرصة فوصف
الخمر وصفاً قصيراً جيداً، ثم انتقل إلى صاحباته اللاتي ارتحلن فشبه بهن
تشبيهاً قصيراً حسناً وألم بشيء من أخلاق النساء وإيثارهن للشباب وانصرافهن
عن الكهول والشيخ، فقال:

يا قاتل الله وصل الغانيات إذا أيقن أنك ممن قد زها الكبر
أعرضن لما حتى قوسي موترها وبيض بعد سواد اللمة الشعر
ما يرعوين إلى داع لحاجته ولا هن إلى ذي شيبة وطر

ثم يصف طريقهن ويخلص من هذا كله إلى مدح عبد الملك وتهنئته
بالفوز وإثبات حقه في الخلافة فيقول:
إلى امرئ لا تحسديننا نوافله أظفره الله فليهنأ له الظفر

ويعضي في مدح عبد الملك فيصفه بالبأس والنجدة والجود، وإيثار
المسلمين بالخير والمهارة في تدبير الأمور، وقيادة الجيوش وقهر العدو، ويقص
من ذلك ما كان في حرب عبد الملك لمصعب حتى تم له النصر، فإذا أرضى
عبد الملك انتقل إلى بني أمية عشيرته فمدحهم أحسن مدح وأجله، وصور
من أخلاقهم ما أعجب به المعاصرون جميعاً حتى عدوا الأخطل فيه أشعر
العرب وذلك قوله:

حشد على الحق عيافو الخنا أنف إذا ألت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

على أن الحرب قد وضعت أوزارها بين عبد الملك وأنصار ابن الزبير،
ولكن لها آثاراً سيئة لم تزل بعد، وما زال في المنهزمين مكر وخداع وكيد،
فالأخطل يحذر بني أمية من هؤلاء المنهزمين، ويذكرهم بنصحه لهم وحسن
بلائه حين دافع عنهم الأنصار، فيقول:

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
أفحمت عنكم بني النجار قد علمت عليا معد وكانوا طالما هدروا
حتى استكانوا وهم مني على مضض والقول ينفذ ما لا تنفذ الأبر
بني أمية إني ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمنا زفر

والأخطل شديد الحرص على أن تحمي قبيلته ثمرة النصر فهو يذكر عبد
الملك ببلاء تغلب في الحرب فيقول:
وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك بيطن الغوطة الخبر

ومضي بعد ذلك في هجاء قيس وتصوير ما أصابهم من ألوان الهزيمة في
المواقع المختلفة تصويراً دقيقاً فيه شدة وسخرية لاذعة، حتى إذا فرغ من قيس
التفت إلى أنصارهم من كليب رهط جرير- الذي كان يدافع عن قيس
بلسانه - فيهجوهم هجاء مرأً مقدعاً. وبذلك تنتهي هذه القصيدة الرائعة.

ولقد كان الأخطل من تغلب، وتغلب قبيلة من ربيعة كانت تسكن
الجزيرة وشمال الشام، فلما كان الإسلام أقبلت على هذه البلاد قبائل مضرية
من قيس، فزاحت فيها ربيعة كما زاحت فيها العرب البليانية، وكانت هذه
القبائل القيسية والمضرية قد مالت مع ابن الزبير على بني أمية، فاتفقت
مصلحة الأمويين واليمنيين والتغلبيين على محاربة القيسية والمضرية في الشام
والجزيرة والعراق، حتى تم النصر لعبد الملك على مصعب بن الزبير.

ومن هنا كان شعر الأخطل السياسي ذا لونين مختلفين: فأما أحدهما
فالدفاع عن حزب بني أمية والنضال عن سلطانهم وتثبيت حقهم في هذا

السلطان، وأما الثاني فالدفاع عن قبيلته تغلب وحلفائها من عرب اليمن المقيمين في الشام، والإلحاح في هجاء القيسيين خاصة والمضريين عامة.

وحياة الأخطل هذه وما أحاط بها من الظروف المختلفة ضمنت له التفوق في فنون من الشعر لم يكد يبلغ حظه منها. شاعر من الذين عاصروه، فقد كان بحكم اتصاله بالقصر وانقطاعه للأمراء والخلفاء أمدح أهل عصره للملوك، وكان بحكم هذا الاتصال أيضاً أقدر أهل عصره على النضال السياسي، وكان بحكم حياته الخاصة في قبيلته واشتراكه الفعلي فيما كان يعرض لهذه القبيلة من بأس الحرب ولين السلم أقدر أهل عصره على وصف الحرب وتصوير ما يعرض فيها من الهزيمة.

والأخطل من فحول الشعراء الإسلاميين ومن رواد الشعر السياسي في عصر بني أمية، وهو أبو مالك غياث بن غوث المعروف بالأخطل التغلبي، ولد في خلافة عمر في قبيلة تغلب التي كانت تسكن الجزيرة والعراق، وكانت تدين بالنصرانية، فأقرها عمر على نصرانيتها، وقبل منها الجزية، وقد نشأ الأخطل نشأة بدوية في الجزيرة، ويتحدث الرواة أنه بدأ قول الشعر طفلاً فهجا امرأة أبيه ثم أمضى شبابه يقول الشعر فيما يعرض لأهل البادية من الخصومة بين الأفراد والقبائل. فلما كانت أيام معاوية وظهر الشر بين الأنصار وبني أمية احتاج يزيد بن معاوية ولي العهد حينئذ إلى شاعر يهجو له الأنصار، فدل على الأخطل يكلفه ذلك، وقبله بعد أن نكل عنه غيره من الشعراء المسلمين تخرجاً من هجائهم، قبل الأخطل هذه المهمة لنصرانيته، فهجا الأنصار وألح في هجائهم وتفضيل قريش عليهم حتى شفى نفس يزيد، وتعرض هو لخطر عظيم، وانقطع بعد ذلك ليزيد فلزمه أميراً وخليفة حتى مات، ثم اتصل بخلفاء بني أمية بعده ولاسيا عبد الملك بن مروان، وفي عصر عبد الملك هذا ظهر تفوق الأخطل ونبوغه في الشعر، حتى هابه المضريون وحسبوا له حساباً، وحتى آثره عبد الملك على غيره من شعراء عصره جميعاً، وأمر من يعلن بين الناس أنه شاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين، وأنه ناصر بني أمية وناضل عنهم حزب الزبيريين كما ناضل عنهم

الأنصار من قبل، وبينما كان نضاله للأنصار أيام معاوية ويزيد عمل شاعر مأجور يريد أن يتصل بالقصر وينال الخطوة فيه، كان نضاله حزب الزبيريين أيام عبد الملك عملاً صادقاً مخلصاً يدافع به عن مصالح قبيلته ومكانتها.

وكان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين سواهم من فحول الإسلاميين وكان مطبوعاً على الشعر، بعيداً عن التكلف والتعمق فيه، وامتاز بإجادة المديح والإبداع في معانيه والتنويع في ضروبه والتريث فيه، حتى ربما لبث في بعض مدحاته سنة كاملة، وربما نظمها في ساعة ثم يكر عليها بالتمحيص والاختيار، حتى يحذف منها ستين ويبقى الثلاثين: كما امتاز لنصرانيته بوصف الخمر والترغيب فيها. ولم يقصر في الهجاء عن صاحبيه كثيراً وفضلها بقلة التعرض للفحش والبذاء ولكنه كان دونها في بقية فنون الشعر؛ كالرثاء وغيره، وليس للأخطل سوى سبع مطولات أدركها بها. ولذلك لم ير قدماً أهل العلم والرواة تسويته بهما لتقصيره عنها في التصرف في سائر أبواب الشعر^(١).

٤ - وهذا عبيد الله بن قيس الرقيات^(٢) يمدح حزب الزبيريين. ويأسي

(١) من المصادر لدراسة شعر الأخطل:

شعراء النصرانية بعد الإسلام، الشعر والشعراء، جبهة أشعار العرب، طبقات الشعراء لابن سلام، شعر الأخطل لأنطون صالحاني، الأخطل، لفؤاد البستاني بيروت ١٩٢٦، الروائع عدد ٣٤ و ٣٥ و ٣٦، شعراء البلاط الأموي لعمر فروخ، الأخطل لحنا نمر، سلسلة الطوائف الأدبية، رأس الأدب المكمل في حياة الأخطل لعبد الرحيم محمود، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام.

(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر قرشي ولد بمكة المكرمة. ثم اشقل في أول شبابه إلى المدينة وظل بها زمناً، ثم رحل إلى الجزيرة والعراق، وحيماً خرج عبدالله بن الزبير على الأمويين انضم عبيد الله إليه وحارب في جيش مصعب. وحرض على القتال واشتد في شعره على بني أمية. ولما قتل مصعب وهزم الزبيريون استشفع لدى عبد الملك بن مروان حتى عفا عنه، ثم سافر إلى مصر ومدح عبد العزيز بن مروان، واكتسب لديه حظوة عظيمة، وأكثر شعره في المدح والسياسة، وسمي بابن قيس الرقيات لأنه تغزل في ثلاث نساء اسم كل منهن رقية، وتوفي عام ٧٥ هـ.

لأنقسام قريش، ويذم الأمويين وأهل الشام، وينعى عليهم عدوانهم على الكعبة المشرفة، ويمدح مصعب بن الزبير، فيقول من قصيدة له:

أيها المشتبهى فناء قريش	بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش	لا يكن بعدهم لحي بقاء
لو تقفي وتترك الناس كانوا	غنم الذئب غاب عنها الرعاء ^(١)
هل ترى من مخلد غير أن الـ	له يبقى وتذهب الأشياء
يأمل الناس في غد رغب الدهـ	ر، ألا في غد يكون القضاء ^(٢)
عين فابكي على قريش وهل ير	جع ما فات - إن بكيت - البكاء؟
لو بكت هذه السماء على قوم	كرام بكت علينا السماء
معشرحتفهم سيوف بني العـ	لات يخشون أن يضيع اللواء ^(٣)
ترك الرأس كالثغامة مني	نكبات تسري بها الأنباء ^(٤)
مثل وقع القدم حل بنا فالـ	ناس مما أصابنا أخلاء
ليس لله حرمة مثل بيت	نحن حجاببه عليه الملاء ^(٥)
خصه الله بالكرامة فالبا	دون والعاكفون فيه سواء
حرقته رجال لحـم وعك	وجذام وحمير وصداء ^(٦)
فبنيناه بعد ما حرقوه	فاستوى السمك واستقل البناء ^(٧)

(١) تقفي - بضم اوله - تدبر وتولى وتذهب، وأصله أن المدبر يولي الناس قفاه. والرعاء: جمع راع.

(٢) رغب الدهر: رغبته.

(٣) الحتف: الهلاك والموت. والعلات، جمع علة - بالفتح فيها - وهي الضرة، وبنو العلات أبناء الرجل الواحد من أمهات شتى، والمراد هنا الأقارب مطلقاً. واللواء: السيادة والملك.

(٤) الثغامة - كالنعامة - شجرة بيضاء الزهر، والمراد: أن هذه النكبات قد أشابت رأسه من شدة هولها.

(٥) الملاء: جمع ملاءة - بضم الأول فيها - وهي الثوب اللين من قطعة واحدة. والمراد: الستر.

(٦) لحـم - بفتح فسكون - وجذام - بضم أوله -، وحمير بكسر فسكون وصداء بضم الأول - قبائل وأحياء يمنية. وعك - بفتح أوله - نزارية.

(٧) استوى. استقام. والسمك: السقف. واستقل: ارتفع.

إنما مصعب شهاب من الد - تجلت عن وجهه الظلماء^(١)
ملكه ملك قوة ليس فيه - جبروت ولا به كبرياء^(٢)
يُعْطِي الله في الأمور وقد أف - لح من كان همه الاتقاء
كيف نومي على الفراش ولما - تشمل الشام غارة شعواء^(٣)
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي - عن براها العقيلة العذراء^(٤)
أنا عنكم بني أمية مزور - وأنتم في نفس الأعداء
إن قتلى بالطف قد أوجعتني - كان منكم لئن قتلتم شفاء^(٥)

والشاعر هنا كما رأيناه يذكر ذلك العهد القديم في أسف شديد، لافتراق الرأي واختلاف الهوى، وهو يفخر بملك قريش، ويرى أنه قوام الدولة، وحياة الشعوب الإسلامية، وهو يذكر أبطال قريش الذين ناصروا النبي ﷺ في حياته وأسسوا دولة قريش بعد وفاته، وهو إذاً إنما يمدح مصعب ابن الزبير ويناصره لأنه ماض في هذه السنة سنة الاحتفاظ بالملك والسلطان لقريش وحدها، وعبيد الله بن قيس الرقيات مبتكر في الشعر السياسي حسن الابتكار.

وكان عبيد الله بن قيس الرقيات قرشياً من بني عامر بن لؤي وكان حريصاً قبل كل شيء على أن يظل السلطان لقريش كما كان قبل الفتنة، وإلى أن تكون أعوان قريش، مؤتلفة، وآراؤهم مجتمعة... وابن الرقيات من أطف الشعراء الأمويين روحاً، وأعذبهم أسلوباً، وأيسرهم شعراً، وأخفهم ظلاً...

(١) الشهاب: الكوكب. وتجلت: زالت وانكشفت.

(٢) الجبروت: القسر والطفغيان.

(٣) شعواء: شديدة منتشرة.

(٤) تذهل: تشغل وتشوي. والبرى: جمع برة - بضم الأول فيهما - وهي الخلخال، وتطلق كذلك على القرط والسوار. والعقيلة: الكريمة المخدرة. والعذراء: البكر.

(٥) الطف: موضع قرب الكوفة دارت فيه معركة بين مصعب بن الزبير وجيش عبد الملك بن مروان. وانتهد بقتل مصعب وكثير من رجاله.

وبعد فهذا اللون من الشعر بحر زاهر تلاطمت أمواجه، وتدافعت أثباجه في هذا العصر المضطرب بألوان العصبية السياسية والقبلية، وحسبنا هذه القطرات التي تشف عن أهم عناصره، وأوضح مناحيه، من مدح مشوب بالتحريض، أو هجاء توحى به الأحقاد، أو جدل حول فكرة سياسية، أو شرح لعقيدة دينية أو حزبية، فهو بهذه الألوان المتعددة، والمعاني المتنوعة، والكثرة الزاخرة، يعد غرضاً جديداً في هذا العصر.

ولقد كانت قسوة الدولة على الموالي في هذا العصر واعتزازها بكل ما هو عربي، واحتقارها لكل ما هو أعجمي، وأنفتها منه، مما جعل الموالي يضمرون العداوة للعرب، وإن منعتهم قوة الدولة، وعنفوان سلطانها، أن يظفروا بهذه العداوة وأن يعلنوا تلك الخصومة، ولقد كان تجري على ألسنتهم أحياناً ما يعبر عما يستكن في نفوسهم من ضغينة وموجدة على العرب، ويحاولون أن يظهروا مجد قومهم، في عصبية لأجناسهم واعتزازاً بشعوبهم، وقد سمي هؤلاء شعوبين^(١). . . ومن هنا بدأ يظهر لون جديد من ألوان الأدب، وغرض مستحدث من الشعر هو الشعر الشعوبي، وقوامه الطعن على العرب، والاعتزاز بالاعاجم وخاصة الفرس، والإشادة بحضارتهم ومجدهم وما كان لهم من ملك وسلطان.

وقد اتسع هذا اللون من الشعر اتساعاً شاملاً في العصر العباسي حتى خلف ثروة ضخمة من الشعر العربي.

وإذا كانت «الوظيفة» هي التي تخلق العضو- كما يؤثر العلماء القول بذلك- فإن الوظائف الإعلامية هي التي خلقت ما نؤثر تسميته «بالأجناس الإعلامية» تمييزاً لكل وسيلة من وسائل الاتصال بالجمهور عن الأخرى. حيث لم تتغير هذه الوظائف على مدى القرون فيما بين الثقافة القبلية والحضارة العصرية. حيث يقوم النظام الاجتماعي بخمس وظائف عريضة. وقد حدد

(١) نسبة إلى الشعوب جمع شعب، وهو جيل من الناس أوسع من القبيلة، أو من الشعوب في قوله تعالى: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل﴾. على أن المراد بالشعوب العجم والقبائل العرب.

«هارولد لازويل» ثلاثا منها وهي: مراقبة البيئة، وربط فئات المجتمع في استجابتها للبيئة. ونقل التراث الاجتماعي... وقد استخدم «ولبور شرام» اصطلاحات أبسط وهي: الحارس والمنبر. والمعلم... وضيف «شرام» وغيره وظيفة رابعة وهي (الترفيه)، ونحن نضيف إليها وظيفة خامسة بمصطلح قديم مستعار من أبي حيان التوحيدي ونعني بها وظيفة «الامتناع والمؤانسة».

ولكل مجتمع - كما يقول «ريفرز» حراسه الذين يزودون غيرهم من الأعضاء بالمعلومات عن الأحداث وتفسيرها فهم يمسخون البيئة ويرسلون تقاريرهم على التهديدات والمخاطر، وكذلك من الأبناء الطبية والفرص المتاحة، وقد يكون الحارس شيخاً في قبيلة يشكو من أن الجيل الشاب يظهر احتراماً متضائلاً للطقوس. أو مراسلاً أجنبياً يبعث بتقارير عن التوتر السياسي في الشرق الأوسط... ولتقرير ما ينبغي عمله أزاء التهديدات أو الفرص، يستخدم المجتمع نظامه الاتصالي كمنبر، ولما كانت أساليبه في تغير دائم، فإنه يحتاج إلى طريقة للوصول إلى اتفاق عما ستكون عليه هذه التغيرات وبدون اتفاق قد يصاب النظام الاجتماعي بالانحلال... كما أن المجتمع يستخدم نظامه الإعلامي «كمعلم» لنقل التراث الاجتماعي من جيل إلى الجيل التالي.

ويقارن «ريفرز وزميله» بين النظام الإعلامي في مجلس القبيلة أو اجتماع المدينة في مهمته للربط بين الاستجابات للبيئة، وكذلك تمكن المقارنة بالمؤسسات في البيت والمسجد والمدرسة في مهمتها التعليمية... ويذهب «تشارلس رايت» الأستاذ بجامعة بنسلفانيا إلى أن الوظيفة الأخرى للترفيه عن طريق وسائل الإعلام، هي تزويد الفرد بالراحة التي تساعد على الاستمرار في التعرض للأخبار والتفسير والإرشاد، وهي لازمة له لكي يحيا في العالم الحديث، ويذهب «جاري ستانير» في دراسته للتلفزيون إلى أن الترفيه مهمة جوهرية لا للتسلية فقط وإنما لتقديم مواقف تعليمية سائغة أيضاً.

أما وظيفة «الامتناع والمؤانسة» فهي التي تطرح مشكلة الإبداع الفني على أوساط البحث: كيف يعيد الفنان تشكيل التجربة وتحويلها إلى شيء واع حاد وفي نفس الوقت «مؤنس» وممتع؟ ثم ماذا يفعل الفنان للعالم فيجعل منه شيئاً

يستولي على الحس والإدراك؟ وما الدور الذي تلعبه الفنون في تجربتنا وما الذي يضفي عليها ما فيها من إمتاع ومؤانسة؟

ووسائل الإعلام وما توفره التكنولوجيا الحديثة، تمد من نطاق الوظائف الإعلامية التي لم تتغير على مدى القرون، فالكتابة - كما يقول «شرام» - نمت حتى يحتفظ المجتمع برصيده، من المعرفة فلا يضيع في اعتماده على الاتصالات الشخصية أو على ذاكرة الشيوخ، وثما فن الطباعة، وتنامت، بالتالي، أهمية الآلة فأصبحت، بما تعطيه أرخص وأسرع مما يستطيع الإنسان نفسه أن يفعل.. . حول هذه الآلة نهضت كل مؤسسات الطباعة والنشر وفنون الأدب.. . والدور الذي قامت به الكتابة والطباعة في سبيل البحث عن الحقيقة، كما يذهب إلى ذلك «فندريس» وهما كما هي الحال في اللغة، خليط من اختراعات عديدة قد حوكت وتنقلت وطبعت بالطابع الاجتماعي.. . فالكتابة قد خلقت أشياء متكلمة، والطباعة أكثرت من عددها إلى غير ما يجد وخلدتها. وهكذا أمكن للفكر أن ينتصر على المكان والزمان والموت، ولكن كثيراً ما ينتهي التفكير المجرد إلى سراب وإلى الابتعاد عن الجادة.. . فالفكر في هذه الحالة يجول في عالم يرجع إلى عهد الإنسان البدائي.. . عالم الأفكار الذي هو أيضاً عالم الألفاظ.

وتطورت الآلات فيما بعد حتى لا يتقيد ما يمكن أن يراه الإنسان بالمكان أو الزمان - يقول «شرام»: في أول الأمر جاءت آلة التصوير (الكاميرا) وأجهزة العرض، ثم جاء طبع الصور ثم استديوهات السينما والتوزيع ودور العرض.. . كذلك اخترعت الآلات التي تجعل الإنسان يسمع (بفتح الياء) ويسمع (بضم الياء) على بعد مسافات هائلة وحول ذلك قامت شبكات التلفون الكبرى والتسجيل الصوتي والراديو.. . ولما انضمت آلات الاستماع إلى آلات المشاهدة وجد الأساس للأفلام الصوتية والتلفزيون. وبتعبير «شرام»: اكتشف المجتمع فيما بين أيام القبيلة وعهد الحضارة العصرية كيف يشارك في الإعلام وكيف يخزنه متخظياً بذلك المكان والزمان ليصون التاريخ من الضياع وليزيد كم المجتمع الفعال من العشرات إلى الملايين.

ويعتقد «هارولد آدمز اينس» وهو اقتصادي كندي، أصبح من علماء

الأعلام أن تكنولوجيا الاتصال تعتبر قطب الرchy بالنسبة لأي تكنولوجيا أخرى. وقد أشار «جيمس كاري» الأستاذ بجامعة الينوى إلى ذلك بقوله: «يذهب أينس إلى القول بأن وسائل الإعلام الموجودة في المجتمع تؤثر تأثيراً قوياً في أشكال التنظيم الاجتماعي الممكنة. وهكذا تؤثر وسائل الأعلام في أنواع التجمعات الإنسانية التي يمكن أن تنشأ في أي حقبة. ولما كانت هذه الأشكال من التجمع ليست مستقلة عن معرفة الناس بأنفسهم وبغيرهم - فالواقع أن الشعور مبني على هذه التجمعات - فإن التحكم في هذه الاتصالات يتضمن التحكم في كل من الشعور والتنظيم الاجتماعي. . . ويذهب أينس إلى أن مراحل متنوعة من الحضارة الغربية يمكن تمييزها بانتشار وسيلة معينة من وسائل الاعلام، ويذكر «ريفرز» وزميله أن المسيحية قد استغلت مزايا جلد الرق للمحافظة على النظام القديم، وذلك لأن متانة هذا الجلد قد منحت الكنيسة وسيلة للحفاظ على نواة للأفكار عبر قرون عديدة، كما أن ندرة هذا الجلد حصرت رعاية هذه الأفكار في عدد قليل من الناس لفترة طويلة بقيت فيها الكنيسة في مأمن نسبي من التحدي أو الانشقاق. ويقول أينس إن الدولة العلمانية، من ناحية أخرى قد استخدمت الورق لنشر المعلومات على نطاق واسع، وبذلك تحدث النظام التقليدي ونشرت سيطرتها على مناطق واسعة.

ومع ذلك، فإن احتكار الكنيسة للمعرفة، كما يذهب إلى ذلك «أينس» قد أخذ يتحطم تدريجياً في المناقشة على السيطرة على عقول الناس التي أعقبت الاستخدام المتزايد للورق وعصر إحياء المعارف الكلاسيكية وخاصة العلوم والفلسفة اليونانية، وقد كان اختراع الطباعة وزيادة كميات الورق الرخيص دعماً للإصلاح الديني وغزو الآداب باللغات الدارجة. وقد أصبح هذان العاملان هامين في تقرير شكل (الدولة الأمة) الجديدة.

ويذكر «ريفرز» وزميله كذلك أن النهضة الصناعية واستخدام قوة البخار في الطباعة أثرت تأثيراً كبيراً في وصول الطبقة الوسطى إلى السلطة وظهور الديمقراطيات الليبرالية في غرب أوروبا وأمريكا. بل لم يكن في الإمكان

قيام الأشكال المعاصرة من المجتمع، ديمقراطية كانت أو شمولية، بدون المطابع السريعة ووسائل الإعلام الألكترونية للاتصال السريع بالأعداد الكبيرة من الناس في مساحات شاسعة.

وقد أوضح كاري أن أينس يرى أن تكنولوجيا الاتصال تؤثر تأثيراً قوياً في التنظيم الاجتماعي والثقافة. في حين أن تلميذه «مارشال ماكلوهان» - وهو كندي أيضاً - يرى أن تأثيرها الأهم في التنظيم الحسي والفكر. ويعتقد «ماكلوهان» أن النتائج الفردية والاجتماعية لأية وسيلة من الوسائل تتغير مع تغير المقياس الذي تحدته كل تكنولوجيا جديدة وكل امتداد لأنفسنا في حياتنا. ففي عصر الكهرباء، الذي يبدأ باختراع التلغراف، نشأت شبكة من الدوائر الكهربائية التي تربط العالم بنسيج من الوعي اللحظي. والواقع أن العالم قد أصبح قبيلة على كوكب الأرض. . يقول «ماكلوهان»: من الممكن إعداد كتيب كامل لدراسة امتدادات الإنسان اعتماداً على مختارات من شكسبير. . هل كان يعني جوليت أم التليفزيون في هذين البيتين ؟

«ولكن هه... أي ضوء هذا الذي ينبعث من النافذة؟

إنها تتكلم... ومع ذلك فإنها لا تقول شيئاً...»

وفي مسرحية «ترويلس وكريسيدا» التي تكاد تقتصر على الدراسة السيكلولوجية والاجتماعية الصحيحة نلاحظ ذلك التنبؤ بنتائج التجديد:

«إن الفطنة التي هي جزء من الدولة الساهرة المتيقظة.

تعرف حتى آخر ذرة في ذهب بلوتس.

وتكتشف قاع الأعماق المتعذر سيرها، وتأخذ مكانها بجانب الفكر

وتكشف عن النيات في مراقدها البكماء».

وهذا الوعي المتزايد لفعل الوسائل مستقلاً تماماً عن كل «مضمون» أو عن كل برنامج يظهر بوضوح في شعر «شكسبير» ويذهب «ماكلوهان» إلى أن معظم الآراء التقليدية تبين إلى أي حد كنا لا نعي في الماضي الآثار الاجتماعية والنفسية لوسائل الإعلام... فقد ذكر «دافيد سارنوف» أننا نميل كثيراً إلى

اعتبار الأدوات التكنولوجية كبش فداء للأخطاء التي يرتكبها أولئك الذين يستخدمونها . . . إن إنجازات العلم الحديث لا يمكن أن تكون خيراً أو شراً في ذاتها. إن طريقة استخدام هذه الإنجازات هي التي تحدد قيمتها.

ويتفق «ماكلوهان» مع «أينس» في أن اكتشاف الإنسان للحروف المتحركة لم يكن مجرد أداة جديدة للاتصال الفعال جماهيرياً، ولكن الإنسان قد غير جوهر نفسه. ويخبر ماكلوهان على ذلك ما يذهب إليه من أنه قبل اختراع الألف باء كانت الأذن هي المسيطرة على الاتصال فما يسمع يصدق.

المذاهب الأدبية الحديثة:

وفي ضوء التفسير الإعلامي للأدب يمكن القول إن المذاهب الأدبية الحديثة جاءت نتاجاً لتطور الحضارات الإعلامية من حيث الشكل والمضمون على السواء بل ويمكن القول إنها تعد إجابة على السؤال الذي تطرحه نظرية التفسير الإعلامي للأدب: «ولاي هدف؟».

ونحب هنا أن نعرض في إيجاز لأشهر المذاهب الأدبية والنقدية التي نشأت في أوروبا فهازت الأدب الغربي بسماته المختلفة، ثم انتقلت إلينا فأثرت في أدبنا المعاصر، وتأثر بها أدباؤنا ونقادنا تأثيراً كبيراً، فقد أصبح من واجب مؤرخ الأدب الحديث ودارسه أن يعرف هذه التيارات المختلفة التي توجه الأدب، وتغمر الأدباء، وتؤثر في الأفكار والعقول والمشاعر، ليكون حكمه على الأدب حكماً سليماً بعيداً عن الخطأ والقصور. . .

ولسنا بصدد تعمق هذه المذاهب والتيارات أو حصرها، فما يزال الغربيون يطالعونها في كل يوم بمذهب جديد، فبحسبنا أن نعرض لمحة لأهم هذه المذاهب وخصائصها مما تأثر به أدبنا الحديث.

المذهب الكلاسيكي:

كلمة كلاسيك مشتقة من الكلمة اللاتينية (كلاسوس) ومعناها الطبقة العليا من الشعب في روما القديمة. وقد نسبت إلى هذه الطبقة المترفة طبقة

الأدباء والشعراء أصحاب الأدب الرفيع الممتاز، وصارت كلمة (الكلاسيكي) تدل على ما يحتذى من شعر رائع وأدب رفيع.

وقد نشأ المذهب الكلاسيكي في اليونان، حيث ظهرت أقسام الشعر الثلاثة الغنائي والتمثيلي والقصصي للمرة الأولى في الأدب اليوناني، ثم أخذ الرومان يقلدون هذا الأدب، فترعرع هذا المذهب عندهم، ثم ظهر عند الأوروبيين في القرن السابع عشر؛ حينما أخذوا في عهد النهضة يدرسون الأصول اليونانية فتأثرت آدابهم بها كل التأثير. وأطلق على هذا الأدب اليوناني واللاتيني القديم اسم «الأدب الكلاسيكي» أو التقليدي أو الايقاعي أو السلفي. وسمي العهد الذي تأثر فيه الأوروبيون بأدب اليونان والرومان والتزموا طريقتهم «العهد الكلاسيكي».

وطبقة الكلاسيك في الأدب هم أولئك الكتاب والشعراء القدامى الذين أحرزوا ثروة أدبية ترفعهم إلى الذروة. وتجعلهم قدوة يحتذى بها. ويمتاز الأدب الكلاسيكي بقوة الروح الأدبي، وسمو التفكير؛ وروعة الصياغة وإتقانها، وبلاغة اللفظ، واتزان العاطفة والخيال. والفن الكلاسيكي يهدف إلى جلال الخلق، وسمو الغاية. ولكن الشخصية تختفي فيه أو تكاد، لأنه مبني على الاحتذاء والتقليد، فليس للأديب أن يساير عاطفته الفردية، أو يجاري الخيال الكاذب. ومن ثم فإنه لا ينطبق تماماً على الأدب الغنائي لأنه ذاتي بطبيعته.

وكثير من شعراء العربية كلاسيكيون ينزعون إلى تقليد القدامى من الجاهليين كامرئ القيس وغيره في المنهج والصياغة والأسلوب، ومن شعراء الكلاسيكية في العصر الحديث البارودي زعيم هذا المذهب، وحافظ وشوقي والجارم وعبد المطلب والهاوي والزين والأسمر وغنيم ونحوهم... يقول البارودي زعيم المقلدين:

سواي بتحنان الاغاريد يطرب وغيري باللذات يلهو ويلعب
وما أنا من تأسر الخمر لبه وعليك سمعيه اليراع المثقب

فيحاكي الشريف الرضي في قوله:
وقور فلا الألحان تأسر عزمي ولا تمكر الصهباء بي حين أشرب

ويقول البارودي:

ذهب الصبا وتولت الأيام فعلى الصبا وعلى الزمان سلام
نلهو ونلعب بين خضر حدائق ليست لغير خيولنا تستام

فيقلد أبا نواس في قصيدته:

يا دار ما فعلت بك الأيام لم تبق منك بشاشة تستام
وهكذا كان شوقي في كثير من قصائده كنهج البردة مثلاً.

المذهب الرومانتيكي^(١):

وفي أواسط القرن الثامن عشر هزلت الروح الأدبية بسبب ضعف العقيدة الدينية، وانطلاق النفوس على سجايها، والمغالاة في الإيمان بالعلم والمدنية؛ فلم يكن بد من أن تظهر بوادر «الرومانتيكية» أو الابتداعية أو التجديدية، كثورة على النهج القديم، وتتحرر من قيوده وأطلق على هذا العهد الجديد الذي تحرر الأدباء فيه من القيود القديمة «العهد الرومانتيكي» أو الرومانطيقي أو الرومانسي.

ومن أهم خصائص الرومانسية التمرد على القديم والميل إلى الابتكار والتجديد، والنزوع إلى التجارب الذاتية، والتبرم بالمجتمع، والضجر من الواقع، والانطلاق وراء البدوات والخيال، والهروب إلى الطبيعة، والاهتمام

(١) رومانتيكي نسبة إلى رومان وهم شعوب بادية كانوا يسكنون في الشمال الغربي من أوروبا في الجبال والغابات لا هم لهم إلا الغزو والفروسية، فلما انتشرت المسيحية فيها امتزجت الفروسية بالإغراق في التدين والانغماس في الطبيعة، فنشأ عن ذلك أدب أولع بالغيب والخيال المعجز، قوامه تدفق الشعور، وحماس الخيال والاحلام البعيدة، فلما استقرت هذه الشعوب في الأقاليم والمقاطعات فتر هذا الشعور وظهر المذهب الكلاسيكي فتأخرت الرومانتيكية حتى اتبع لها النهوض في منتصف القرن الثامن عشر.

بمشاهدتها، والتحدث عن النفس ومشاعرها وانفعالاتها، والخروج على الأدب القديم من حيث المصدر والمنهج والأسلوب... وقد تناول هذا المذهب الحياة أيضاً. فقد طبع أهله بطابع الذاتية والتأملية والروح الصوفي والميل إلى الرضا بالبؤس ونداء الموت، بل الفزع إلى الموت أحياناً.

ومن الطبيعي أن يكون أدب هذه المدرسة غنائياً لأنه ذاتي يحفل بالشخصية وظهورها على عكس المدرسة الكلاسيكية.

ومن شعراء هذه المدرسة في فرنسا: لامرتين «فيكتور هوجو» والفريد دي موسيه وغيرهم. وقد ظهرت الرومانسية وأثرت في كثير من شعراء الشرق، فهناك ملحمة تسمى (شاطئ الاعراف) للشاعر المصري الهمشري، وأخرى تسمى (على بساط الريح) لفوزي المعلوف، وهما يمثلان الهرب من الواقع، والفرار من حياة الناس. كما يقول المعلوف في ملحمة:

لا تخافي ياطير ما أنا إلا شاعر تطرب الطيور لشعره
فر عن أرضه فرارك عنها من أذى أهلها وتنكيل دهره
وعلى هذا النحو تجد «الشاطئ المجهول» لسيد قطب الذي يقول:
إلى الشاطئ المجهول والعالم الذي حننت لمراه إلى الضفة الأخرى
ويقول المعلوف في نداء الموت:

والآن يا موت إليّ اقترب يا مرحباً بالموثق المعتقد
معتقد نفسي من قيود الأسى موثق جسمي في المدى الضيق
وتجد في هذه المدرسة شعراء الطبيعة الذين عاشوا بخيالهم المجنح في أحضانها كأبي القاسم الشابي الذي يقول:

ياصميم الحياة كم أنا في الدن يا غريب أشقى بغربة نفسي
في وجود مكبل بقيود تائه في ظلام شك ونحس
فاحتضني وضمني لك بالما ضي فهذا الوجود علة يأسى

ومن شعراء هذه المدرسة غير هؤلاء: إيليا أبو ماضي وخليل مطران وعلي محمود طه.

وبعد فهل يمكن تطبيق الكلاسيكية والرومانسية على أدبنا العربي كل التطبيق؟ الحق أن هذا التطبيق لا يعدو أن يكون اعتبارياً فقط وعلى وجه العموم فبالرغم مما قيل في تحديد هذين المذهبين عند الغربيين، فإنهما لا ينفصلان عن بعضهما البعض تمام الانفصال، بل إن كل المذاهب الأدبية ليست مستقلة بل هي متداخلة، فإن الرومانتيكية قد تستعين بالواقعية في بعض الأحيان، كما أن الكلاسيكية قد تستجيب إلى الواقعية مغفلة أحلام الرومانتيكية وخيالاتها المسرفة، وقد عنيت الرمزية بتسجيل المشاعر والتأملات الفردية كالرومانتيكية وإن خالفتها في طريقة التعبير. كما أن المذهب العصري الحديث (المودرنزم) السائد في أمريكا مزيج من السريالية والواقعية.

فالمذاهب الأدبية المختلفة أثر من آثار الحالات الفكرية والشعورية، وهذه الحالات الشعورية تختلف وتتعاقد وتتداخل في فترات مختلفة. فكل ما ينجم عنها كذلك. وإذن فلا يمكن أن يستقيم مذهب أدبي لشاعر بعينه، بل يستقيم لغالبية شعره وما يستخلص من ميله النفسي وذوقه الفني. والحق أن أدبنا العربي في مجمل حالاته مزيج من هذين المذهبين.

فلإذا نظرنا إلى أن الكلاسيكية مذهب محافظ يعتمد على الاعتزاز بالقديم، كان امرؤ القيس زعيماً للمذهب الكلاسيكي التقليدي في الأدب العربي. باعتباره شيخ الشعراء واعتبار منهجه في القصيدة وأسلوبه في التعبير الدعامتين اللتين عليهما قام المذهب المحافظ في شعرنا العربي، وكان من أصحاب هذا المذهب طرفة ولبيد والأعشى وغيرهم من شعراء الجاهلية وغير الجاهلية ممن حافظوا على عمود الشعر العربي كالبحتري أو كونوا مدرسة تقليدية كالبارودي. وشعر شوقي مزيج من الكلاسيكية العميقة والرومانتيكية الخفيفة والواقعية المحدودة، وتظهر كلاسيكيته في مثل «نهج البردة» التي سار فيها على طريقة القدماء.

أما أمثال بشار وابن خفاجة الأندلسي وابن المعتز ومهيار في خروجهم على أساليب العرب المخصوصة وإطلاقهم الشعر من قيود الصناعة، ومثل أبي نواس في ثورته على الأطلال ووقوف القدامى بها وطرقه موضوعات كان القدماء

يخشون طرقها. فهم من أصحاب المذهب الرومانطقي التجديدي.

وإذا لاحظنا أن من خصائص الكلاسيكية التجرد من الشخصية وأن موضوعاتها الملاحم التمثيلية والقصصية، وأن موضوع الرومانتيكية الشعر الغنائي الذي تظهر فيه الشخصية، كان الشعر العربي - وهو غنائي في جملته - من الأدب الرومانتيكي، وما كان منه تقليدياً لا يصدر عن عاطفة صادقة كالغزل الصناعي الذي نفتتح به القصائد من الأدب الكلاسيكي. ومن هنا نرى أن الشعر العربي بل وإنتاج كل شاعر عربي مزيج من المذهبين.

وها نحن نرى في شعراء الشرق المحدثين ألواناً متداخلة من المذاهب الأدبية دون وعي منهم. فالشابي تراوح شعره بين الكلاسيكية والابتداعية والواقعية، وكذلك أبو شادي ومحمود إسماعيل له ناحية كلاسيكية في تعبيره، وناحية رومانتيكية في موضوعاته، وناحية سريالية في مزاجه.

المذهب الواقعي:

غالى الابتداعيون في مذهبهم، وأسرفوا في إطلاق خيالهم المجنح، حتى انتهوا بالمغالاة إلى المستحيل الذي يخرج عن الحقيقة والواقع، حتى سمي هذا التطرف الشديد في مذهبهم «المثالية» لأنه من وحي الخيال لا من وحي الحياة. فالمثالية تصوير خيالي للحياة والإنسانية لا كما هي في الواقع والحقيقة، بل كما يجب أن تكون.

ولما كانت الطبيعة البشرية يضمنها الشرود، وترهقها ملاحقة الخيال والأوهام. كان مذهب «الواقعية» الذي جاء في أعقاب الرومانتيكية بمثابة رد فعل لم يكن منه بد، وهذا المذهب ينكر الانطواء والانكماش والتحليق في أجواء الخيال، والاستغراق في الأحلام والشرود. ويدعو إلى تصوير الحياة كما هي في الواقع لا كما يجب أن تكون. ويفتح ذراعيه لدنيا الناس وعالم الحياة وما يموج به من آلام وأفراح وأشواق وآمال وفورات، وينادي بمشاركة الأدب للمجتمع مشاركة فعالة، بعد اطراح الفردية والأوهام. فهو إذن مذهب ينكر

نظرية «الفن للفن» ويدعو إلى أن يكون «الفن للحياة» يتفاعل مع حقائقها ويكون في خدمة المجتمع والإنسانية.

ويعتمد هذا المذهب على قوة الملاحظة ودقتها والبراعة في تصوير الحقيقة والواقع، حتى لا يخرج ألواناً باهتة؛ ولذلك دعا بعضهم إلى وجوب الاعتماد فيه على العلم والتجربة لا على الملاحظة والتصوير، وسماه المذهب الطبيعي، واكتفى البعض الآخر بالواقعية مضافاً إليها الاعتماد على علم النفس في تحليل العوامل الحاملة على مسلك معين، أو الصارفة عنه.

والأدب الواقعي يتناول الإنسانية جماعة وأفراداً، فينظر فيهم إجمالاً. ويتبع مسلك كل فرد على حدة. فيبحث في أخلاقه وميوله والعوامل المؤثرة في سلوكه. حتى يستطيع الناس أن يستبينوا أنفسهم، ويلمسوا مواطن ضعفهم وقوتهم. وما يتبع ذلك من فهم الحياة ضيقاً واتساعاً.

ولهذا المذهب في أوروبا أنصار وأتباع يعبرون في شعرهم عن حاجات البشرية في سهولة ويسر... وكثير من شعراء الشرق اتجهوا هذا الاتجاه الواقعي. ولهم نفثات متفاوتة في النوع والاتجاه، فمنها ما غلب عليه اللون القومي أو الاجتماعي. ومنها ما غلب عليه الاتجاه العام أو الإنساني: يقول الياس قنصل في الواقعية والثورة على الواقع:

أترضى بالهوان ونحن قوم	ملأنا صفحة التاريخ فخراً
بلىنا بالتخاصم وهوداء	عضال ينخر الأخلاق نخراً
فأنهكنا وغادرنا شعوراً	ممزقة تجر الغل جراً
ونحن أمام غاصبنا سجدود	نفذ أمره سرّاً وجهراً

ويقول محمود الجبوري العراقي يخاطب الحرية:

طال انتظارك فاطلعي لترى	عيشاً بلا ملل ولا سأم
والموت للأحرار أطيّب من	عيش العبيد وذلة الخدم
نام الطغاة وها هنا وهنا	مقل من الإرهاب لم تنم

ويقول الشاعر السوري نذير الحسامي :

أنا للكوخ وللرداب لا للقصر فني
ولخفق الريح في الأسماح ترجيعي ولحني
لاحتضار النور في ليل المساكن أغني
ولأنات الحزاني أهدم الدنيا وأبني

وهكذا يخرج شعراء الشرق الواقعيين من حياة الانكماش والعزلة إلى هذا
التجاوب الحقيقي مع الأحداث القومية والاجتماعية فلا يرون الشعر متعة
وتحفة لا هدف له إلا أن ينقلنا إلى عالم أسواره النجوم.

والقصة العربية في مجملها ترجع إلى الواقعية في تصوير الحياة الصحيحة
ورسم بيئاتها ومشاهدها ونحو ذلك.

المذهب الرمزي :

الرمز شيء مألوف معروف من قديم الزمان. يضطر إليه عند العجز
عن الإفصاح في التعبير. وما أحلام اليوم إلا قصص رمزية لما يشغل النائم
من أحداث الحياة وخوارج النفس في اليقظة. وكذلك كان الرمز بالشخص
والرسوم إلى المعاني قبل أن يعرف الإنسان الحروف الأبجدية رمز المتصوف
الذي لا يستوضح المعاني التي تحيى بها نفسه في حالات الغيبوبة والذهول..
وهكذا نعرف الرموز ضرورة يلجأ إليها عند العجز عن الوضوح.

ولكن الرمزية التي نتحدث عنها، والتي ظهرت في فرنسا في أواخر
القرن التاسع عشر، إنما كانت مذهباً مطلوباً لذاته، فلو تها لشعرائها عبارتان
تؤديان المعنى لفضلوا الأغمض على الأوضح، ولو كان الوضوح أجمل في
اللفظ، وأقرب إلى البديهة، وأثبت في الأفهام.

فالشعر عندهم هو الفكرة المجردة التي ترسب في نفس الفنان ليعبر عنها
في صورة ضبابية تبعدها عن ابتذال الوضوح، وتستقر بها في منطقة الظلال
والزوايا الغامضة في النفس.

كان الشاعر لامرئين يقول «إني أنظم الشعر كما يزهر الغصن ويغني الطائر». ولكن الشعراء الرمزيين - وأولهم مورياس ومنهم رامبو وبول فاليري وغيرهم - سخرُوا من هذا المذهب، كما سخرُوا من شعراء الرومانتيكية في التجائهم للطبيعة، ذلك لأن الشعر الرمزي يعتمد على الأيحاء، فتسترسل نفس القارئ سباحة في فضاء غريب من الخيال نصفه مضيء ونصفه مظلم، فإذا اكتشفت الحقيقة فرحت بلذة الاكتشاف، ولذلك قالوا: «على الشاعر ألا يعرض الحقيقة للنور الشديد، بل يجب عليه أن يضعها خلف أستار من الضباب. لأن الوضوح ابتذال، وفي الغموض رحابة وخيال».

ولقد طرق كثير من نقاد العرب هذه الفكرة فدعا بعضهم إليها. وحمل بعضهم عليها. فقد كان الصابي الكاتب المشهور يقول: «أفخر الشعر ما غمض عنك فلم يعطك إلا بعد تماطلة منه». ولكن الجاحظ كان يشيد بالوضوح ويؤثره. أما عبد القاهر فقد كان يرفض الغموض الذي نشأ عن الخطأ في الأسلوب أو النظم ونحوه. ويقبل ما كان سببه دقة الفكرة وعمقها. وهو الذي يقول: «من المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، والاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى»^(١). ويقول كذلك: «فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجواهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه. كالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه..»^(٢).

فأدب الرمزية أدب انطباعي يقتضي التأمل العميق لتفهمه. وهو يدين بعبادة الجمال. ويهيم بالتصوف. ويحفل بتجارب العقل الباطن. وتجاريبه الموضوعية موزعة بين الحلم واليقظة والنوم والوعي والأرض والسماء. وأغلب هذه التجارب ذاتية لا تدخل السياسة ولا حقائق المجتمع في نطاقها إلا نادراً. ومعظم هذه التجارب يلفها الغموض. فوحدتها مقطوعة. وصورها خاصة.

(١) ١١٨ أسرار البلاغة

(٢) ١١٩ وما بعدها أسرار البلاغة.

لا يرى القارئ من خلالها الفكرة. وموسيقاها شفاقة رفاة غالباً. لأن هذا النوع من الشعر يجعل الموسيقى هدفاً من أهدافه.

وموضوعات القصائد عند الرمزيين خفية المقصد. غائمة المعنى. تستعصي على أشد الناس ذكاء وفطنة. ولا يفهمها إلا اصدقاؤهم. فهذا بول فاليري في قصيدته «الخطوات» يخاطب سيدة ويتحدث عنها وينتظرها وهو يعني بها «إلهة الشعر» ويتحدث عن الحية ويعني بها الشهوة أو الرغبة العارمة. وبعضهم يتحدث عن امرأة وهو يعني «اللفظ» أو عن الوردية وهو يعني الوطن.

ولهم كذلك طريقتهم في الصور والكلمات يجددون في اختيارها بطريقة طريفة. يقولون مثلاً «الصمت البخيل» ويصورون النفس القلقة بالغابة الذاتية يصرخ بها الطير. ومن تعبيراتهم: «الروح في رداء أزرق. والقلب في رداء أحمر راعش»^(١).

وللمذهب الرمزي أصول في أدبنا العربي القديم عند أمثال الخلاج والجنيد والخيّام وابن الفارض وغيرهم من شعراء الصوفية الذين يعبرون عما يحسون من أنوار المعرفة وأشواق الروح، في أحوال التجلي والتواجد، بما لا يظهر لغيرهم من الألفاظ والموضوعات، بحيث لا يفهمهم إلا من كان في مقامهم، أو غلبت عليه حال من أحوالهم.

ويمتاز الأدب الصوفي بأنه يفهم مظاهر العالم على أنها رمز. فالعالم كأحلام النائم، ويمتاز بأنه جمال مقنع تدركه ولا تلمسه وقد استعمل الصوفيون ألفاظ الشعراء الخليعيين من ليلي والخمر والوصل والعناق والهجر ونحو ذلك، واتخذوها رموزاً لأحوالهم ومقاماتهم، ونظروا للعالم فسموا الحقيقة ليلي وسعدى، وأعجبوا بالخمر ورأوا فيها معاني ليست في غيرها، فهي رمز إلى رقي النفس وتساميها، فالنفس ترقى بالفناء في الحقيقة كما تنشأ الخمر بفناء العنب، فيكون شيء من شيء.

(١) راجع الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحري.

يقول ابن الفارض:

فمن لم يجد في حب (نعم) بنفسه ولو جاد بالدنيا إليه انتهى البخل
جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فأصبح لي عن كل شغل بها شغل
ويقول في وصف ما أداره الله على لبه من المعرفة والشوق والمحبة، حتى
أحس لذة استجلاء الحقيقة، وكأنها نشوة راح، وما هي إلا الخمر المقدسة،
وشراب المحبة الإلهية الناشئة عن شهود آثار الأسماء الجمالية للحضرة العلية،
فإنها توجب السكر والغيبة عن جميع الأعيان الكونية:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
إذا خطرت يوماً على خاطر امرئ
أقامت به الأفراح وارتحل المم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت
لعاتت إليه الروح وانتعش الجسم
ولو طرحوا في فيء حائط كرمها
عليلاً وقد أشفى لفارقه السقم
ولو خضبت من كأسها كف لأمس
لما ضل في ليل وفي يده النجم
صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوا
ونور ولا نار وروح ولا جسم

وبعد فقد لوحظ أن الرمزية الأوربية تطرفت كثيراً، وأمعن شعراؤها
في الغموض، حتى ابتدعوا لغة في اللغة، ليستطيعوا التعبير عن (الوعي
الباطن واللاوعي). ثم اندفعوا إلى رمزية أبعد في التطرف والجموح حتى
انتهوا إلى المدرسة التي تسمى (ما وراء الواقع) وهي مدرسة غامضة، تترجم
الرموز بالرموز، والألغاز بالألغاز حتى كانت جديرة بأن يضيق بها الناس
ويسموها مدرسة الهبوط والانحدار.

وقد تأثر بمذهب الرمزية كثير من شعرائنا المعاصرين سواء من ناحية

الموضوع وهو قليل، أو من ناحية الصور والكلمات وهو كثير، أو من ناحية الرنين الموسيقي . .

ويمكن أن تعد قصيدة إيليا أبو ماضي «الطين» التي يدير فيها محاوره بين غنى متكبر وفقير وديع من القصائد الرمزية، وكثير من قصائده كذلك، ومثله أبو شادي، ويقول الشاعر السوري نزار قباني في قصيدته «وشوشة»:

وشوشة	كريمة	سخية	الظلال
ورغبة	مبحوحة	أرى لها	خيال
على فم	يجوع في	عروقه	السؤال
مخدتي	طافية	على دم	الزوال

ف نجد طائفة من الصور والكلمات الرمزية العجيبة، ويقول في قصيدته «الضفائر السود» الحافلة بالموسيقى العذبة:

يا شعرها على يدي	شلال ضوء	أسود
ألمسه	سنايلا	سنايلا لم تحصد
لا تربطيه واجعلي	على المساء	مقعدي
من عمرنا على مخدا	ت الشذا	لم نرقد
وحررته من شريد	ط	أصفر مزغرد

ويقول الدكتور بشر فارس في قصيدته «الذكرى» التي يرمز فيها إلى الحب:

ورقة جفت على غصن ذوى	فزع العصفور منها فانزوى
عبث الطل بها ثم ارعوى	نبذتها الريح في عرض الفضاء

ويقول في قصيدته «رحلة خابت»:

أما سمعتم معي	صوتاً صريع النغم
تلفظه	أضلعي منخلعات الهمم
واضحة	المطمع من يأس شوق فطم

ويرمز الصافي النجفي رمزاً موضوعياً إلى الديمقراطية فيقول:
 ألا يا حبذا عيش الإخاء لأعشاب نبتن بجانب ماء
 فنبت يستظل بظل نبت ونبت مستظل بالسما
 فلا هذا دنا للأرض ذلا ولا ذاك استطال بكبرياء
 فهم في الخلق مختلفون شكلا ولكن عائشون على السواء
 المذهب السريالي:

نزعة متطرفة كل التطرف، تؤمن بالحرية المطلقة، والخروج على كل عرف
 وتقليد، وهي في الأدب تنفر من موضوعات الفكر الجارية، وتحقر الأساليب
 السائدة في أشكالها وصورها ومجازاتها وكلماتها، وتسخر من العقل ومنطقه،
 وتستمد إلهامها من الأحلام والرؤى ودفعات اللاشعور، وهي نزعة فرنسية
 أوحى بها لوتريامو وريمبو (مدرسة ما وراء الواقع)، وشعراؤها يترجمون عن
 أنفسهم لا عن الدنيا التي حولهم، ويسبحون في آفاق جديدة لا عهد للأجيال
 بها. فالحكمة الجارية عندهم خبز متعفن والقناعة بغية رخصية،
 والكمال المألوف، ولا إنتاج بغير حرية مطلقة بل هوس وجنون. وتجارهم
 مستلهمة من الحلم ومن اللاشعور، وتأدية هذه التجارب لا ضابط لها فالمعاني
 والأخيلة تسير سيرا حزنونياً مضطرباً كنفسية الشاعر المضطربة، والتوافه دنيا
 ضخمة معقدة التراكيب، فذراع الرجل الممتدة تمسك السحابة المستديرة،
 والسحابة المستديرة هي ثدي المرأة، والأرض زرقاء كالبرتقالة^(١). وهكذا يبدو
 اضطرابهم، ويتجلى هوسهم ذلك الذي يخلق الفن الشعوري في اعتقادهم.
 وهم لا يحفلون بالإيقاع الموسيقي ولا نظام الكلمات ولا القافية، بل كل
 همهم منحصر في أن يأتي القصيد عفواً محضاً.

يقول الشاعر الإنجليزي السريالي دافيد جاسكوين في قصيدته «دفاع
 عن الإنسانية»: «إن وجه الهوة مسود بالمحيين، والشمس من فوقهم حقيقة
 مسامير. وعند الربيع الأنهار الأولى تختفي بين شعورهم، وجولييث

(١) الشعر المعاصر للسحري ص ١٤٠ وما بعدها.

المارد الجبار - يغمس يده في البثر المسممة، ويحني رأسه ويحس قدمي تخترق
نحه... وهكذا لا تستطيع أن تفهم شيئاً كلياً أو جزئياً.

وقد تأثر بعض أدباء الشباب في الشرق بهذه النزعة منهم: كامل أمين،
وكامل زهيري وفؤاد كامل وكامل التلمساني ورمسيس يونان وجورج حنين،
يقول كامل أمين في قصيدته «ذكريات ليالي الشتاء»:

لقد كان ذلك في ليلة مسهدة من ليالي الشتاء
خرجت من الحان أبغي الطريق إلى حيث يلقي بطيشي القضاء
ومن عادة الفوضى الحياة طليقاً كما شاء أنى يشاء

الخ...

المذهب الوجودي :

وأخيراً فهذه هي أهم المذاهب الأدبية الحديثة، وما يزال الغرب يطالعنا
في كل يوم بمذهب جديد، فهناك «المذهب الوجودي» الذي اشتهر في فرنسا،
والذي يعد «جان بول سارتر» رائده الأول، ويقوم على أن الإنسان حر في كل
شيء عدا ألا يكون حراً، ولذلك فالإنسان غير مقيد بقانون يحده من حريته،
إنه ذاتي فقط يختار ما يعمل. والإنسان المفرد هو وحده الجماعة والأصل في
الوجود، فهذا المذهب ينهض على تمثيل ذاتية الإنسان وحقه الحر في التفكير
كما يشاء وباللغة التي يريد.

وثمة مذهب عصري جديد سائد في أمريكا هو «المودرنزم» وهو مزيج
من السريالية والواقعية، مع تأكيد المعنى المقصود بالتكرار اللفظي وإرسال
النفس على سجيتها... إلى غير ذلك من المذاهب.

نستخلص من هذا العرض أن المذاهب الأدبية المختلفة - كما يقول
الأستاذ مصطفى السحرتي - آثار للحالات الفكرية والشعورية، تبرزها حالة
العصر الاجتماعية، فالدوافع والانفعالات الأولى تقود إلى الابتداعية، وحاسة
الحقيقة والشعور بالمسئولية يقود إلى الواقعية، وحب التقليد والنظام يقود إلى

الكلاسيكية، وحالات الشعور الشاذة وحالة العصر المبلبلت تقود إلى المذاهب الغربية كالرمزية أو السريالية أو الوجودية وما إليها.

مذاهب النقد الحديثة :

وقد تحدثنا عن عناصر الأدب، وما ينبغي أن يتوفر للنص الأدبي من أركان ومقومات هي مقاييس النقد عند المحدثين من النقاد. ونحب هنا أن نجمل مذاهب النقد الحديثة التي تقوم على هذه المقاييس تبعاً لما عرفنا من المذاهب الجارية الآن على وجه العموم إلى ثلاثة:

أولاً: المذهب الفني: وهو المذهب الذي يقيس العمل الفني بروحه وصدقه وأسلوبه، دون اهتمام بموضوعه أو نحوه أو صرفه.

فالمهم، في القصيدة الانفعال والخيال والمعنى والموسيقى والصياغة والأسلوب وما عدا ذلك من الموضوع أو اللغة لا ينظر إليه أصحاب هذا المذهب: فالقيمة الفنية لكل قصيد تنحصر في توافم تجربته الشعرية مع صياغة هذه التجربة. ٥

ثانياً: المذهب الواقعي أو الاجتماعي وهو يتفق مع المذهب الفني في النظر إلى التجربة والصياغة والخيال، ويزيد عليه النظر في الموضوع، فإذا كان الموضوع لا يهتم بالحياة وأحداثها، وآلام الناس وآمالهم فهو فن رديء، لا غاية له إلا التسلية والترفيه، والفن الجيد هو الذي يخدم المجتمع والحياة الإنسانية، أما فن الأوهام والأحلام فهو متخلف منزو لبعده عن واقع الحياة ودنيا الناس.

ثالثاً: المذهب الفقهي أو المدرسي: وهو الذي ينظر في الشعر إلى نحوه وصرفه وعروضه وبيانه وبديعه، وأحياناً إلى معانيه، وهو النقدي الذي سار عليه معظم النقاد القدماء من قرون، ولا يزال موضع اهتمام بعض نقادنا اليوم.

كان ابن سلام الجهمي يضع الشعراء منازل وطبقات بحسب كثر

إنتاجهم أو قلته، غير ناظر إلى الخصائص الفنية، وإنما يعتمد على التذوق الذاتي.

وكان قدامة بن جعفر وابن قتيبة يهتمان بالصياغة الشكلية، وقد رأينا ابن قتيبة يخرج «ذا الرمة» من الفحول لعدم احسانه المديح والهجاء.

وكان نقد ابن الأعرابي وحاد يدور حول فقه اللغة. والآمدي يفضل البحري على أبي تمام لألفاظه المتخيرة.

ويقول الدكتور مندور: «إن الآمدي من أكبر نقاد العرب وأصدقهم ذوقاً، وإنه هو وعبد القاهر وأمثالهما من ذوي الحذق والذوق قد وصلوا إلى ما وصل إليه (لانسون) عميد النقد في فرنسا^(١).

وكان ابن العميد والصاحب بن عباد وأمثالهما ينظرون إلى الرنين الموسيقى والأوزان ومطالع القصائد. أما ابن الأثير فيحصر اهتمامه في الألفاظ وأسرار تركيبها.

وهكذا نرى المذهب الفقهي، تارة يعتمد على الذوق. وتارة يتجه إلى اللغة أو الغرض؛ وتارة إلى الألفاظ، وهو على كل حال لا ينظر إلى التجربة الشعرية ولا إلى الموضوع كما رأينا في المذهبيين السابقين.

ومع ذلك فلا يزال لهذا المذهب أنصار في هذا العصر. يضعون اللغة والوزن والبيان والبديع موضع الاعتبار، وقد يضيفون إليها الاعتبارات الأخرى التي أشرنا إليها في المذهبيين السابقين.

وهذا ما ينبغي أن يكون، فالحق أن الناقد البصير يجب أن يجمع بين هذه المذاهب كلها عند نقد النص الأدبي، ليكون حكمه سليماً صحيحاً.

(١) الميزان الجديد للدكتور مندور.

الفصل السابع

وسائل الاتصال الأدبي

وبأية وسيلة؟

وعنصر «الوسيلة الإعلامية» في الاتصال الأدبي بالجمهور، من أهم عناصر التفسير الإعلامي للأدب. وحيث يعنى بفهم عملية الاتصال، ودراسة إمكاناتها وخصائصها سواء كانت بصرية أو سمعية أو بصرية سمعية أيضاً.

وهنا نذكر «هـ. ج. ويلز»، حين رأى أن الإنسانية قد مرت بمراحل كما نعرف، ولكنه لم يحدد هذه المراحل بالعصر القديم أو الوسيط أو الحديث، ولكنه رجح أن مراحل التطور البشري خمس يسترشد بها التفسير الإعلامي للأدب في عصوره المختلفة.

الأولى: هي المرحلة التي انبثقت فيها الحياة الإنسانية، من الحياة الحيوانية، لأن «ويلز» كان يرى أن حياة الإنسان إنما هي امتداد للتاريخ الطبيعي... ووجد أن هذه المرحلة تتسم باللغة، واللغة والفكر لا ينقسم أحدهما عن الآخر. فهما شيء واحد وليس شيئين منفصلين.

أما المرحلة الثانية: فهي التي جعلت الإنسانية تسير إلى الامام، وإلى أعلى، إنها مرحلة الرموز التي اصطنعها الإنسان تثبيتاً لمشاعره وتجاريه وأفكاره ووقائعه عبر الزمان والمكان. وهي المعروفة بالكتابة... فعصر الكتابة أو التدوين في نظر «ويلز» هو المرحلة الثانية بعد مرحلة الكلام المنطوق أو الكلام المجهور.

والمرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي ظهرت فيها الطبقة الوسطى كما يقول المؤرخون - هي مرحلة الطباعة. التي جعلت من هذه الكتابة وسيلة أكثر مرونة على الحفظ والنقل. وهكذا اتسعت وظيفة الكتابة بفضل الطباعة اتساعاً كبيراً.

أما المرحلة الرابعة فهي التي استطاعت فيها البشرية أن تجعل اللحظة المحدودة لحظة عالمية. وأن ترتفع على الحواجز المادية والحدود الجغرافية؛ وهي مرحلة استخدام المخترعات الحديثة في وسائل الاتصال كالبخار والكهرباء وما إليهما مما أعان على نقل الأشياء والأفراد والجماعات إلى مسافات شاسعة غير معهودة وفي فترات قصيرة لم تكن تخطر حتى في الأحلام.

وتتوج المرحلة الخامسة عند «ويلز» هذه المراحل جميعاً. وهي التي نعيش فيها. ولقد اعتبرها عاملاً كبيراً من عوامل التقدم الإنساني وجعلها أعظم وخطر من الطباعة وأرقى من جميع وسائل النقل والاتصال التي كانت مقصورة على الأشياء والأجسام، ذلك أننا بواسطة الإذاعة استطعنا أن نسجل الأفكار والمشاعر وننقلها ونكثرها. ثم نتخطى بها جميع الحواجز والحدود كما أن هذه الإذاعة تنساب كما ينساب الماء من الصنابير في كل بيت. وفي كل إقليم وفي كل مكان.

ونحن لا نزعم أن هذه النظرة للتاريخ علمية صحيحة. ولكنها مع ذلك تستحق التأمل. فالاتصال بالجمهير يتطور في العالم الحديث تطوراً سريعاً مذهلاً بحكم التقدم التكنولوجي في فنون الاتصالات السلكية واللاسلكية وعلوم الإلكترونيات وعلوم وفنون الطباعة. فنحن نعيش الآن في قلب نهضة اتصالات لها آثارها العميقة على وسائل نشر الأدب من حيث مضمونها، بل ومن حيث نوع العالم الذي نعيش فيه. وقائمة وسائل نهضة الاتصالات طويلة، ومنها وصلات يمكن بها مشاهدة أفلام وأشرطة سبق تسجيلها أو تحويل الإشارات الإذاعية إلى صفحات مطبوعة والأشرطة المبرمجة بالحاسب الإلكتروني والتي تمكن الطابعين من إنتاج صفحة كتاب كل خمس ثوان وأقمار اتصالات الفضاء التي جعلت الاتصال الفوري بجميع أنحاء الكرة الأرضية

في الحال حقيقة واقعة والمعدات المجسمة التي تمكن من إنتاج صور ذات أبعاد، والتسجيلات المرئية وأجهزة العرض، والطباعة الكهرستاتيكية التي لا تلامس فيها الحروف الورق بالمرّة، وجمع الحروف بأنبوبة الأشعة الكاثودية. وبنوك المعلومات بالحاسب الالكتروني مع ارتباطه بالوصلات التليفونية وغير ذلك كثير.

ولذلك فالموضوع الذي نعرض له متشعب المسالك في محاولة للتعرف على أثر الاختراعات التكنولوجية الحالية والمستقبلية على فنون الأدب العربي بخاصة وعلى أساليب اتصاله بالجمهور، وهنا نجد - بدءاً - أن الجمهور العربي سوف يتصل بالأدب من مصادر أكثر تنوعاً بكثير عن ذي قبل، ولا يحتمل أن تؤدي البطاقات المتناهية الدقة إلى قتل الكتاب، كما أن بنوك المطبوعات المنظمة بالعقل الالكتروني لن تقتل المجلات. فعندما تظهر وسيلة جديدة للاتصال بالجمهور، لا تقتل الوسائل القديمة، ولكن من المحتمل أن تغيرها. فالراديو لم يقتل الفونوغراف، أو المجلة، رغم التنبؤ بذلك، والتلفزيون لم يقتل الراديو.

الحضارة السمعية:

ومن أجل ذلك نذهب إلى أن الحضارة السمعية التي هي جعلت الوزن المقسم بالأسباب والأوتاد والتفاعيل والبحور «خاصة عربية نادرة المثال في لغات العالم. وكذلك القافية التي تصاحب هذه الأوزان» على حد تعبير العقاد^(١) الذي يرجع ذلك إلى أسباب خاصة لم تتكرر في غير البيئة العربية الأولى، أهمها سببان، هما: الغناء المنفرد وبناء اللغة نفسها على الأوزان.

«فالأمم التي ينفرد فيها الشاعر بالانشاد تظهر القافية في شعرها. . . لأن السامعين يحتاجون إلى الشعور بموضع الوقوف والترديد، ولكن الجماعة إذا اشتركت في الغناء لم تكن بها حاجة إلى هذا التنبيه لأن المغنين جميعاً يحفظون الغناء بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد في كلماته وفقراته فيلتقون مع

(١) حياة قلم ص ٢٨٤.

الإيقاع بغير حاجة إلى القوافي عند نهاية السطور، وإنما تنشأ الحاجة إلى القافية أو وقفة تشبه القافية عند تفاوت السطور وانقسام القوم إلى منشدین ومستمعين»^(١).

يقول العلامة جلبرت موري - وهو من ثقات البحث في الأوزان، والاعاريض -: «إن إحدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية في اللغات الحديثة. ففي اللغتين اللاتينية واليونانية ينظمون بغير قافية لأن الأوزان فيهما واضحة، وإنما تدعو الحاجة إلى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الأذن بعلامة ثابتة للوقوف... وبغير هذه العلامة تنقل الأوزان وتغمض ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال. بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منشور... وقد اختلف الطابعون عند طبع الكتب هذا الاختلاف في بعض المناظر المرسلة من كلام شكسبير، فحسبها بعضهم من المنشور، وحسبها الآخرون من المنظوم... وما يلاحظ أن اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه إلى النسبة العددية... وأن الصينيين يحرصون على القافية لأنهم يلتزمون الأوزان... وأن انتشار القافية في أغاني الريف الإنجليزية يقترب بالترخص في أوزان الاعاريض». ويستطرد الأستاذ موري إلى الشعر الفرنسي فيقول: «إن اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن إلى مجرد احصاء للمقاطع وأصبحت المقاطع بين مطولة وصامتة، نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة إلى القافية، فصارت في شعرها ضرورة لا محيص عنها، ودعا الأمر إلى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه»^(٢).

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية في اشعار الغربيين سبب لم يذكره الأستاذ موري وذكره العقاد^(٣) وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ كما تقدم.

«فحيث احتاجت أناشيد الجماعة إلى الاعتماد على القافية وكثر الاعتماد

(١) حياة قلم ص ٢٨٤

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٥

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٨٥

على حركات الإيقاع، ولو لم تكن متناسقة الوزن على غلط محدود. لأن الغناء بالكلام المنشور ممكن مع توازن الفواصل وموازة السطور».

«وفي البيئة العربية كان الحداء هو الغناء الذي يصاحب انشاد الشعر على بساطة كأنها بساطة الترتيل، ينشده الحادي على انفراد وتصغي إليه القافلة أحياناً في هدأة الليل» إذ يعتمد الحس كله على السمع، في متابعة النغم إلى مواضع الوقوف والرديد، فتقفو النغمة ونبرتها، ويصدق عليها اسم القافية بجملة معانيه.

«لهذا استقل النظم بحقه في الصنعة، لأن هذه الصنعة لازمة لتمييزه مع الغناء ومع غير الغناء. فانتظمت نوافيه وانتظم ترتيله إنتظاماً لا بد منه لكفاية مع بساطة أفانين الغناء»^(١).

وليس هناك من شك في أن الإنسان قد اهتدى إلى الشعر بفطرته، وانساق إلى هذا الفن الرفيع بطبيعته، التي شاقها ما في الكون من حسن التناسق، وجميل الانسجام، وحلو الأنغام. دعت طبيعته الدافقة أن يتغنى بما يعتلج في صدره ويشدو بما تزخر به نفسه من ألوان، ألوان الإحساسات وفنون الانفعالات. فتفتق بالغناء لسانه، وتفجر به بيانه وانطلقت عقيرته. فالغناء ظاهرة فطرية لازمت الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض.

أصغى إلى ما يحيط به من تناوح الرياح، واصطفق المياه وخرير الأنهار وحفيف الأشجار. وتعاقب الليل والنهار... وأوحت إليه هذه المظاهر الرائعة التي تهتف بها موسيقى الكون، أن يشدو بأنغامها الحاملة، ونبضاتها الخافقة.

أحس بمعان حركت قلبه؛ وأثارت نفسه؛ وجاش بها صدره. ثم استفاضت على لسانه في صورة منغومة ربما كانت أول الأمر أصواتاً مبهمه ثم استقرت في كلمات منثورة ذات مدلول يعبر عن إحساسه. ثم تدرجت هذه الكلمات المتناثرة إلى السجع المتحد القافية والمتناسق الألفاظ. لأنه أقرب إلى

(١) المرجع السابق ص ٢٧٨.

التوقيع الموسيقي وألقى بالغناء من النثر المطلق. ثم أخذت هذه الأنغام. أو تلك الكلمات التي يتغنى بها حين تهبه ذكرى، أو تثيره لوعة؛ أو يبعثه داع. أخذت تتطور وتتغير حتى استقرت في أوضاع خاصة هي التي تعرف عندنا الآن بأوزان الشعر. وهي التي انتهى إليها الغناء. فالتغني بالنثر عسير شاق ولكن الشعر بأوزانه ألقى بالغناء وألصق به.

فنشأة الشعر تكاد تكون تواءماً لنشأة الغناء. إذ كان الحافز لهذا هو الداعي إلى ذلك، وإذ كان الجمال المنبعث منها له تأثير رائع على الافئدة والاسماع وعلى الغرائز والطباع. ثم أخذ كل فن منها يعمل دائباً في رسالته ويتطور في أداء مهمته، ويحاول أن يأخذ أوضاعاً خاصة به فتطورت أوزان الشعر وتعددت وأخذت سمتها المعروف الآن. كما تطورت ألحان الغناء وأصبح فناً قائماً بنفسه لا يحتاج إلى الشعر، ولا يتوقف على أوزانه وصار كذلك الشعر يستطيع أن يصور خواجه ويرسم أحاسيسه دون أن يقصد إلى الغناء أو يفكر فيه.

قال ابن رشيق في العمدة: «كان الكلام كله منشوراً. فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها. وطيب أعراقها. وذكر أيامها الصالحة. وأوطانها النازحة. وفرسانها الانجاد. وسمحاتها الأجواد. لتهز نفوسها إلى الكرم. وتدل أبناءها على حسن الشيم. فتوهموا أعاريض. فعملوها موازين للكلام. فلما تم لهم وزنه سموه شعراً. لأنهم شعروا به. أي فطنوا له»^(١) فالغناء كان من دأب العربي وهو يقطع المسافات على ظهر راحلته. تهتز به اهتزازات توقيعية في بطئها واسراعها. مما يوحي إليه بالأوزان الملائمة لهذه الاهتزازات يحدوها بها. وكان من دأبه وهو يهجم في الحرب. أو يمتح من البشر. أو تعوزه التسلية. أو تنزل به النازلة. فينفس عن نفسه بالغناء.

وهكذا كان الشعراء في الجاهلية يغنون بشعرهم وهم يشدونهم ويلقونه؛ كان المهلهل يغني بشعره وهو يشرب الخمر. وكان الأعشى يغني في شعره،

(١) ج ١ ص ٥ العمدة.

فكانت العرب تسميه «صناجة العرب»^(١). وكان حسان يقول:
تغن بالشعر إما كنت قائله
إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وإن احتفاظ اللغة بلفظ الإنشاد للدلالة على إلقاء الشعر وإن لم
يصاحبه غناء لدليل على الصلة الوثيقة بين الشعر والغناء، فيقال أنشد فلان
قصيدة، ويقول المتنبي لممدوحه:

أجزني إذا أنشدت شعراً فإئما
أتاك بشعري المادحون مرددا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغني مغردا

والناس يطلقون إلى اليوم على من يغني على الربابة القصص الشعري
في أبي زيد الهلالي، اسم الشاعر: ومن قبل أخذ السجع وهو المرحلة الأولى
للشعر من سجع الحمامة وترجييعها.

وكان الشعر اليوناني كذلك مرتبطاً بالغناء، كان هوميروس يتغنى
بالإلياذة على آلة موسيقية خاصة، ونشأت بأوروبا في العصور الوسطى جماعات
من الشعراء الجوالين يطوفون بالبلاد، ويتغنون بشعرهم، وقد اتصلوا بالشعر
العربي في الأندلس، وتأثروا به، وكان يطلق على هذه الجماعة «التروبادور».

أولية الشعر العربي:

ليس من السهل على الباحث أن يهتدي إلى تاريخ صحيح لمولد هذا
الفن الجميل عند العرب. فهم أمة شاعرة تدر بالشعر طبائعهم، وتشدو به

(١) الأغاني ج ٥ ص ٥١ دار الكتب.

ملكاتهم. يقولونه إذا حلوا أو ارتحلوا في ظعنهم وإقامتهم، وخوفهم وطمانيتهم وحربهم وسلمهم.

وهم يقولون إن أولية هذا الشعر ترجع إلى ما قبل الإسلام بقرن ونصف على الأكثر. وابن سلام الجهمي يقول^(١): ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقوها الرجل في حاجته، وإنما قصدت القصائد، وطول الشعر على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف. وقال الأصمعي: إن المهلهل أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر.

ولا يمكن لباحث أن يطمئن إلى أن هذا التراث الحافل، وذلك الشعر المذهب الخالد يرجع إلى قرن ونصف قبل البعثة. فهل من المعقول أن يولد فن كامل النمو، تام النضج، مستوي الخلق، لا يستولي عليه ضعف، ولا يستبد به هزال؟ ولقد قضى العرب أزماناً بحقيقة هذه الجزيرة، وبادت منهم طوائف وقامت دول إثر دول. فلا يعقل أن تعيش الطبائع كليلة غافية حتى زمن هاشم أو عبد المطلب. ثم تتفتح دفعة واحدة عن شاعرية بارعة؛ وخيال رائع ونظم فاخر يخلد على وجه الزمن.

ومما يدل على أن الشعر الذي انتهى إلينا قد نضج وصار فناً رفيعاً، أنهم أطلقوا على الشعراء أحياناً أسماء تدل على خصائصهم فمثلاً سمي طفيل الخيل (المحبر) لأنه يزين شعره، وسمي زياد بن معاوية (النابعة) لنبوغه في الشعر كما يقول ابن رشيق. وسمي امرؤ القيس بن ربيعة (المهلهل) لطيب شعره ورقته. أو لأن شعره مهلهل كهلهلة الثوب. وهو اضطرابه واختلافه. أو لأنه أول من رقق المراثي. وسمي علقمة (الفحل) لجودة شعره.

إن الذي يتقبله العقل. ويطمئن إليه ضمير الباحث أن آثار تلك العهود وأشعارها في تلك الحقب. قد انطوت عليها حجب الزمان. واسدلت عليها أستار النسيان، فلم يصل إلينا عنها، ولم نَهْتِدِ فيها على أثر أو خبر، وإذا كان الشعر بعد ذلك قد دخل عليه الزيف، وشاع فيه الوضع، وأثيرت

(١) ١٧ طبقات الشعر لابن سلام.

حوله الشكوك والريب، فلا جرم يكون للدارس مندوحة حين يغفل تلك الأحقاب التي لم يساعدها تدوين، ولم تتمكن منها رواية صحيحة.

فإذا جاء بعد ذلك إنسان، وقال هذا شعر منسوب إلى عاد وثمود، أو إلى طسم وجديس، إلى آخر تلك الأساء التي وعها التاريخ مجردة عن آثارها، وحفظها عاطلة خالية من أعمالها، قلنا له كما قال الله جل شأنه: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾^(١).

ولقد أثر عن بعض الشعراء الأوائل من الأشعار ما يدل على أنهم تأثروا بأشعار أسلافهم، وإن لم ترو لنا هذه الأشعار. هذا امرؤ القيس يقول:
عوجا على السطل المحيل لعلنا
نبكي الديار كما بكى ابن خدام
فمن هو ابن خدام هذا، وما هي تلك القصائد التي صورت دمعه، وحملت آهته؟

وهذا زهير يقول:
ما أرانا نقول إلا معاراً
أو معاداً من قولنا مكرورا
فأين هذه الأشعار التي استعاروها، وتلك الأخيلة والأفكار التي كرروها ورددوها؟

وهذا عنتره يصيح قائلاً: هل غادر الشعراء من متردم^(٢)؟
نخلص من ذلك كله إلى أن الشعر قد تهذبت حواشيه في زمن لا نعرفه، ولا يمكن أن نهتدي إليه، لأن العرب لم تساعدهم كتابة، ولم يسعفهم تدوين، وكل ما أمكن الوصول إليه تلك الأشعار التي أثرت عن أصحابها قبل الإسلام بقرن أو أكثر قليلاً.

(١) سورة النجم الآية ٥٠

(٢) التردم: الإصلاح، أو الترنم وترجيع الصوت.

ولقد كثر الشعراء في الجاهلية، حتى كان لكل قبيلة شاعر، يدافع عن أحسابها، ويذيع مفاخرها، وينطق بلسانها، وإذا نبغ الشاعر في القبيلة أسرع القبائل إليها بالتهنئة.

وقد تنازعت القبائل أولية الشعر الذي وصل إلينا، فادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول؛ ادعت اليمانية أن أمراً القيس أول من أطال القصائد؛ وقال بنو أسد: بل عبيد بن الأبرص؛ ونسب التغليبيون الأولية إلى مهلهل؛ وعزاها البكريون لعمر بن قميثة والمرقش الأكبر؛ وادعاهم الإياديون لأبي دؤاد، وزعم بعضهم أن الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء.

وهكذا تتسابق القبائل للاستئثار بهذا المجد، اعتزازاً منها بالشعر، وفخاراً بالشعراء، ونخلص نحن من هذا كله بما قررناه من أننا لانستطيع الجزم بأولية الشعر، أو تحديد الزمن الذي هذبت فيه حواشيه، وأطيلت قصائده.

ولذلك كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب، والمصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم ومشاهد الوجود بينهم، أودعوه وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وآثارهم وذكرياتهم وأوصاف بيئتهم.

وكان له سحره وروعة تأثيره في نفوسهم، إذ كان صوت القبيلة، ولسان القوم، والذائد الحامي الذمار، والمدافع عن الاحساب والأنساب والشرف والناطق بالحجة، والداعي إلى الخير. وكان الشعراء ذوي مكانة كبيرة بينهم، فهم الذين ينطقون بمجد القبيلة، ويفخرون بجلالها وماضي أيامها، وحسبك من مكانة الشعر عند العرب أنه لما بعث النبي ﷺ بالقرآن المعجز نظمته، المحكم تأليفه، وأعجب قريشاً ما سمعوه منه قالوا: ما هذا إلا سحر، وقالوا في النبي: شاعر نتربص به ريب المنون. ويقول الأصمعي: «الشعر جزل من كلام العرب، تقام به المجالس. وتستتج به الحوائج، وتشفي به السخائم».

ونبغ في الشعر كثير من الشعراء والشاعرات، ممن خلدت ذكرهم كتب

الأدب والشعر ومصادرها الأولى.

ولا تزال مصادر الأدب والشعر الجاهلي صورة ناطقة ببلاغتهم وسحرهم وشدة تأثيرهم وقوة بلاغتهم وجلالة أثرهم في حياة العرب في جزيرتهم طول هذا العصر الجاهلي الغابر.

ومن قدر الشعر عندهم أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت القبائل فهنأتهم بذلك ووضعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، وكانوا لا يهتئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج^(١).

ولم يترك العرب شيئاً مما وقعت عليه أعينهم أو سمعته آذانهم أو اعتقدوه في أنفسهم إلا نظموا في سنمط من الشعر حتى إنك ترى مجموع أشعارهم ديواناً فيه من عوائدهم وأخلاقهم وآدابهم وأيامهم وما يستحسنون ويستهجنون، ولذلك قالوا: كان الشعر ديوان العرب ومعدن حكمتها وكنز أدبها.

وقال دعبل: «كان امرؤ القيس من أدباء الملوك، وكان من أهل بيته وبني أبيه أكثر من ثلاثين ملكاً فبادوا وباد ذكروهم وبقي ذكره إلى يوم القيامة. وإنما أمسك ذكره شعره».

وبعد فقد كان الشعر في الجاهلية هو المقيد لأيامها والشاهد على أخبارها والناطق بمجدها والمصور لمفاخرها، وكان لكل قبيلة شاعرها الذي يذود عنها ويناضل عن شرفها، ويساجل خصومها وينازلهم في كل مجال، وكانت العرب أمة يسحرها البيان وتروعها البلاغة ويستبد بإعجابها الشعر الجيد البليغ.

كان الشعر قوة فعالة في الحياة الجاهلية... وكان له تأثيره في نفوسهم، وسلطانه في حياتهم وقدره وخطره فيما بينهم، يرفع الخامل، ويضع الفذ العظيم، وينوه بشأن القبيلة ويزري بأعدائها وخصومها. ويشفع فتقبل شفاعته.

(١) العمدة ١: ٣٧.

لقد أنشد الحارث بن حلزة قصيدته:
أذنتنا ببينها أسماء ربنا وائل منه الثواء
بين يدي عمرو بن هند، وكان ينشده من وراء سبعة ستور، فأمر برفع
الستور عنه استحساناً لها، ثم أذناه وقربه^(١).
وقالوا: إن الأعشى قدم مكة، وتسامع الناس به فأشارت امرأة المحلق
عليه أن يسبق الناس إلى ضيافته. فنحز له وسقاه. وبالغ في إكرامه، فسأله
الأعشى عن حاله، فعرف البؤس في كلامه، وذكر بناته، فقال الأعشى:
كفيت أمرهن، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته التي يقول فيها:
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلق
فما أتم القصيدة حتى انسل الناس إلى المحلق يهنئونه، وتسابق الأشراف
إلى بناته يخطبونهن، فلم تمس واحدة منهن إلا وهي في عصمة رجل أفضل
من أبيها ألف ضعف^(٢)، وارتفع ذكر المحلق بعد خمول.
ولقد عرفنا كيف استطاع الشعر أن يستل السخائم من النفوس، ويحيل
الضعيفة إلى مودة، والحنان إلى متهلل الوجه منبسط الأسارير، عرفنا هذا في
يوم حليلة، لما أسر الحارث الغساني شاس بن عبدة، فمدحه أخوه علقمة
ابن عبدة بقصيدته التي يقول فيها:
فلا تحرمي نائلا عن جناية
فلاني امرؤ وسط القباب غريب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة
فحق لشاس من نذاك ذنوب

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٣.

(٢) العمدة ١: ٢٥.

فقبل الحارث شفاعة الشعر. وقال: إي والله، وأذنبه، وأطلقه مع قومه
وأثقلهم بالمنح.

وكان من تأثير الشعر أن يصم بصفات أو أعمال قد تكون افتراء ولكنها
تلتصق بالشخص، أو تعلق بالقبيلة، وكأنها صدق.

كان العبيسون والعامريون يتنافسون في الخطوة عند النعمان، ولكن
العبيسين استأثروا بها، لأن الربيع بن زياد العبيسي كان يؤاكل النعمان ويناديه
ويهن من شأن بني عامر، فغاظهم ذلك، فدخلوا على النعمان ومعه الربيع
يأكل معه، فقال أحدهم وهو لبيد العامري الشاعر المعروف: يهجو الربيع
وينفر النعمان منه:

مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه
إن استه من برص ملمعة
وإنه يدخل فيها إصبعه
كأنما يطلب شيئاً ضيعه

فتأفف النعمان، وأبعد الربيع عن مجلسه، وأمره بالانصراف إلى أهله^(١)
وأدنى العامريين وقضى حوائجهم.

وذهب الأعشى قاصداً رسول الله ليمدحه ويعلمن إسلامه وكان قد نظم
قصيدته:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وبت كما بات السليم مسهدا
فتصدت له قریش وحالت بينه وبين ذلك خوفاً من تأثير شعره وأهدت
له هدية سنية فرجع.

وهجا حسان بني عبد المدان وكانوا أشرفاً طوال الأجسام بقوله:

(١) أمالي المرتضى ١: ١٣٧.

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر
 جسم البغال وأحلام العصافير
 فغيرهم الناس بذلك، فقالوا يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحي من
 طول أجسامنا، بعد أن كنا نفخر به، فأصلح منهم ما أفسد بقوله:
 وقد كنا نقول إذا التقينا
 لذي جسم يعد وذي بيان
 كأنك أيها المعطى بيانا
 وجسماً من بني عبد المدان
 وقد بقي هذا التأثير للشعر في الرفع والخفض بعد الإسلام، فقد كان
 بنو أنف الناقة يتجملون من هذا الاسم، ويحرفون في نسبهم حين يسألون عنه
 إلى أن قال الخطيئة فيهم:
 قوم هم الأنف والأذنان غيرهمو
 ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا
 فصاروا بعد ذلك يتطاولون بهذا النسب.
 وكانت غير إحدى جمرات^(١) العرب، وإذا سئل الرجل منهم عن نسبه
 مد صوته بقوله (غيري) حتى أطفأ جرير جمرتهم وأخزاهم بقوله:
 فغض الطرف إنك من غير
 فلا كعباً بلغت ولا كلابا
 وكان بنو العجلان يفخرون بلقبهم هذا زاعمين أنه من تعجيل القرى
 للأضياف، فهجاهم النجاشي بقوله:
 وما سمي العجلان إلا لقولهم
 خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

(١) الحمرة: القبيلة التي تمتاز بمصبيتها ولا تخالف غيرها وهي من التجمر بمعنى التجمع. وجمرات
 العرب ثلاث. صبة وغير وعبس.

فسلح عليهم كما قال حسان.

ذلك شأن الشعر، وتلك مكانته عند العرب، وهذا تأثيره في الرفة والضة، وكذلك كانت منزلة الشاعر وهيئته في النظام القبلي عند العرب^(١).

شاعرية العرب:

وإن من يستعرض الشعر الجاهلي الذي انتهى إلينا وسلم من الضياع، لتروعه كثرتة وكثرة شعرائه، فما بالك لو انتهى إلينا كله؟ وحسبك أن تنظر في الأغاني والأمالى والحماسة والكامل والمفضليات وطبقات الشعراء وغيرها من الكتب، لترى البحر الزاخر والمعين الثجاج، ومع هذا فما نظن أحداً من العلماء والمؤلفين استغرق شعر كل قبيلة من القبائل حتى لم يفته منها شاعر، ولم تغرب عنه قصيدة.

ويذكر ابن قتيبة أن أبا ضمضم أنشد شعراً لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو^(٢)، ويذكر المؤرخون أن حمادا كان يحفظ مائة قصيدة لكل حرف من حروف الهجاء^(٣). وأن أبا تمام كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة. وأن خلفاً كان يحفظ ستة عشر ألفاً. وأن الأصمعي كان يحفظ كذلك ستة عشر ألف أرجوزة^(٤).

فعلام يدل ذلك كله؟ إنه يدل على أن العرب أقوى الأمم شاعرية. وأشعر الأمم السامية.

والسر في شاعريتهم هو الفراغ من الأعمال التي يعوق عن الكلام. والصحراء الساكنة الهادئة التي تملأ القلب روعة، والنفس عاطفة، والعقل

(١) راجع من رفعه المدح ووضعه الهجاء في العقد ج ٣ ص ٤١٤.

(٢) الشعر والشعراء ص ٦.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) الوفيات ج ١ ص ٢٨٨.

فكراً وتأملاً. وهي غنية بجماها المطبوع: تشرق فيها الشمس صافية، ويزغ القمر وضاحاً، وتلتهم النجوم التنازع قطعة الماس، وفيها هذا البراح الفسيح، والحرية المطلقة، مما يولد في النفوس الانطلاق، ويطلق اللسان بالتعبير عما في الضمير. ومن أسرار شاعريتهم صفاء قرائحهم، وسرعة خواطرهم، فالعربي ذكي، سريع البديهة، متوقد الإحساس، جياش العواطف ينافح عن قبيلته ويترصده خصومها. ويتغنى بمحامدها، وتثير مقامات الحروب والغارات مشاعره، وتهيج إحساسه، ويأسره الجمال فيلهمه، ويهزه سرى الركب في الليل فيحدوه... ومن أسرار شاعريتهم حريتهم واستقلالهم وما فرضته عليهم حياتهم من حل وترحال، وما يثير ذلك في نفوسهم من لوعة فراق الأحباب، ويهيج من مشاعرهم نحو المعاهد والأطلال، فكانوا لذلك أهل حب وهيام. كما كانوا أهل حروب وغارات مما يبعث الشعر ويطلق به الألسنة.

يضاف إلى ذلك أنهم أمة أمية تعتمد على الذاكرة لا على التدوين والشعر أسهل في الحافظة، وأعلق بالذهن.

وقد ساعدتهم على ذلك كله لغة غزيرة المادة، كثيرة المفردات، شعرية برينها وموسيقاها، أسعفتهم بحاجاتهم، وتجاوبت مع مشاعرهم وعواطفهم.

فليس بعجيب إذن أن يكون العرب أشعر من غيرهم، وأن يقولوا الشعر بالفطرة، وأن ينظمه كل عربي وعربية، لا فرق بين ملك وأمير وحكيم وصعلوك. وليس بغريب أن يصلنا عنهم هذا البحر الزاخر مع أنه قليل من كثير ضباع معظمه بعدم التدوين وموت كثير من الرواة في الغزو والفتوح. يقول أبو عمرو بن العلاء: «ما جاءكم مما قالت العرب إلا أقله»، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم كثير وشعر كثير»^(١).

الحضارة السمعية وسلطان الذاكرة:

وللأذن تأثيرها على فنون الأدب، نجد مظاهر هذا التأثير في اللغة من

(١) المزهر ج ٢ ص ٢٩٤ وطبقات ابن سلام.

حيث «موسيقى اللفظ» و«الإيجاز» فهذه أمثال وصلت حداً من القدرة على رقيق الإيجاء وبلغ الإشارة مما خول لها أن تسير على الألسن، وتتخطى القرون. وهذه خطب أضفى عليها أصحابها من ساحر اللفظ، وبلاغة النبرة، ما طبعها في الذاكرة وأسكنها القلوب، وهذا شعر أنغامه تهدد البدوي وهو تائه في الصحراء، وتسجنه بموسيقاها في عالم اصطنعه لنفسه، وقدر على أن يوحى به إلى الحضر ويحببه إليهم.

هذا الوصف لما بلغت اللغة العربية من إتقان، وقد توسع في بيان ذلك كثير من الكتاب قديماً وحديثاً، وهي ظاهرة لفترة مرت بها لغات كثيرة هي مرحلة سيطرة الأذن على الاتصال ويسمونها بعضهم مرحلة «سلطان الذاكرة»^(١) ومن خصائص هذه الظاهرة أنها تطبع حياة أصحابها بنوع من الرقابة، وتجعلهم يحبون على نفس الوتيرة، ولعل في ذلك ما يفسر اقتناع العرب في هذه المرحلة بأن «النبوغ كل النبوغ في الشعر»^(٢)، وهذا أمر طبيعي في مرحلة الحضارة السمعية، حيث يعتمد الاتصال على الأذن، وحيث يعيش الإنسان خبرته الكلية المتكاملة الشاملة، وفي ظل هذه الحضارة السمعية بلغ العرب مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان، وفي القرآن الكريم تأكيد على خاصية هذه الحضارة السمعية «وإن يقولوا تسمع لقولهم»^(٣) «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا»^(٤) «فإذا ذهب الخوف - لقوكم بالسنة حداد»^(٥) وكثيراً ما وصف العرب في الجاهلية خطباءهم بأنهم مصاقع لسن. وفي أمثالهم جرح اللسان كجرح اليد، ونفس أدبهم الذي خلفوه يحمل في تضاعيفه ما يصور خصائص هذه الحضارة السمعية، وأحس بذلك الجاحظ من قديم فقال: «لم نَزْهُمْ يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد وفي صنعة طول الخطاب. . . وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معظم التدبير ومهمات الأمور ذللوا الكلام في صدورهم وقيدوه على أنفسهم، فإذا قومه الثقاف وأدخل الكبر وقام على

(١) البشير بن سلامة: اللغة العربية ومشاكل الكتابة تونس ص ٣٦.

(٢) سورة المنافقون الآية ٤

(٣) سورة البقرة الآية ٢٠٤

(٤) سورة الأحزاب الآية ١٩

الخلاص أبرزوه مخنكاً منقحاً ومصفى من الأدناس مهذباً»^(١) فبلغاؤهم من الخطباء والشعراء كانوا يتمثلون خصائص الحضارة السمعية. وقد وقف الجاحظ في أبياته مراراً ينوء بما كانوا يرسلونه في خطاباتهم وكلامهم من اسجاع محكمة الوصف لأنها تتوسل إلى الأذن، وكرر القول في أن من شعرائهم «من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كربتا (كاملا) وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ويحيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه فيجعل عقله زماما على رأيه ورأيه عياراً على شعره. . وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ليصير قائلها فحلاً خنذيذا وشاعراً مقلقاً»^(٢).

ومما لاشك فيه أن أسواقهم الكبيرة كانت كوسيلة اتصال بالجمهير نتاج هذه الحضارة السمعية، وخاصة سوق عكاظ بجوار مكة، وكانت تعقد في أول ذي القعدة إلى العشرين منه، وهي أعظم أسواقهم، وقد اتخذت سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة وظلت قائمة في الإسلام حتى نهبها الخوارج عام ١٢٩هـ حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف.

ومنها سوق مجنة: ومجنة موضع بمر الظهران أسفل مكة على أميال منها، وكانوا ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيها إلى نهاية ذي القعدة.

وسوق ذي المجاز: مبنى خلف عرفة. وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذي الحجة، ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع.

وكانت هذه الأسواق العربية - رغم أنها مكان للتجارة والمقايضة - ميداناً فسيحاً لتبادل الآراء، وعرض الأفكار، والتشاور في مشكلات الأمور، ومجالاً للمفاخرات والمنافرات والمحاورات، ومعرضاً لإذاعة مفاخر القبيلة وشرف الأرومة، ونادياً واسعاً لالقاء روائع الشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالبلاغة. وفيها ألقى أشهر القصائد والمعلقات العربية، فأنشد عمرو بن

(١) البيان والتبيين ٢٤٩/١ - د. شوقي صيف: البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠.

(٢) محمد عبد النعم خفاجي الشعر الجاهلي ص ٨٣ - ٨٩.

كلثوم معلقته في عكاظ، وكذلك فعل الأعشى الذي أنشد فيها قصيدته في مدح المحلق.

ولقد سبق الإغريق العرب إلى أمثال هذه المحافل في المجتمعات الأولبية التي كانوا يقيمونها كل أربع سنوات للألعاب والرياضة البدنية كلما حجوا إلى هيكل المشتري في أولبية. وكانوا يجرمون القتال على أنفسهم في أثنائها على نحو ما يفعل العرب في الأشهر الحرم، فلما استوثق لهم الأمر صارت هذه المجتمعات الأولبية أندية لإنشاد الشعر وتبادل الأفكار.

وكانت في هذه الأسواق منابر الخطابة في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته فيذيع فعاله ويعدد مآثره ومآثر قومه وأيامهم عاماً بعد عام.

وكان النقاد والشعراء والرواة يجتمعون في الأسواق فينشد الشعراء، وينقد النقاد ويذيع الرواة ما سمعوه في كل مكان. وكان النابغة الذبياني حكم الشعراء بسوق عكاظ، كانت تضرب له قبة فيه، فتأتيه الشعراء ينشدونه قصائدهم فيحكم لبعضهم على الآخرين.

وكان هذا الميدان الأدبي الفسيح بما فيه من آذان مرهفة، وعيون متطلعة، وأذواق حصيفة، تحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتهذيب والتنقيح، وتدعوهم إلى تخير الألفاظ العذبة، والأساليب الجميلة، والمعاني الرائعة، قصداً إلى الوضوح والإفهام والإستماع، ومن ورائهم الرواة يذيعون هذا الأدب المختار في البلاد، وينشرونه في القبائل، ويروونه في كل مكان للسامعين.

وذلك هو الأثر الأدبي الكبير لهذه الأسواق، فوق أثرها الخطير في توحيد العقائد والأخلاق والعادات، والنهوض الحثيث بالمجتمع العربي والسير به في طريق الوحدة التي بلغها بعد ظهور الإسلام ونبهه الكريم.

والأسواق وسيلة اتصال أدبي وعمل لغوي خطير. فقد كانت سبباً في التقريب بين لغات العرب ولهجاتهم.

كانت تنزل بها شتى القبائل العربية على اختلافها، من قحطانيين وعدنانيين، كما كان ملك الحيرة يبعث تجارته إليها ويأتيها التجار من مصر والشام والعراق.

فكان هذا الاجتماع الكبير وسيلة من وسائل التفاهم اللغوي، والتقارب بين اللغات واللهجات العربية، واختيار القبائل بعضها من بعض؛ وكانت الأذواق المرفهة في هذه الأسواق تعمل عملها في النقد اللغوي؛ فتأخذ كل قبيلة من لغة الأخرى، ما خف على النطق؛ وعذب في الألسنة وظهرت فصاحته، من مختلف الألفاظ والأساليب.

وكان القرشيون خاصة من بين قبائل العرب، وبتأثير اجتماعات الحج والأسواق والحروب، أكبر القبائل ميلاً إلى النقد اللغوي فاقبسوا من لهجات القبائل أعذبها، ومن ألفاظهم أسهلها وأنصعها وأفصحها. وأخذوا يضيفون ذلك إلى لغتهم فزادت ثروة اللغة العدنانية القرشية. وقلدت القبائل الأخرى قريشاً في ذلك. وأخذت عنها محاكية لها في لغتها وذلك لمكانة قريش وإشرافها على هذه الأسواق، مما حدا بالشعراء الذين يريدون لشعرهم الذيوع أن يتحروا لهجتها المختارة الذائعة في إذاعة محامد قبائلهم وأجنادهم. فكان لذلك آثاره البعيدة في تهذيب اللغة العربية وتوحيدها وجمعها في لغة مختارة هي لغة قريش أفصح القبائل العربية، والتي نزل بها القرآن الكريم.

وعمل الأسواق في توحيد الألسنة والتقريب بين اللهجات وتهذيب اللغة العربية كان ذا أثر بعيد في غمو اللغة العربية ونهضتها وانتقالها من طور اللهجات المتباينة واللغات المتنافرة المتناكرة إلى طور جديد، مهد للوحدة اللغوية بين قبائل العرب، التي نزل القرآن الكريم مؤيداً لها ومذيعاً للغة قريش في كل مكان.

وننتقل بعد ذلك إلى الحديث في إيجاز عن سوق عكاظ وأثرها في اللغة والأدب، توضيحاً لأثر الأسواق الجاهلية، وزيادة في معارفنا عن أسرار الاجتماع الجاهلي، لأن هذه السوق كانت تمتاز عن غيرها بأن جميع القبائل كانت تقصدها.

كانت سوق عكاظ ميداناً للتجارة وفداء الأسرى والمفاوضة في الرأي وتبادل الأفكار، كما كانت ميداناً للمنافرة والمفاخرة وإنشاد القصائد، وكان بها في الجاهلية منابر يقوم عليها الخطباء. فيقف أشراف القبائل مفاخرين بمناقبهم ومآثر قومهم. وكانت معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقي فيها الشعر والخطب، وينقد ذلك كله ويهذب. وفيها أنشد ابن كلثوم معلقته، ويقال إن المعلقات أنشدت فيها، كما أنشد فيها الأعشى مدحته المحبرة في المحلق، ومن ألقى فيها مدائح حسان؛ كما كانت الخنساء تلقى فيه مراثيها وتعظم بمصيبتها. وكان النابغة تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ ويجتمع عليه الشعراء فيتحاكمون إليه.

أتاه الأعشى يوماً فأنشده، ثم أتاه حسان، فقال: لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً، لقلت إنك أشعر الجن والإنس، قال حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك، فقبض النابغة على يده، وقال: يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المستأى عنك واسع

ثم أتته الخنساء فأنشدته:
قذى بعينك أم بالعين عوار
أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار^(١)

فلما بلغت قولها:
وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
قال: ما رأيت ذا مثانة أشعر منك.

ويروى أنه قال لها: لولا أن أبا بصير سبقك لقلت إنك أشعر من بالسوق، ويروى أنه قال لحسان حين بلغ قوله من قصيدته:

(١) العوار والعائر كلما أعل العين، والرمد، والقذى.

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

قلت: جفانك، ولو قلت: الجفان لكنت أكثر، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر
بمن ولدك، وقلت يلمعن بالضحى، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ، لأن
الضيف بالليل أكثر طروفاً، وأنثت السيوف^(١).

وكذلك قصدت هند بنت غتبة بن ربيعة هذه السوق حين قتل أهلها
في بدر، وقرنت جملها بجمل الخنساء، وأخذت كل منها تعاضم الأخرى
بمصاها وتساجل في الشعر لوعة بلوعة، وراثا برثاء.

وفي سوق عكاظ خطب قس بن ساعدة خطبته المشهورة، وقد سمعها
الرسول صلوات الله عليه.

وكان عليها رئيس شرف على الموسم ويقضي بين المتخاصمين، ومن
الرؤساء عامر بن الظرب العدواني، واستمرت في الإسلام، وكان محمد بن
سفيان بن مجاشع قاضياً لها، وكان أبوه يقضي فيها في الجاهلية. وقد قصدها
الرسول الأعظم يث فيها دعوته وبقيت حتى خربت عام ١٢٩هـ.

هكذا كانت الأسواق وسيلة اتصال أدبي وذات أثر خطير في تهذيب
اللغة وتوحيد اللهجات، ونهضة الأدب وتجويده، ونشر الشعر وترديده، كما
كانت نواة لنشأة النقد الأدبي ومهداً لنموه، على نحو ما رأينا في عكاظ التي
كان يقصدها المفاخر بالنسب والحسب، والمتبجح بالفصاحة واللسن،
والمحزون الذي يجد فيها متنفساً للواعجه، والداعي الذي يلتمس الاصاحة
لدعوته. وكل هذا إلى جانب حركتها الاقتصادية والاجتماعية.

(١) الأغاني ج ٨ ص ١٩٤، ١٩٥ والجففات القصص الكبيرة.

النثر في الحضارة السمعية:

ولقد اكتسب النثر من الحضارة السمعية كذلك خصائص تميز بها في العصر الجاهلي^(١)، ولذلك وجدنا العرب أهل لسن وفصاحة، يزدهيهم القول، وتأخذ بألبابهم البلاغة، ومن هنا أثر لهم من جوامع الكلم، ونسوابغ الأساليب، وفرائد القول، ما يعد على وجه الزمن من مآثرهم الخالدة، ومناقبهم الباقية..

والدارس لمأثور كلامهم يرى أنه ينقسم إلى قسمين:

أولاً: الشعر الذي يعتمد على الوزن والقافية وسيأتي الحديث عنه.

ثانياً: النثر، وهو لون من الكلام لا تحده غالباً قيود من وزن أو قافية. إنما هو الألفاظ تسيل على أسلالت الألسنة، وتتناثر من الأفواه، وتفيض بها بديهة حاضرة، وقريحة مواتية، وطبيعة طيبة مستجيبة.

ونعني بالنثر الذي ندرسه ونهتم به، النثر الفني الذي يحتفل به صاحبه، ويصوغه صياغة فنية جذابة مؤثرة للتعبير عن أجمل المعاني، وأسمى الأفكار، فهو مذهب منقح، تظهر فيه آثار الفن، وملامح الموهبة.

ولا نعني به ذلك النوع الذي كان يجري على الألسنة في أمور الحياة العادية، ويتحدث به الناس في شؤونهم الجارية؛ لا يقصدون فيه إلى الإجادة، ولا إلى الجمال الفني، وهو ما يسمى «لغة التخاطب».

ولا نعني به ذلك النثر العلمي الذي جد في أواخر عصر بني أمية أو أوائل العصر العباسي، والذي يستعمل في أداء الحقائق العلمية المجردة، كما نرى في مؤلفات العلوم المختلفة، فذلك نوع ليس من الأدب؛ وإن كان الأدب يعنى به كآثر من آثار العقلية التي تنشئ الأدب، ولأنه مغذي الثقافة

(١) كلمة جاهلي من الجاهلية المأخوذة من الجهل صد العلم لما كان عليه العرب من أمية، أو من الجهل ضد الحلم لما كانوا عليه من سفه وطيش واسراع إلى الانتقام، وشن الحروب لأوهى الأسباب.

الفكرية والأدبية، ولأنه يصقل مواهب الأديب، ويمده بزخار الأفكار والمعاني والموضوعات، وأحياناً يكون هذا النوع من النثر أدباً إذا أدى الحقائق العلمية في أسلوب رائع، وعرض جذاب، وتصوير بليغ. والذي يستعرض نماذج النثر الأدبي عند الجاهليين يجد أنه كان يأخذ هذه الألوان المختلفة:

١ - فتارة نراه كلاماً مرسلأ غير مقيد في فقراته^(١) بوزن أو قافية، كخطبة أكثم بن صيفي التي يقول فيها: «إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم، فإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه، والستر عليه»، ويسمى هذا اللون من النثر «مرسلاً»:

٢ - وتارة يجيء الكلام متحدأ في فواصله^(٢) وزناً دون اتفاق في القافية كما في قوله تعالى: ﴿ونمارق مصفوفة* وزرابي مبثوثة﴾^(٣) وكما قال مرثد الخير الحميري: «... فتلافيا أمركما وأنتما في فسحة رافهة، وقدم واطدة، والسقيا معرضة، والمودة مثرية» ويسمى هذا النوع «مزدوجأ»، ويسميه البديعيون «موازنة».

٣ - وأحياناً تتحد فواصله في الحرف الأخير وهو ما يسميه بالقافية، مثل خطبة قس التي يقول فيها: «ليل داج، وساء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج... الخ». ويسمى هذا النوع بالسجع.

فإذا اتفقت الفواصل في الوزن والقافية كان هذا سجعاً أو ازدواجأ. مثل قوله تعالى: ﴿فيها سرر مرفوعة* وأكواب موضوعة﴾^(٤) وكما يقول المأمور الحارثي: «أرض موضوعة، وساء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري وتغرب».

(١) الفقرة الجملة من الكلام.

(٢) الفاصلة الكلمة الأخيرة من الجملة.

(٣) سورة الغاشية الآيات ١٥ - ١٦

(٤) سورة الغاشية الآيات ١٣ - ١٤

وللسجع في النفوس تأثير شديد، وعلى الأسجاع وقع ورنين، فهو يستخف القلوب، ويستهوئ الألباب، ويحدث في السامعين نشوة وأريحية. إذ هو بالغناء أشبه، وإلى الشعر أقرب، ومن هنا قالوا إنه مأخوذ من سجع الحمامة أي غنائها على طريقة واحدة ولهذا لا نعجب إذا رأينا الكهان يعتبرون هذا السجع من سيوفهم المشرعة، وأدواتهم الطيعة إلى غزو القلوب، وامتلاك النفوس.

وأحسن السجع ما تساوت قرائنه^(١) كقوله تعالى: ﴿والعاديات ضبحاً، فالموريات قدحا * بالمغيرات صبحاً﴾^(٢) ثم ما طالت قرينته الثانية كقوله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى﴾^(٣) ثم ما طالت قرينته الثالثة كقوله تعالى: ﴿خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه﴾^(٤) وكرهوا أن تكون الفقرة اللاحقة في السجع أقصر من السابقة قصراً كبيراً.

وإنما يحسن السجع إذا طلبه المعنى، واستدعاه المقام، وبرئى من التكلف. فكانت ألفاظه تابعة لمعانيه، وكان لكل فقرة منه معنى، وكانت ألفاظه متخيرة. وإلا كان معيياً.

والأصح أنه يجوز تسمية بعض آيات القرآن سجعاً، ويؤيد ذلك أبو هلال، وابن سنان، وابن الأثير، خلافاً للباقلاني وأنصاره الذين يرون تسمية الجمل القرآنية فواصل، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾^(٥) ومنعاً لتبادر الفهم إلى أن القرآن يشبه شيء من الآثار الأدبية، وإكباراً له عن أن يقال له سجع.

ويقول ابن خلدون: وأما النثر فمنه: السجع الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة، ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء، بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها،

(١) القرينة هي الفقرة.

(٢) سورة العاديات الآيات ١ - ٣

(٣) سورة النجم الآيات ١ - ٢

(٤) سورة الحاقة الآيات ٣٠ - ٣١

(٥) سورة هود آية ١

ويستعمل من الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم... وأما القرآن وإن كان من المثور إلا أنه خارج عن الوصفين، وليس يسمى مرسلًا مطلقاً ولا مسجعاً، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها^(١).

ومن النتائج الثري لحضارة الاتصال السمعي: الحكم والأمثال، والخطابة الجاهلية، وسجع الكهان.

الحكم والأمثال الجاهلية:

جاء في اللغة، حكمه أي منعه مما يريد، ومنه حكمة الدابة لأنها تدللها لراكبها وتمنعها الجماح، ومنه اشتقت الحكمة لأنها تمنع صاحبها من الآثام والرزائل^(٢).

والحكمة: قول بليغ موجز صائب، يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة، ويتضمن حُكماً مُسلماً به، تقبله العقول، وتنقاد له النفوس والمشاعر. وكان للعرب في الجاهلية حكماء شهروا بأصالة الرأي، وبعد الغور، ودقة التفكير. والنظر الصائب، والفهم الصحيح للحياة وحادثاتها وتجاربها، وتنطلق ألسنتهم بالحكمة البليغة الرائعة، كلما حدث حادث، أو نزل خطب، أو أخذ رأيهم في مسألة.

وكان العرب يلتجئون إلى هؤلاء الحكماء في الخصومات والمفاخرات والمنافرات ومشكلات الأمور، بل كان في كل قبيلة حكيم تفرع إلى رأيه في الخطوب، وتستعين بتجاربه في المشكلات، وتستضيء برأيه في جميع شئون حياتها. وقد يكثر الحكماء في القبيلة، فيكونون عوناً لها في الشدائد، وتحلهم القبيلة من نفسها مكاناً علياً واشتهرت بعض النساء في العصر الجاهلي أيضاً بالحكمة، ولهن آثار تروى، وحكم مخلدة في صحف التاريخ الأدبي.

(١) ص ٥٦٧ مقدمة ابن خلدون.

(٢) راجع ١٩٠ ج ١ أساس البلاغة للزمخشري في مادة حكمة، وحكمة الدابة ما أحاط بحكمها من اللحم.

والحكم من البلاغة بمكان كبير: لإيجازها، ووضوحها، وفصاحتها، ودقة معناها، وروعة تأثيرها، وخصب خيالها، وصدق تجاربها الإنسانية العالية. وهي تكسب الكلام سحراً وحلاوة. وتجعله مقبولاً من الذوق قريباً إلى القلب. مسلماً به من العقل والشعور والوجدان.

وقد تشتهر الحكمة وتذيع بين الناس فتصبح مثلاً. وعلى هذا صار المؤلفون في الأمثال، حيث لم يفرقوا بين ما صدر في حادثة معينة مثل (رجع بخفي حنين) أو فاض به لسان حكيم.

ومن أشهر حكماء العرب في العصر الجاهلي:

١ - أكثم بن صيفي التميمي ومن حكمه: رب عجلة تهب ريثاً، لم يذهب من مالك ما وعظك، مقتل الرجل بين فكيه، آفة الرأي الهوى، ويل للشجي من الخلي، إن قول الحق لم يدع لي صديقاً.

٢ - عامر بن الظرب العدواني - ومن حكمه: العقل نائم والهوى يقظان، من طلب شيء وجدته، رب زارع لنفسه حاصد سواه.

٣ - ومن حكمائهم أيضاً: ذو الأصبع العدواني، وقس بن ساعدة، وحاجب بن زرارة، وهاشم بن عبد مناف، وعبد المطلب بن هاشم.

٤ - ومن حكمائهم لقمان، ويتنازعه العرب الحبشة والمصريون واليهود - ومن حكمه: رب أخ لك لم تلده أمك، الصمت حكم وقليل فاعله، آخر الدواء الكي.

٥ - ومن كانت العرب تتحاكم إليه عمرو بن حمزة الدوسي^(١). . . ومن حكمائهم: هند بنت الحنيس^(٢)، وصخر بنت لقمان، وبنت عامر بن الظرب.

ومن أمثلة الحكم النثرية:

(١) ١٤٣ ج ٢ الأمالي.

(٢) راجع حديثها مع أبيها في ص ١٠٧ ذيل الأمالي.

العتاب قبل العقاب - كلم اللسان أنكى من كلم السنان - أو الحزم
المشورة - أنجز حر ما وعد - أترك الشر يتركك - رب ملوم لا ذنب له - من
مأمنه يؤق الحذر.

والحكمة كما تكون نثراً تكون شعراً أيضاً... ومن أمثلتها حكم طرفة
والنابغة وزهير بن أبي سلمى وسواهم. ومنها:
إذا المرء لم يخزن عليه لسانه
فليس على شيء سواه بخزان
ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أي الرجال الهذب؟
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل
ومن لا يذد عن عرضه بسلاحه
يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم

ما هو المثل؟

يعرفه بعض علماء الأدب ومنهم المبرد بأنه قول سائر يشبه مضربه
بمورده، أو يشبه فيه حال المقول فيه ثانياً بحال المقول فيه أولاً^(١).

ويعرفه آخرون ومنهم المرزوقي بأنه جملة من القول مقتضبة من أصلها،
أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت منه إلى
كل ما يصح قصده منها من غير تغيير يلحقها في لفظها... وهذا التعريف
الأخير يجمع بين الحكمة والمثل، فالمقتضبة من أصلها هي المثل الذي له أصل
وقصة وحادثة معينة. والمرسلة بذاتها هي الحكمة التي ينطق بها الحكيم بعد
طول التجربة والخبرة... وعليه يسير ابن رشيق، والميداني، وأبو هلال

(١) الأصل فيه التشبيه فقولهم مثل بين يديه إذا انتصب معناه اشبه الصورة المنتصبة والمثال
القصاص لتشبيه حال المقتض منه بحال الأول. فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال
الأول (كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً) فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد.

العسكري وسواهم. وقد جمع أبو هلال والميداني في كتابيهما كثيراً من ذلك: وجعلها كلها من الأمثال، سواء كانت من النوع الأول وهو الحكمة، أو من الثاني وهو المثل. فكأن كل ما ذاع وانتشر مثل في رأيها، سواء في ذلك ما صدر في حادثة معروفة، وكانت له قصة خاصة، وما نطقت به الحكماء من أقوال حكيمة صائبة^(١).

والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير. فهي مرآة للحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية والدينية واللغوية، وهي أقوى دلالة من الشعر في ذلك لأنه لغة طائفة ممتازة، أما هي فلغة جميع الطبقات.

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة معناه، وإصابة الغرض المنشود منه، وصدق تمثله للحياة العامة ولأخلاق الشعب. قال النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكتابة، فهو نهاية البلاغة.

والأمثال تكسب الكلام سحراً وجمالاً وبلاغة، وتستثير النفوس والعواطف وتملك القلوب والمشاعر، وتقوم مقام الحجة والبرهان لصحة حكمها وصدق مدلولها. قال ابن المقفع: إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للنطق وأتق للسمع وأوسع لشعوب الحديث، وهي تسير سيورة الشعر، وتعمل عمله، وتذيع ذبوعه. قال الشاعر:

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر

والأمثال يصعب عليك تمييز الجاهلي منها من الإسلامي، لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين، ولكن ما يشير إليه المثل من حادث أو قصة أو خبر مما يتصل بالجاهلية يساعد على معرفة الجاهلي وتمييزه من الإسلامي مثل: ما يوم حليلة بسر^(٢). وقد يدل على جاهلية المثل أن يكون مخالفاً لتعاليم

(١) وسميت الحكمة مثلاً لانتصاب صورها الصادقة في العقول.

(٢) وحليمة هي بنت ملك غسان ويضرب هذا المثل للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل.

الإسلام ومبادئه مثل: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. واليوم خمر وغداً أمر^(١).

وقد ألف في الأمثال: أبو هلال العسكري م ٣٩٥ هـ. كتابه «جمهرة الأمثال» والميداني كتابه «مجمع الأمثال» وقد جمعه من نحو خمسين كتاباً ورتبه على حروف المعجم. وفي هذين الكتابين: تختلط الأمثال بالحكمة، ويختلط الجاهلي منها بالإسلامي. والفرضي بالحقيقي. ولكنها على أي حال يصوران البيئة العربية أتم تصوير. وفيهما وصف للكثير من ألوان حياة العرب في الجاهلية والإسلام. وهما مصدران من مصادر الأدب العربي وتاريخه.

وكذلك صنع ابن رشيق في فصل (الأمثال) بالجزء الأول من العمدة.

والأمثال إما حقيقية أو فرضية. فالحقيقية: لها أصل وقائلها معروف غالباً، والفرضية ما كانت من تخيل أديب ووضعها على لسان طائر أو حيوان أو جماد أو نبات أو ما شاكل ذلك. . . والفرضية^(٢) تساعد على النقد والتهكم والسخرية وخاصة في عصور الاستبداد. وهي وسيلة ناجحة للوعظ والتهذيب والفكاهة والتسلية.

والأمثال أيضاً إما شعر أو نثر كالحكمة.

ومن الجدير بالتنويه هنا أن أكثر موارد الأمثال يظهر فيها الصنعة والانتحال، يدل على ذلك اختلاف العلماء في مورد المثل الواحد حيناً. وظهور الاختلاف في القصة حيناً آخر.

وفي الأمثال الجاهلية تظهر ألوان كثيرة من الصنعة الفنية حيناً، من تشبيه واستعارة وتمثيل وسجع^(٣)، وتخلو من الصنعة أحياناً أخرى، وفي الكثير منها ترى مظهراً للفن والبيان والإجادة والتثقيف، وسبب ذلك أن الأمثال

(١) يضرب في قلب الأيام، قاله امرؤ القيس لما علم بمقتل أبيه وكان مع جلسائه يشرب الخمر.

(٢) ومن المؤلفات في الأمثال الفرضية: كليله ودمنة، وسلوان المطاع، وفاكهة الخلفاء، والعيون اليواظ، وسواها.

(٣) راجع ص ٦ - من كتاب الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف.

تجري في لغة التخاطب وأحاديث الناس العامة العادية، ومن ثم كان الكثير منها خالياً من المهارة البيانية والصناعة الفنية.

هذا والأصل في الأمثال ألا تكون مصقولة ولا مصنوعة لأنها من لغة الشعب، كما في قولهم (آخرة الغز علقه) وقولهم (حسنة. وأنا سيدك). غير أنها كثيراً ما تصدر عن الطبقة الممتازة في اللغة من شعراء وخطباء فيظهر فيها ألوان من الإجابة الفنية... وهذا هو سبب الاختلاف في الأحكام الأدبية التي أصدرها علماء الأدب على الأمثال.

هذا ولغة التخاطب وأحاديث الناس العادية، وما يتبادلونه من محاورات ومخاطبات لا تعيننا في درس الأدب العربي وتاريخه، وليست لها قيمة لولا ما يجري فيها أحياناً من مثل أو حكمة.

ومن أقدم الأمثال العربية أمثال لقمان الحكيم، ومن أمثاله قوله: رب أخ لك لم تلده أمك، آخر الدواء الكي، المبيت على الطوى حتى تنال به كريم المثوى خير من إتيان ما لا تهوى^(١).

ومن أمثالهم الفرضية: كيف أعاودك وهذا أثر فأسك^(٢). وفي بيته يؤق الحكم^(٣).

(١) قالوا أنه كان سائراً ذات يوم فعطش، فدفق إلى خيمة، في فئائها امرأة تداعب رجلاً، فاستسقى، فقالت المرأة: أما اللبن فخلفك وأما الماء فأمامك فقال: المنع كان أوجز، فسارت مثلاً، وبينما هو كذلك إذ شاهد صبياً يبكي فلا يلتفت له فقال: ادفعوا إلى هذا الصبي إن كنتم في غنى عنه، فقالت: ذاك إلى هانيء، ثم قال لها: من هذا الشاب إلى جنبك فقد علمته ليس ببعيدك؟ قالت: هذا أخي قال: رب أخ لك لم تلده أمك، فذعرت منه، ثم عرضت عليه الطعام فقال: المبيت على الطوى... المثل، ثم قابل زوجها وأخبره بخبر الشباب مع زوجته، فقال زوجها أعالجها بكية توردها المنية، فقال لقمان: آخر الدواء الكي.

(٢) قالوا: إن أخوين أجدياً، فرغب أحدهما إلى أخيه أن ينتقل معه إلى واد خصيب معشب كانت به حية فتاة، فحذره أخوه شرها فلم يأبه له. وانتقل إليه فنهشته فمات، وخافت أخاه فصالحته على أن تعطيه كل يوم ديناراً فلما أيسرهم بقتلها، فضربها فأخطاها وأصاب باب الجدار فأراد مصالحتها استبقاء للدينار وخوفاً من شرها فقالت: كيف أعادك وهذا أثر فأسك؟

(٣) يروون هذا المثل على لسان الضب في محاوره بينه وبين الأرنب والثعلب حين احتكما إليه في ثمرة التقطتها الأرنب فاختلستها الثعلب واكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضب.

ومن أمثالهم الشعرية:

تَمْتَعُ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ
فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَةِ مِنْ عَرَارِ^(١)
لَا تَقْطَعُنْ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَرْسُلِهَا
إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعِ رَأْسَهَا الذَّنْبَا^(٢)
كِنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُوْهِنَهَا
فَلَمْ يَضْرُهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلَ^(٣)
أَنْ تَرْدَ الْمَاءَ بِمَاءٍ أَوْفَقَ
لَا ذَنْبَ لِي قَدْ قُلْتُ لِلْقَوْمِ اسْتَقُوا^(٤)

ومن أمثالهم: قد حيل بين العير والنزوان^(٥)، إن أخاك من واساك.
نفس عصام سودت عصاماً^(٦)، إن البلاء موكل بالمنطق^(٧)، إن العوان لا
تعلم الخمرة^(٨)، كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ومن الأمثال المشهورة (رجع بخفي حنين) وكان حنين إسكافاً فساومه
أعرابي على خفين فاختلفا، فأراد حنين أن يغيط الأعرابي، فأخذ أحد الخفين

(١) للصمة بن عبدالله القشيري، ويضرب في المتمتع بالزائل.. والعرار نبت طيب الرائحة وهو
الترجس البري.

(٢) هو لأبي أذينة اللخمي يمرض الأسود بن النذر على قتل بعض أسارى غسان (يضرب في
التحريض على استئصال شأفة الشر).

(٣) يضرب لمن يحاول مالا يستطيع فيتعب نفسه دون فائدة.

(٤) يضرب لمن لا يقبل الموعظة والاحتياط للطوارئ.

(٥) العير: حمار الوحش. النزوان: الوثوب. وقائل هذا المثل صخر بن عمرو أخو الخنساء لما طال
مرضه فكرهته امرأته فعزم على قتلها فلم يتمكن من حمل السيف فقال:

أهم بأمر الحزم لو استطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

(٦) يضرب في سؤدد الرجل بنفسه.

(٧) ينسب لأبي بكر. قاله حين أمر الرسول أن يعرض نفسه على القبائل. ويضرب لمن يورده قوله
في الهلاك.

(٨) العوان: النصف التي بلغت مبلغ النساء، الخمرة. لبس الخمار. يضرب للعالم بالأمر المجرب
له

وطرحه في الطريق، ثم ألقى الآخر في مكان آخر؛ فلما مر الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبهه بخف حنين ولو كان معه الآخر لأخذته، ثم مشى فوجد الآخر، فترك راحلته وعاد ليأتي بالخف الأول، وكان حنين يكمن له فسرقت راحلته ومتاعه. وعاد الأعرابي إلى قومه يقول لهم جئتكم بخفي حنين. يضرب لمن خاب مسعاه.

ومنها (الصيف ضيعت اللبن) قاله عمرو بن عمرو بن عدس وكان شيخاً كبيراً تزوج بامرأة فضاعت به فطلقها فتزوجت فتى جميلاً وأجذبت فبعثت تطلب من عمرو حلاية أو لبناً، فقال ذلك المثل. يضرب لمن يطلب شيئاً فوته على نفسه.

ومنها (على أهلها تحني براقش) وبراقيش كلبة لقوم من العرب أغير عليهم فهربوا ومعهم براقش، فتتبعهم الأعداء مهتدين إليهم بناقش، فهاجموا عليهم. يضرب لمن يجلب الأذى لقومه.

ومنها (وافق شن طبقة) وشن رجل من دهاة العرب خرج يبحث عن امرأة مثله يتزوجها، فرافقه رجل في الطريق إلى القرية التي يقصدها، ولم يكن يعرفه من قبل. قال شن: أتحملي أم أحملك؟ فقال الرجل يا جاهل أنا راكب وأنت راكب فكيف تحملي أو أحملك؟ فسكت شن حتى قابلتهما جنازة، فقال شن: أصاحب هذا النعش حي أم ميت؟ فقال الرجل ما رأيت أجهل منك، ترى جنازة وتسال عن صاحبها أميت أم حي، فسكت شن، ثم أراد مفارقتها فأبى الرجل وأخذه إلى منزله، وكان له ابنة تسمى طبقة، فسألت أباه عن الضيف فأخبرها بما حدث منه، فقالت يا أبت ما هذا بجاهل إنه أراد بقوله «أتحملي أم أحملك»: أتحدثني أم أحدثك. وأما قوله في الجنازة فإنه أراد: هل ترك عقبا يحيا به ذكره؟ فخرج الرجل وجلس مع شن وفسر له كلامه، فقال شن: ما هذا بكلامك، فصارحه بأنه قول بنته طبقة، فتزوجها شن. يضرب مثلاً للمتوافقين^(١).

(١) راجع مجمع الأمثال للميداني في هذه الأمثال وغيرها.

الخطابة الجاهلية :

الخطابة فن من فنون النثر، ولون من ألوانه، وهي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة والتأثير «فهي كلام بليغ يلقي في جمع من الناس لإقناعهم برأي، أو استمالتهم إلى مبدأ أو توجيههم إلى ما فيه الخير لهم في دنيا أو آخرة».

والخطابة ضرورية لكل أمة في سلمها وحربها، فهي أداة الدعوة إلى الرأي والتوجيه إلى الخير، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين والزعماء والمصلحين فهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية.

وإنما تقوى الخطابة ويرتفع صوتها في زمن الحرية، وفي ظلال الديمقراطية، حيث تستطيع الأمة أن تتنفس بآمالها ومشاعرها، وتنطلق من قيود الدل والظلم إلى حيث تنطلق أفواها بما تحبش به الخواطر، وتضطرم به النفوس، وتتجه إليه الآمال، ففي ظلال الحرية، تتقارع الآراء وتتصارع الأفكار، وتتنازع المبادئ وتتنافس المذاهب، وتتعدد الخصومات، وفي ذلك كله غذاء للخطابة، ومدد لها وداع إليها.

والخطابة إما سياسية أو اجتماعية أو دينية، وقد ازدهرت في العصر الحديث الخطابة القضائية والبرلمانية. وفن الخطابة قديم وجد في الأمم القديمة كقدماء المصريين واليونان والرومان.

ازدهارها في العصر الجاهلي :

وكان للخطابة شأن عظيم في العصر الجاهلي، وكان للخطيب مركز ممتاز لا يقل عن مركز الشاعر، حتى إن أبا عمرو بن العلاء يقول: «إن الخطيب في الجاهلية كان فوق الشاعر»^(١).

ولا بدع، فنحن نعلم أن العرب كانوا قبائل متناحرة متنازعة، تقتتل

(١) ج ١٧٠ البيان والتبيين.

لأوهى الأسباب، وأتفه الأمور؛ ومن أبرز شئائهم العزة والأنفة، والنفور من العار، وحماية الجار، والحرص على الأخذ بالثأر، والمباهاة بالعصية والمفاخرة بالنسب. والتشديق بالبيان... فالخطابة إذن ضرورة من ضروراتهم وحاجة من حاجاتهم. يتخذونها في السلم أداة للمفاخرة والمنافرة ويصطنعونها في الحرب لتثبيت الجنان، وتحميس الجبان. وبعث الحمية في النفوس. وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف.

ولهذا علت منزلة الخطيب. وراح الشعراء يفتخرون بالخطابة. ويتغنون بها فيما يتغنون به من المفاخر. يقول قيس بن عاصم المنقري سيد بني تميم، شاعرها وفارسها:

إني امرؤ لا يعترني خلقي دنس يفننده، ولا أفن
من منقر في بيت مكرمة والأصل ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم بيض السجوه مصاقع لسن
ويقول عمرو بن الإطنابة:

إني من القوم الذين إذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم النائل
القائلين فلا يعاب خطيبهم يوم المقامة بالكلام الفاصل

وقد زادها رفعة أنها كانت لسان الأشراف والرؤساء والناهين من القبائل يفضلونها على الشعر الذي غرض منه امتهان الشعراء له بالتكسب والارتزاق.

فازدهار الخطابة إذن في الجاهلية يرجع إلى الحرية التي لا يحدها سلطان ولا تقيدها حكومة، وإلى القتال الدائم بين القبائل وما يتطلبه من تحميس أو حض على ثأر؛ وإلى حب المفاخرة المتأصل في العرب؛ وإلى تأصل ملكة البيان فيهم، وقدرتهم على التصرف في وجوه القول وتشقيق الكلام، وإلى ابتذال الشعر آخر الأمر بالتكسب، واختصاص الرؤساء والزعماء بها.

موضوعاتها:

كانت موضوعاتها تدور حول الحث على القتال والأخذ بالثأر، والدعوة

إلى الصلح بالتنفير من الحرب وويلاتها، والمفاخرة بالمكانم والعصبيات، والسفارة بين القبائل العربية، أو بينها وبين جيرانها: وفي التعازي والتهاني والاستنجد وتأمين السبل وحراسة التجارة. وكان من موضوعاتها خطب للنكاح والإشادة بالخطاب والمخطوب كما كانت تتناول الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، والتبشير برسوله كما سنرى في خطب دعاء التوحيد مثل قس بن ساعدة وأكنم بن صيفي والمأمور الحارثي.

والخطب الجاهلية قصيرة بوجه عام، وفي الغالب، ولعل ذلك راجع إلى إثارهم الإيجاز، ورغبتهم في حفظها وانتشارها. قيل لأبي عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ فقال نعم ليسمع منها: فقيل له. وهل كانت توجز؟ فقال نعم ليحفظ عنها. ولكل مقام.

الخطيب:

أما الخطيب فكانوا يشترطون فيه السيادة في القوم. والكرم في الخلق والعمل بما يقول، ولا بد أن يكون جهير الصوت، رابط الجأش، ثابت الجنان قوي الحجّة. فصيح اللسان. قليل الحركة. حسن السمّت. جميل المظهر. وكان من عاداته أن يقف على نشر^(١) مرتفع كظهر راحلة ونحوها معتمراً بعمامته. قابضاً بيده على سيف أو عصا. وذلك كله للتأثير بإظهار الملامح، وإبعاد مدى الصوت. ومنهم من كان يمسك العصا في السلم والقوس في الحرب.

ويظهر أنهم كانوا يرتجلون القول ارتجالاً. بلا معاناة ولا مكابدة، وإنما يصرفون الهمم إلى الغرض. فتأتي المعاني متدفقة، وتنتال الألفاظ انثيالاً، كما يقول الجاحظ^(٢).

(١) نشر مرتفع، وهذه العادة في غير الزواج.

(٢) ويرى بعض الباحثين أن خطباء العرب كانوا يذهبون مذهب أصحاب التجويد والتجوير. وأنهم صاغوها صياغة فنية وهذا بعيد (الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٢ - ١٤) د. شوقي ضيف.

والمأثور من خطب الجاهليين، قليل أقل من الشعر المثرى عنهم؛ والسبب في ذلك صعوبة حفظ النثر لعدم تقيده بوزن أو قافية؛ وسرعة نسيانه وعدم تدوينه لأميتهم ونحو ذلك مما أدى إلى ضياع الكثير من الخطب؛ واختلاف الرواية فيما بقي منها بطول العهد وتناقل الرواة.

دفاع عن الخطابة الجاهلية:

يقول الدكتور طه حسين «في الأدب الجاهلي»: «كان في العرب قبل الإسلام خطباء؛ ولكني لا أتردد في أن خطابتهم لم تكن شيئاً ذا غناء وإنما الخطابة العربية فن إسلامي خالص؛ وذلك أن الخطابة ليست من هذه الفنون الطبيعية التي تصدر عن الشعوب عفواً؛ ويعنى بها الأفراد لنفسها؛ وإنما هي ظاهرة اجتماعية ملائمة لنوع خاص من الحياة، وكل الحياة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام لم تكن تدعو إلى خطابة قوية متميزة، فالحواسر المضرية كانت حواسر تجارة ومال واقتصاد، ولم يكن للحياة السياسية فيها خطر يذكر ولم تكن لهم حياة دينية قوية تحتاج إلى إلقاء الخطب كما تعود النصارى والمسلمون. وأهل البادية كانوا في حرب وغزو وخصومات، وهذا يدعو إلى الحوار والجدال لا إلى الخطابة، فالخطابة تحتاج إلى الاستقرار والثبات والاطمئنان إلى الحياة المدنية المعقدة وأنت لا ترى عند اليونان خطابة أيام الملوك ولا أيام البداوة ولا أيام الطغيان، وإنما الخطابة اليونانية ظاهرة ملازمة للحياة السياسية العامة، ولم يعرف الرومان الخطابة أيام البداوة ولا أيام الملوك ولا أيام الجمهورية الأرستقراطية وإنما عرفوها حين تعقدت حياتهم السياسية وظهرت فيهم الخصومات الحزبية، ولم تظهر الخطابة في أوروبا إلا في العصر الديمقراطي حين تعقدت الحياة السياسية واشتركت فيها الشعوب... فلا تصدق إذن أنه قد كانت للعرب في الجاهلية خطابة متميزة إنما استحدثت الخطابة في الإسلام، استحدثها النبي ﷺ والخلفاء، وقويت حين نجحت الخصومة السياسية الحزبية بين المسلمين»^(١).

(١) ٣٧٤ الأدب الجاهلي لطلح حسين.

ولسنا نوافق الدكتور طه حسين على هذا التهوين من شأن الخطابة الجاهلية :

١ - فقد علمنا أن الأمة العربية أمة حربية توفرت لديها دواعي الخطابة من الأنفة من العار، والأخذ بالثأر، والتفاخر بالأنساب، وكانت لها أيام حربية ووقائع لا تنتهي، دعت إليها حياتهم وطبيعة بيئتهم وبدأوتهم، وهذه المقامات تستدعي الخطابة وتجعلها قوية مزدهرة. ولقد كانوا يتنازعون السلطة في الرفادة والحجابه وغيرهما وكان اتصاهاهم السياسي بالأمم المجاورة كالفرس والروم مدعاة إلى هذه الحروب والأيام المشهورة التي كان صوت الخطابة فيها قوياً بجانب الشعر.

٢ - ومع هذه النهضة السياسية كانوا على جانب من الحضارة اكتسبوه من اليمن وهذه الأمم المجاورة التي اتصلوا بها واشتبكوا معها في الحروب. فقد تهيأ لهم ما ينكره الدكتور طه من الحضارة والتنازع السياسي والديني.

٣ - على أنه لا يعقل أن تطفر الخطابة من ضعفها الذي يدعيه إلى هذه القوة العظيمة التي يعترف بها هو في صدر الإسلام. وإلا فكيف تكون شيئاً مذكوراً من شيء لا غناء فيه؟

كل ذلك يدلنا على أن الخطابة بلغت من الرقي مبلغاً عظيماً قبل الإسلام وليس ينفي هذا أن بعض النصوص من الخطب الجاهلية يظهر عليه أثر الصنعة والانتحال، مما يحمل على الشك فيه، على الرغم مما يصطبغ به من الشبه بالروح الجاهلي؛ ولكن إنكار الخطابة شيء، والتشكك في بعض نصوصها شيء آخر.

أشهر الخطباء الجاهليين:

من أشهر الخطباء في العصر الجاهلي:

١ - قس بن ساعدة الإيادي، وهو من إياد، ويضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والحكمة والخطابة، ويعد خطيب العرب كافة.

وهو أول من قال: أما بعد، وأول من نطق بهذه الحكمة: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

وكان الناس يتحاكمون إليه في خصوماتهم فيقضي بينهم بالحق والخير، وكان معدوداً من حكماء العرب وأعقلهم.

وكثيراً ما كان يقف فيخطب في سوق عكاظ. وسمعه الرسول ﷺ وأثنى عليه وعاش طويلاً، ومات قبل البعثة بقليل عام ٦٠٠م.

وكان بليغ القول سهل الأسلوب، متخير اللفظ، كثير الحكمة والمثل. سجعته قصير غالب على خطابته، وكلامه على إيجازه بعيد عن اللغو والفضول والحشو، وكان مطبوعاً على الخطابة واللفظ الشريف، والقول الرائع الحكيم وله شعر ماثور. وسيأتي نموذج لخطابته.

٢ - أكتثم بن صيفي التميمي حكيم العرب وقاضيهما، وخطيب من أشهر خطبائها، أدرك بعثة الرسول ﷺ ودعا الناس إلى الإيمان به.

وكان كثير الحكم وضرب الأمثال في خطابته، مصيب الرأي، قوي الحجة ملهماً بالصواب وسداد القول. وكان في خطبه كثير الإيجاز، لا يلتزم السجع ولا يقصده، عميق الفكر، دقيق النظر، قوي الحجة، كثير الإقناع، جميل الأسلوب، حلو الألفاظ.

٣ - عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وهو قحطاني يمني، خطيب شاعر، وفارس مشهور، توفي عام ٢١هـ.

٤ - حاجب بن زرارة التميمي، وعامر بن الظرب العدواني. وقيصة ابن نعيم، وكعب بن لؤي، وهاشم بن عبد مناف؛ وعمرو بن كلثوم. وعبد المطلب بن هاشم وغيرهم.

الوصايا:

الوصايا جمع وصية. والوصية ما توجهه إلى إنسان أثير لديك من ثمرة تجربة وحكمة أو إرشاد وتوجيه. فهي بمعنى النصيحة.

والوصية لون من ألوان الخطابة. قاصر على الأهل والأقارب والأصدقاء. والفرق بينها أن الوصية تكون من المرأة لابتنتها. ومن الرجل لقومه أو أبنائه عند الارتحال أو الشعور بدنو الأجل أو نحو ذلك... والخطابة تكون في المشاهد والمجامع العامة والحروب والمعارك وفي المفاخرة والمنافرة. وفي الوفاة على ملك أو أمير. وفي المواسم والحوادث الجسام.

والوصايا كثيرة في النثر الجاهلي. وتمتاز بجملها وتناسب جملها وأساليبها. وبرقتها وروعيتها. وما يشيع فيها من حكمة. وصدق تعبير. ونفاذ فكر. وبعد نظر. لأنها لا تصدر إلا من حكيم مجرب. أو كبير عرك الحياة. وعركته الحياة.

ومن المشهورين بالوصايا: ذو الأصبع العدواني. ومن وصيته لابنه قوله:

«ألن جانبك لقومك يحبوك. وتواضع لهم يرفعوك. وابسط لهم وجهك يطيعوك. ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك... وأكرم صغارهم. كما تكرم كبارهم... يكرمك كبارهم. ويكبر على مودتك صغارهم».

ومنهم النعمان بن ثواب العبدي الذي يوصي ابنه فيقول:

«يا بني إن الصارم ينبو. والجواد يكبو. والأثر يعفو. فإذا شهدت حرباً فرأيت نارها تسعر. وبطلها يخطر. وبحرها يزخر. وضعيفها ينصر. وجبانها يجسر. فأقلل المكث والانتظار. فإن الفرار غير عار، إذا لم تكن طالب ثار».

ومنهم الأوس بن حارثة الذي يوصي ابنه مالكا فيقول:

يا مالكا المنية ولا الدنية^(١). والعتاب قبل العقاب. والتجلد ولا التبلد^(٢). واعلم أن القبر خير من الفقر. وشر شارب المشت^(٣). وأقبح

(١) النقيصة.

(٢) ضد التجلد أي الجزع.

(٣) المستقي.

طاعم المقتف^(١). والدهر يومان. فيوم لك. ويوم عليك. فإذا كان لك قلا
تبطر. وإذا كان عليك فاصبر. فكلاهما سينحسر.

وأوصت امرأة عوف بن محلم الشيباني ابنتها، حين حملها زوجها
الحارث بن عمرو، ملك كندة، فقالت:

«أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك؛ ولكنها
تذكرة للغافل؛ ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها؛
وشدة حاجتهما إليها؛ كنت أغنى الناس عنه؛ ولكن النساء للرجال خلقن؛
ولهن خلق الرجال.

أي بنية؛ إنك فارقت الجو الذي منه خرجت؛ وخلفت العش الذي
فيه درجت إلى وكر لم تعرفه، وقرين لم تألفه، فأصبح بملكه عليك رقيباً
ومليكاً، فكوني له أمة يكن لك عبداً وشيكاً^(٢).

يا بنية؛ احلمي عني عشر خصال، تكن لك ذخراً وذكرأ: الصحبة
بالقناعة. والمعاشرة بحسن السمع والطاعة. والتعهد لموقع عينه. والتفقد
لموضع أنفه. فلا تقع عينه منك على قبيح. ولا يشم منك إلا أطيب ريح.
والكحل أحسن الحسن. والماء أطيب الطيب المفقود. والتعهد لوقت طعامه.
والهدو عنه عند منامه. فإن حرارة الجوع ملهية^(٣). وتنغيص النوم مبغضة^(٤).
والاحتفاظ ببيته وماله. والإرعاء^(٥) على حشمه^(٦) وعياله^(٧) فإنك إن أفشيت
سره. لم تأمني غدره. وإن عصيت أمره أوغرت^(٨) صدره. تم اتقي - مع

(١) الأخذ بمجلة، وقبل الآتي على ما في الاناء من طعام.

(٢) سريعاً.

(٣) من لمبت كفرح النار أشعلت، أي داع إلى الغيظ.

(٤) أي تدعو إلى البغض وتحمل عليه.

(٥) الإبقاء.

(٦) الخدم.

(٧) نصرأؤه من أهل وجيرة وعبيد.

(٨) وغر صدره كوعد ووجل. أوغر: بفتح العين وسكونها واوغره ملاه غيظاً.

ذلك - الفرح، إن كان ترحا. والاكتئاب عنده إن كان فرحا. فإن الخصلة الأولى من التقصير. والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً. وأشد ما تكونين موافقة. يكن أطول ما تكونين له مرافقة: واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين. حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت - والله بخير^(١) لك^(٢).

المحاورات:

المحاوره هي التهاور والتراجع في الكلام والحديث؛ وهي من ضرورات الاجتماع والحياة.

وكان العرب كثيري المحاوره لكثرة خصوماتهم ومفاخراتهم وتنازعهم على الشرف وسواه.

وتشمل المحاورات: المنافرة والمفاخرة ونحوهما من المحاورات العامة في مختلف شئون الحياة والمعرفة.

فالمفاخرة: هي مصدر فآخر؛ وهي تفاخر القوم بعضهم على بعض وكانوا يفآخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والعز والثروة وكثرة العدد.

والمنافرة هي المحاكمة في المفاخرة، وأصلها من قولهم: أينا أعز نفراً، فهي التحاكم إلى الأشراف. ليفصلوا بينهم ويقضوا بالشرف لأحدهم.

ومن أمثلة المنافرات وأشهرها منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين، وقد تنازعا الرياسة.

قال علقمة: الرياسة لجدي الأحوص وإنما صارت إلى عمك أبي براء

(١) خار الله في الأمر جعل لك فيه خيراً.

(٢) مجمع الأمثال ج ١ : ١٤٣.

من أجله، وقد استسن عمك وقعد عنها فأنا أولى بها منك. وإن شئت نافرتهك.

قال له عامر: قد شئت والله لأنا أشرف منك حسباً وأثبت منك نسباً وأطول قصباً.

قال علقمة: أنا فرك وإني لبر وإنك لفاجر وإني لولود وإنك لعافر.

قال عامر: إني أنشر منك أمة، وأطول قمة، وأحسن لمة، وأبعد همة.

قال علقمة: أنا جميل وأنت قبيح. وأنا أولى بالخيرات منك.

فتنافرا إلى هرم بن قطبة الفزاري. فقال هرم:

يا ابني جعفر: قد تحاكمتما عندي، وأنتما كركبتي البعير تقعان إلى الأرض معاً وتقومان معاً. فرضيا بقوله وانصرفا إلى حييهما.

وفي علقمة يقول الأعشى هاجياً:

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر
إن تسد الخوص فلم تعدهم وعامر ساد بني عامر
ساد، وألفى قومه سادة وكابراً سادوك عن كابر

وقد عمر هرم هذا إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال عمر: أيهما كنت منفراً؟ فقال: يا أمير المؤمنين لو قلتها الآن لعادت جذعة (أي الحرب أو الفتنة) فقال له عمر: إنك لأهل لموضعك من الرياسة.

خصائص الخطابة الجاهلية:

لقد قرأنا بعض النماذج لنوع من أنواع الخطابة وهي الوصايا، ولا بأس من أن نقرأ بعض الألوان التي تمثل الخطابة الخالصة، حتى نستطيع أن نتبين خصائص الخطابة الجاهلية وسماتها وميزاتها.

قال هاني بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذي قار، يحرضهم على

القتال: «يا معشر بكر: هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الإعجاز والظهور- يا آل بكر. قاتلوا فما للمنايا من بد».

وقال قس بن ساعدة في عكاظ:

«أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعباً، سحائب تمور، ونجوم تغور، في فلك يدور، ويقسم قس قسماً إن الله ديناً هو أرضى من دينكم هذا.

ثم قال: ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا؟».

وخطب أبو طالب في زواج الرسول ﷺ بالسيدة خديجة، فقال:

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوباً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله، من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه، برأ وفضلاً، وكرماً وعقلاً، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتكم من الصداق فعلي».

وخطب أكرم بن صيفي في بني تميم حين جاءه خبر النبي صلوات الله وسلامه عليه فقال:

يا بني تميم. لا تحضروني سفيهاً، فإنه من يسمع يخل^(١) إن السفيه يوهن من فوقه، ويشبط من دونه، لا خير فيمن لا عقل له. كبرت سني، ودخلتني ذلة، فإذا رأيتم مني إحساناً فاقبلوه، وإن رأيتم مني غير ذلك

(١) أي من يسمع الشيء ربما ظن صحته أو من يسمع أخبار الناس ومعاييرهم يقع في نفسه المكروه.

فقوموني. ابني إن شافه هذا الرجل مشافهة، وأتاني بخبره وكتابه يأمر فيه بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق.. إن أحق الناس بمعونة محمد ﷺ ومساعدته على أمره أنتم، فإن يكن الذي يدعوا إليه حقاً فهم لكم دون الناس، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه.. ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين.. إن الأول لم يدع للآخر شيئاً، وهذا أمر له ما بعده، من سبق إليه غمر^(١) المعالي، واقتدى به التالي. والعزيمة عزم. والاختلاف عجز^(٢)».

وخطب مرثد الخير الحميري في اثنين تنازعا الشرف حتى تشاحنا. وخيف أن يقع بين حييها شر. فقال لهما:

«إن التخطب وامتطاء الهجاج^(٣) واستحقاب اللجاج^(٤) سيففكما على شفا هوة في توردها بوار الأصيلة^(٥). وانقطاع الوسيلة. فتلافيا أمركما قبل انتكاش العهد. وانحلال العقد، وتشتت الألفة. وتباين السهمة^(٦). وأنتما في فسحة رافهة^(٧). وقدم واطدة. فقد عرفتم أبناء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، واصغى إلى التقاطع^(٨)».

وقال المأمور الحارثي.

«طمح^(٩) بالأهواء الأشر^(١٠) وران^(١١) على القلوب الكدر. وطخطن^(١٢)

(١) غمر: غطى.

(٢) مجمع الأمثال ج ٢.

(٣) يقال امتطى: أي ركب رأسه.

(٤) الاحتقاب من الحقية أو الحقاب وهو حزام المرأة والمراد: اصطحاب اللجاج.

(٥) أي في ورودها هلاك الجميع.

(٦) السهمة: القرابة.

(٧) ناعمة.

(٨) راجع الخطبة في الأمالي ج ١ ص ٩٢.

(٩) ارتفع وعلا.

(١٠) البطر وكفر النعمة.

(١١) اشتد.

(١٢) أظلم.

الجهل النظر. . إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر، أرض موضوعة. وساء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب. ونجوم تسري فتغرب. وقمر تطلعه النحور^(١). وتمحقه أدبار الشهور. وعاجز مثر، وحول^(٢) مكد^(٣) وشاب مختضر^(٤) ويفن^(٥) قد عبر^(٦) وراحلون لا يثوبون وموقوفون لا يفرطون^(٧). ومطر يرسل بقدر. فيحيي البشر، ويورق الشجر. ويطلع الثمر، وينبت الزهر. وماء يتفجر من الصخر الأير^(٨). فيصدع المدر^(٩) عن أفنان الخضر، فيحيي الأنعام، ويشبع السوام^(١٠) وينمي الأنعام. إن في ذلك لأوضح الدلائل، على المدبر المقدر، البارئ المصور، يا أيتها العقول النافرة. والقلوب النائرة^(١١)؛ أنى تؤفكون^(١٢)؛ وعن أي سبيل تعمهون^(١٣)؟، وفي أي حيرة تهيمون^(١٤)! وإلى أي غاية ترفضون^(١٥)! لو كشف الأغشية عن القلوب، ونجست الغشاوة عن العيون، لصرح^(١٦) الشك عن اليقين. وأفاق من نشوة الجهالة، من استولت عليه الضلالة.

١ - ويتضح لنا من استعراض ما وصل إلينا من خطب الجاهليين، أنها

(١) أوائل الشهور.

(٢) شديد الاحتيال.

(٣) فقير، من أكدى الرجل أخفق أو افتقر.

(٤) عصفور.

(٥) شيخ كبير.

(٦) بقى.

(٧) يسبقون، وفوطه كضربة تقدمه إلى المورد.

(٨) الصلب.

(٩) الطين العلك.

(١٠) المال الراعي كالسائمة وجمعها سوائم.

(١١) النائرة، من نارت تنورا: نفرت من العيب.

(١٢) تصرفون.

(١٣) تتحIRON.

(١٤) هام: ذهب لا يدري أين يتوجه.

(١٥) تسرعون.

(١٦) انكشف بعد خفاء.

تتسم على العموم بالجزالة والفصاحة والقوة وشدة الأسر، فلا تحس ركاقة ولا تلمس ضعفاً، ولا تجد لحناً، لأن الفطرة كانت سليمة خالصة لم تشبها بعد عجمة، ولا يضعفها اختلاط.

٢ - ونلاحظ أن ألفاظها تارة تأتي سهلة لينة كما ترى في خطب قس، وأبي طالب وأكثم بن صيفي، وتارة تحيء وحشية غريبة تظهر فيها آثار البادية واضحة جلية كما رأينا في خطبة مرثد الخير «إن التخبط وامتطاء الهجاج، واستحقاب اللجاج.. الخ» وكما في خطبة المأمور..

٣ - ولم يكن الجاهليون يتأفقون في اختيار اللفظ ذي النغمة المتشابهة أو الجرس المتآلف، وكانوا لا يقصدون إلى المحسنات البديعية أو يتعمدونها، ويقل الترادف في نثرهم، إذ كانوا يؤثرون الإيجاز في كلامهم.

٤ - وتمتاز هذه الخطب بوضوح المعاني وقربها وصدقها، كما رأينا، لأنها تمثل حياتهم البسيطة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا التواء، فهم لا يبالغون ولا يهولون، وإنما يعبرون عما يشعرون به في بساطة ودون تكلف. فمتى فهم اللفظ اتضح معناه دون معاناة في فهمه.

٥ - ويغلب على الخطب الجاهلية السجع كما رأينا في خطبه هاني بن قبيصة «هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر.. الخ» وكما في خطبة قس «من عاش مات، ومن مات فات.. الخ، وكان قس هذا يلتزمه، وكما في خطبة المأمور «طمح بالأهواء الأشر، وران في القلوب الكدر.. الخ» وقد التزم السجع فيها كلها. وأحياناً تحيء مرسله أو مترددة بين الإرسال والازدواج أو السجع كما ترى في خطبة أبي طالب «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل... الخ» ويتجلى الازدواج أو السجع المزدوج في خطبة مرثد الخير «.. في توردها بوار الأصيلة، وانقطاع الوسيلة.. الخ».

٦ - ويشيع في النثر الجاهلي قصر الجمل، والإيجاز، وإيثار الكناية

القرية على التصريح، وتكثر فيها الحكم والأمثال كما رأينا في معظمها، وقد تأتي الخطبة كلها حكماً وأمثلاً كخطبة هاني بن قبيصة المذكورة، وكما في بعض خطب أكرم بن صيفي.

٧- ونلاحظ على الخطب الجاهلية ضعف الربط وعدم التماسك بين الجمل، وعدم وحدة الموضوع في بعض الأحيان كما في الوصايا، ولعل ذلك راجع إلى الارتجال الذي تتسم به حياتهم، وإلى كثرة الحكم والأمثال التي تشيع في خطبهم والتي لا يمكن الربط بينها، فإننا لو قدمنا بعضها وأخرنا البعض لم يخل المعنى ولا نظام الخطبة.

٨- وأخيراً تتسم الخطب الجاهلية بقوة التأثير وحرارة العاطفة. وهكذا تتجلى خصائص الخطب والوصايا الجاهلية. وهما أهم مظهر للنثر الجاهلي.

سجع الكهان:

وينبغي أن نشير إلى لون آخر من ألوان النثر الجاهلي، ونعني به ذلك السجع الذي كان الكهان يلتزمون به. ويحتشدون له، ويؤثرونه على كل أسلوب ويتكلفون فيه. للتأثير على الناس، والتعمية في الجواب.

والكهانة هي الإخبار عن الأمور المغيبة ماضية كانت أو مستقبلية. وكان في العرب كهان. ولهم فيهم اعتقاد... ومن أشهرهم: سطيح. وشق وطريفة الخير. وفاطمة الخثعمية^(١).

وكان العرب يفزعون إلى كهانهم في كل ما يطرأ عليهم من أمر. أو يستعصي عليهم من مشكلات وأزمات وشدائد، ويستطبونهم في الأدواء.

وكانت الكهانة منتشرة في الجاهلية قبيل البعثة.. وتدور غالباً حول التبشير بنبي يبعث. وتفسير الرؤى. ومعرفة ما أشكل من الأمور. أو خفي من الحوادث.

(١) كانت فاطمة بمكة ولها قصة مع عبدالله والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل زواجه بآمنة.

والكهانة الصادقة على أي حال نوع من الفراسة والإلهام وصدق الحس وصفاء الروح. . وكثيراً ما نرى ذلك حتى اليوم.

ويقول الجاحظ: «كان كهان العرب يتحاكم إليهم أكثر الجاهلية، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رثيا من الجن^(١)».

وكان كلام هؤلاء الكهان في نبوءاتهم يدور حول ما يستفتون فيه من مسائل ومشكلات مما سبقت الإشارة إليه. وكان هذا الكلام كله مسجوعاً. وكان الكهان يعتمدون فيه على الإغراب للتعمية في الجواب.

ومهما يكن من شيء فإن حرفة الكهانة في ذلك العصر قد أثمرت ضرباً طريفاً من الخطابة كان يتكىء على السجع والتوقيع، كما كانت تكثر فيه الأقسام. والألفاظ الغريبة ويتسم بقصر الجمل غالباً.

وقد روي أن النبي ﷺ نهى عن سجع الكهان، وذلك لمكانه من التكلف والإغراب. والغموض. وبعده عن الصدق. وادعائه المشاركة في علم الغيب.

ومن الكواهن والكاهنات: زبراء. وشق أثمار. وسطيح الذئبي. قالت زبراء تنذر قومها. وتنبتهم بمباغثة عدوهم لهم:

«واللوح الخافق^(٢). والليل الغاسق^(٣). والصبح الشارق^(٤). والنجم الطارق^(٥) إن شجر الوادي ليأدوختلا^(٦). ويحرق أنياباً عصلا^(٧). وإن صخر

(١) ١٩٥ ج ١ البيان والتبيين.

(٢) اللوح بضم اللام: الهواء بين السماء والأرض، الخافق: المضطرب.

(٣) الغاسق: المظلم شديد الظلام.

(٤) شرقت الشمس من باب قعد. طلعت، وأشرقت: أضاءت، وقيل هما بمعنى واحد، والمراد المضيء.

(٥) الطارق نجم يقال له كوكب الصبح.

(٦) يادو: يميل، ختلا: خداعاً.

(٧) يحرق كينصر ويضرب يحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت، وعصل جمع أعصل وهو الناب المعوج في صلابته.

الطود لينذر ثكلا. لا تجدون عنه معلا^(١)...^(٢).

وقد اتفق شق أنمار^(٣) وسطيح الذئبي^(٤) في تعبير الرؤيا لربيعه بن نصر اللخمي أحد ملوك العرب، حيث أخبراه باغارة الحبشة على بلاد اليمن.

قال سطيح: «أحلف بما بين الحرتين من حبش ليهبطن أرضكم الحبش، ويمكن ما بين أبين إلى جرش».

وقال شق: «أحلف بما بين الحرتين من إنسان، ليهبطن أرضكم السودان وليملكن ما بين أبين إلى نجران».

وفي كتب الأدب صور كثيرة للكهانة تدل على حذق الكهان وبراعتهم في معرفة طوايا النفوس والكشف عن خبايا الأمور، ومن ذلك ما يرويه صاحب الأغاني:

«كانت هند بنت عتبة، عند الفاكه بن المغيرة، وكان الفاكه من فتيان قريش. وكان له بيت للضيافة بارز يغشاه الناس من غير إذن. فخلا البيت ذات يوم فاضطجع هو وهند فيه. ثم نهض لبعض حاجته. فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت. فوجه. فلما رآها رجع هارباً، وأبصره الفاكه. فأقبل إليها فضر بها برجله. وقال: من هذا الذي خرج من عندك؟ قالت: ما رأيت أحداً ولا انتبهت حتى أنبهتني: فقال لها: ارجعي إلى أمك. وتكلم الناس فيها، وقال لها أبوها: يا بنية. إن الناس قد أكثروا فيك. فأنبئنا نبأك. فإن يكن الرجل صادقاً. دسست عليه من يقتله. فتقطع عنك المقالة، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت: لا والله ما هو بصادق، فقال له يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم. فحاكمني إلى بعض كهان اليمن.

(١) معلا: بدا.

(٢) راجع كلام زبراء في الأمالي ١ ص ١٢٦.

(٣) يقولون أن شقا هذا كان نصف إنسان له عين واحدة ويد ورجل واحدة.

(٤) يقولون أن سطيحا كان بدرج كما بدرج الثوب لا عظم فيه إلا الجمجمة وأن وجهه كان في صدره.

فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم. وخرج عتبة في جماعة من عبد مناف ومعهم هند ونسوة. فلما شارفوا البلاد. وقالوا: غداً نرد على الرجل تنكرت حال هند. فقال لها عتبة. إني أرى ما حل بك من تنكر الحال. وما ذاك إلا لمكروه عندك. قالت: لا والله يا أبتاه. ما ذاك لمكروه ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب، ولا آمن أن يسمني ميسماً يكون علي سبة. فقال لها إني سوف أختبره لك. ثم أدخل في إحليل فرسه حبة بر، وأوكأ عليها بسير. فلما قدموا على الرجل أكرمهم ونحر لهم. وقال له عتبة: جئنك في أمر وقد خبأت لك خبثاً اختبرك به، فانظر ما هو قال ثمرة في كمره. قال: أوضح. قال حبة بر، في إحليل مهر، قال صدقت انظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهن، فيضرب بيده على كتفها ويقول: انهضي. حتى دنا من هند، فقال لها: انهضي غير رسحاء^(١) ولا زانية، ولتلدن ملكاً يقال له معاوية، فنهض إليها الفاكه، فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده، وقالت إليك عني، فوالله لأحرصن أن يكون ذلك من غيرك، فتزوجها أبو سفيان».

* * *

وفي الاتصال السمعي اتسم الأدب بالعاطفية، ذلك لأن الكلمة المنطوقة عاطفية أكثر من الكلمة المكتوبة. وكانت طريقة تنغيم الكلمات تنقل الغضب أو الأسى أو الموافقة أو الرعب أو السرور أو التهكم إلى ... ولكن الكتابة وضعت نهاية للكلام حيث جعلت دورة الحضارة تبدأ، فالخروف الهجائية جعلت عالم الأذن السحري يستسلم لعالم العين المحايد ولقد كانت الكتابة العربية معروفة قبل ظهور الإسلام بقليل ولكنها لم تكن شائعة، إذ أن الروايات تذهب في بعض الأحيان إلى حصرها في أفراد قلائل، ولذلك كان «اللسان»، والذاكرة هما أساس الإبداع الأدبي، في حين لم تكن الكتابة أو التدوين مجرد تحليل صوتي للكلام فحسب، وإنما كانت رمزاً للمواقع الذي

(١) الرسحاء: قليلة لحم العجز والفخذين.

نريد تصويره وأكثر من ذلك هي محاولة لمزج العالم بهدف السيطرة عليه وإعادة إبداعه من جديد عن طريق السيطرة على الكلمة وخلقها^(١).

ولعله من أجل هذا خلق النثر مع الكتابة، ولا نعني بالنثر الحديث أو الأمثال أو الخطابة وإنما ذلك الضرب من التعبير الذيمن شأنه أن يخرج الإنسان من «سلطان الذاكرة» ويحفزه على التصدي إلى «الذاكرة المنشدة»..

النثر الفني في الأدب الجاهلي:

وكذلك نجد أن الأدباء يختلفون في النثر الفني: هل وجد في العصر الجاهلي أو لم يوجد إلا بعد العصر الجاهلي؟ وتضطرب أراؤهم في ذلك اضطراباً كثيراً:

أما أدباء العربية المتقدمون، والكثير من الأدباء المعاصرين أيضاً، فيؤمنون بأن العصر الجاهلي عرف النثر الفني معرفة كبيرة، ويقولون إن العرب في ذلك العهد كانت لهم صور كثيرة من النثر الفني، وكانوا يجيدون هذا الفن الأدبي لإجادة بالغة.

ودليلهم على وجود النثر الفني في الجاهلية هو:

١ - أنه كان عند كثير من الأمم القديمة كالفرس والهنود وقدماء المصريين نثر فني قبل الميلاد بقرون كثيرة، فلم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون؟.

٢ - نزول القرآن الكريم يوجب الحكم بأن العرب في جاهليتهم كان لهم نثر فني، وكانوا يجيدونه ويبلغون فيه غاية البيان والفصاحة، وإلا فكيف يتحداهم الله عز وجل بفن من البيان لم يعرفوه؟.

٣ - بقاء بعض صور من النثر الفني للعرب الجاهليين في مصادر الأدب

(١) البشير بن سلامة: اللغة العربية ص ٤٠.

العربي وأمهات كتبه، من خطابة جيدة، ونصائح بليغة. وإن كان الكثير من النثر الجاهلي قد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة، والنثر أحوج إلى التدوين بالكتابة من الشعر، لأن الشعر يسهل حفظه في الصدور؛ وتعين القافية والوزن على تصحيحه وروايته. أما النثر فيشق حفظه ويصعب تناقله. ولم تكن الكتابة معروفة في الجاهلية إلا للقليل من الناس الذين كانوا يستخدمونها لأغراض سياسية وتجارية لا لأغراض أدبية^(١) والسبب في ذلك أمية العرب وبداءتها وأنها لم تكن أمة ذات حضارة أو ثقافة فكرية واسعة. ولذلك كان أكثر أدها ارتجالاً وما يشبه الارتجال.

يقول الجاحظ: وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام. وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجابة فكرية. وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام. وإلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد. فتأتيه المعاني أرسالاً، وتثال عليه الألفاظ انثيالاً. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر، وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطبائهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر^(٢).

٤ - والدليل الرابع على وجود النثر الفني في العصر الجاهلي هو وجود صحائف من الكتب الدينية عند بعض طبقات العرب، من اليهود والنصارى ودعاة الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل.

أما المستشرقون فيرون أن النثر الفني لم يعرفه عرب الجاهلية. ولم يشهده عصر صدر الإسلام. وإنما نشأ على يد ابن المقفع م ١٤٣هـ في صدر العصر العباسي الأول، ومن ذهب إلى ذلك: المسيو مرسية الفرنسي^(٣)، والمستشرق جب الإنجليزي وغيرهما.

(١) ص ٥ الفن ومذاهبه في النثر العربي - د. شوقي ضيف.

(٢) ج ٢١ البيان والتبيين للجاحظ - الطبعة الثانية.

(٣) راجع ص ٢٣ ج ١ النثر الفني لزكي مبارك.

ويؤيد ذلك بعض الباحثين المعاصرين^(١). كالدكتور طه حسين، ويدعمون ذلك بأدلة منها:

١ - أن عيشة العرب الأولين لم تكن توجد النثر الفني لأنه لغة العقل. على حين سمحت بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال.

٢ - عدم انتشار الكتابة في العصر الجاهلي، وهي عماد النثر الفني.

٣ - والقرآن - الذي يستدلون به على معرفة الجاهليين للنثر الفني، ووجوده عندهم - لا يصح عده من النثر كما لا يصح جعله شعراً. لأنه غلط أدبي مستقل ليس له شبيه في الآثار الأدبية.

يقول الدكتور طه: «والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال - مهما نحصر على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي - أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فني^(٢). فالعصر الجاهلي لم يكن له نثر بالمعنى الذي حددته.

ومع ذلك فقد كان له نثر خاص، لم يصل إلينا: لضعف الذاكرة وخلوه من الوزن. وهذا النثر هو الخطابة^(٣) فأول القرن الثاني للهجرة هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية. وهو الذي شهد مظهر الحياة العقلية وهو نشأة النثر الفني^(٤).

والحق أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم. وحدة تفكيرهم، ولكنه ضاع لأسباب منها: شيوع الأمية. وقلة التدوين.

(١) يتفق هؤلاء مع المستشرقين في إنكار وجود النثر الفني عند العرب في الجاهلية، ولكنهم يختلفون معهم في تحديد مبدأ نشأة النثر الفني في الأدب العربي فليس ابن المقفع هو أول من ظهر النثر الفني على يديه كما يرى المستشرقون ولا ما عرفه الأدب العربي في أول القرن الثاني الهجري كما يرى هؤلاء المعاصرون من أدباء العربية.

(٢) ٣٠ و ٣١ من حديث الشعر والنثر لطله حسين.

(٣) ص ٣٢ المرجع نفسه.

(٤) ص ٤٩ المرجع نفسه.

وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام. والقرآن الكريم شاهد صدق على وجود النثر الفني قبل الإسلام. ويعطي فكرة عامة عن ازدهاره وقوته في هذا العصر الجاهلي. وما يقال من أنه ليس نثراً مغالطة لا تجوز على عقل.

وأغلب الظن أن هؤلاء الذين يجعلون نشأة النثر الفني على يدي ابن المقفع إنما يريدون إسناد ذلك الفضل لأثر وراثته الفارسية. وأن أدبنا العربي مدين في ذلك للعقلية الفارسية. وهذه شعوبية حديثة نرى مظهرها واضحاً في إنكار فضل العرب. ونسبة كل مكرمة أدبية أو غير أدبية لغيرهم من العناصر الأجنبية... ثم إن الكتابة إنما يحتاج إليها النثر الفني في تدوينه لا في نشأته كما يسلم بذلك العقل.

ونخلص من ذلك كله إلى إثبات رأينا الذي رأيناه. وهو أن النثر الفني وجد قبل الإسلام وقبل اتصال العرب الثقافي بالفرس واليونان بأمد طويل.

ولنوضح أخيراً موقف الدكتور طه من النثر الجاهلي، يرى الدكتور:

١ - أنه لم يعرف الجاهليون النثر الفني، وإنما عرفوا ألواناً أخرى من النثر، من أسجاع، وأمثال، وخطابة لم تكن شيئاً ذا غناء^(١) وسجع كهان^(٢). وهذه بينها وبين النثر الفني بون بعيد.

٢ - ويرفض الدكتور قبول ما ينسب لعرب الجنوب من نثر، من شتى هذه الأنواع النثرية المروية لأن النثر إنما جاء بلغة قريش التي لم يكن لعرب الجنوب بها علم. ولأنهم كان لهم لغة معروفة كتبوها وتركوا لنا فيها نصوصاً منشورة كشفها المستشرقون وهي لا توافق لغة قريش في شيء. فكل ما يضاف إلى اليمينيين من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة في الجاهلية عند الدكتور منتحل. أما عرب الشمال فيرى رفض ما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب

(١) يرى الدكتور أن الخطابة فن إسلامي خالص ويقول لا تصدق أنه قد كانت للعرب في الجاهلية خطابة ممتازة إنما استحدثت الخطابة في الإسلام (ص ٣٧٤ الأدب الجاهلي).

(٢) راجع ٣٧٢ - ٣٧٥ الأدب الجاهلي لطف حسين ط ١٩٢٧.

العراق والبحرين والجزيرة من نثر ويتردد فيما ينسب منه إلى مضر، ويرى أن الكثير منه متحلل^(١).

ونحن لا نوافق الدكتور على ما ذهب إليه: من إنكار وجود النثر الفني في الجاهلية ولا من التهوين من شأن الخطابة الجاهلية، وإن كنا نسلم معه بأن بعض النصوص الأدبية من النثر الجاهلي قد انتحلت بعد الإسلام.

المعلقات:

أما المعلقة؛ فإنها أثر من آثار الانتقال من حضارة الاتصال السمعي إلى حضارة الاتصال التدويني.. ذلك أنه كان فيما أثر من أشعار العرب، ونقل إلينا من تراثهم الخافل، بضع قصائد من أجود الشعر وأدقه معنى، وأوسع خيالا، وأبرعه أسلوباً وأسمحه لفظاً، وأعظمه معنى، وأمدده قافية، وأصدقها تصويراً للحياة التي كان يحياها العرب في جاهليتهم وقد سميت هذه القصائد بالمعلقات.

وهذه القصائد هي على المشهور المتداول:

١ - قصيدة امرئ القيس وأولها:

قفنا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٢ - قصيدة زهير بن أبي سلمى وأولها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدراج فالتثلم

٣ - قصيدة طرفة بن العبد ومطلعها:

لخولة أطلال بركة ثهد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

(١) راجع ص ٣٦٩ من الأدب الجاهلي وما بعدها.

٤ - طويلة عنتره وأولها:

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

٥ - قصيدة عمرو بن كلثوم ومطلعها:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا
ولا تبقي خمور الاندرينا

٦ - قصيدة لبید وأولها:

عفت الديار محلها فمقامها
بني تأبد غولها فرجامها

٧ - طويلة الحارث بن حلزة ومطلعها:

آذنتنا ببينها أسماء
رب ثاو يمل منه الثواء
هؤلاء الشعراء كلهم جاهليون ما عدا لبیداً فإنه من المخضرمين،
وبعض الأدباء يجعله جاهلياً وبعضهم يسقط من هؤلاء عنتره والحارث،
ويثبت الأعشى وقصيدته:

ما بكاء الديار بالأطلال
وسؤالي وما ترد سؤالي

والنابغة في قصيدته:

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار
ماذا تحيون من نسوي وأحجار؟

ويجعل بعضهم منها طويلة الأعشى، وهي مدحته للنبي ﷺ:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وبت كما بات السليم مسهدا

وطويلة النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالف الأمد

وبعضهم يجعل منها قصيدة عبيد:
أقصر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب
وبعض الرواة يرى أن المعلقات ثمان ويجعلها بعضهم عشراً ويعد منها
قصيدة الأعشى «ودع هريرة».

على أن المختار أنها سبع، ولعل منشأ الزيادة أن بعض الرواة كان يرى
فيها يضيفه من القصائد ملامح التقديم وسماه الترجيح على بعض ما اختير
فيضيفها من نفسه. وليس أدل على ذلك من اختيار قصيدة (ألم تغتمض
عيناك) وادعاء أنها من المعلقات وهي إسلامية أنشدت للنبي ﷺ وهي مما
لا ينطبق عليها خبر التعليق بحال فلم يعرف أنها علقت على الكعبة، أو قال
ملك: علقوا لنا هذه.

لم سميت هذه القصائد معلقات؟

يرى بعض المتقدمين من أدباء العرب أن هذه القصائد التي جمعها حماد
الراوي سميت المعلقات لأنها علقت على الكعبة تعظيماً لأمرها وتنبيهاً على
خطورها، ودلالة على مكانها من الفضل، ومنزلتها من الرفعة، وجلالة الشأن
ونفاسة القيمة.

ومن هؤلاء أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد فإنه قال: «الشعر
ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها والشاهد على
أحكامها، حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى
سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي
الدرجة، وعلقتها في أستار الكعبة فمنه يقال: مذهبة امرئ القيس ومذهبة
زهير، والمذهبات سبع، وقد يقال لها المعلقات»^(١).

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١١٦.

ومن قوله هذا ترى أن الاسم الأجدر بها عنده هو المذاهب لأنها تكتب بماء الذهب في القباطي، وأن تسميتها انتزعت من تعليقها على الكعبة... وابن رشيق في كتابه العمدة يحتج بتعليقها على الكعبة وإن كان يحكي الرأي الآخر القائل إنها لم تعلق على الكعبة.

يقول ابن رشيق: وكانت المعلقات تسمى المذاهب وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة، لذلك يقال مذهب فلان إذا كانت أجود شعره، ذكر ذلك غير واحد من العلماء، وقيل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر قال: علقوا لنا هذه لتكون في خزانته^(١).

ويقول ابن خلدون: «إن العرب كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم، كما فعل امرؤ القيس والنابعة وزهير وعنترة وطرفة وعلقمة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع. فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعصبته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات»^(٢).

فابن خلدون يرى أنها سميت كذلك لتعليقها بأركان البيت الحرام وإن كان يبدو من عبارته أن الذي علق أكثر من هذه السبع، ولعله يرى أن هذه السبع أنفس وأروع ما علق. بيد أنا نختلف مع ابن خلدون في أن الذي يتوصل إلى التعليق من له قدرة على ذلك بقوته وعصبته ومكانه في مضر، فإن الذي يبدو فيما أثر من الشعر الذي علق أنه يعتمد لذلك على قوته الذاتية ومكانته الأدبية لا على حمية وعصبية.

ويرى البغدادي صاحب خزانة الأدب أنها سميت معلقات لتعليقها على الكعبة، يقول: «كان العرب في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبا به ولا ينشده أحد. حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قریش

(١) العمدة ج ١ ص ١٦١.

(٢) المقدمة ص ٥١١.

فإن استحسنوه روي وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب، قال أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤هـ) كانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش^(١).

والمؤرخ الفرنسي (سيدوي) يوافق هؤلاء الأدباء في التعليق على الكعبة ويرى أن المعلقات أنشدت في الأسواق، وبعد اختيارها وقبولها علقت على الكعبة، بعد أن كتبت بالذهب على نفيس القماش ليطلع عليها الذرية^(٢).

وأنكر بعض الأدباء تعليقها على الكعبة وحجتهم في ذلك:

١ - أن خبر التعليق وصل إلينا مبهم غامضاً لم يبين كيفية التعليق ولا زمانه ولا يكشف عن الذين كتبوها أو الملوك الذين أمروا بتعليقها أو الحكام الذين حكموا لها بالقوة والتقدم.

٢ - وأن الكعبة قد هدمت وجدد بناؤها على عهد رسول الله ﷺ ولم يذكر شيء عن هذه المعلقات ولا عما أصابها.

٣ - وأن العرب ما كان لهم أن يدينسوا الكعبة بما كان يشيع في هذه القصائد من فسوق وهجر وفحش وهم الذين يعظمونها ويحجون إليها.

٤ - وأن الأشعار الجيدة التي أثرت للعرب كثيرة فلماذا لم يؤثر خبر التعليق إلا لهذه القصائد؟

٥ - وأنها لو علقت لظلت معروفة لم يتطرق إليها اختلاف في عددها، أو في رواية أبياتها.

وزعيم هؤلاء أبو جعفر النحاس أحد شراح المعلقات فهو يقول: «إن خبر تعليقها على الكعبة لا يعرفه أحد من الرواة، وإن حماداً حين رأى صدوف الناس عن الشعر وزهدهم فيه جمع لهم هذه القصائد السبع وقال:

(١) خزنة الأدب ج ١ ص ٨٧.

(٢) خلاصة تاريخ العرب لسيدوي.

هذه هي المشهورات، فسميت القصائد المشهورة، ويرى أن تسميتها بالمعلقات يرجع إلى أن الملك كان إذا استحسّن قصيدة قال: «علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي». وابن النحاس يرى أنها كتبت وعلقت وإن كان ينكر تعليقها على الكعبة ثم لا يذكر من هو الملك الذي كان يستحسن القصيدة ويأمر بتعليقها في خزانته، ولعله النعمان بن المنذر الذي كان لديه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به، كما يقول ابن سلام^(١).

ويرى المستشرق الألماني (نولدكي) إنها لم تعلق على الكعبة كما يقال، وأن المعلقة معناها المنتخبات، وإنما سماها جماعة بهذا الاسم تشبيهاً لها بالقلائد التي تعلق في النحور، واستدل على ذلك بأن من أسائها السموط، ومن معاني السموط القلائد.

ويرى هذا الرأي كذلك الأستاذ الفرنسي (كليمان هيار) مؤلف كتاب «الأدب العربي».

ويرى الأستاذ الشيخ أحمد الإسكندري أن السبب في تسميتها بالمعلقات أن العرب لم تكن تكتب في دفاف، وأنها لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدفأ، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من الأرضة أو نحو ذلك يوم تطوي الساء كطي السجل للكتب^(٢)، إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذي كان يعلق الكتب أو يطويها، لعله كان يستعمل مثل هذا العود في طي الكتاب وتعليقه... ولو صح هذا لما اقتصر أمر التعليق على هذه القصائد فقط بل كان كل شاعر يحرص على أدبه ويحتفظ بشعره يلجأ إلى مثل هذا الصنيع.

ويحمل الأستاذ المرحوم مصطفى الرافعي حملة قوية عنيفة على خبر

(١) طبقات الشعراء ١٧.

(٢) سورة الانبياء الآية ١٠٤.

تعليقها على الكعبة ويقول ص ١٨٨ ج ٣ «ولم نر أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ولا سمى تلك القصيدة بهذا الاسم كالجاحظ والمبرد وصاحب الجمهرة وصاحب الأغاني، مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم نثراً وأبياتاً منها، وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغاني المتوفي سنة ٣٥٦ هـ أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً بسوق عكاظ وقام بها في موسم مكة فلو كان خبر التعليق صحيحاً لما ضره أن يقول فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة».

ومن العجيب أن يدعي المرحوم الرافعي أنه لم ير أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق، مع أن ابن رشيق يقول: «إن خبر تعليقها على الكعبة ذكره غير واحد من العلماء».

(ح) هذا وقد رأينا فيما نقلنا من أقوال المعارضين لخبر التعليق حملة قوية عنيفة عليه... والأمر فيما نرى أهون من أن نحمي له هذه الحمية ونحتشد في سبيل دفعه هذا الاحتشاد..

فالعرب كان من عادتهم إذا أرادوا أن يوثقوا أمراً أو يؤكدوا عهداً كتبوا به كتاباً وعلقوه في جوف الكعبة تعظيماً لشأنه. أليسوا قد تعاهدوا أو اتفقوا على مقاطعة بني هاشم فلا ينكحونهم ولا يبيعونهم ولا يتعاون منهم وكتبوا بذلك وثيقة ثم علقوها في جوف الكعبة توكيداً لهذا الأمر على أنفسهم؟ وما الذي كان يمنعهم من تعليق هذه القصائد وهم يرونها كتابهم الخالد وأسفارهم التي تنطق بمجدهم وتعلن عن مناقبهم وتشيع بين الأنام مفاخرهم؟ ولقد كان ابن عباس يجلس في مسجد الرسول ﷺ يسمع إلى شعر عمر بن أبي ربيعة مع ما فيه من غزل لا يقل عن غزل امرئ القيس. وهذا عمر بن الخطاب ينكر على حسان إنشاده الشعر في مسجد رسول الله ﷺ فيقول له: دعني فلقد كنت أنشد فيه من هو خير منك فلا يغير علي شيئاً.

ولو كان يؤخر هذه الطوال عن تعليقها عندهم ما يبدو فيها من فحش وما يشيع من فجور، لأخرها ذلك عن الشهرة وعاقها عن الانتشار وخاصة

عند اشرافهم وعقلائهم والمتوفرين منهم، وليس بمعقول أن يدعي حماد الراوية أنها علقت ليلفت الناس إليها ويدلهم على مكانها من البيان ومنزلتها في البلاغة بمثل هذه الدعوى، فإن ما تتسم به من إشراق وإبداع وسمو كفيل بجعل القلوب تعلق بها والأنظار تلتفت إليها.

ولقد أنكر بعض الأدباء صحة نسبة القصائد لقائلها وادعى أنها منحولة وضعها أمثال حماد وخلف الأحمر. وهو شك لا يقوم عليه دليل ولا يسنده برهان من نقل أو تاريخ أو تفكير سليم. فقد يستسيغ العقل أن تنحل أبيات قصيدة أو قصيدتين لشاعر، أما أن تنحل مثل هذه القصائد كلها وتنسب إلى هؤلاء الشعراء فأمر يرفضه العقل ويأباه المنطق الصحيح.

والذي نستطيع أن نخلص إليه من كل هذه المعارك أن هناك قصائد سبعاً أجمع الرواة على فحولتها وقوتها وارتفاعها عن جميع ما أثر العرب من شعر وجمع لهم من قصيد، وأنهم سموا هذه القصائد الطوال أو المعلقات أو المدهبات أو السموط.

ولقد شرح هذه القصائد أبو بكر البطليوسي المتوفي سنة ٤٩١هـ، وأبو جعفر بن النحاس المتوفي سنة ٣٣٨هـ، وأبو علي القالي المتوفي سنة ٣٥٦هـ، وأبو زكريا بن الخطيب التبريزي المتوفي سنة ٥٠٢هـ، والدميري صاحب حياة الحيوان، والزوزني المتوفي سنة ٤٨١هـ، وهي مشروحة في كتاب الجماهرة.

والناظر في هذه القصائد يروعه ما تمتاز به من قوة السبك، وتلاحم النسيج، وجودة الصوغ وحسن العبارة ولطف المعنى وسمو الأسلوب وتصويرها الرائع لحياة العرب، وما كان يخامرها من أحداث، ويتخللها من وقائع.

كما تمتاز بطولها الذي لم يعهد في قصائد الجاهليين وتعدد أغراضها وتنوع مناحيها واشتغالها على كثير من المعاني التي قل أن تحتشد في غيرها من القصائد فمنزلتها من الشعر الجاهلي عامة في أعلى مكان وأسمى منزلة، وأرفع ذروة.

ومن ذلك يتضح أن الأدب في الحضارة السمعية يعتمد على الاتصال الشخصي الذي يتميز بالتفاعل والتبادل بين المرسل والمستقبل، بمعنى أن

الأدب في هذه الحضارة، مزدوج الاتجاه، فيه ارسال واستقبال، في حين أن الأدب في عصر الاتصال الجماهيري يسري في نمط ذي اتجاه واحد من المرسل إلى المستقبل. وهنا تنطبق صفة الأعلام أو نقل التجربة الأدبية من جانب واحد إلى الجانب الآخر كما تنطبق عليه العبارة الإعلامية المشهورة «من يقول - ماذا - لمن - بأية وسيلة - وما هو الأثر أو النتيجة؟».

ولقد ظلت الحضارات تتداخل في بعضها البعض، فإننا في العصر الأموي مثلاً، سنجد إلى جانب حضارة التدوين آثار الحضارة السمعية في الأدب وفي اتصاله بالجمهور، ومن ذلك مثلاً أن الأسواق الأدبية؛ ظلت مزدهرة على الرغم من بداية ازدهار حضارة التدوين وذلك من غير شك، أثر من آثار حضارة الاتصال السمعي فقد كان هناك سوق المربد بالبصرة، ولهذا المربد^(١) أثر غير قليل في اللغة والأدب والشعر في العصر الأموي، ولا بأس بالإطالة هنا في حديثه.

هو ضاحية^(٢) من ضواحي البصرة، في الجهة الغربية منها مما يلي البادية

(١) هو على وزن منبر ومقود من ريد بالمكان إذا أقام فيه، وفي الحديث أن موضع مسجد رسول الله كان مربداً لتيامين في حجر معاذ بن عفراء فجعله للمسلمين فبناه الرسول مسجداً، وفي شعر الفرزدق:

عشية سال المربدان كلاهما عجاجة موت بالسيوف الصوامر

ثناه مجازاً لما يتصل به من مجاوره، وقد يجوز أن يكون سمي كل واحد من جانبيه مربداً، وقال الجوهري: عنى به سكة المربد بالبصرة، والسكة التي تليها من ناحية بني تميم، جعلها للمربدين، ومن ذلك الأحوصان وهما الأحوص وعوف بن الأحوص. هذا نص تفسير البيت من اللسان ص ١٥١ ج ٤. . ويلاحظ أن في العبارة خطأ مطبعياً في أول سطر من الصفحة المذكورة حيث وردت العبارة هكذا: سماء، وصحتها: ثناه.

(٢) ١٥٠ و ١٥١ ج ٤ لسان العرب، ومربد الإبل: محبسها، وقال ابن الأعرابي وأبو عبيدة: المربد فضاء وراء البيت يرتفق به، ومربد التمر جرينه الذي يوضع فيه (راجع ص ٥١ ج ٤ لسان العرب) وهو الأندر بلغة أهل الشام، والبيدر بلغة أهل العراق (١٥١ ج ٤ لسان العرب) وأهل المدينة يسمون الموضع الذي يحفف فيه التمر مربداً وهو المسطح والجرين في لغة أهل نجد (١٥١ ج ٤ اللسان، و ٢٢٩ ج ١ صحاح الجوهري) وهو الجرن بلغة أهل مصر.

بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال. كان سوقاً عامة. قال الأصمعي: «المربد كل شيء حبست فيه الإبل والغنم. وبه سمي مربد البصرة، وإنما كان وضع سوق الإبل وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة إليها. ويظهر أنه نشأ سوقاً للإبل، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه^(١).

وفي اللسان - في مادة ب ص ر: وقال ابن شميل: البصرة أرض كأنها جبل من جص وهي التي بنيت بالمربد وإنما سميت البصرة بصرة بها. فكان المربد كان موجوداً في الجاهلية. يقول أحمد أمين:

إن أخبار المربد في الجاهلية معدومة مما يدل على قلة خطره إذ ذاك، إنما كان له الخطر بعد أن فتح العرب العراق، وسكنوه وخططوا البصرة، فقد أنشئت فيه المساكن بعد أن كان مربداً للإبل فقط، واتصلت العمارة بينه وبين البصرة حتى قالوا فيه «العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة» وقد كان المربد في الإسلام - كما يقول أحمد أمين - صورة معدلة لعكاظ الذي كان سوقاً للتجارة، وكان سوقاً للدعوات السياسية، وكان سوقاً للأدب - جاء في كتاب «ما يعول عليه»: المربد كل موضع حبست فيه الإبل. ومنه سمي مربد البصرة مربداً لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه - كان مجتمع العرب من الأقطار، يتناشدون فيه الأشعار: ويبيعون ويشترون وهو «كسوق عكاظ» وقال العيني: «مربد البصرة، محلة عظيمة فيها (أي في البصرة) من جهة البرية كان يجتمع العرب فيها من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون.

وكانت أهم أخبار المربد ما كان بعد قتل عثمان بن عفان من سير عائشة أم المؤمنين إلى البصرة. فإنها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترسل إلى أهلها تدعوهم بدعوتها، وهي المطالبة بدم عثمان وكان معها طلحة والزبير. ثم سارت إلى المربد معها وخرج إليها من قبل دعوتها.

(١) أحمد أمين - محلة الثقافة المصرية

وخرج إلى المريد كذلك عامل علي على البصرة. وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده وأصبح المريد وهو يموج بمن أقي الحجاز ومن خرج من البصرة. حتى ضاق المريد بمن فيه. وأصبح المريد مجالاً للخطباء ممن يؤيد عائشة ومن معها. ومن يؤيد علياً وعامله. وأصحاب عائشة في ميمنة المريد وأصحاب علي في ميسرة. ويخطب في المريد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ويعظم ما جنى عليه ويدعو إلى الطلب بدمه. ويخطب الزبير كذلك ويخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجمهوري ويؤيدهم من في ميمنة المريد ويقولون: صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق، ويؤثر قول عائشة في أهل الميسرة فينحاز بعضهم إليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان بن حنيف، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا علياً فلا حق لهما في الخروج عليه ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلي وأمثاله، وهكذا انتقل المريد إلى مجمع حافل كبير.

وكان العصر الأموي أزهى عصور المريد، ذلك لأن العرب كانوا قد هددوا من الفتح واستقرت الممالك في أيديهم، وأصبح العراق مقصد العرب يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة، جاء في الطبري: «أن عمر بن الخطاب سأل أنس بن حجة وكان رسولا إلى عمر من العراق فقال له عمر: كيف رأيت المسلمين؟ فقال انتالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة، فرغب الناس في البصرة فأتوها»، وكان المريد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية، ويمر به من خرج من البصرة إلى البادية، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية فكان ملتقى العرب. وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية: من مفاخرة بالأنساب وتعظيم بالكرم والشجاعة. وذكر لما كان بين القبائل من إحسن. فالفرزدق يقف في المريد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية. حكي في النقائض أن «زياد بن أبي سفيان» كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمريد. وذلك أن أباه بعث معه إبلا لبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خز كان عليه فقال قائل: لشد ما عقدت على دراهمك هذه أما

والله لو كان غالب ما فعل هذا الفعل. فحلها ثم أنهبها. وقال: من أخذ شيئاً فهو له، وبلغ ذلك زياداً فبالغ في طلبه فهرب. فلم يزل في هربه يطوف في القبائل والبلاد حتى مات زياد.

وأراد عرب البصرة أن يكون لهم من مريد البصرة ما كان لهم في سوق عكاظ في الحجاز فبلغوا غايتهم. وأحيوا العصبية الجاهلية وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على إحيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسياً. فرأينا ظل ذلك في الأدب والشعر. ورأينا المريد في العصر الأموي يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون. ويعلي كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسي. ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية.

ومن أجل هذا خلف المريد أجل شعر من هذا النوع فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثراً من آثار المريد، قيلت فيه وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة. يروي الأغاني أن جريراً والفرزدق اجتمعا في المريد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل.

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصاً ويخرج إلى المريد ويقول قصائده في الفخر والهجاء. والرواة يحملون إلى كل منهما ما قال الآخر فيرد عليه. قال أبو عبيدة: «وقف جرير بالمريد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاماً. وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عباد بن حصين. فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشي وسواراً وقام في مقبرة بني حصين ينشد بجرير والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال: عجبت لراعي الضأن في حطمية^(١) وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جرير أن الفرزدق في ثياب وشي قال: لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحاً كرج^(٢) وجلاجله^(٣)

(١) هي الدرع منسوبة إلى حطمة بن محارب وهو رجل كان يصنع الدروع.

(٢) هو ما يتخذ من الدمى مثل المهر يلعب عليه وهو لفظ دخيل لا أصل له في العربية.

(٣) ١٣٢ ج ٤ الأغاني.

وما زالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج
والي البصرة فهدم منازلها بالمربد فقال جرير:

فما في كتاب الله تهديم دارنا بتهديم ماخور خبيث مداخله

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس
يسمعون منه. جاء في الأغاني: «كان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة
بأعلى المربد بالبصرة».

ومما يروى عن الفرزدق في المربد ما حدث به الأصمعي. قال: سمعت
أبا عمرو بن العلاء يقول: لقيت الفرزدق في المربد. فقلت: يا أبا فراس.
أحدثت شيئاً؟ فقال: خذ ثم أنشدني:
كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس
فقلت: سبحان الله هذا للمتلمس فقال: اكتمها. فلضوال الشعر
أحب إلي من ضوال الإبل.

ولا شك أن المربد كان له آثار كبيرة في الأدب في عصر بني أمية.
وقد بقي المربد في العصر العباسي. ولكنه كان يؤدي غرضاً آخر غير
الذي كان يؤديه في العهد الأموي. غرضاً اقتصادياً لا غرضاً أدبياً.
ثم دمره الزنج في ثورتهم السياسية التي بدأت عام ٢٥٥هـ.

أما مجالس الأدب فهي تمثل كذلك مظهراً من مظاهر حضارة الاتصال
السمعي حيث تعددت مجالس الأدب والشعر في هذا العصر. وكثرت حلقاتها
وقد كان للخلفاء والأمراء عناية بالغة، واهتمام عظيم بالأدب واللغة والشعر.
فقد كان خلفاء بني أمية عرباً. يطربهم المعنى الرائق. واللفظ الفائق.
ويعجبهم الأسلوب الناضج. والتعبير البديع. والتصوير الجميل. لما فطروا
عليه من ذوق حساس. وسليقة مرهفة. وبصيرة ناقدة. وذكاء متوقد. وعلم
غزير. ومعرفة بأنساب القبائل وأحسابها. رمفاخرها ومثالبها.

فلا عجب أن تزداد عنايتهم بكل مظهر يعلي من شأن الأدب. وأن

تعظم رغبتهم في تشجيع الأدباء ورعاية الشعراء وصيانة التراث الأدبي. على نحو ما سجلته كتب الأدب. ووعته صحائف التاريخ. ونقله الرواة.

وكان من وسائلهم إلى حفظ ملكهم. والإبقاء على سلطانهم. أن عمدوا إلى إثارة العصبية، وبعث الخصومات، وإحياء ما اندثر من منافسات الجاهلية وأحقادها، ليشغلوا الناس بذلك عن مواثبتهم على الملك، ومساورتهم على السلطان، ومنازعتهم فيما استقر لهم من أمور الخلافة، فعاد الشعراء إلى تسجيل ذلك في أشعارهم، وتصويره في قصائدهم. وشغلوا بالحديث عن أمجاد القبائل وتخازيها رغبة في مدح أو شفاء لحقد. أو طمعاً في عطاء.

وكان الخلفاء والأمراء نقدة كلام. وأمراء بلاغة. وفرسان فصاحة. وابناء أدباء يميزون جيد الأدب من رديئه. ويعرفون صحيحه من زائفه. ويقدرّون منازل الشعراء. ويزنون الكلام بمعيار صحيح. فيقبلون الجيد ويشيرون عليه. ويستنكرون الضعيف الزائف ويدلون على موضع نقصه ومكان عيبه. ذلك لأن لهم من سلائقهم العربية وفطرتهم الأدبية، وعلمهم بشوارد الأدب وغرائب الأشعار، ما يعينهم على صدق الحكومة؛ ويدفعهم إلى حسن التقدير؛ وجمال المثوبة، وهل هناك أدل على صفاء الذوق، وقوة الملاحظة، ودقة النقد وصادق التمييز مما يؤثر عن عبد الملك الخليفة الأديب الأريب، إذ دخل عليه ابن قيس الرقيات، وقد أمنه بعد خروجه عليه؛ فمدحه بقوله:

إن الأغر الذي أبوه أبو العا صي عليه الوقار والحجب
يعتدل التساج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال عبد الملك: يا ابن قيس. تمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم. وتقول في مصعب:

إنما مصعب شهاب من الله (م) تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

فأعطيته المدح بكشف الغم وجلاء الظلم، وأعطيتني ما لا فخر فيه،

وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة. قال قدامة بن جعفر في (نقد الشعر): ووجه عتب عبد الملك، إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة.

ثم قال له عبد الملك: أما الأمان فقد سبق لك، ولكن لا تأخذ في المسلمين عطاء أبداً.

ومما يدل على شدة ملاحظتهم وحضور بديتهم وألعتهم في النقد، أن أبا زيد الأسلمي دخل على إبراهيم بن هشام فأنشده: «يا ابن هشام يا أخا الكرام» فغضب إبراهيم وقال: إنما أنا أخوهم، وكأني لست منهم، ثم أمر به فضرب بالسياط.

ولما أدرك الشعراء أن الخلفاء والأمراء يمنحون جيد الأشعار، ومتخير القصائد، منزلة عالية، ويثيرون عليه مثوبة طائلة، وأنهم يتجهمون لمواطن العيب، ويفطنون في سرعة عجيبة لمكان النقص وموضع الزلل، وأنهم قد يعاقبون على ذلك عقوبة أقلها حبس العطاء، وقبض الصلة، لما أيقن الشعراء من ذلك، حرصوا أشد الحرص على التجويد والتهذيب، وبالغوا أعظم المبالغة في تنقيح بنات أفكارهم. وتهذيب قصائدهم، لتفتح لهم القلوب المغلقة وتلين النفوس العصية، وتستدر العطايا السنية، وتستل ما في النفس من حقد دفين، وغل مقيم.

وكان الخلفاء والأمراء يطربون أيما طرب لسماع الجيد من المدح، والبليغ من الثناء، وكانوا في نشوة هذا الطرب، وفي غمرة تلك الأريحية، يصفحون عن المسيء، ويعفون عن المذنب، ويقبلون شفاعاة الشعراء.

ولقد كان الخليفة من خلفاء بني أمية ينشد بيتاً ويغيب عنه قائله فيأرق جفنه، وينبوه مضجعه، ويبعث في طلب الرواة والعلماء حتى يعرف قائله ثم يخلع عليهم العطايا، وهب لهم الجوائز، ويصلهم بأكرم الصلات.

وكان هذا من العوامل التي شجعت على رواية الشعر وحفظه وتلقي

الأشعار والبحث عنها لدى عارفيها والملمين بها... وهذه العناية البالغة من جانب الخلفاء أحييت من أشعار العرب القديمة ما أوشك الناس أن ينسوه وما قاربوا أن يغفلوه إذ كان الراوية يحظى من عطايا الحكام بمثل ما يحظى به الشاعر.

ويؤثر عن معاوية، أنه كان يقول: اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر آدابكم، فلقد رأيتني ليلة الهرب بصفين، وقد أتيت بفرس أغر محجل، بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب، لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الأظنابة:

أبت لي همتي وأبى بلائي	وأخذي الحمد بالثمن الريح
واقحمي على المكروه نفسي	وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات	وأحمي بعد هن عرض صحيح

وكان عبد الملك، يقول لبنيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم حالا، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا، وقال لمؤدب ولده: إذا رويتهم شعراً فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولي:

يبين الجار حين يبين عني	ولم نأنس إلى كلاب جاري ^(١)
وتظعن جاري من جنب بيتي	ولم تستر بستر من جداري
وتأمن أن أطالع حين آتي	عليها وهي واضعة الخمار ^(٢)
كذلك هدى أبائي قديماً	توارثه النجار عن النجار

وجلس ذات مرة في عدة من أهل بيته وولده فقال: ليقل كل منكم أحسن شعر سمعه، فذكروا لامرئ القيس وطرفة والأعشى وأكثروا، فقال: أشعر من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول:

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمي عنه وهو ليس به حلم

(١) يكنى بعدم أنس كلاب جاره به عن عدم دحوله بيته مراعاة لحرمة أهله.

(٢) واضعة الخمار أي ملقته عن رأسها.

إذا سمته وصل القرابة سامني
وأسعى لكي أبني ويهدم صالحني
يحاول رغمي لا يحاول غيره
فما زلت في لبني له وتعطفي
لأستل منه الضغن حتى سللنه
وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

وتمثل الخطابة^(٣) كذلك مظهراً من مظاهر الحضارة السمعية فضلاً عن أنها فن من فنون النثر، ولون من ألوانه، وهي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة والتأثير. . . فهي كلام بليغ، يلقي في جمع من الناس، لإقناعهم برأي، أو استمالتهم إلى مبدأ، أو توجيههم إلى ما فيه الخير لهم.

والخطابة ضرورية لكل مجتمع، في سلمه وحربه، فهي أداة الدعوة إلى الرأي، والتوجيه إلى الخير، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين، والزعماء والمصلحين. فهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية. وإنما تقوى الخطابة وتنهض في عصور الحرية، وفي ظلال الديمقراطية حيث يستطيع الناس أن يعبروا عن آمالهم ومشاعرهم وأفكارهم. ففي ظلال الحرية تتقارع الآراء، وتتصارع الأفكار، وتتنازع المبادئ، وتتنافس المذاهب، وتتعدد الخصومات، وفي ذلك كله غذاء للخطابة، ومدد لها.

والخطابة قديمة قدم حياة الجماعات، وجدت في الأمم القديمة كقدماء المصريين واليونان والرومان، وازدهرت في بعض العصور، التي كان يشمل الناس فيها جناح من الحرية، كاليونان في القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده

(١) سمته: كلفته.

(٢) الرغم: الذل.

(٣) يقول مؤلف نقد النثر: الخطابة مأخوذة من خطبت. . . واشتق من ذلك الخطب وهو الأمر الجليل، لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجل وتعظم، والخطبة الواحدة من المصدر (الخطابة) والخطبة (بكسر الخاء) اسم المخطوب به (٩٤ و ٩٥ نقد النثر).

حيث نشأ. «بيركليس» ثم «ديمستين» وكالعرب في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي.

والخطب إما سياسية أو قضائية أو دينية أو اجتماعية تلقى في المحافل العامة.

ويمتاز الأسلوب الخطابي بشدة الإقناع وروعة التأثير، وقصر الجمل، والازدواج أو السجع بينها، ومراعاة المقام وحال السامعين... كما يمتاز بجمال الأسلوب وجودة المعاني وتخبرها، يقول قدامة في نقد النثر: «يجب أن يكون الخطيب عارفاً بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له... فقد قيل: «لكل مقام مقال»^(١)... «وأن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته، غير مستكره لطبيعته، فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجته وقبح موقعه»^(٢).

ويقول صاحب كتاب «نقد النثر»: من أوصاف الخطابة: أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد، وتوشح بالقرآن وبالسائر من الأمثال، فإن ذلك مما يزين الخطب عند مستمعيها، وتعظم به الفائدة فيها، ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله في أولها: «البترء» وكل خطبة لا توشح بالقرآن والأمثال: «الشوهاء» ولا يتمثل الخطيب في الخطب الطوال التي يقام بها في المحافل بشيء من الشعر، فإن أحب أن يستعمل ذلك في الخطب القصار، والمواظ والرسائل فليفعل، إلا أن تكون الرسالة إلى خليفة، فإن محله يرتفع عن التمثيل بالشعر في كتابه إليه، ولا بأس بذلك في غيرها من الرسائل.

وأن يكون الخطيب أو المترسل عارفاً بمواقع القول، وأوقاته، واحتمال المخاطبين له، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة، فيقصر عن بلوغ الإرادة، ولا يستعمل الإطالة في موضع الإيجاز، فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة، ولا يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة، ولا كلام

(١) ص ٩٦ نقد النثر طبعة ١٩٣٩.

(٢) ١٠٥ المرجع.

الملك مع السوق، بل يعطي كل قوم من القول بمقدارهم، ويزنهم بوزنهم، فقد قيل: «لكل مقام مقال».

وإذا رأى من القوم إقبالاً عليه، وإنصتاً لقوله، فأحبوا أن يزيدهم، زادهم على مقدار احتياهم ونشاطهم. وإذا تبين منهم إعراضاً عنه، وتثاقلاً عن سماع قوله، خفف عنهم. فقد قيل: «من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مثونة الاستماع منك». وليس يكون موصوفاً بالبلاغة إلا بوضع هذه الأشياء مواضعها وأن يكون على الإيجاز إذا شرع فيه قادراً، وبالإطالة إذا احتاج إليه ماهراً. وقد وصف بعضهم البلاغة بما قلناه فقال - وقد سئل عنها - : «هي الاكتفاء في مقامات الإيجاز بالإشارة، والاقتدار في مواطن الإطالة على الغزارة» وقال الشاعر في هذا المعنى:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء
وقال جعفر بن يحيى: «إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً. وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار هذراً» فبين ما يحمد من الإيجاز، وما يحتاج إليه من الإكثار.

فأما الموضع الذي ينبغي أن يستعمل كل واحد منهما فيه: فإن الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوي الأفهام الثاقبة، الذين يجترئون بيسير القول عن كثيره، وبمجمله عن تفسيره، وفي المواعظ والسنن والوصايا التي يراد حفظها ونقلها، ولذلك لا ترى في الحديث عن الرسول ﷺ والأئمة شيئا يطول، وإنما يأتي على غاية الاختصار والاختصار. وفي الجوامع التي تعرض على الرؤساء فيقفون على معانيها ولا يشغلون بالإكثار فيها. وأما الإطالة ففي مخاطبة العوام، ومن ليس من ذوي الأفهام، ومن لا يكتفي من القول بيسيره، ولا ينفق ذهنه إلا بتكريره وإيضاح تفسيره، ولهذا استعمل الله عز وجل في مواضع من كتابه تكرير القصص، وتصريف القول، ليفهم من بعد فهمه، ويعلم من قصر علمه. واستعمل في مواضع أخرى الإيجاز والاختصار لذوي العقول والأبصار.

ولقد رفع القرآن من منزلة النثر، فاحتلت الخطابة المنزلة التي كانت

للشعر من قبل ولأن العقيدة الجديدة - وهي ما هي - تستلزم الخطابة وتستدعيها، فضلاً عن كثرة التنازع السياسي والديني بعد عصر عمر. فكان عصر صدر الإسلام من أعظم العصور الأدبية أثراً في الخطابة إذ استكملت عناصرها الفنية والأدبية وظهر الكثير من أعلام الخطباء، وإمامهم الرسول الأعظم محمد صلوات الله عليه، وكان ازدهارها نتيجة لمؤثرات كثيرة منها:

١ - الدعوة الإسلامية العظمى والخصومة بين أنصارها ومعارضيهما استدعت رقي الخطابة.

٢ - رفع الإسلام من شأن العقل، وخفض من غلواء العاطفة.

٣ - الرقي السياسي والاجتماعي، إذ أصبحت العرب أمة واحدة، لها رئيس أعلى، ونظمت شئونها الاجتماعية تنظيمياً استدعى الخطابة، سواء كان من الخليفة أو قواده أو عماله، أم من أفراد الأمة وخطبائها، أم في مجالس القضاء والشورى والفصل في الأمور.

٤ - سلامة الملكات وقوة الطباع وعدوبة الألسنة، والقدرة على الارتجال، وذيوع آثار بلاغة القرآن والحديث في النفوس والعقول والأذواق^(١).

٥ - كثرة الخلافات حول الخلافة بعد موت الرسول وبعد مقتل عمر، وما يستلزمه ذلك من كثرة فن الخطابة والحجاج بين الآراء والأفكار والأحزاب السياسية.

٦ - كثرة الحاجة إليها في شئون الدين والاجتماع والسياسة إلى غير ذلك من أسباب رقي الخطابة ونهضتها وقوتها في هذا العصر الكريم.

(١) وإذا كان قد ورد عن بعض الرجال في هذا العصر آثار قليلة جداً من العي والمعجز فهذا نادر ضئيل جداً. كما ورد في الكامل أن يزيد بن أبي سفيان ولاء أبو بكر ولاية في الشام فصعد على المنبر فتكلم فارتج عليه، فقطع الخطبة وقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً، وبعد عي بياناً، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال، فكان ذلك منه بلاغة بما بعدها بلاغة اعتذار، بما أشاد به عمرو بن العاص حين سمع هذه الكلمات.

أما في العصر الأموي فقد كانت كل الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية تساعد إلى حد بعيد على ازدهار الخطابة ورفيها في عصر بني أمية:

١ - فالثورات السياسية، وكثرت الحروب والفتوحات، واشتداد الخلاف بين الأحزاب التي نشأت وكثرت في هذا العهد من شيعة وأمويين وخوارج وزبيريين وروافض وسواهم، والتنازع بين العقائد والمبادئ، كل ذلك عمل عمله في نهضة الخطابة وسموها.

٢ - وقربهم من العصر الجاهلي أمدهم بسلامة الملكات، وبلاغة القول، كما أمدهم الإسلام والقرآن الكريم بحصافة الرأي، وسلامة الفكرة وحسن البيان مما كان له أثره في الخطابة الأموية.

٣ - والحرية التي كان يعتقد العربي أنها جزء من فطرته ونفسه، كانت تدفعه إلى القول، دون خوف من خليفة، أو حذر من ذي سلطان... إلى قوة العقيدة وشدة الحاجة إلى الخطابة.

وكانت موضوعات الخطابة في هذا العصر كثيرة متعددة، تزيد بما استجد في شئون الدين والسياسة والاجتماع.

فاستعملت في الدعاية السياسية عند الفرق والأحزاب^(١). وفي الجدل الديني عند الخوارج والشيعة وسواهما، وفي الوفاة على الخلفاء وولاتهم، وفي المناقضات والمفاخرات والمحاورات التي كانت تدور بين العصبية المختلفة في السياسية والاجتماع والآداب. كما كان الخلفاء والولاة والأمراء يستعملونها أداة للوعيد والإنذار والتهديد. وكثر اصطناعها فوق ذلك في أغراض الجاهلية وصدر الإسلام من تحريض على قتال، أو وصية بمعروف، أو توضيح حكم ديني، أو تهنئة بفوز.

ولقد كان الأمويون يعلمون الفتیان الناشئين الخطابة، ويدربونهم عليها

(١) راجع كلام الجاحظ عن خطباء الخوارج ٢١٤ - ٢١٦ : ٣ البيان والتبيين ط الخانجي، وحديثه عن خطباء البيت الأموي (١) ٤٥ - ٤٨ و ٩٨ - ١٠٤ البيان والتبيين ط الخانجي.

واستمر ذلك مذهباً للعباسيين أيضاً، حكى الجاحظ في «البيان والتبيين»، قال: مر بشر بن المعتز (٢١٠هـ) على إبراهيم بن جبلة، وهو يعلم الفتيان الخطابة، فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام إبراهيم، فدفع إلى الفتيان صحيفة من تحبيره وتنميقة، فإذا فيها من كلام كثير:

«ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب الفاظ المتكلمين.. إلخ.

وما يدل على أن شأن الخطابة عظم في هذا العصر حتى رأوا الحاجة ماسة إلى تعلمها، بل كان شباب الكتاب إذا قدم وفد على دمشق حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم^(١).

ولقد ظهر في خطابة هذا العصر تلك العوامل التي كانت تتنازع الأمة، فإن دولة بني أمية لم تقم على الدين لعلمهم أن مظهره لا يقبل منهم، وفي الأمة أمثال الحسن والحسين وعبدالله بن الزبير وغيرهم من كبار الصحابة، لذلك جعل الأمويون معولهم على السياسة، فبان ذلك في خطاباتهم، فلم يحفلوا فيها باقتباس آيات القرآن كما كان يفعل السلف الصالح، حتى لقد غلا بعضهم، فترك حمد الله في أولها كما فعل زياد في خطبته البتراء. وقد كان أشهى إليه أن يتمثل ببنت شعر من أن يحلي خطبته بشيء من كلام الله.

على حين نرى النزعة الدينية عند مثل مصعب بن الزبير تحمله على أن يجعل بعض خطبه كلها من القرآن الكريم كما خطب. فلم يزد على قوله: بسم الله الرحمن الرحيم. طسم. تلك آيات الكتاب المبين. نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها

(١) العقد الفريد ٢: ٢٦٧.

شيعة يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (وأشار بيده نحو الحجاز) وثمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (وأشار بيده نحو العراق).

وهكذا تبدو في خطاباتهم النزعة السياسية، ويغلب عليها التحرر من الرسوم الدينية، فيكثر فيها الاستشهاد بالشعر، ويقل الاقتباس من القرآن الكريم، وربما غلا بعضهم، فترك الحمد في أول الخطبة، كما صنع زياد في خطبته البتراء، وهذا النوع من الخطب السياسية كان يغلب عليه ضخامة اللفظ، وقوة الأسر، والعنف في الخطاب والمبالغة في الوعيد والتهديد والإسراف في السب والشتم، حتى لقد استن معاوية سنة سيئة، هي سب (علي) على المنابر في خطب الجمعة وظلت تلك السنة مرعية حتى أبطلها الخليفة الورع: عمر بن عبد العزيز، وجعل مكانها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

وبجانب ذلك ظهرت النزعة الدينية، وكانت تتجلى واضحة في خطب الجماعات التي تناوئ الخلفاء وترى أن بني أمية لا يصلحون لقيادة الأمة، ولا لحكم المسلمين. وتتميز خطابة هؤلاء بالتزام الحمد في أولها، والصلاة على النبي ﷺ، وكثرة الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم والاقتباس منه، حتى إن بعضها كان كله اقتباساً منه.

كما يشيع في هذه الخطب التحذير من الدنيا وغرورها، والتخويف من الآخرة وأهوالها، ونحو ذلك من ألوان التأثير الديني الذي تتطامن له النفوس؟ وتخبث القلوب، وترق المشاعر.

وهذه الخطب ذات النزعة الدينية، هي في الواقع خطب سياسية، تهدف

(١) سورة النحل الآية ٩٠.

إلى تغيير الأوضاع، وقلب الأنظمة، ومناوأة الحاكمين. وإنما وسمت بهذه السمة، لأنها تشع ببردة الدين، وتصطبغ بصبغته، للتأثير على النفوس، والوصول إلى الأئمة، ولأنها صادرة من أناس لهم نزعات دينية قوية، متمكنة من نفوسهم، ولهم رسالة خاصة يعملون على تحقيقها.

وكان من سنة الخلفاء والولاة أن يخطبوا الناس بأنفسهم يوم الجمعة، حتى جاء الوليد. وكان كثير اللحن، عسر اللسان، فأناش منه من يخطب الناس، فأخذت الخطابة منذ ذلك الحين تقل عناية بني أمية بها، ويولون عنايتهم للكتابة الفنية.

أشهر الخطباء:

وقد نبغ في الخطابة الكثير من البلغاء والفصحاء والمقاول المصارع.

فمن الأمويين: معاوية، وعبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز.

ومن ولائهم: زياد. والحجاج، وقتيبة بن مسلم، وخالد بن عبد الله القسري، والمهلب بن أبي صفرة.

ومن العلويين: الحسين بن علي، وحفيده زيد.

ومن الخوارج: عمران بن حطان، وقطري بن الفجاءة، وأبو حمزة الإباضي.

وكان إلى جانب هؤلاء: عبد الله بن الزبير، وأخوه مصعب... ومن رؤساء القبائل: صعصعة بن صوحان، وسحبان بن وائل، وخالد بن صفوان (المتوفي سنة ١٣٥ هـ)، وسواهم.

الفصل الثامن

حضارة التدوين

ما قدمناه عن العصر الجاهلي يشير إلى تأثير الحضارة السمعية في الأدب نتيجة توصله إلى الأذن في الاتصال الجماهيري، ولكن حينما تنتقل البشرية إلى ما يمكن تسميته بحضارة التدوين واستخدام وسيلة جديدة من الألف باء الصوتية وبداية القراءة مما أدى إلى التحول وإلى توازن حي جديد يتمركز حول العين. وفي حضارة التدوين تفجرت الانطباعات الكلية والمدرجات المتكاملة للأشياء إلى أجزاء مجردة لا صلة لها بالواقع الموضوعي.

ولقد استجاب الأدب العربي منذ صدر الإسلام والعصر الأموي إلى بعض مطالب حضارة التدوين، فكان النثر يرتبط بالقراءة بطبيعة الحال، ذلك أن هذه القراءة مرحلة عظيمة في تاريخ تقدم الفكر البشري تلت اختراع الكتابة.

والقراءة نوعان: نوع لعله هو الذي بدأت به البشرية ينحصر في القراءة بالإنشاد والتغني، وهي من باب التعلم والتدريب، ونوع من القراءة الصحيحة الكاملة وهي التي تعتمد العين وتعتمد الجرس في طرفه عين، خلال مجاهر هذا المخلوق المتقلب المصنوع من الحروف، المسطور بحكمة واتقان ألا وهو النثر.

ويذهب بعض الباحثين، إلى أن القرآن في المفهوم اللغوي الصحيح الدقيق الشائع عند العرب آنذاك لا هو بالشعر ولا هو بالنثر، بل نقطة تحول

من «سلطان الذاكرة» التي يمثلها الشعر نحو عالم أكثر حضارة وأقرب إلى التحرر الفكري ويمثله النثر الحقيقي، بل هو رجة نفسانية في هؤلاء الذين شعروا «بالكمال» اللغوي ووقعوا تحت سيطرة «سلطان الذاكرة» والذاكرة المنشدة آمين مطمئنين.

ولقد تم نزول القرآن على رسول الله في ثلاث وعشرين سنة، كان في ثلاث عشرة سنة منها يقيم بمكة، وهي وطنه الذي نشأ فيه، وتسمى الآيات والسور التي نزلت فيها أو فيما حولها مكية، وكان في العشر السنين الأخرى يقيم بالمدينة، وهي دار هجرته التي قضى فيها بقية حياته، وتسمى الآيات والسور التي نزلت فيها أو في غزواته وأسفاره في أثناء إقامته فيها مدنية، ومجموعها أربع عشرة ومائة سورة. وتسمى السورة مكية إذا كان أغلبها مكيًا، وتسمى السورة مدنية إذا كان أكثرها مدنيًا.

وأول ما نزل من القرآن: ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾^(١). نزلت على رسول الله وهو يتعبد بغار حراء بقرب مكة.

موضوعات سور القرآن:

كانت موضوعات الآيات والسور التي نزلت بمكة، الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتنزيهه عن مشابهة خلقه، ونبد عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر، والدعوة إلى الإيمان بحياة أخرى بعد الحياة الدنيا، في يوم يبعث فيه الناس وينشرون ويحاسبون على ما قدموا في دار الدنيا، فيجازي المؤمن بنعيم الجنة الخالد، ويعاقب الكافر بجحيم جهنم الخالد... يقرر القرآن الكريم ذلك في صور شتى، وأساليب مختلفة: فمن موعظة حسنة وحكمة بالغة، وحث على التمسك بالفضائل والمكرمات ومن عبرة بقص قصة طاغية، أو عاقبة أمم باغية، وسيرة رسول مع قومه، ومن استدلال بخلق السموات والأرض على قدرة موجدتها، وعلى وجوب توحيده بالروية، ومن إنذار

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥

للمعانددين، وتقريع للمستهزئين، ونعي على الجاهلين، وذم للكافرين، كل أولئك بعبارات بليغة، وفقر مفصلة، وسور كانت في أول الإسلام قصيرة، ثم طالت بحسب الأحوال، وذلك لأن أهم ما قصد إليه الإسلام في أول أمره بيان منزلة العبد من مولاه وخالقه، وما أعده له على طاعته أو معصيته من ثواب أو عقاب.

ثم لما قوي الإسلام بالهجرة إلى المدينة، وقبض الله له الأنصار من أهلها يؤيدونه ويعلنون كلمته، صار أكثر موضوعات الآيات التي نزلت على رسول الله بالمدينة، وفي أثناء خروجه منها للغزوات أو الأسفار، يشمل فوق ما تقدم أموراً أخرى، مثل نظام العبادات، وفرض الفرائض؛ والتحليل والتحرير، ومثل نظام الأسرة في تقرير أحكام الزواج والطلاق والميراث والوصية والاسترقاق والعق؛ ومثل نظام الجماعة بإطاعة أولياء أمورهم، والتناصر على إقامة الحدود وحماية العرض والمال، وتقرير العدالة في القضاء والأحكام. وتحديد المعاملة الحسنة في البيع والشراء والمداينة والرهن، ونحو ذلك مثل نظام معاملة أمة المسلمين لغيرها من الأمم في الحروب والسلام، وتقسيم الغنائم. ومعاملة الأسرى. وعقد الهدنة والمعاهدات. وسياسة المغلوبين من غير المسلمين. من أخذ الجزية من أهل النعمة. ومصالحة غيرهم وغير ذلك مما تقتضيه مصالح البشر في الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان.

وجملة القول إن القرآن كتاب هداية إلى مكارم الأخلاق والآداب، وإلى توحيد الله وعبادته وتنزيهه عن مشابهة خلقه. وكتاب تشريع لحقوق الأسرة والأمة في خاصة نفسها، وفي علاقتها بغيرها.

جمعه وكتابته:

كان القرآن ينزل منجماً على حسب المناسبات وكان يكتب ما نزل منه بأمر الرسول وكانت الكتابة في العصب واللخاف والأكتاف^(١). . . وكان زيد

(١) العصب: أصل السعف، واللخاف حجارة دقيقة جمع لخرة، والاكتاف: عظام اللوح من الحيوان.

ابن ثابت^(١) أكثر كتاب الوحي، وقد أشهده أبو بكر وعمر في جمع القرآن، وولاه عثمان كتابة المصحف. وما كان عمر ولا عثمان يقدمان عليه أحداً في الفتيا والفرائض والقراءات وغيرها، وكان ابن عباس يأخذ بركابه، ويقول: هكذا يفعل بالعلماء، وتوفي عام ٤٥هـ.

توفي رسول الله ﷺ وبعض القرآن مسطور فيما ذكرناه، وبعضه محفوظ في صدور بعض الصحابة، ولما قتل في وقعة اليمامة سبعمائة من الصحابة فرع المسلمون، وتقدم عمر إلى أبي بكر يشير إليه بجمع القرآن، فعهد به إلى زيد ابن ثابت فجمعه من الصدور ومن السطور صحفاً. حفظها أبو بكر ثم عمر ثم أم المؤمنين حفصة.

وهذا هو الجمع الأول للقرآن الكريم، وكان الغرض منه جمع نص القرآن في مجموعة واحدة، حتى لا يضيع منه شيء بموت الصحابة والقراء.

ولما كثرت الفتوح واختلف القراء في قراءاتهم، وخطأ بعضهم بعضاً. عند ذلك أمر عثمان زيداً وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث فנסخوا تلك المصحف في مصحف واحد، مرتب السور، بحسب الطول والقصر، وبلغه قريش وحدها، وأمر بإحراق ما عدا ذلك.

وهذا هو الجمع الثاني وسببه على ما علمنا كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءات حين قرأوا كتاب الله بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً، فخشى من تفاقم الأمر في ذلك، فأمر عثمان بنسخ تلك المصحف في مصحف واحد مرتب السور، واقتصر على لغة قريش وحدها دون غيرها من اللغات.

قراءات القرآن:

كتب عثمان المصحف بلغة قريش وحدها وجمع الناس على قراءة

(١) تعلم زيد بن ثابت الفارسية - كما يقال - من رسول كسرى، والرومية من صهيب صاحب النبي، والقبطية من خادم النبي أيضاً، والحبشية من بلال خادم النبي وتعلم السريانية بأمر الرسول الكريم وأمره الرسول بتعلم كتابة اليهود (العبرية) كما ورد في حديث من صحيح البخاري (راجع ص ١٧ من فجر الإسلام).

واحدة، وعمل أصحابه بما أمكنهم العمل به في ذلك المصحف. غير أن الجهات التي بعث عثمان إليها بالمصحف العثماني كان بها من الصحابة من كان يقرأ القرآن بقراءات تخالف قراءة المصحف، وكان مصحف عثمان خالياً من الشكل والنقط أيضاً، فمن نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار الإسلامية.

والعرب يختلفون في نطق الكلمات بالمد والتسهيل والإدغام والإظهار ونحو ذلك، وقد أدى هذا إلى اختلاف القراءة في كيفية النطق ببعض الألفاظ القرآنية فتعددت القراءات التي تختلف في النطق باللفظ عل نحو لا يترتب عليه تغيير في نص القرآن، وذلك ما لا ضرر فيه، وإليه يشير الرسول صلوات الله عليه في قوله لعمر: «يا عمر القرآن كله صواب، ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة».

والقراء السبعة الذين روى القراءات السبع هم:

- ١ - عبدالله بن عامر (١١٨هـ)
- ٢ - عاصم الأسدي (١٢٨هـ)
- ٣ - عبدالله بن كثير (١٣٠هـ)
- ٤ - أبو عمرو بن العلاء (١٥٤هـ)
- ٥ - حمزة بن حبيب (١٥٦هـ)
- ٦ - نافع بن أبي نعيم (١٦٩هـ)
- ٧ - علي بن حمزة الكسائي (١٨٩هـ).

وهناك ثلاث قراءات قوية الإسناد، وأربع أخرى بين القوة والضعف، فمجمّل القراءات أربع عشر قراءة، وهناك فرق بين قراءات القرآن والأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم، فالأحرف السبعة هي لغات أي لهجات سبع من لغات العرب في لهجاتهم. والقرآن قد نزل بلغة العرب، ولما كانت لغتهم مختلفة في بعض نواحي النطق اقتضت حكمة الله أن ينزل القرآن على نبيه مشتملاً على لغات العرب المشهورة، فالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه، فبعضه نزل بلغة قريش وهو معظمه، وقد كتب بها

أيضاً، وبعضه نزل بلغة هذيل وبلغة اليمن فكتب بلغتها. وهذه الأحرف السبعة كان بعض القرآن مكتوباً بها على عهد الرسول ولم يوجد منها شيء في مصحف عثمان، لأنه كان مقصوراً على لغة قريش. وقبائل العرب التي نزل القرآن بلهجتها هي: قريش، وهذيل، وثقيف، وبنو سعد. وكنانة، وأسد، وقيس واخلافها، ثم ارتفعت هذه اللهجات وبقيت لغة قريش وأصبح القرآن الكريم يتلى بلغتهم.

نظم القرآن واسلوبه:

نزل القرآن الكريم بأسلوب بهر العرب رونقه وخلق البابهم جرسه ووقعه، وملك نفوسهم ما فيه من جمال اللفظ، وبراعة الصورة وسمو البيان وروعة الأداء.

جاء القرآن على هذا النظام الفريد من النضارة والجلالة والإشراف وحسن التقسيم ودقة الصوغ وسرعة النفاذ إلى أعماق القلوب، فدهش العرب وتحيروا وأطالوا النظر، وأكثروا الالتفات إلى ما فيه من حسن رائع وجمال بارع وقوة أخاذة وبلاغة نفاذة وسحر ساحر، وإعجاز قاهر. وقالوا ما هذا الذي يطالعنا به محمد: أهو كهانة كاهن أم شعر شاعر أم سحر ساحر أم استعراض لأساطير الأولين؟ وما كان هذا الذي راعهم وأعجزهم إلا كلام رب العالمين، صاغه قلائد نادرة، تنقطع دونه القوى وتتخاذل لديه بلاغة الفحول.

لقد كان العربي الموهل في عناده، الممعن في عتوه وفساده، يسمعه فيدخل على قلبه بلا إذن، ويتمكن من نفسه دون جهد، ويملك أسماعه جمال وقعه وحسن جرسه.

وما كان الذي بعث الرقة في قلب عمر، وأشاع في نفسه الإخبات والتطامن إلا سماعه لسورة من القرآن عند أخته.

وهذا عتبة بن ربيعة يذهب إلى رسول الله ليلويه عن قصده، ويثنيه عن رسالته، فما إن يسمع منه بضع آيات حتى يعود إلى قومه قائلاً: «لقد سمعت منه كلاماً ما هو بشعر، ولا كهانة لا سحراً».

وهكذا كان يغزو القرآن كل قلب، ويصل إلى مكان الرضى والإعجاب من كل نفس، حتى لقد سمع فاتك من فتاك الليل قارئاً يرتل في جنح الليل قوله تعالى ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وكثر منهم فاسقون﴾^(١) فرق قلبه وخشعت جوارحه واجتذبت روعة القرآن وبلاغته فصاح من أعماقه؛ قد آن يا رب، ثم أقلع عن سيرته وتاب عن آثامه ومعاصيه.

وسمع آخر قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾^(٢) فصاح: «يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألقاه لليمين». وسمع بعض الأعراب قارئاً يقرأ ﴿فاصدع بما تؤمر﴾^(٣) فسجد وقال: سجدت لفصاحته. وأنصت بعضهم إلى قوله تعالى: ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجياً﴾^(٤) فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وهكذا كل من ينصت إلى كلام رب العزة يلمح فيه سمو البلاغة وإعجاز البيان ونضارة الأسلوب، وإنما يرجع سمو القرآن وعظمته الأدبية وقوته البيانية إلى أسرار كثيرة ومزايا عظيمة منها:

١ - ما فيه من قوة التصوير ودقته وإحكامه:

فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى، وأشد مداخلة للإحساس وأبلغ إثارة للمشاعر، من تصوير القرآن الكريم.

يصور نعيم المتقين وسعادة المؤمنين، فيحس المرء الراحة تدخل إليه، ويشعر بالغبطة تسري في أنحائه، فتفعمه طرباً ونشوة.

ويصور الشقاء الذي ينتظر الطغاة، والعذاب الذي أعده الله للعصاة

(١) سورة الحديد الآية ١٦.

(٣) سورة الحجر الآية ٩٤.

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٢٢ و٢٣.

(٤) سورة يوسف الآية ٨٠.

أدباً وأسمى حكمة من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِاللَّغْوِ مَرُوا كِرَاماً﴾^(١)، أو أشد تصويراً للطبائع الإنسانية واعتزاز كل جماعة بما عندهم وفرحهم بما لديهم من قوله تعالى: ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٢).

وهكذا من أمثال قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾^(٤) وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾ قل كل يعمل على شاكلته^(٦).

٣ - حسن موقع الإيجاز والإطناب:

ففي المواطن التي تستدعي الإطناب نجد القرآن يشق ألواناً تميل إليها النفس وينصت لها الوجدان.

وإن فيما حكاه رب العالمين من قصة يوسف، وما فيها من ألوان العظات، وما تمثل من انفعالات النفس البشرية بألوان الغضب والرضا، وأنواع الحب والبغض، وما طبعت عليه من إثارة النفس وشدة الغيرة في ذلك كله نلتمس أثر الإطناب في صدق الإحاطة ودقة التصوير، يقول تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين* قال: يا بني لا تقص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، إن الشيطان للإنسان عدو مبين*، وفي سورة الرحمن تجد التكرير الداعي لتجديد الإقرار بالنعم واقتضائهم الشكر عليها،

(١) سورة الفرقان الآية ٧٢.

(٢) سورة المؤمنون آية ٥٣ وسورة الروم آية ٣٢.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

(٤) سورة الاسراء الآية ٢٩.

(٥) سورة الاسراء الآية ٧٢.

(٦) سورة الاسراء الآيتان ٨٣ و٨٤.

(٧) سورة يوسف الآيات ٣ - ٥.

وفي سورة المرسلات لتأكيد إقامة الحجة والإعذار.
وفي المواضع التي تستدعي الإيجاز وتتطلب القصر، والإيجاز من أدق
المواطن التي تستبين بها بلاغة البلغاء، وتبرز أقدارهم، وتتضح قيمهم الفنية،
وميزاتهم الأدبية. وإننا نجد القرآن قد أحكم وضع اللفظ بإزاء المعنى وأشار
بالإشارة العابرة إلى ما لا يتناهى من المعاني السامية حتى يكاد السامع يختر
ساجداً لهذا البيان والأسلوب المشرق.

من ذلك قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾^(١) وقوله: ﴿إن الذين قالوا
ربنا الله ثم استقاموا﴾^(٢) وقوله: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
الجاهلين﴾^(٣) وقوله: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾^(٤)، وقوله: ﴿ولكم في
القصص حياة﴾^(٥)، وغير ذلك مما لا يحصى العدد، ولا يستولي عليه الحصر،
وكذلك تجد إيجاز الحذف والاختصار في قوله تعالى: ﴿ولو أن قرأنا سيرت به
الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموت﴾^(٦) . . . وقوله: ﴿وسيق الذين
اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾^(٧)، فحذف
الجواب لتذهب النفس فيه كل مذهب.

وهكذا نجد أن أسلوب القرآن الكريم قد امتاز بأجل طابع، واحكم
صورة، وأروع سمت بما تهيأ له من حكم عالية، ومعان سامية وحسن ارتباط
بين المعاني وعدوية محبة في الألفاظ، ويكفي فيه أنه أسلوب رب العالمين
وخالق الخلق أجمعين، جلّت قدرته ودق صنعه وسمت معجزته.

هذا ونظم القرآن من نوع النثر، وإن لم يجز على مألوف العرب في
نثرها المرسل وسجعها الملتزم، بل هو آيات وفواصل يشهد الذوق السليم

(١) سورة الحجر الآية ٩٤.

(٢) سورة فصلت آية ٣٠ وسورة الاحقاف آية ١٣.

(٣) سورة الاعراف الآية ١٩٩.

(٤) سورة الإسراء الآية ٩٧.

(٥) سورة البقرة الآية ١٧٩.

(٦) سورة الرعد الآية ٣١.

(٧) سورة الزمر الآية ٧٣.

بأنهاء الكلام عندها، فتارة تكون سجعاً وطوراً تكون موازنة وازدواجاً، وأحياناً لا تكون هذا ولا ذاك. والأسلوب القرآني غمط فريد من البلاغة والروعة وجمال الديباجة وعبقرية التصوير، أسلوب جمع الجزالة والسلاسة والقوة والعدوبة، وضم البلاغة من أطرافها، فهو السحر والساحر والنور الباهر والحق الساطع والصدق المبين.

بلاغة القرآن الكريم:

القرآن الكريم أبلغ أثر أدبي عرفته العصور، وأفصح كتاب سماوي نزل به الوحي، وليس هناك كلام عربي يرتقي إلى منزلة القرآن في البلاغة، أو يصل إلى مكانته في البيان والفصاحة، والعرب كانت تعرف الشعر والنثر، وتعرف الخطب والأسجاع، وتعرف القصص، والحجاج، والوعظ، والحكم والأمثال والخطب والوصايا والنصائح، ومع ذلك فليس هناك كلام عربي ماثور لبليغ أو أديب، قبل نزول القرآن وبعد نزوله حتى اليوم، يضارع القرآن الكريم سموً وبلاغة وجمالاً وجلالاً.

ولقد حاول أناس في القديم معارضة القرآن في بلاغته فعجزوا، وذلوا وخشعوا حائرين، لأن بلاغته تنزلت من رب العالمين، وخالق البشر أجمعين.

وحاول النقاد وعلماء البلاغة في مختلف العصور أن يضعوا مقاييس وحدوداً لبلاغة الكلام، ومع ما وصلوا إليه حتى اليوم فإنهم لم يهتدوا إلى ميزان دقيق توزن به بلاغة الكلام وفصاحته، ومع ما وصلوا إليه، وبأي معيار عايرنا به بلاغة القرآن، فإن القرآن بأي منها يقع في الدرجة العليا من البلاغة يهدي إلى ذلك الذوق والطبع، ويهدي إليه أيضاً ما كشف عنه علماء البلاغة من الدقائق في علوم المعاني والبيان والبدیع، وقد ذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أن بلاغة الكلام في نظمه، فالنزية هي لتأليف الكلام، وضم بعض أجزائه إلى بعض، وتخير كلماته وحسن مقاطعه، وراعى في ذلك كله مقتضيات الأحوال. والقرآن الكريم من ذلك كله في الطبقة العالية من طبقات نظم الكلام وحسن صياغة الأسلوب.

سمعته البلغاء فسجدوا لبلاغته، والفصحاء فأذعنوا لفصاحته، وقالوا: إن هذا سحر يؤثر، وقال الوليد بن المغيرة وقد سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١)، فقال: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفل له لمدق، وإن أعلاه لمثير، وما هو بقول بشر».

إن عناصر البلاغة ودقائق البيان وأسرار الذوق الأدبي، لتمثل في القرآن الكريم كل تمثل، وتتجمع فيه أعظم ما يكون التجمع، وأدقه وأوفاه، وضوح الكلام وتلاؤمه، واستعمال أضرب الخبر في وجوهها، ومقاماتها، والذكر في موضعه والحذف في موضعه، والتقديم والتأخير والعريف والتشكير، كل في المقام الذي يستدعيه، والموضع الذي يتطلبه، ثم تجدد القصر في مكان القصر، والوصل في مقام الوصل، والفصل في موضع الفصل، وتجدد الإيجاز في الحال الذي يتطلبه، والإطناب في الموضع الذي يستدعيه، وتجدد التمثيل أو التشبيه أو الاستعارة أو المجاز أو الكناية قد أتى بكل منها على أدق ما يكون الكلام وأروع وأعجب، وتجدد الطباق والمقابلة والجناس والسجع وغير ذلك قد استعمل كل منها استعمالاً عبقرياً لا يتسنى لأحد، ولا يستطيعه بليغ.

وتجد القسم في موضع القسم، وعلى أتم ما تكون البلاغة، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾^(٢)، أو قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ * والليل إذا سجى^(٣)، أو قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾^(٤)، فسوف تجد بياناً عبقرياً، وجمالاً خالداً أبدياً، لأنه كلام الخالق وليس بكلام مخلوق.

سبحانك ربي ما هذا النور الهادي، وما هذا السحر الغريب، وما هذا الكلام العجيب، وما هذا المنطق الفريد؟

(١) سورة النحل الآية ٩٠.

(٢) سورة النجم الآية ١.

(٣) سورة الضحى الآيتان ٢ و ١.

(٤) سورة الشمس الآية ١.

ولعلك قد قرأت تحليل عبد القاهر وعلماء البلاغة للآية الكريمة: ﴿وَبِإِذْنِ رَبِّهِمْ أَغْرَقْنَا هَارُونَ وَآلَهُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١)، أو للآيات الحكيمة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين* قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المفارقة* وقيل: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين* (٢)، ولعلك على ذكر من هذه الوجوه البلاغية التي يذكرونها في الموازنة بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (٣) وقول أكنم بن صيفي «القتل أنفى للقتل»، ولعلك قرأت ما كتبه الزمخشري في بلاغة قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (٤)، وما دونه علماء البلاغة في بلاغة الآية الكريمة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٥). وأحيلك إلى ما ذكره في بلاغة الآية الكريمة: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (٦)، وفي بلاغة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ﴾ (٧)، وفي بلاغة كثير من تشبيهات القرآن الكريم وتمثيلاته ومجازاته واستعاراته وكنائياته، فلسوف يأخذك العجب من هذه البلاغة الفذة الفريدة النادرة التي تأخذ بمجامع القلوب والألباب، والتي هي مظاهر لبلاغة القرآن الكريم، ولفصاحة هذا الكتاب الحكيم والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

-
- (١) سورة مريم الآية ٤.
 (٢) سورة هود الآيات ٤١ - ٤٤.
 (٣) سورة البقرة الآية ١٧٩.
 (٤) سورة الزمر الآية ٦٧.
 (٥) سورة الاعراف الآية ١٩٩.
 (٦) سورة الأسراء الآية ٢٤.
 (٧) سورة الاعراف الآية ١٥٤.

اعجاز القرآن:

١ - وإذا قد عرفت من وصف نظم القرآن الكريم ما عرفت أن الله عز وجل قد تحدى به العرب فعجزوا، ثم تحداهم بسورة منه فبهروا، ثم تحداهم بأقصر سورة، وبعده آيات فخرسوا، ولما سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا خاشعين، فأعجز النظم القرآني ببلاغته العرب وغير العرب، ولم يستطع أحد أن يأتي بمثله ولا بنظيره، لماذا كان ذلك؟ وكيف حدث هذا؟

لا تعجب أيها القارئ، فإن معجزة القرآن علت على كل معجزة، وإن عظمة هذا الكتاب الحكيم فاقت كل عظمة، وكان نظم القرآن الكريم على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارجاً عن العهد من نظام كلام العرب، مباناً للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وليس للعرب كلام مشتمل على مثل هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر.

٢ - قالوا إن المعجز في كتاب الله ما تنأثر في ثنياه، وأنبت في تضاعيفه من إخبار عن الغيب، وتنبؤ بما سيقع.

فقد تحدث القرآن عن أشياء لم تكن معلومة معروفة. ثم لم تلبث الحوادث أن جاءت مصدقة لما أخبر به، موافقة لما تحدث عنه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿غلبت الروم في أدنى^(١) الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبون﴾ في بضع سنين الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴿بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾^(٢).

(١) أدنى الأرض: أي أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام.

(٢) سورة الروم الآيات ٢ - ٥.

وقعت حروب بين الروم وفارس في أذرعات وبصرى. فغلبت فارس الروم فبلغ الخبر مكة فشق ذلك على المسلمين. لأن فارس مجوس والروم أصحاب كتاب وفرح المشركون. فنزلت هذه الآية. وقد انتصرت الروم بعد ذلك على الفرس كما أخبرت هذه الآية وكان انتصارها في يوم بدر أو يوم الحديبية.

وقرئ ﴿غلبت الروم﴾ بالبناء للفاعل، أي على ريف الشام، ﴿وسيفلبون﴾ أي وسيغلبهم المسلمون بعد ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين، لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾^(١).

فقد قيل: إن رسول الله ﷺ رأى في منامه قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا. فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا: إن رؤيا الرسول حق. فلما تأخر ذلك أرجف المنافقون في المدينة، وقالوا: والله ما حلقنا أو قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام. فنزلت هذه الآية، وفي العام التالي أتم الله على المسلمين فتح مكة. فكان ذلك تحقيقاً لوعده الله وتصديقاً لما جاء في هذه الآية الكريمة.

وفي القرآن الكريم كذلك: ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر* سيهزم الجمع ويولون الدبر* بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾^(٢).

يروى أن أبا جهل بن هشام ضرب فرسه يوم بدر فتقدم في الصف وقال: نحن نتصف اليوم من محمد وأصحابه، فنزلت ﴿سيهزم الجمع﴾، وعن عكرمة: لما نزلت قال عمر أي جمع يهزم؟ فلما رأى رسول الله ﷺ يثب في الدرع ويقول ﴿سيهزم الجمع﴾ عرف تأويلها.

(١) سورة الفتح الآية ٢٧.

(٢) سورة القمر الآيات ٤٤ - ٤٦.

على أن هذا الاخبار وإن كان من رب العالمين، وإعلاناً ممن يعلم السر وأخفى، فإنه مما لا يمكن أن يقطع به شك الشاكين المعاندين أو إنكار المنكرين الضالين.

وفي استطاعة عنيد الآن أن يدعي أن هذه الآيات نزلت بعد أن تحققت أحداثها وظهرت على صفحات الحياة وقائعها.

وفي استطاعة مكابر أن يقول: إن هذا من باب التمني والتشهي، وقد تصدق الأيام ما يتمناه الإنسان، وقد يتحدث المرء بكلام يعبر به عن أمل يرقبه، أو حدث يتوقعه، ثم لا يلبث أن يحدث ما أمل أو توقع كما حدث دون أن يخرم من ذلك شيء.

ولعل خير شاهد على ذلك قصيدة حسان بن ثابت، التي حكى فيها ما كان يطمع فيه من فتح مكة، ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى فتحت مكة وحدث ما تخيله وتشهاه من هذه القصيدة:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالخمير النساء

ولقد تحققت هذه الصورة كما اشتهاها وتمناها حسان، فإن رسول الله ﷺ رأى يوم فتح مكة النساء يلطن الخيل ويضربنها بخمرهن يحاولن أن يردنها عن وجهتها فنظر إلى أبي بكر قال له ماذا؟ قال: حسان؟ (يقصد هذا البيت).

ثم ينبغي حين البحث في نواحي الإعجاز أن نلتمس ناحية تكون طابعاً عاماً وسمّة شائعة فيه حتى يكون من التحدي بكل سورة ويكون الإعجاز متحققاً في كل ناحية.

وليس يستطيع أحد أن يقول إن كل ما في القرآن الكريم حديث عن غيب أو نبوءة بما سيقع على أن المعجزة دائماً تكون من جنس ما برع فيه القوم

حتى تكون الحجة أقطع ويكون التحدي فيهم أوقع. ولم يقل أحد إن بعض العرب قد شارك الخالق في معرفة غيبه واستشفاف حجه؛ وإذا كان قد أثر أن بعض كهانهم يتنبؤون ويستطلعون فذلك ضرب من الاحتيال والبراعة في انتزاع النتائج من المقدمات وقياس الغائب على الشاهد كان لهم منه أوفر نصيب.

٣- وقيل كذلك إنما أعجز القرآن العرب لما حواه من أحاديث السابقين وأخبار الماضين، وما كابدوا في الحياة من أحداث، جعلتهم مضرب المثل وعبرة الأمم.

ففيه أمثال قصة موسى ونجاته طفلاً من يد فرعون ثم ذهابه إلى مدين ثم رجوعه إلى قومه وكفاحه مع بني إسرائيل - وقصة نوح وبعثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم أخذ الطوفان لهم وإغراقهم بما كذبوا الرسل.

وفيه تصوير لما كانت عليه البشرية في أكثر العهود من ألوان الأخلاق والعادات والطباع، وفيه كثير من قصص الأنبياء مما كان يخفيه أهل الأديان عن الناس وينفردون بعلمه حتى يعيش الناس في عمى وجهالة وقد يبخهم الله على ذلك بقوله جل شأنه: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير﴾^(١).

هذا والرسول أُمي لا يقرأ الكتب ولا يجلس إلى العلماء ولم يؤثر عنه عناية بهذه الأخبار، كما قال جل شأنه: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون﴾^(٢). وتلك ناحية على ما فيها من الحجة المقبولة والأسانيد السائغة، ليس فيها كذلك مقطع، فإن الكتب السابقة تشترك مع القرآن في هذه الناحية. على أن الجاحد المنكر في حل من أن يقول إن معرفة هذه الأخبار لا تحتاج إلى قراءة الكتب ولا تتوقف على الخط باليمين، وكثيراً ما تكون المناقلة وتلقف الأحاديث وسيلة من وسائل المعرفة.

(١) سورة المائدة الآية ١٥.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٨.

٤ - ويرى أبو اسحاق إبراهيم النُّظام أن إعجاز القرآن بالصرفة وهي أن الله تعالى صرف نفوس العرب ورد همهم عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة. فكأنه يرى أن هذا الكلام يستوي مع كلام البلغاء في مادته الثانية وقدرته البلاغية ولكن الله صرفهم عن مجاراته ومنعهم عن منافسته.

وقال المرتضي من الشيعة: بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن. فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ما وراء ذلك من المعاني، لأنهم لم يكونوا أهل علوم.

وأوغل النظام في القول بالصرفة حتى عرف به وشايعه على ذلك بعض من خدعتهم بلاغته وغرهم حسن منطقهم، وحجته في ذلك أن عجز القادر مع وفرة العدة واستكمال الأدلة، واجتماع الأسباب أبلغ في تأييد الإعجاز وأقوى دلالة عليه من الضعف الذاتي الذي يبعثه تخاذل الملكة وقصور البيان.

على أن العجيب الغريب من أمر هؤلاء وما جبلوا عليه من العناد والممارسة أنهم يسترقون كل حيلة ويصنعون كل وسيلة لإثبات الصرفة، ولا يريدون أن يقرروا بعظمة هذا الكلام، وسُموه عن كلام البشر، كأنما يغصون به، وتكاد تزهق أرواحهم إذا لجثوا إلى تقريره، ولعل ما يكفي في الرد على هؤلاء أن الناس يقرأون للعرب ويدرسون القرآن ويستعرضون ثمار القرائح وحصائد الألسنة في كل عصر، قبل الإسلام وبعده، وما استطاع أحد أن يقول إن كلاماً قبيحاً مما يصح أن ينضد مع كلام الله في عقد، أو يسلك معه في سبط.

قد يقال: إن الله صرف العرب عن قبول التحدي فلم يأتوا بمثل هذا القرآن فأين كلام العرب قبل التحدي؟ وهل هو مما يضاهاى به كلام القرآن الكريم؟ وهل استطاع أحد قبل التحدي أو بعد التحدي أن يأتي بصورة بيانية مثل هذه الصورة: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾

ونحن أقرب إليه من جبل الوريد^(١)، أو هذه الصورة: ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها، وذوقوا عذاب الحريق﴾^(٢).

يقول الرافي في الإعجاز: «أن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: «إن هو إلا سحر يؤثر»، وهذا زعم رده الله تعالى على أهله وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضرباً من العمى، ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾^(٣).

وليس أدل على تحريف النظام، وسوء رأيه، وقلة ترويه في ذلك مما يقوله فيه تلميذه الجاحظ: «إنما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاص والسابق الذي لا يؤق بمثله. فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه كان أمره على الخلاف، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظناً، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ولكنه كان لا يقول: سمعت، ولا رأيت، وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو معاينة قد بهرت».

٥ - هذه طائفة من الآراء في الإعجاز، وهناك آراء أخرى للعلماء، وكلها مما ينحو هذا النحو، أو يتقارب من هذه المذاهب، وهي إن صدرت في أكثرها عن إخلاص وعقيدة، وفصلت عن اقتناع وبينة، فلم يسلم بعضها من النقد ولم يخلص من التجريح. على أنها في مجلتها مما يمكن أن يعد من مظاهر الإعجاز ويعتبر من دلائل التأيد.

(١) سورة ق الآية ١٦.

(٢) سورة الحج الآية ١٩.

(٣) سورة الطور الآية ١٥.

على أن هناك وجهاً للإعجاز لا يصح أن يتعلق منه أحد بشبهة، أو يحوم حوله بمرية، وهو إعجاز القرآن بأسلوبه البارع ونظمه الفائق العجيب، وتأثيره القوي على النفوس، ونفاذه إلى أعماق القلوب، وحسن مداخلته للأفئدة، وعلوه عن مستوى أبلغ البلغاء علواً كبيراً، مع شرف المعنى وسمو الحكمة ودقة المثل وروعة التصوير. إن الثابت المعروف أن العرب أعجبوا بالقرآن الكريم ودهشوا، وتحيروا، لبلاغته التي عقلت ألسنتهم، وتأثيره السحري الذي ملك ألبابهم، وأسلوبه الذي عظم عن أساليبهم، وروحانيته الصافية التي أشعرتهم بقيمتهم وحاكمتهم إلى قلوبهم وعقولهم، وحركت ضمائرهم، وأيقظت أحاسيس الخير في نفوسهم، وفتحت أمامهم الآفاق لمثل عليا وحياة كريمة.

ولم يقل أحد إن العرب قد هالهم ما ذكره القرآن من حديث عن الغيب، أو ذكر لحكايات من سلفوا، ووقائع من تقدموا، إنما الذي بهرهم وملكهم وعقل شياطين السوء في نفوسهم هو أسلوب القرآن ومعناه.

قيل: إن أبا جهل بن هشام قال في ملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد فلو التمسنا لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، وكلمه، ثم أتانا ببيان عنه، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي، ثم أتاه والشر ينبعث من عينيه، وشياطين السوء تلعب برأسه، فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا وتسب أحلامنا وتضلل عقولنا، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تك بك الباعة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، يقول عتبة: هذا ورسول الله ساكت، فلما فرغ من حديثه قرأ عليه محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ لِلَّهِ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون* ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون* وقالوا قلوبنا في

أكنة مما تدعوننا إليه وفي آذاننا قر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون* قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين* الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴿١﴾ إلى أن بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً عَادَ وَثُمُودَ﴾ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله. قالوا: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، فإنا بما أرسلتم به كافرون﴿٢﴾. وهنا ارتعد جسم عتبة وتساقطت نفسه رعباً وفزعاً، وصاح قائلاً: نشدتك الرحم يا محمد أن تمسك، وأمسك بقم الرسول، فهذا ملكك عليه بلاغة القرآن أقطار نفسه، فلم يتمالك من أن يصيح مناشداً الرسول أن يكف.

فهل كان الذي راعه وروعه وأشاع الرعب والوجل في قلبه إلا هذه القوة القادرة الخارقة، وذلك الأسلوب الحاسم الرصين، وتلك البلاغة المتدفقة التي تحمل في ثناياها الصدق والصرامة.

لقد رجع عتبة إلى أهله. فلم يخرج لقريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ. فانطلقوا إليه، وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب، وأقسم لا يكلم محمداً أبداً. ثم قال: لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

من كل ذلك يتضح أن إعجاز القرآن إنما جاء من جهة أسلوبه وما فيه من خصائص وميزات يستحيل أن تنهياً لبشر، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

(١) سورة فصلت الآيات ١ - ٧.

(٢) سورة فصلت الآيات ١٣ - ١٤.

٦ - هذا ويحصى الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، وجوه الإعجاز فيها

يلي:

١ - الإخبار عن المغيبات.

٢ - ما في القرآن من أخبار الأمم القديمة، مع أمية الرسول.

٣ - نظم القرآن وبلاغته.

ونحن نرى أن إعجاز القرآن إنما يظهر أول ما يظهر في:

١ - أغراض القرآن وبلاغته.

٢ - وفي ألفاظه وأساليبه.

٣ - وفي معانيه.

فمن جهة أغراضه ومقاصده: نجده في كل غرض وموضوع غاية في الإبانة والجلال، ونهاية في الإصابة، واطراد الأحكام، فمن تشريع خالد وتهذيب بارع وتعليم جامع وأدب بالغ، وإرشاد شامل وقصص واعظ ومثل سائر، إلى حكمة بالغة ووعد ووعيد وإخبار بغيب، وغير ذلك من الأغراض والمقاصد، وقد كان فحول البلاغة لا يبرز أحدهم إلا في فن واحد من أنواع القول: فمن يبرع في الخطابة لا ينبغ في الشعر، ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ومن يستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب، ولأمر ما ضربوا المثل بامرئ القيس إذا رغب، والأعشى إذا طرب، والنابعة إذا رهب.

ومن جهة ألفاظه وأساليبه: لا نجد منه إلا عذوبة في اللفظ، ودماثة في الأساليب، وتلاؤماً في التراكيب، وليس فيها وحشي متنافر، ولا سوقي مبتذل ولا تعبير عويص، ولا فواصل متعملة، على شيوع ذلك في كلام المفلقين، وأهل الحيلة المتروين؛ حتى إنك لترى الجملة المقتبسة منه في كلام أفصح الفصحاء منهم تفرعه جمالاً، وتشمله نوراً وتكسوه روعة وجلالة، إلى إجمال في خطاب الخاصة وتفصيل في تفهيم العامة، وتكنية للعربي وتصريح

للأعجمي، وغير هذا مما يقصر عن إحصائه الإلام، ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾^(١).

ومن جهة معانيه، التي تجدها من غير العرب الذي منه يستقون: لاطراد صدقها وقرب تناولها، واطمئنان النفوس إليها وابتكارها البديع على غير مثال معهود، من حجج باهرة، وبرهانات قاطعة وأحكام مسلمة، وتشبيهات رائعة! على تمازج وتواصل وبراءة من التقاطع والتدابير، وهو في جملة نزهة النفوس وشفاء الصدور، وهو الكتاب الخالد الذي لا تبديل لكلماته، ولا ناسخ لأحكامه ولا ناقض، ﴿إنما نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾^(٢).

يقول محمد عبده في إعجاز القرآن في كتابه «رسالة التوحيد» «نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى العصور عند العرب، وأغزرها مادة في الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطابة. وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل، ونتائج الفطن والذكاء، هو الغلب في القول، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب، ومقر الإذعان من العقول. وتواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي ﷺ، والتماسهم الوسائل قريبتها وبعيدها لإبطال دعوته، وتكذيبه في الإخبار عن الله سبحانه، وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم. وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعوه السلطان إلى مناوئته، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعتهم. وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته، وإنهالوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع، وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم. وهو مع ذلك يخطئ: آراءهم، ويسفه أحلامهم، ويحتقر أصنامهم، ويدعوهم إلى ما لم تهتد إليه

(١) سورة لقمان الآية ٢٧.

(٢) سورة الحجر الآية ٩.

أيامهم، ولم تحقق لمثله أعلامهم، ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب، أو بعشر سور مثله، وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به، ليبطلوا الحجة، ويفحموا صاحب الدعوة، وجاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي، ولحاج القوم في التعدي، أصيبوا بالعجز، ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل الكلام...».

أثر القرآن في الأدب العربي:

(١) أما أثره في الأساليب والألفاظ، فيتجلى واضحاً فيما يلي:

١ - وحد القرآن لهجات اللغة العربية في أفصح لهجة، وأعذب لغة: وهي لهجة ولغة قريش. ثم حفظ اللغة من الاندساس والانقراض، كما انقرضت لغات كثيرة.

٢ - كان القرآن أول عامل في ذبوع اللغة العربية وانتشارها وجعلها لغة رسمية عامة في شتى البلاد التي فتحها المسلمون.

٣ - جدد القرآن الكريم كثيراً من الألفاظ، فنقلها إلى معان إسلامية، مثل الإيمان والكفر والنفاق، والصلاة، والصيام، والزكاة، والركوع، والسجود، والوضوء، والغسل، والحج.

٤ - هذب القرآن الأساليب والألفاظ، وذلك بكثرة ترديد المسلمين لآياته على ألسنتهم في الصلاة والعبادة، وطول درسهم له وتفهمهم إياه واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم منه. فنشأ من ذلك أن هجر كثير من الألفاظ الخوشية والمعيبة وتستبدل بها الألفاظ العذبة السائغة، وعدل عن الأساليب القديمة المعقدة والمتداخلة بعضها في بعض إلى أساليبه السهلة الممتنعة، وأبطل سجع الكهان.

٥ - وقد كثرت محاكاة الشعراء والكتاب والخطباء لعبارات القرآن في ألفاظه وأساليبه واقتباسهم من آياته فيما يقولون واستشهادهم بها في وعظهم ومحاورتهم وجدلهم. ويرى المتتبع لشعر المخضرمين في أول الإسلام كحسن

وأبي قيس وصرمة وكعب بن مالك والحارث بن عبد المطلب، ولشعر الإسلاميين كثيراً من ألفاظ القرآن وأساليبه وكنائياته وتشبيهاته.

٦ - وقد خلد القرآن صور البيان الرائع والأساليب البديعة التي استخرجها بعض الأدباء منه وسموها المحسنات البديعية.

(ب) وأما أثر القرآن الكريم في معاني الأدب العربي فيتلخص فيما يلي:

١ - شيوع الدقة، والعمق والترتيب العقلي، والخصافة والسمو، في معاني الأدب - شعره ونثره - بتأثر الأدباء والشعراء بمعاني القرآن الكريم، ومحاسنهم لها.

٢ - ترك المبالغة والفحش، والتزام الصدق والإخلاص في معاني الأدباء الإسلاميين.

(ج) وقد أثر القرآن الكريم في أغراض الأدب شعره ونثره تأثيراً كبيراً:

١ - فقد هجر الأدباء الإسلاميون الأغراض الجاهلية: من المبالغة في المدح والفخر والهجاء، والمجون في الغزل، والدعوة إلى العصبية والانتقام والأخذ بالثأر.

٢ - وقد أتى القرآن بكثير من القصص المساقاة للعبارة والذكرى، كقصص الأنبياء وبعض الملوك، وكان من أهم الأسباب التي حملت المسلمين على درس تاريخ العرب البائدة والأمم السامية وغير السامية، مما جعل التاريخ العربي ذا فنون وشعب كثيرة العدد والمباحث، وجعله من أجمل كتب الأدب العربي، وهكذا أحيا القرآن فنوناً أدبية جديدة، كأدب القصة والتاريخ، وأدب الزهد وأدب الحكمة وهكذا.

٣ - وبسبب القرآن الكريم عكف العلماء والمفكرون على وضع أصول العلوم والثقافة الإسلامية، وكثرت الكتابة في هذه العلوم والثقافات. ولشدة حرص المسلمين على تفهم القرآن من حيث معرفة ألفاظه والوقوف على معانيه الوضعية والمجازية وأساليبه المختلفة وكنائياته الدقيقة حملتهم بل فرضت عليهم

تتبع ألفاظ اللغة العربية الفصيحة من العرب الموثوق بخلوص عربيتهم، فكان من ذلك أن تجرد ألف من الرواة، يجمعون اللغة وشعرها وأمثالها ووصاياها وخطبها وأسجاع كهانها، فجمعوا من ذلك مئآت الكتب والرسائل، وتألفت بذلك مادة الأدب القديم، التي صارت فيما بعد أساساً للأدب العربية في موضوعاتها وأغراضها ومعانيها وتصوراتها وأخيلتها.

٤ - ولقد رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين فنون الأدب.

٥ - ولقد اكتسب الشعراء والخطباء والكتاب من أساليب القرآن وطرائقه في التعبير ومناهجه في سوق الآراء وصياغة الحجج، مما جعلهم يحتذون حذوه، ويتبعون منهجه، فإذا كنا نقرأ في أي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾^(١) أو قوله: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾^(٢) أو قوله تعالى: ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾^(٣).

فإننا نرى هذا الأسلوب البياني الرائع يتمثل في قول حسان بن ثابت في الرد على أبي سفيان بن الحارث حين هجا النبي ﷺ:

أتهجوه ولست له بكفاء فشركما لخيركما الفداء

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه بما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾^(٤) رأينا كذلك حسناً يقتبس هذا الأسلوب البارع في قوله:

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾^(٥) رأينا معن بن أوس يقول متأثراً بأدب القرآن:

(١) سورة سبأ الآية ٢٤.

(٢) سورة المنافقون الآية ٨.

(٣) سورة مريم الآية ٧٣.

(٤) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٥) سورة الاسراء الآية ٢٤.

فما زلت في ليني له وتعطفي عليه كما تخنو على الولد والأم
 وخفض له مني الجناح تألفاً لتدنيه مني القرابة والرحم
 وكما أثر القرآن في أساليب الأدباء كذلك أثر في تفكيرهم حتى لقد رأينا
 الخطيئة وهو أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب يقول:
 ولست أرى السعادة جمع مال
 ولكن التقى هو السعيد
 وتقوى الله خير الزاد ذخراً
 وعند الله للأتقى مزيد
 والحق أن القرآن الكريم هو الذي خرج أعلام البلاغة وفحول البيان
 والأدب والشعر.

أثر الإسلام في اللغة العربية:

وللإسلام أثر كبير في اللغة العربية يمكننا أن نوجزه فيما يلي:

١ - وحدة اللغة:

جاء الإسلام وللعرب لهجات مختلفة، ولهجة قريش لها المنزلة الأولى
 بين هذه اللهجات بتأثير الأسواق ومواسم الحج لنفوذ قريش الروحي
 والاقتصادي بين العرب وما كانوا عليه من ثقافة وخبرة وتجربة، ونزول القرآن
 الكريم بلغة قريش، فأيد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والغلبة، وكان من
 قريش ومن السلالات المضرية - أبناء عمومتهم - رجالات الدعوة وزعماء
 الدولة وأمرائها وقوادها وقضاتها وحكامها وعمالها، فكان لذلك أثر كبير في
 انتحال العرب لغة قريش بعد قليل، أما ما تورث من لغة حمير، فلم يكن
 متميزاً عن اللغة القرشية كثيراً سواء في التصريف أم الإعراب أم الأسلوب،
 بل كان أكثره ظاهراً في اختلاف بعض الألفاظ عن بعض في الدلالة على
 المعاني المستخدمة: فالكثع في اللغة الحميرية، هو الذئب في لغة قريش.

وأنطى في لهجة حمير، بمعنى أعطى عند قريش؛ والشناتر في كلام حمير؛ هي الأصابع في لهجة قريش، وسامدون لغة حميرية وهي في لهجة قريش: الغناء.. وهكذا، إلى غير ذلك مما له نظير في لهجات المضربين أنفسهم، كالسدفة فهي الظلمة عند تميم، والضوء عند قيس.

ولقلة الخلاف بين الحميرية والقرشية اندمجت لغة حمير كأخواتها في لغة قريش التي أصبحت لها السيادة والغلبة على جميع اللغات واللهجات.

٢ - انتشار اللغة وذيوعها:

أدت الفتوحات الإسلامية الباهرة إلى انتشار العرب في شتى البلاد المفتوحة، وإلى ذيوع اللغة العربية في أكثر هذه الأقطار، وصارت هي اللغة الرسمية فيها، وأصبح يلهج بها بعد قليل سكان سوريا ومصر وفلسطين وإفريقيا الشمالية، وصارت لغة الدين والسياسة والثقافة في هذه البلاد وسواها. وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة عالمية بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى.

٣ - اتساع أغراض اللغة:

اتسعت أغراض اللغة بسلوكها منهجاً دينياً، واتباعها خطة نظامية تقتضيها حال الملك وسكنى الحضرة، فأخذت اللغة تستعمل في:

(أ) تبين العقائد الدينية التي جاء بها الإسلام: من إثبات وجود الخالق وتوحيد ذاته وتقديس صفاته، ومن الإيمان بالبعث والنشور والثواب والعقاب، وغير ذلك مما لم يكن يفقه بعضه إلا بعض الخاصة الجاهلية، وأصبح بعد الإسلام الشغل الشاغل لجميعهم، بل للأمة الإسلامية جمعاء.

(ب) تبين الشريعة واستنباط الأحكام الملائمة لأحوال الزمان والمكان، ولحسن معيشة المرء في منزله ومعاملته للناس والسلطان.

(ج) استعمالها في ضبط أموز الملك ونظام العمران، ونشر الأمان والعدل مما تستدعيه مرافق أهل الحضرة والأمصار.

(هـ) وضع مبادئ العلوم، وترجمة اليسير من العلوم الطبيعية والرياضية والطبية.

٤ - أما في المعاني:

فقد راقى المعاني ويظهر ذلك في الأمور الآتية:

- ١ - اتساع مادة المعاني باتساع المشاهدات والمعقولات.
- ٢ - حسن نظامها ومراعاة الوفاق بينها؛ لارتقاء الفكر وثقافته بالنظر الصحيح في أمور الدين والملك والاقتباس من حضارة الفرس والروم، وتنوع صور الخيال، وروعة جماله، تبعاً لتنوع المراتب الجميلة التي انتزع منها.
- ٣ - دقة المعاني وعمقها وتركيبها، لأنها صارت تنبع من معين ثقافة القرآن الكريم، ومن أصول العلم والمعرفة في الإسلام.

٥ - ألفاظ اللغة وأساليبها:

- تغيرت الألفاظ والأساليب عن ذي قبل وظهر أثر هذا فيما يلي:
- تهذيب ألفاظ اللغة: بمحاكاة ألفاظ القرآن الكريم والسنة في مجانبة حوشي الألفاظ الذي ينبو عنه السمع، ويمججه الذوق السليم.
- ٢ - نشأة ألفاظ إسلامية محضة، مثل الجاهلية للعصر الذي كان قبل ظهور الإسلام، ومثل المصحف، وأبو بكر خليفة رسول الله ﷺ هو الذي أطلق هذا اللفظ على الصحف التي جمع فيها القرآن الكريم في عهده.
 - ٣ - التوسع في دلالة الألفاظ: بإخراجها من معنى إلى معنى بينه وبين الأول مناسبة، ومن ذلك الألفاظ التي استعملها الشارع في غير معناها الأصلي: كالصلاة والصيام والزكاة والمؤمن والكافر والفساق والمنافق وغير ذلك، والألفاظ التي استعملت في نظام الملك ومصطلحات العلوم والصناعات

التي عرفت في ذلك العصر.

٤ - موت ألفاظ منع الشارع استعمال مدلولاتها أو أعضاؤها غيرها كالمرباع والنشيطه والفضول، وكم صباحاً وعم ظلاماً، وكقولهم «ضرورة» للذي لم يحج ولم يتزوج، فقال ﷺ: «لا ضرورة في الإسلام».

٥ - دخول طائفة من الألفاظ الأعجمية في الكلام، وتسمى الكلمة حينئذ معربة ومن مثل ذلك: سندس واستبرق والدياج والرقيم وأواه وحنان والأسفار والرييون وغير ذلك.

٦ - التأنق في صوغ الأساليب والتفنن في تنوعها وإحكام نظمها، ووصولها في البلاغة إلى غايتها، لانبعاث روح القرآن الكريم في قلوب المتكلمين بها، وسلوكهم سبيله في البيان، وحسن الأداء، مؤثرين الإيجاز على الأسباب في أكثر المواضع، إلى أن تقاصرت دونه إفهام الناشئين في الحضرة من العرب، والمستعربين من العجم آخر هذا العصر، فأصبح للاسهاب نصيب من عنايتهم لا يقل عن الإيجاز.

ولا شك أن معظم هذه التغيرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

أثر الإسلام في حياة العرب الأدبية:

بزغ فجر الإسلام على العرب بالجزيرة بنور جديد تفتحت عليه عيونهم وقلوبهم وتيقظت له بصائرهم وعقولهم، وهنالك لم يجدوا بداً من الانتباه له والالتفات إليه معارضين جاحدين، أو مؤمنين مدعنين، ثم عكفوا عليه يدرسون ويتأملونه، وكان لهذا كله من الأثر في أدبهم والتوجيه لسلوكهم، والتقويم لطباعهم، والتهديب لأخلاقهم، والاختيار لألفاظهم، ما لا يدع مجالاً للشك في أن البلاغة في التعبير والأناقة في التصوير، والأدب في الحديث، والذوق في الخطاب، والسمو في الخيال، والإيمان بالمثل العليا، والغيرة على الحق، والغضب للكرامة، قد اتجهت اتجاهاً سديداً، وأخذت لونا

جديداً، ولذلك يقول المؤرخون: إن كثيراً من الشعر غاض ماؤه، وانعكس لواؤه، وحرار بيانه وتعثر لسانه، وذهل لبه، وخانه قلبه، وأجبلت قريحته، وأظلمت بديته، فأقصر عن الشعر، لأنه رأى في بيانه عيباً، وفي نطقه خرساً، وفي فصاحته فهاهة، وفي أدبه قحة، وإن ما جاء به محمد ﷺ لا يتناول إلى بيانه بيان، ولا يستطيع أن ينطق بمثله لسان، أو يجري في مضماره إنسان، اللهم إلا أن يسير على ضوئه، ويهتدي بنوره، ويقتبس منه ويعود من جديد تلميذاً له، يأخذ من فضله ويتنفع بأدبه، ويسترشد بنصحه.

وقد وقف دولاب الكلام إلى حد ما، وأصبح الشعر الذي كانت له دولة لها نفوذ وسلطان، وعرش وصولجان، لا يذكر إلا في مخلفات الجيوش المهزومة، والتاريخ الذاهب، لأن صوت القرآن المدوي غطى على بلاغة الشعراء، وفصاحة الخطباء، وصار الذي يقول الشعر، أو يخاطب في المجمع، أو يتحدث في المجالس، لا ينطق إلا بحذق، ولا يقول إلا بميزان، فلا يتلفظ بهجر مزر، أو أدب معيب، أو كلام هزيل، أو بيان مردول.

ولا نعي بهذا أن مصراع الزمن قد أغلق دون القريض، وأن السنة الشعراء قد عقلت عن القول، ولكننا نعي أن أساليب البيان العربي أخذت طابعاً أحسن ولوناً أجمل. وطريقاً أفضل، وسبيلاً أقوم، وصار الناس يقابلون بالسخرية مجون امرئ القيس، وخلاعة طرفة بن العبد، وتبع ذلك أنهم هجروا الألفاظ النابية، والعبارات المكشوفة، والمعاني الهزيلة، والعواطف النازلة، والأخلاق المفضوحة، وكان أسمى ما يهدف إليه قائل، أو ينطق به متحدث، الدعوة إلى مكرمة، أو الحث على فضيلة، أو الغيرة على عرض، أو التفاني في واجب، أو الذود عن حب، أو العصبية لغرض شريف أو هدف نبيل، أو غاية محمودة، وكان حملة لواء البيان حينئذ هم جنود الدعوة الإسلامية الذين وقفوا إلى جانب رسول الله ﷺ، يؤيدون دينه، ويمكنون له ويدافعون عنه، أمثال كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين، وكانوا بهذا اللون الصادق الإحساس والنقي الوجدان، قد أحدثوا في الشعر مجالاً، فياضاً بالمعاني، خصباً بالصور، غنياً

بالقول، قوياً ثرياً بروعة البيان، يجد عشاق الأدب فيه إرواء ظمئهم، وإشباع نهمهم، وشفاء لما في صدورهم.

والأدب المأثور عن عصر صدر الإسلام يمثل بوضوح روح الإسلام. ومدى تأثير المسلمين بأدب القرآن الكريم وبلاغته، هذا التأثير الكبير الخطير الجليل. وكما أثر الإسلام والقرآن في حياة العرب الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقلية أثر كذلك في حياتهم الأدبية، وأصبح الأدب العربي بعد ظهور الإسلام يغير قليلاً أو كثيراً أدب الجاهليين، ويصور عقلا غير العقل الجاهلي، وشعوراً غير الشعور الجاهلي.

وصار هذا الأدب يمثل في مطلع عصر صدر الإسلام هذا الصراع بين وثنية الجاهلية وتوحيد القرآن الكريم، ولم يمض ربع قرن منذ البعثة المحمدية حتى كان العرب جميعاً قد دخلوا في الإسلام، واتخذوه عقيدة لهم وقانوناً ونظاماً ومثلاً أعلى في حياتهم، وتطور الأدب العربي بظهور الإسلام تطوراً كبيراً في أغراضه ومعانيه، وفي أخيلته وصوره، وفي فنونه الأدبية، وفي ألفاظه وأساليبه، مما سنحدثك عنه بعد قليل.

وهكذا غير الإسلام من مجرى الحياة الأدبية عند العرب تغييراً كبيراً، ومن البدهي أن تعلم أن التغيير الذي حدث في الآداب العربية منذ ظهور الإسلام لم يكن يرجع إلى شيء إلا إلى الإسلام وحده. فلم يرجع إلى شيء اقتبس المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافة وعلم وأدب وفن، ولا إلى آثار مدنية وحضارة، لأن العرب كانوا ما يزالون يؤثرون البداوة والخشونة، ولم يكونوا قد فرغوا بعد من قراع أعداء الدعوة، ومن نضال خصوم الإسلام.

فكل تغيير حدث في الأدب إنما كان مصدره الأول القرآن الكريم الذي كان وحده مصدر ثقافة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية، وهو الذي أحال خشونة الطباع عنوية وسلاسة، وبدل حوشية الألسنة سهولة ووضوحاً وبلاغه، وأورث العرب دقة في التفكير، وقوة في التعبير، وجمالاً في التصوير، ورقة في الأسلوب، وروعة في الحجة.

وعليك أن تعرف أن تأثير الإسلام في الحياة الأدبية للعرب لم يحدث فجأة، ولم يتم مرة واحدة، وإنما حدث قليلاً وظهر شيئاً فشيئاً، وقضى العرب وقتاً مستمسكين فيه بأدبهم القديم. لا يكادون يعدلون عنه. ثم بدأ عصر الانتقال بشيء من الحيرة، حين تلى عليهم القرآن. فأنكروه وأكبروه، وتدبروه. فقهرتهم بلاغته وقهرتهم قوته وعظمته. وأحبوه واطمأنوا إليه، وبعد أن كانوا بين منكرين له أصبحوا مؤمنين به. وخاضعين له. ومقرنين بعظمته وبلاغته. ومهتدين ببيانه وأسلوبه ومعانيه.

وهكذا يتضح أثر الإسلام في حضارة التدوين وفي الأدب العربي فتنوعت فنون الكتابة فيه. فنشأت الرسائل والخطب السياسية، ووجدت للشعر أهداف سياسية جديدة، واتسعت أغراضه القديمة. وقد جدت أجناس أدبية لم يكن للعربية بها عهد مثل الخرافة أو القصة على لسان الحيوان. والمقامة ولا نكاد نصل إلى العصر العباسي الأول حتى ينشأ النثر العلمي الخالص ويستوعب آثاراً أجنبية كثيرة نقلت إليه، منها الأدبي ومنها السياسي، ومنها الفلسفي، بل أن الترجمة ذاتها ترتبط بحضارة التدوين ومن أجل ذلك أسست لها دار الحكمة وأكب المترجمون من السريان وغيرهم على التراث اليوناني والفارسي والهندي.

وكما يقول الدكتور روزنتال: فإن العلماء المحدثين الذين يعيشون في عالم لم تعد فيه بعد أهمية للعلم المحفوظ في الذاكرة يبالغون الاهتمام بما يسمعون من أخبار عن قوة الذاكرة التي كان يتميز بها العلماء المسلمون. فإنهم يشعرون أن هذه الظاهرة توفر لهم أحسن الظروف لدراسة أهمية الرواية الشفوية في نقل الأخبار الدينية والأدبية. نعم، إن حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب إلى جانب عدد كبير من الأحاديث والأشعار والقصص حقيقة حرية بالاعتبار. ولكن بعد أن وفرت الطباعة طبع المخطوطات على نطاق واسع فإن إرهاق الذاكرة أصبح من وجهة نظر العالم أمراً لا طائل تحته. وليس من العسير علينا أن ندرك أهمية الحفظ عن ظهر قلب في عصر المخطوطات (أي قبل ظهور الطباعة). فمما يعزى إلى سقراط أو (إلى أحد أساتذته) قوله أنه

يكره أن يرى أفكاره تدون على جلود البقر الميتة عوضاً عن أن تطبع على قلوب الناس الأحياء. وفي هذا القول تعبير بليغ حاد عن الشعور الذي يسود الجدل والمناقشات التي كانت تدور حول قيمة المعرفة التي تعتمد على الذاكرة.

«إن الشك في الكلمة المدونة وعدم الثقة بالملفوظ يفسران أيضاً، ولو جزئياً إثارة الناس للتعلم الشفوي على العلم الذي يحصله الطالب من الكتب. والأدلة على ذلك كثيرة، نكتفي بالإشارة لما كتبه ابن بطلان وابن رضوان الطبيين اللذان عاشا في القرن الحادي عشر للميلاد.

ولكن بالرغم من الاحترام الشديد الذي كان يكنه الناس أو يدونه للعلم المحفوظ وحافظيه، فإن الحضارة الإسلامية كغيرها من الحضارات الراقية كانت تقوم على الكلمة المكتوبة. فقد أثبت البحث أن بعض الشعر الجاهلي تحدر إلى العرب عن طريق الكتابة بالرغم من أن الشعر والتقليد الديني يعتمدان في الدرجة الأولى على الرواية لا على الكتابة.

الكتابة في العصر الجاهلي:

انتقلت الكتابة من الأنبار والخيرة على يد بشر بن عبد الملك وهو أخو أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل^(١). فإن بشراً خرج إلى مكة وتزوج بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان. فعلم جماعة من أهل مكة الكتابة فكثرت من يكتب بها من قريش.

قال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يفتخر على قريش بذلك:

(١) يرد ذكر أكيدر في السيرة النبوية في غزوات الرسول صلوات الله عليه وسراياه، كغزوة تبوك، وفي السنة الخامسة للهجرة عزى الرسول ﷺ دومة الجندل وهي أولى غزواته للروم، وبين دومة الجندل ودمشق خمس ليالي، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة، وكان صاحبها أكيدر يدين بالنصرانية، ويخضع لنفوذ هرقل ملك الروم. وفي السنة التاسعة غزا خالد دومة الجندل وفتحها بعد غزوة تبوك، واخذ أكيدر أسيراً.

فلا تجحدوا نعماء بشر عليكم
فقد كان ميمون النقيبة أزهر
أتاكم بخط «الجزم» حتى حفظتمو
من المال ما قد كان شق مبعثرا
فأجريت الأعلام عودا وبدأة
وضاهيتمو كسرى وقيصرا
وعرف خط أهل الحجاز «بالحجزي»، ولما نشأت الكوفة أدخل عليه
كتابها من الزخرف والتحسين فسمى «الخط الكوفي».
والكتابة على أي حال أكد أسباب الحضارة، وأوثق وسائل العمران،
وكلما ازدادت شؤون الحضارة، واتسعت مذاهب الملك، وتعددت مناحي
التفكير ومناهج الثقافة، ازدادت الحاجة إليها وازداد الكتاب إقبالا عليها
وافتنانا في مناحيها وتجويداً في لغتها ومعانيها وتنوعاً في موضوعاتها وأغراضها.

الكتابة في عصر الرسول:

ولما بعث الرسول ﷺ كان بمكة نفر من يحسنون الكتابة ويبلغون نحو
السبعة عشر، ثم لما هاجر إلى المدينة وقعت غزوة بدر في السنة الثانية من
الهجرة الشريفة وأمر المسلمون نحو سبعين رجلاً من قريش وغيرهم، جعل
الرسول ﷺ فداء كل من يعجز عن دفع المال لتعليم الكتابة لعشرة من فتيان
المدينة، فلا يطلق سراحه إلا بعد تعليمهم، فكثرت الكتابة في المدينة،
وأخذت تنتشر في كل ناحية دخلها الإسلام في حياة الرسول وبعده.
وبلغ عدد كتبه عليه الصلاة والسلام ثلاثة وأربعين كتاباً، ومنهم زيد
ابن ثابت، ومعاوية، واختلف في كونه ﷺ يقرأ ويكتب، فمن قال بذلك
استدل بقول الله تعالى: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾^(١) ويحدث
البخاري أنه عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية أخذ الكتاب ليكتب
فكتب. ومن قال إنه أُمي استدل بقوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من

(١) سورة البينة الآية ٢

كتاب ولا تخطه بيمينك^(١) وبحديث البخاري : نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب. . . وليس ما يمنع من أن الرسول صلوات الله عليه وسلم كان أمياً قبل بعثته لتتم له المعجزة، ثم بعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته، تعلم الكتابة وعرفها.

وكان علي كرم الله وجهه، وعائشة وصفية من أمهات المؤمنين يحسنون الكتابة.

ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وقد أناف من يعرفون الكتابة على خمسمائة بين رجل وامرأة وفتى.

وفي العهد النبوي كتب القرآن الكريم، ورسائل النبي ﷺ إلى الأقبال والأمراء والملوك، وكتبت عهود الصلح بينه وبين قريش وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين.

وكان كتابه ﷺ نوعين: كتاب وحي، وكتاب أعمال. . . ومن بين كتاب الأعمال: الزبير بن العوام، وجهم بن الصلت، وكانا يكتبان الصدقات، والمغيرة بن شعبة، والحصين بن ثمر، وكانا يكتبان التداين والمعاملات، وحذيفة بن اليمان، وكان يكتب خرص النخل.

الكتابة في عهد الخلفاء الراشدين:

ولما توفي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه واتسعت الفتوحات الإسلامية وكثرت الحاجة إلى الكتابة، وقام الكتاب بأعمال الدعوة والدولة، فكتبوا القرآن الكريم، واستخدمهم الخلفاء في كتابة رسائلهم إلى العمال والولاة والقواد، وفي وصاياهم إلى قضاتهم، ورسائلهم إلى أهل الأمصار، وفي كتابة وثائق الصلح ونصائح الخليفة وتوجيهاته في الحرب والسلام.

وكان الخليفة أو الوالي يكتب بيده أو يولي على بعض الكتاب، ولم تكن قد صارت بعد صناعة فنية كما حدث في عهد بني أمية وبني العباس.

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٨.

دواعي الكتابة وأغراضها:

وكانت الحاجة إلى الكتابة في عصر صدر الإسلام كثيرة:
فقد كان المسلمون في حاجة إليها لتدوين القرآن ولكتابة رسائل الدعوة
إلى الإسلام.

كما كانوا في حاجة إليها في شؤون الملك والسياسة. والحروب والسلم
وفي كتابة العهود والمصالحات والمنشورات والوصايا والنصائح.

ثم دعت الحاجة إليها في تدوين الدواوين وتنظيمها.

فإنه لما اتسعت الفتوحات في عهد عمر وكثرت موارد الدولة ووفرت
الغنائم احتاجت الدولة إلى إنشاء الدواوين لضبط مواردها ومصارفها وضبط
أعطيات المسلمين.

وقد عهد الخلفاء بالكتابة في الدواوين إلى العرب والموالي والمتعربين وظلت
كتابة الخوارج في الأقاليم بلغة أهل مصر، ففي العراق وفارس بالفارسية،
وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالقبطية. حتى حذقها من العرب طائفة فحولت
بعد ذلك الكتابة في الدواوين إلى اللغة العربية وذلك في عصر بني أمية.

* * *

ويمتاز أسلوب الكتابة في هذا العصر بما يأتي:

١ - سهولتها ووضوحها وقصدها إلى الغرض وبعدها عن التكلف
وخلوها من عبارات التفخيم، وتأثرها بالقرآن الكريم وأسلوبه واقتباسها منه.

٢ - ميلها إلى الإيجاز، حتى لقد كتب خالد بن الوليد إلى عياض رسالة
وهو محاصر بدومة الجندل يقول فيها:

«من خالد إلى عياض: إياك أريد».

٣ - وكانت الرسائل تبدأ باسمك اللهم، ثم يقول من فلان إلى فلان،
ثم يلي ذلك غالباً قوهم: السلام عليكم، أو السلام على من أتبع الهدى، ثم

يثنون بقولهم: «إني أحمد الله إليك» ثم يأتي الكاتب غالباً بأما بعد، ويذكر غرضه الذي يكتب لأجله، ويختتمها بقوله: «السلام عليكم ورحمة الله».

نماذج للكتابة:

١ - ومن نماذجها ما كتبه رسول الله ﷺ إلى هرقل في السنة السابعة من الهجرة. وقد بعث رسول الله ﷺ بهذه الرسالة دحية بن خليفة الكلبي، ونصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم. أسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين^(١).

«يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً. ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون».

٢ - وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري، وقد ولاه القضاء.

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس، سلام عليك، أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. أس^(٢) بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك^(٣)، ولا يئأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

(١) هم العمال والفلاحون لأنهم تبع لسادتهم.

(٢) أس: أي سويين الناس.

(٣) الحيف: الظلم.

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً. لا يمنحك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماهي في الباطل، الفهم فيما يتلجلج في صدرك عما ليس في كتاب ولا سنة، ثم أعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك، وأعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق».

٣ - وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب حين اشتد بينهما الخلاف:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب: أما بعد: فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، ولكنك أغريت بدم عثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل. وقوي بك الضعيف. وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت^(١) شورى بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم الحكماء على الناس، والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكماء على الناس أهل الشام، ولعمري ما حججتك عليهم كحججتك على طلحة والزبير، لأنها بايعاك ولم أبأيعك. وما حججتك على أهل الشام كحججتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام، فأما شرفك في الإسلام، وقرابتك من رسول الله ﷺ، وموضعك من قریش فلست أدفعه».

ولما جاء العصر الأموي دعا المسلمين إلى تدوين العلوم دواع كثيرة وساعدهم على ذلك:

- ١ - بدء محضرهم والحضارة تستلزم العلم دائماً.
- ٢ - قريهم من الأمم المتحضرة ذات الثقافات القديمة كالفرس والروم وصول بعض آثار حكمتهم وفلسفتهم وتاريخهم إلى المسلمين مكتوبة.

(١) كانت أي الخلافة.

٣ - وجود عناصر كثيرة - تعرف نظام التدوين - داخل الدولة الإسلامية، كالسريان والفرس وسواهما من العناصر الرومانية والإغريقية.

٤ - انتشار الكتابة بينهم.

٥ - حاجتهم إلى حفظ الشريعة وكتابتها وعلومها.

٦ - حاجتهم إلى المعارف القديمة سواء في الطب أم في الفلك أم في غير ذلك من ألوان المعرفة.

٧ - حاجتهم إلى العلوم المختلفة في حفظ نظام الملك وسياسته، ورغبتهم في الوصول بدولتهم إلى حد بعيد، من الحضارة والرقى والثقافة، يحفزهم على ذلك القرآن الكريم ودينهم المجيد.

وكانت مراكز الثقافة الإسلامية في هذا العصر كثيرة، وأهمها المدينة المنورة ومكة المكرمة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط.

وكان بظاهر الكوفة «الكناسة» وبظاهر البصرة «المربد» وهما سوقان أدبيان وعلميان رائجان، وكان المربد مآلف الأشراف^(١)، وستكلم عليه بعد قليل.

وسنحدثك عن أهم ما دون في العصر الأموي من العلوم:

١ - التفسير، وقد رويت فيه روايات كثيرة عن رسول الله والصحابة رضوان الله عليهم وكانوا يتناقلون ذلك، وأول تفسير ثُوِّنَ هو تفسير ابن عباس رحمه الله المتوفي عام ٦٨٠ هـ في الطائف وطبع في مصر في المطبعة الأميرية عام ١٢٩٠ في سفر واحد: وهو مجموع روايات دونها ابن عباس.

ويتصل بالتفسير قراءات القرآن وقد كثرت العناية بها في العصر الأموي الذي عاش فيه كثير من القراء كابن كثير م ١٢٠ هـ وعاصم م ١٢٨ هـ ويزيد ابن القعقاع م ١٣٢ هـ.

(١) ٣/٢١٠ العقد، ودوي عن الجارود قال: عليكم بالمربد فإنه يطرد الفكر ويجلو البصر ويجلب الخبر ويجمع بين ربيعة ومضر (١/٢٢٣ البيان والتبيين للجاحظ)

هذا وللشيعة تفسير قديم ينسبونه إلى محمد الباقر بن علي بن الحسين،
ويقال: إن أول مَنْ دَوَّنَ في التفسير مجاهد (م ١٠٤هـ) وتفسيره غير موجود.

ولم ينضج هذا العلم إلا في العصر العباسي.

٢ - الحديث: لم تكن تُدَوَّنُ أحاديث رسول الله ﷺ في عهده ولا في عهد أصحابه.

فلما كثرت الفتوحات والحروب الإسلامية وكثرت الثورات والأحزاب السياسية والفرق الدينية ووضع بعض الناس أحاديث على رسول الله ﷺ، ويقال إن المهلب بن أبي صفرة كان يضع الأحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج^(١).

أخذ المسلمون في التمييز بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة، واشتهر من المحدثين في عصر بني أمية: عاصم بن سليمان م ١٤١هـ بالكوفة، وخالد الحذاء مولى قريش المتوفي عام ١٤١هـ، وشعبة بن الحجاج م ١٦١هـ. وسواهم.

وأمر عمر بن عبد العزيز - بعد أن استخار الله أربعين يوماً - ابن شهاب الزهري أو ابن جريج أو أبا بكر بن حزم بجمع الحديث وتدوينه، فتم ذلك، وبعث بنسخ منه إلى الأمصار.

٣ - النحو وأمر تدوينه معروف، وقد وضع الخضرمي كتاباً في الهمز.

٤ - الشعر الجاهلي، أخذ الرواة والمؤدبون في رواية الشعر الجاهلي وتدوين آثار منه ويقال إن أول من جمعه حماد الرواية، ثم ألف فيه بعد ذلك المفضل كتابه «المفضليات».

٥ - التاريخ، ويقال إن معاوية استكتب رجلاً من أهل اليمن اسمه عبيد بن شربة الجرهمي بعض أخبار الأوائل فكتبها له. فكان هذا أول كتاب دُوِّنَ في التاريخ. . . وعني الأمويون كذلك بعلم الأنساب.

(١) ابن خلكان ١٤٦/٢.

٦ - الفقه، وقد اشتغل به في العصر الأموي جلة الصحابة والتابعين، ويقال إن زيد بن علي بن الحسين أملى كتابا في الفقه وأنه أقدم كتاب في هذا العلم في الإسلام.

٧ - أما أصول الدين فيقال إن واصل بن عطاء ألف كتاباً في المرجئة وآخر في التوبة وآخر في معاني القرآن.

٨ - وألف يونس بن حبيب كتباً في الأغاني دون فيها أصول الألحان عن معبد وابن سريج.

٩ - وترجموا في الطب والكيمياء، فقد رأى عبد الملك بن مروان وهو أعلم الأمويين بالأدب وأفقههم في الدين أوراقا في الكيمياء نقلها خالد بن يزيد (٨٩ هـ) فقال له: أف لك أنسب الملوك وهمة الموالي؟ وكان خالد قد عني بالكيمياء والطب وقيل إنه درس كتبهما عن رجل من السريان يدعى مريانوس وأنه أمر أسطفان القديم بترجمة هذه الكتب إلى العربية.

وبعد فلم تكن العلوم المدونة في هذا العصر إلا مجموعة روايات لا أثر للتحقيق والدرس والبحث فيها، ولكن لا ضير من ذلك، فقد كانت النواة الأولى لتدوين العلوم في الإسلام.

وعلى الجملة فقد كان العرب ينظرون إلى تدوين العلوم نظرتهم إلى صناعة الخضر والموالي الصغيرة التي لا يصح لهم أن يحترفوها، ويأنفون من صناعة التأليف لأنها صناعة الموالي على أيامهم وفي رأيهم.

النثر الأموي:

النثر الأدبي أو الفني هو الكلام الذي يصور العقل والشعور، ولا يتقيد بوزن أو قافية.

ويرى الباحثون من الأدباء المحدثين، ومن بينهم الدكتور طه حسين، أن القرن الأول الهجري لم يكن فيه نثر فني يعتد به، إنما كان الشأن للشعر، وقد احتذى الدكتور في ذلك حذو الأستاذ مرسية الفرنسي، وهو أول من

ذهب إلى ذلك، وإلى أن النثر الفني في الأدب العربي يبتدئ بابن المقفع، وابن المقفع في نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات الجديدة في الإنشاء العربي، وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبي في اللغة العربية، وقد آمن الدكتور طه حسين بهذا الرأي وبأن الشعر أسبق من النثر الفني في آداب اللغة العربية، وأذاع ذلك في كثير من مؤلفاته وقد ثار بعض الباحثين في وجه هذه النظرية وهاجموها.

وهذه النظرية - وهي أن الشعر سبق النثر الفني في الوجود - نجد أصولها عند أرسطو في كتابه «الشعر» فهو يقول فيه:

«والأقدم من الأشعار الأقصر والأولون كانوا يقرون الاعتقاد في النفوس بالتخييل الشعري، ثم نبغت الخطابة بعد ذلك» وهي نوع من أنواع النثر، وقد عجم بعض المحدثين من المستشرقين ذلك الحكم، فذهبوا إلى أن الشعر أسبق من النثر الفني وجوداً، على أن بعض المستشرقين من علماء الألمان كجولد زيهر وبروكلمان يؤكدون بأن السجع كان المرحلة التي عبرها النثر إلى الشعر عند العرب.

ونحن لا نميل إلى هذا الرأي الجديد ولا نؤيده، فالقرآن الكريم أثر من آثار النثر الفني، وكذلك الكتب الدينية والأدبية القديمة التي يشير إليها القرآن الكريم، وكثير من الأمم القديمة كان لها نثر فني قبل الميلاد بكثير: فليونيانيين آثار كبيرة في الخطابة من قبل الميلاد بقرون عديدة، وللرومانيين آثار فيها قبل الميلاد وبعده، فلماذا لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون؟ مع أن لعبد الحميد الكاتب آثاراً كبيرة في النثر الفني وهو قبل ابن المقفع على أي حال والقدماء من النقاد يؤيدون سبق النثر للشعر، فابن رشيق يقول: وكان الكلام كله منشوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها، وصنعوا أعاريض جعلوها موازين للكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً... وكذلك صنع كثير من الباحثين كالزهاوي وسواه.

وإذا فالنثر الفني في الأدب العربي وجد قبل القرآن الكريم بقليل

وصاحب نزول القرآن وتأثر به تأثراً عظيماً، ثم اتصل المسلمون بالفرس بعد الفتح الإسلامي، واحتذوهم في ألوان من أدبهم احتذاء ظهر أثره في النثر الفني منذ آخر القرن الأول الهجري على أيدي بعض الكتاب. كان كثير من الكتاب والموالي يعرف اللغة الفارسية^(١)، وبعضهم كان يعرف الرومية أو اليونانية أو السريانية مما كان له أثر في النثر.

فزيد بن ثابت تعلم كما يقال الفارسية من رسول كسرى والرومية من صاحب النبي، والحبشية من خادم النبي، والقبطية من خادمه، وتعلم السريانية بأمر الرسول الكريم، وأمره الرسول بتعلم كتابة اليهود كما يقول أحمد أمين^(٢). وأبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وأستاذ عبد الحميد الكاتب، وأحد الواضعين لنظام الرسائل نقل رسائل أرسطو إلى الاسكندر إلى العربية مما يدل على معرفته للغة غير اللغة العربية، وله رسائل في مائة ورقة كما يقول ابن النديم في الفهرست^(٣)، وكان جبلة بن سالم كاتب هشام أحد النقلة من الفارسي إلى العربي وكذلك كان عبد الحميد الكاتب يعرف الفارسية، وقد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحوها إلى اللسان العربي، وهو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية، وكذلك كان ابن المقفع وهو من سلالة فارسية عريقة. ومن ذلك يظهر بوضوح أثر الثقافات والأدب الفارسي على الخصوص في تطور الكتابة والنثر الفني في أدب لغتنا العربية، ويقول الجاحظ عن غيلان الدمشقي الذي قتله هشام بن عبد الملك: إن له رسائل بليغة^(٤). والظاهر أن غيلان كان يعرف الرومية.

وعبد الحميد الكاتب هو الذي سهل سبيل البلاغة في التوصل، وعنه أخذ المترسلون، وهو أحد كتاب القرن الثاني الذين فهموا الفصول كما كان

(١) ١ : ٢٩٥ البيان والتبيين للجاحظ.

(٢) ١٧١ فجر الإسلام.

(٣) ص ١١٧ الفهرست لابن النديم.

(٤) ١ : ٢٩٥ البيان والتبيين.

يفهمها علماء البيان من اليونانيين. وهو أول من فتح أكام البلاغة، ومهد طرقها وفك رقاب الشعر، وآلت إليه زعامة الكتابة فمهد سبلها ووضع معالمها، ورسم لها رسوماً خاصة في بدنها وختامها والإطناب فيها مرة والإيجاز أخرى. فكان بذلك شيخ الكتاب. وبحق لقد قيل: بدت الكتابة بعبد الحميد.

ثم ازداد أثر الفارسية في النثر الأدبي، فنقل الفرس إلى العربية القصص الغرامي كما نقلوا الغزل بالذكر إلى الشعر العربي.

وظهر ابن المقفع (المتوفي عام ١٤٣هـ) وأحدث أثره في النثر الأدبي وفي تطوره. وكان ابن المقفع من عنصر فارسي. وهو أحد النقلة من الفارسية إلى العربية.

وابن المقفع هو إمام المنشئين في آخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي وكان إمام الطبقة الأولى من الكتاب في العصر العباسي. وهي الطبقة التي أدركت الدولتين، ومن شخصياتها: يحيى بن زياد الحارثي وعمارة بن حمزة وأبو أيوب وزير المنصور وكتابه. وقد آخى ابن المقفع في طريقته بين التفكير الفارسي والبلاغة العربية. وكان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير. فأدبه وإن كان عربي اللفظ والأسلوب فهو أعجمي الفكر والتأليف. فقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة عرفت به وأخذت عنه. وتظهر مزيته في ترتيب أفكاره وحسن تقسيمها من حيث يغلب على أسلوب عبد الحميد الصبغة العربية، كما تشيع فيه الحكمة التي يروضها بعذوبة ألفاظه وسلامة أسلوبه. وحقاً لقد كان أمة في البلاغة ورصانة في القول وشرف المعاني مع وضوح الغرض وسمو الأسلوب. وهو أكثر كتاب عصره تأثقاً في صوغ الجملة فكان يقوم في النثر بما كان يقوم به زهير في الشعر. وهو أحد الكتاب الذين لم يلتزموا السجع فكان كلامهم قليلاً. ولكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ في الفصول والمقاطع إلا في مواضع يسيرة. وقد اهتموا ببسط المعاني وتأكيدها وتركوا بذهب الإيجاز الذي كان شائعاً في القرن الأول إلى الإطناب وتنوع العبارة.

وتقطيع الجملة والمزاوجة بين الكلمات وتوخي الأفهام... وابن المقفع أول من أفسح مكان الأدب العربي بالترجمة. فهو الذي ترجم كليله ودمته مما ينم على جهد بذله المترجم في تحرير الخصائص الهندية الصميمة التي للكتاب الأصلي «بنشاشترا» ليجعله ملائماً للذوق العربي. وأضاف إليه فصولاً جديدة في مواضع مختلفة.

ولقد تهيأ للنثر الأدبي في هذا العصر من العوامل والمؤثرات. ما نهض به ورفع به إلى الازدهار والقوة:

١ - فلقد استقر العرب بعد اضطراب. واجتمعوا بعد تفرق. وتحضروا بعد بدو. واجتمع لهم من سلطان الملك. وسمات الحضارة. وثقافة الفكر وتنظيم الحياة. ما جعلهم يشعرون بحاجتهم إلى كلام مهذب. وأسلوب رشيق وفكرة مرتبة. ومعنى تمتلك به النفوس. وتجتذب الأفتدة.

ومن الأسباب التي جعلت نثر هذا العهد قوي العبارة جزل الأسلوب. شديد الأسر. ضخيم المظهر. لا تخونه روعة الأداء. ولا تتخلف عنه نضارة البلاغة: أن دولة بني أمية قامت بحد السنان. وقوة البيان. وكما كان السيف من أسلحتهم في توطيد الملك. واستلاب الحكم. والاستيلاء على شئون المسلمين، كان البيان القوي يحاول أن يخادع الناس، وأن ينتزع من صدورهم ما يؤمنون به، من أحقية آل البيت، وأن يجتذبهم إلى سياسة الأمويين، ويخضعهم بالقول المعسول واللفظ الخلاب لسلطانهم المستحدث. وهذا أفاد النثر تهذيباً وصقلاً، وعباد عليه بكثير من الجودة وحسن البهاء، وصفاء الروق.

٣ - وكذلك استفاد القوم من بلاغة القرآن، وروعة بيانه، وسمو أسلوبه، ومن أحاديث رسول الله ﷺ في تهذيب منطقهم، وتطور أساليبهم، أكثر مما استفاد أسلافهم. ذلك أن هؤلاء الأسلاف شغلوا بالغزو والجهاد ومدافعة الأحداث الملمة، ومقارعة الخطوب المدهمة، عن حفظ القرآن وترديده واستظهار الأحاديث النبوية وترتيلها. فلم يكن أحد منهم يجد من

فراغ وقته واتساع الفرصة أمامه، ما يمكنه من حفظ القرآن، بل كان قصارى ما يستطيع أن يحفظه آيات يؤدي بها صلاته، ويقيم بها عبادته حتى كان أنس ابن مالك يقول: «كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة وآل عمران جد في أعيننا، وإذا صح ما روي من أن ابن عمر مكث ثمانى سنوات يحفظ البقرة، فلا يمكننا أن نرد ذلك إلا إلى الأحداث المطيفة، والشواغل الصارفة من تمكين للدين، ونشر للوائه، ومجاهدة لأعدائه.

أما هؤلاء الأمويون فقد قلت لديهم الصوارف ولم تعد تشغلهم الحروب فانصرفوا بكل ما فيهم من رغبة مستعرة، وميول مشبوبة منهومة إلى كتاب الله يستظهرون آياته، ويفهمون حكمه وعظاته، ينصتون إلى ما فيه من سحر البلاغة وروعة البيان، وسمو التعبير، وجمال التصوير، وماذا يمنعهم من ذلك؟ وقد يسر لهم ذكره، وهيئت لهم أسباب الحصول عليه. ثم رأوا أعلام الصحابة يتصدرون لتعليم المسلمين، وشرح ما غاب عنهم من معاني الكتاب، والإفاضة في بيان ما يحمله إليهم من كريم الآداب، وجميل العظات، فابن عباس (٦٨هـ) يجلس لذلك بمكة المكرمة، تضرب إليه أكباد الإبل، وتقطع له الصحارى والفيافي، وزيد بن ثابت (٤٥هـ) بالمدينة المنورة يشرح للناس حديث الوحي، ويبصرهم بأحكامه، وينير لهم سبل الهداية ما يرغبهم في العلم، ويدعوهم إلى التفقه في الدين، والانتهاز من مناهل الشريعة، وهكذا.

وأخذ الناس يعنون عناية خاصة بأحاديث رسول الله ﷺ وهي من البلاغة في الذروة والسنام. فجعلوا يتلقفونها، ويصغون معجبين إلى لحن القوة ينساب في كلماتها، وإلى إشراق البيان ونصاعته وساحته، ينضرب مبانيتها.

رددوا هذه الأحاديث، واستدلوا بها في كل ما يعرض لهم من شأن، أو يقع لهم من مشكلات، وبدأوا يدونونها، ويجمعون ما تفرق منها في صدور الرواة ورؤوس الثقات، حتى تم لهم جمعه في عهد عمر بن عبد العزيز... ومن هنا طبع نثرهم بطابع القوة التي شاموا بروقها، واستنشقوا عبقها من كلام رب العالمين، وآثار أفصح المرسلين.

٤ - وكذلك استجد للأمة من مظاهر الملك، وانفسح لديها من آفاق الحياة، وتهاى لها من عوامل النمو والتطور، ما يدعو إلى تهذيب اللغة ورق الأساليب.

وإذا كانت بعض هذه المظاهر مما يمكن أن يشغل الناس عن دينهم ويصرفهم بعض الشيء عما كانوا فيه من توغل في العبادة. فقد وجد الخلفاء والولاة أنه لا بد من تذكيرهم بخالقهم، وتهيبهم إلى الطاعة، وإثارة مشاعر الخوف والتقوى التي قد تنميها زخارف الدنيا، ويغطي عليها ما تراحم لديهم من مفاتن الحياة، ولهذا رتب معاوية الوعاظ في المساجد، يذكرون الناس حين تنتابهم غفوة، ويدعونهم إلى الصراط المستقيم حين تميل بهم هفوة. ويقصون عليهم على نظام الكتاب الكريم ما حل بغيرهم من الأمم حين جانبوا الحق، وتنكبوا الهداية. وكان من أشهر هؤلاء الوعاظ: الحسن البصري، ومحمد بن سيرين.

وكان هؤلاء يعمدون إلى الإفاضة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبصر الناس بما يسعدهم في دنياهم وينجيهم في أخراهم، ولا ينكر أحد ما لهذا من أثر بالغ في تهذيب اللفظ وروعة المعنى، ودقة الفكرة، وقوتها فإن العظة دائماً لا تقع من النفس موقعاً مقبولاً، ولا تأخذ مكانها من القلب في يسر وسماحة، إلا حين تلبس ثوباً براقاً من اللفظ الجميل والأسلوب الموثق والفكر المرتب.

٥ - وقد رأى خلفاء بني أمية أن الناس قد يداخلهم الخلق على هذا السلطان الذي اغتصبوه، ويتردد في نفوسهم التمرد من أجل هذا الملك الذي سلبوه. فأرادوا أن يصرفوهم عن مثل هذه الأفكار برواية ما ترك العرب من شعر ونثر. بعد أن كادت الحروب والغزوات والانصراف إلى الدين الجديد تقطع ما بينهم وبين ذلك من الصلات، وقد بالغوا في الالتفات إلى هذه الناحية يستخرجون كنوزها، ويظهرون نفائسها. ويحبون ما كاد يندرس من أعلامها، وأخذوا يشجعون الرواة، ويغدقون عليهم سني الجوائز، وعظيم الهبات، ويوسعون لهم في مجالسهم ويؤثرونهم بعطفهم، والناس يستمعون إلى هذه الأشعار فتستولي على نفوسهم بلاغتها، ويأخذ باللباس رونقها وينطبع في

أذهانهم ما تتميز به من الجزالة وشدة الأسر، وضخامة اللفظ، وهذا سر ما نلمحه في أدب هذا العصر من قوة وفحولة ومن أصالة الملكة، واقتدار بالغ على الاداء والتصوير.

٦ - ومن البين أنه لا بد أن يكون لاختلاط العرب بغيرهم وامتزاج الثقافات واتصال المعارف أثر قوي في تهذيب ألفاظهم، وترتيب أفكارهم، وصقل مداركهم.

ومن هنا رأينا نشراً لا يعتمد على الفكرة الطارئة، ولا اللمحة العارضة، ولا الخاطر العابر. إنما يعتمد على تسلسل الأفكار وقوة الحجّة واتزان المنطق.

وهذه العوامل جعلت النثر الأدبي رائع الأسلوب، قوي النسيج محكم الأداء والتصوير.

وهكذا، وفي عصر بني أمية، بدأ النثر الفني يسير إلى نهضته الأدبية الرائعة، وظهر أثر الثقافة الأدبية فيه ظهوراً واضحاً، وكانت هذه الثقافة متنوعة تشمل:

١ - القرآن الكريم الذي أثر في ملكات العرب وهذب من ألسنتهم، ورقق من مشاعرهم وطباعهم، في عصر صدر الإسلام... ثم زاد هذا التأثير في العصر الأموي: بحفظ العرب له، وقراءتهم إياه، بعد أن انتشرت مصاحف عثمان في الأمصار، وبطول الفترة التي قضوها في الإفادة من بلاغة القرآن، بعد أن استراحوا من الفتوحات وهداية الشعوب إلى الإسلام.

٢ - حديث رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يحفظون منه الكثير، ثم دُونَ وَوُزِعَ على الأمصار في عهد عمر بن عبد العزيز، فانتسعت إفادة الناس منه، وتأثرهم ببلاغته.

٣ - مجالس القصص والوعظ، التي كانت ثقافة أدبية عامة، وقد كان يتحدث فيها للناس كل بليغ وخطيب وأديب يسحر القوم بلاغة وبياناً.

٤ - الأدب والشعر الجاهلي الذي اجتهد بنو أمية في إحيائه وتشجيع

روايته وتدوينه، وتقريب روايته إليهم... وقد أكسب إحياءه النثر الفني قوة وجزالة وروعة وبلاغة.

٥ - أدب البلغاء والفصحاء منذ ظهور الإسلام، وهو كثير جداً، وكان له أثره في تقويم الألسنة، وتهذيب الملكات، وكانت خطب الوفود التي تفتد على قصور الخلفاء والأمراء دروساً كبيرة في البلاغة والبيان، ويروى أن شباب الكتاب كانوا إذا حضر وفد لهشام حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم^(١) كما كانت مجالس المؤدبين والرواة والشعراء والنقاد حافلة بالكثير من مظاهر النشاط الأدبي، مما كان له أثره الجليل في تقويم الأذواق وإرهاف المشاعر، وتهذيب الملكات.

٦ - وقد أفاد العرب من اختلاطهم بالموالي والعناصر الأجنبية، فسمعوا عن ثقافات الأمم القديمة، ورويت لهم، وتحدثوا بها في مجال سمرهم، مما أكسب العقول عمقاً وفهماً ومعرفة وثقافة، وظهر أثر ذلك في تقدم العلوم ونهضة الفنون والآداب، وكان للأسرى المسلمين في بلاد الروم أثر كبير في ذلك.

خصائص أسلوب النثر الأموي:

ويمكننا أن نقول إن من أهم هذه الخصائص:

- ١ - إثارة خيال السامع باستخدام المجازات القوية.
- ٢ - الإكثار من الألفاظ القوية البالغة التأثير.
- ٣ - دقة التعبير وصفاءه وخلوصه من شوب اللكنة والعجمة واللحن إلا قليلاً.

٤ - ترك التزام السجع لما في ذلك من التكلف المكروه. ويروى أن معاوية أملى كتاباً إلى رجل فقال فيه: لهواهون علي من ذرة أو كلب من كلاب الحرة، ثم، قال: امح «من كلاب الحرة» واكتب «من الكلاب» كأنه كره

(١) ٣/١٧٩ العقد الفريد.

اتصال الكلام والمراوغة وما أشبه السجع، وكانوا يقسمون الكلام إلى فصول وفقر صغيرة يجمعها غالباً الازدواج والتقارب في الوزن.

٥ - الاهتداء بأساليب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، واحتذاؤها في القوة والبلاغة والبيان.

تطور الكتابة في العصر الأموي:

جاء العصر الأموي، والكتابة على هذا النحو. فزادت العناية بها لاتساع أعمال الخلفاء، وكثرة شئون الحكم، وتعدد الدواوين فقد زاد معاوية على ما كان منها في عهد الخلفاء الراشدين:

١ - ديوان الرسائل: لكتابة الرسائل التي تصدر عن دار الخلافة، وقد اتخذ معاوية كاتبه على الرسائل عبيد الله بن أوس الغساني. وظلت سنة الخلفاء اصطناع كتاب للرسائل، وكانت الرسائل التي تصدر عن الديوان تفيض بياناً، وينضرها جمال الأسلوب وسحر البلاغة. إذ كان الخليفة هو الذي يتولى إملاء الرسائل بنفسه فلم تظهر للكتاب شخصية، إلا في عهد سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على الرسائل، إذ كان ينوب عن الخليفة في الكثير منها، ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشئها. وكان الطابع العام للرسائل التي تصدر من هذا الديوان أو ترد إليه: بساطة المظهر، وعدم التكلف في الخطاب حتى إن الكاتب لبدأ بتقديم اسمه على اسم من يرسل إليه ولو كان الخليفة. وظلت هذه الحالة مرعية، حتى جاء الوليد بن عبد الملك، فأنف أن يكتب إليه مع تأخير اسمه ومن هنا أخذت الرسائل سمةً آخر، يلائم رغبة الخلفاء، ويرضي كبرياءهم. ولم يخرج على هذا النهج فيما بعد إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل.

٢ - ديوان الخاتم: ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مخطوماً، لا يدري حامله ما فيه، ولا يستطيع أن يغيره. وسبب إنشاء هذا الديوان على ما ذكره الفخري في كتابه (الآداب السلطانية): أن

معاوية أحال رجلاً على زياد أمير العراق بمائة ألف درهم، فمضى الرجل وجعل المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك ثم تين حقيقة الأمر. فأمر بوضع ديوان الخاتم، فصارت التوقيعات تصدر منه مختومة. ٣ - أما دواوين الخراج فقد استمرت الكتابة فيها بلغة البلاد المفتوحة حتى تم تعريبها في عهد عبد الملك بن مروان، في مصر والشام والعراق، من القبطية والرومية والفارسية، على النحو الذي أشرنا إليه.

أنواع الكتابة:

ونحن هنا لا نعني بدراسة آثار ديوان الخاتم، ولا ديوان الخراج أو الجيش لأن الكتابة فيها لم تكن تعتمد إلا على الأرقام والإحصاء، دون أن يكون لها حظ من بلاغة القول، ولا نصيب من جمال الأسلوب.

وإنما نعني بدراسة ما كان يصدر عن (ديوان الرسائل) من الكتب البليغة، الصادرة إلى الولاة والقواد وعمال الدولة، وهي كتابة سياسية في أغلب الأمر.

ويعيننا كذلك أن ندرس ما استجد للكتابة في آخر هذا العصر من (الرسائل الإخوانية). التي كان ينشئها الكتاب البلغاء، فتحمل ما في قلوبهم من مودة وإخاء، أو تصور ما تحبش به مشاعرهم من مختلف الخوارج والنزعات أو تعبر عما يتردد في نفوسهم من أفكار وآراء في أسلوب رائق، ولفظ فائق وتصوير جميل.

فهذان اللونان هما أهم ما أثر عن الكتابة الفنية في هذا العصر، وهما أبرز ما نعني بدراسته، ونهتم بالحديث عنه.

خصائص الكتابة الفنية:

(أ) يجد الناظر إلى الكتابة الفنية أنها مرت بطورين، وانقسم بها هذا العصر إلى عهدين:

١ - فالعهد الأول من قيام الدولة عام ٤١هـ، إلى زمن الوليد بن عبد الملك وكانت الكتابة فيه تسير على نمطها في صدر الإسلام. من الإيجاز والوضوح والسهولة والبساطة وقلة التكلف. . وكان أغلبها يملئ أرتجالاً، ويصدر عن ديوان رسائل الخليفة أو دواوين رسائل الولاة.

ويقول الدكتور طه حسين في كتابه «من حديث الشعر والنثر»^(١)، كانت الرسائل تصدر عن الخلفاء والأمراء في أول أمرها يسيرة سهلة الأسلوب لا تكلف فيها، ولم تظهر الرسائل الفنية التي يتأنق فيها أهلها إلا في أوائل القرن الثاني. . ويروى أن معاوية أملى على كاتبه «لهو أهون علي من ذرة، أو من كلب من كلاب الحرة» ثم قال لكاتبه اكتب: «أو من الكلاب» كأنه كره السجع.

٢ - والعهد الثاني من أيام الوليد إلى نهاية الدولة، وقد أخذت الكتابة فيه تتدرج في التأنق والصنعة والإطناب وإشراق البيان، حتى صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها، وكان زمامها في هذا الطور بأيدي الموالي المثقفين بثقافة عربية واسعة، والذين أضافوا إلى هذه الثقافة ما ورثوه من ثقافات أمهم العريقة في العلم، فمنهم من كان يعرف الفارسية أو الرومية أو اليونانية، أو السريانية، وآداب هذه اللغات المتنوعة، كأبي العلاء سالم كاتب هشام بن عبد الملك، وأستاذ عبد الحميد الكاتب، وأحد الواضعين لنظام الرسائل، وصنعة الكتابة^(٢)، وكجبل بن سالم كاتب هشام أيضاً وكان يعرف الفارسية. وكعبد الحميد بن يحيى الكاتب الذي يضرب به المثل في صناعة الكتابة فيقال بدئت الكتابة بعبد الحميد. وقد احتفل بالكتابة وتأنق فيها، ونقلها إلى مرحلة جديدة، احتلت فيها المنزلة الرفيعة التي كانت للخطابة.

(ب) ويجعل الدكتور طه حسين نشأة الكتابة الفنية مدينة لعبد الحميد

(١) ص ٥٢ و ٥٣ من حديث الشعر والنثر.

(٢) يروي صاحب الفهرست في صفحة ١٧١ أنه ترجم إلى العربية رسائل ارسطو إلى الاسكندر.

وعبقريته اللامعة^(١)، ويختلف الباحثون في ثقافة عبد الحميد المكملة لثقافته العربية: فالبعض يرون أنه كان يجيد الفارسية ويعرف آدابها وينقل عنها إلى العربية، ومن هؤلاء الدكتور زكي مبارك في كتابه «النثر الفني»^(٢)، وسواه، ويستدل هؤلاء على ثقافته الفارسية بقول أبي هلال العسكري عنه إنه «استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحوها إلى اللسان العربي»^(٣)، ويرجح الدكتور طه حسين أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بثقافة اليونان^(٤)، والذي نذهب إليه أن تطور الكتابة على يد عبد الحميد الكاتب لم يكن إلا أثراً من آثار التطور العقلي والأدبي للأمة العربية لا غير.

منزلة عبد الحميد الكاتب:

والحق أن عبد الحميد جدير بأن يكون شيخ الكتاب، لما حباه الله من مواهب عظيمة. وصفات جليلة، وذكاء نادر، ولأنه تلميذ لسالم مولى هشام، وكانت ثقافته خليطاً من العربية واليونانية، ثم كان صديقاً مغالطاً لابن المقفع الذي يجيد الفارسية والعربية. فاجتمع لعبد الحميد أسمى ما في بلاغة العرب واليونان والفرس.

مذهب عبد الحميد في الكتابة:

استطاع عبد الحميد الكاتب بمواهبه وثقافته أن يبتكر في الكتابة الفنية مذهباً كان من أهم أصوله ما يلي:

١ - القدرة على الإيجاز في غير إخلال حين يكون الإيجاز مطلوباً، وعلى الإطالة في غير إملال حين يكون الطول مرغوباً فيه، حتى قيل إنه كان يكتب

(١) ٦٩ الصناعيتين، ٨٩ ج ٢ ديوان المعاني.

(٢) ٤٢، ٤٤ و ٦٦ من حديث الشعر والنثر.

(٣) ٤٠ و ٤١ - ٥٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين.

(٤) ٥٧ : ١ النثر الفني.

في سطر واحد ما يكتبه في صفحات؛ ولقد روي أنه كتب إلى أبي مسلم الخراساني حين أظهر الدعوة لبني العباس على لسان مروان بن محمد كتاباً يستميله فيه، وقال لمروان: لقد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره، فإن يك ذاك وإلا فاهلاك، وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على بعير، فلما وصل إلى أبي مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه، وكتب على جذاذة منه:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى

عليك ليوث الغاب من كل جانب

وقالوا: إنه كان لقدرته على الإيجاز في موضعه، والإطناب في مكانه يتخير لكل منها محله الذي يناسبه، فيطنب في الإخبار بالفتوح، والحث على الجهاد والوعد والوعيد، ويوجز في أخبار الهزائم ووصف الأعداء. ومن إيجازه قوله موصياً بشخص: «حق موصل كتابي إليك كحقه علي، إذ جعلك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله». وطلب منه مروان أن يكتب لعامل أهدى إليه عبداً أسود، فكتب إليه: «لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته».

٢ - وقد أكثر عبد الحميد الكاتب من الرسائل الإخوانية، وكانت قبله قليلة ضئيلة.

٣ - كما أطل في البدء والختام وأكثر من تنوعهما حسب المقام، وأطل في البدء بنوع خاص بعبارات التحميد والثناء بما يعد جديداً في هذا العصر، كالإتيان بكثير من التحميدات في أساليب متنوعة وصور مختلفة، وكالبدء ببسم الله ثم اتباعها بالحمد لله فاصلاً بينها بأما بعد.

٤ - تجويد الأسلوب والعناية به^(١) عناية كثيرة.

(١) يقول طه حسين: ربما لم يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظ وبلاغة معنى واستقامة أسلوب، فهو أحسن من كتب العربية.

عوامل نهضة الكتابة في آخر العصر الأموي:

تلك هي منزلة الكتابة في العهد الثاني من عصر بني أمية، وذلك هو مكانها الرفيع الذي بلغته في ذلك الطور، ويرجع سر ازدهارها إلى ما يأتي:

١ - اتساع أعمال الدولة وديوان الرسائل، مما استدعى العناية بالكتابة والكتاب.

٢ - عناية الكتاب بها وجعلها صناعة فنية عتيقة، مع تعدد ثقافتهم العربية والأجنبية. التي كان لها أثرها في الكتابة، حتى ليقال: إن عبد الحميد أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية^(١).

٣ - ضعف الملكات من أثر الاختلاط وتشعب الأعمال، فقل الحرص على الخطابة، وأخذت الكتابة في الظهور والذيع.

٤ - كان للموالي - من أبناء الفرس والروم واليونان ورثة الثقافة والمدنية - أثر كبير في نهضة الكتابة، وتحولها إلى صناعة فنية، لها منهجها وأسلوبها وطرق أدائها، ونظامها في البدء والختام: وكان لأذواقهم أثر في اتسامها بالسهولة والوضوح، وفي البعد عن الغريب والوحشي والتعقيد والتنافر وتفكك المعاني والأفكار، فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها: وقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزاء الكلام.

وقصارى القول أن الكتابة الفنية بلغت في هذا العصر غاية لا تدرك ومنزلة لا تنال.

فن التوقعات:

على أننا لا نحب أن نترك الكلام عن الكتابة الفنية، دون أن ننبه إلى لون جديد منها ظهر بوضوح في هذا العصر، ذلك هو (التوقيع)، وهو الكتابة على هوامش الرسائل التي ترفع إلى الخلفاء والولاة وذوي الشأن بما يفيد العلم بها وإبداء الرأي فيها.

(١) ٥٧: ١ النثر الفني.

وتمتاز هذه التوقعات بالإيجاز. ولطف الإشارة، وقوة الإثارة، وسلامة العبارة، وكثيراً ما يكون التوقيع آية مقتبسة، أو حديثاً مروياً، أو حكمة صائبة أو مثلاً سائراً، أو بيتاً من الشعر.

ويقال إن أول ما عرف من ذلك كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ كتب إلى سعد بن أبي وقاص في بنيان: «ابن ما يستر من الشمس ويكن من المطر» ورفع إلى عمرو بن العاص: «كن لرعتك كما تحب أن يكون لك أميرك».

ووقع سعيد بن العاص في كتاب لزياد يخطب إليه فيه: «كلا إن الإنسان ليطفئ أن رآه استغنى».

ووقع عبد الملك في كتاب للحجاج شكاً فيه أهل العراق: «أرفق بهم، فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره، ومع الخرق ما تحب».

وكتب عمر بن عبد العزيز توقيعاً على كتاب عامل له يستأذنه في تجديد بناء مدينة: «ابنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم».

وكتب إليه عامل على الكوفة يخبره أنه فعل في أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له: «أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده».

ولقد دعا إلى ذبوع التوقعات، ما تكاثف في هذا العصر من مظاهر الملك، وتنوع من شئون الدولة، وتعدد من حاجات الناس ومطالبهم، وكان لا بد للخلفاء والولاة أن يدلوا في كل ذلك برأي ويشيروا بما لديهم من تدبير ومن هنا اضطروا إلى الإيجاز في التعليق، واصطناع الحكمة فيما يختارون من توقيع.

نصوص من الكتابة الفنية في العصر الأموي

١ - بين الحجاج وعبد الملك بن مروان

كان عروة بن الزبير عاملاً على اليمن لعبد الملك بن مروان، فاتصل به

أن الحجاج يجمع على مطالبته بالأموال التي بيده وعزله عن عمله، ففر إلى عبد الملك وعاذ به، تخوفاً من الحجاج، واستدفاعاً لضرره وشره، فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يقول:

أما بعد فان لوأذا^(١) المعترضين بك، وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك لاستلانتهم دم^(٢) أخلاقك، وسعة عفوك. كالعارض^(٣) المبرق لأعدائه لا يعلم له شائئاً^(٤). رجاء استئالة عفوك. وإذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمريناً لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضال. والناس عبيد العصا؛ هم على شدة أشد استباقاً منهم على اللين. ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله وفي استخراجهم منه قطع لطمع غيره. فليبعث به أمير المؤمنين، إن رأى ذلك، والسلام... فكتب إليه عبد الملك، رداً على رسالته:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين رآك - مع ثقته بنصيحتك - خابطاً في السياسة خبط عشواء^(٥) الليل؛ فإن رأيك الذي يسول لك أن الناس عبيد العصا هو الذي أخرج رجالا العرب إلى الوثوب عليك، وإذا أخرجك العامة بعنف السياسة، كانوا أوشك^(٦) وثوباً عليك عند الفرصة، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هداة، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك، وقد وليت العراق قبلك ساسة، وهم يومئذ أحى أنوفاً، وأقرب من عمياء الجاهلية، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم، واللين أهون، والإفراط في العفو أفضل من الإفراط في العقوبة والسلام.

(١) لا ذ به لوأذا وليأذا ولوذا لجأ إليه وعاذ به.

(٢) دم دم، كفر فرحاً، فهو دم: لان وسهل. والدمانة: سهولة الخلق.

(٣) العارض: السحاب المعترض في الأفق.

(٤) شام البرق: نظر إليه أين يقصد وأين يطر.

(٥) العشواء: الناقة التي لا تبصر أمامها، فهي تحبط بيديها كل شيء.

(٦) أي اسرع.

تعليق على النصين:

يمثل هذان النصان البلاغة العربية وهي في الذروة، والملكات الأدبية وهي في قمة فصاحتها وسلامتها، ويمثلان على الخصوص بلاغة الحجاج وعبد الملك بن مروان - والثاني خليفة أموي عظيم، والأول من أشهر الولاة لبني أمية من حكام الأقاليم - تمثيلاً قوياً واضحاً. وفي نص الحجاج روح الطغيان والاستبداد ظاهرة كقوله: «الناس عبيد العصا»، مما لم يفد عبد الملك الخليفة الرد عليه، وتفنيد رأي الحجاج فيه، وتسفيه سياسته، ونقد نظام إدارته للعراق.

وفي نص عبد الملك يبدو عقله السياسي في القمة، وتجربته في سياسة الرعية، ورأيه في حكم العراق خاصة، والأقاليم العربية عامة، وهو رأى له بالإسلام صلة وبسياسة العصر الحديث شبه.

٢ - رسالة عبد الحميد الكاتب الى الكاتب

كان عبد الحميد يحى الكاتب من أشهر الأدباء والبلغاء والكاتب الذين نبغوا في الدولة الأموية، بل كان شيخ الكاتب، وأول من أطال الرسائل ونوع في أغراضها وأساليبها، وتخرج في البلاغة والكتابة على ختته^(١) أبي العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء عصره.

لقد كان عبد الحميد الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل، فهو أول من مهد سبلها، وميز فصولها، وأطالها في بعض الشئون، وقصرها في بعضها الآخر وأطال التحميدات في صدرها وجعل لها صورا خاصة يبدئها وختمها، على حسب الأغراض التي تكتب فيها، بل هو الذي رقى هذه الصناعة التي كانت من مهن الموالي، حتى صارت بعده سلماً يعرج فيه الكاتب إلى مرتبة ليس فوقها إلا الخلافة: وهي مرتبة الوزارة، وكان لبلاغته عمل

(١) الختن: من كان من قبل المرأة كالأب والآخر.

يعجز عنه السحر في خلب الأفئدة وجذب النفوس، فيقال إنه لما ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس كتب إليه عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمنه ما لو قرئ لأدى إلى وقوع الخلاف والفشل - وقال لمروان: قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره فإن يك ذلك وإلا فاهلاك، فبعث به إلى أبي مسلم، فبادر بحرقه خوفاً من التأثير ببلاغة، وقال:

حما السيف أسطار البلاغة وانتحى

إليك ليوث الغاب من كل جانب

وقد بعث عبد الحميد بهذه الرسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها، ويوجههم إلى آفاق كثيرة من صناعة الكتابة، ويوسع مجال القول أمامهم... وهذه نصوص منها، قال عبد الحميد:

أما بعد - حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين، أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصرفهم في صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم، وأبواب رزقهم. فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمرؤات والعلم والرزانة، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وينصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون. فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم... وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتساع خلال الخير المحمود، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم.. أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج في نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهيئاً في موضع الحكم، مقداماً في موضع الإقدام، محجاماً في موضع الإحجام. مؤثراً العفاف والعدل

والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفيماً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور في مواضعها، والطوارق في أماكنها، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته. فتتافسوا يا معشر الكتاب في صفوف الآداب، وتفهموا في الدين وأبدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية، فإنها ثقاف ألتستكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها، وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور ومخافرها، فإنها مذلة الرقاب، مفسدة للكتاب، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة، وأربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات. وإياكم والكبر والسخط والعظمة، فانها عداوة مجلبة من غير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصلوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم.

والرسالة - كما ترى - تمثل أسلوب عبد الحميد وخصائص كتابته الأدبية. من الدقة والإطناب والإيجاز واستعمال كل منها في المقام الذي يناسبه، ومن وضع صور للبدء والختام في الرسائل، ومن تخير الألفاظ ذات الجرس القوي والمعنى الفخم، يصوغها في الأساليب السهلة الرائعة، مع قوة الحجة وترتيب الفكر ووضوح المنطق، والميل إلى الإقناع، ومن تجافي الغريب، والبعد عن السوقي، وإيثار الجزالة والعدوبة. إلى ما في الرسالة من بيان مكانة الكتاب في ذلك العصر، وهي أشبه بمكانة الصحفيين اليوم، وما اشتملت عليه من الأخلاق التي يجب أن يتحلوا بها، ومن الثقافات التي يجب أن يتزودوا بزادها. والرسالة وثيقة خطيرة في مقاييس البلاغة والنقد عند الكتاب في القرن الثاني الهجري.

٣ - موازنة بين قطعتين من النثر

(أ) كتب عبد الحميد بن يحيى على لسان مروان بن محمد عهداً إلى ابنه عبد الله بن مروان حين وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيباني:

استكثر من فوائد الخير، فانها تنشر المحمدة، وتقل العثرة، واصبر على كظم الغيظ، فانه يورث الراحة، ويؤمن الساحة. وتعهد العامة بمعرفة دخائلهم وتبطن أحوالهم، واستشارة دفائنهم، حتى تكون منها على رأي عين. ويقين خبرة، فتنعش عديمهم، وتجبر كسيرهم، وتقوم أودهم، وتعلم جاهلهم، وتستصلح فاسدهم، فان ذلك من فعلك بهم يورثك معزة، ويقدمك في الفضل، ويبقي لك لسان الصدق في العامة، ويحز لك ثواب الآخرة، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك، وقلوبها المنحبة عنك... قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجى والرأى والعقل والتدبير والصيت في العامة، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله، والخمول عند مباهاة النسب. وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل، ويستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل. وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك، فاعتمد عليهم مدخلاً لهم في أمرك، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعاً منهم. وإياك وتضييعهم مفرطاً. وإهمالهم مضيقاً.

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً، وجمع لك شواذها مؤلفاً. وأهداها إليك مرشداً، فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وثبت في مجامعها، وخذ بوثاق عراها، تسلم من معاطب الردى، وتقل أنفاس الحظوظ، ورغيب الشرف، وتعل درج الذكر. والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد، وتتابع المزيد وبلوغ الأمل... إلى آخر هذا العهد الطويل البليغ.

ويذكرنا هذا العهد بعهد الإمام علي بن أبي طالب الذي كتبه للأشتر النخعي حين ولاه أمر مصر. قال الإمام علي فيما قال:

أعلم يا مالك أي قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من عدل وجور. وأن الناس ينظرون في أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك. ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم. إنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السنة عباده. فيكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فأملك هواك. وشح بنفسك عما لا يحل لك. فإن الشخ بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت وكرهت، وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللفظ بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤث على أيديهم في العمد والخطأ، فأعظمهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، وولي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك. وقد استكفأك أمرهم؛ وابتلاك بهم. ولا تنصبن نفسك لحرب الله. فإنه لا يدي^(١) لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فإن سخط العامة يحجب برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مثونة في الرخاء، وأقل معونة في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأخف صبراً عند ملات الدهر، من أهل الخاصة. وإنما عمود الدين وجماع^(٢) المسلمين، والعدة من الأعداء، والعامة من الأمة، فليكن صفوك لهم وميلك معهم.

(ب) ونحن هنا نستطيع أن نوازن بين هذين العهدين في إيجاز:

فلاحظ على أسلوب عبد الحميد الميل إلى الإسهاب والترسل. أما أسلوب الإمام ففيه جنوح إلى الإيجاز مع البلاغة الطيبة المواتية، وعبد الحميد يعلل بلاغة كلامه بما حفظ من كلام الإمام في أول نشأته، ونلاحظ أن الإمام

(١) أي لا طاقة لك: مثني يد.

(٢) جماع الشيء: مجتمع أصله.

علياً كرم الله وجهه قد زود بهذا العهد قائده الأشر النخعي حين ولاه مضر التي «جرت عليها بلاد قبله من عدل وجور» والتي كانت حديثة عهد بفتنة ذهبت بالخليفة المظلوم عثمان. فكان من الحق أن ينهج له القصد ويهديه السبيل. أما عبد الحميد فقد كتب العهد فيما زعموا إلى ولي العهد وهو ذاهب إلى الحرب، وعجب أن يزود القائد وهو غاد إلى القتال برسالة تقع في قرابة خمسين صفحة من هذا الكتاب، وأكثره عما لا صلة للحرب به، وما رأينا أحداً من المؤرخين أثبت هذا العهد في هذا المقام، وما عهدنا في مثل هذا الموطن إلا الإيجاز، وقد يكون عبد الحميد كتب هذا العهد ولا غرض له إلا أن يعارض عهد الإمام علي كرم الله وجهه. لذلك لا نجد لهذا العهد رباطاً يربطه، ولا مداراً يدور عليه، بل أكثره جمل مترادفة، وموضوعات منتزعة، لا تكاد تجمعهم ألفة، أو تصلها قرابة.

وانظر إليه حين يسوق إلى وليه بعض النصائح التي لا يصلها غرض ولا وشيجة، كيف ينوء بها في قوله «هذه خصال...» ويسوق في هذا التنويه عشرين جملة متتابعة.

أما الإمام علي رضي الله عنه فقد دق في ترسله دقة لا يصل إليها أهل الإيجاز، وذهبت كل فقراته المتلاحقة بمعنى خاص لا يقوم به غيرها، وانظر إلى وصفه لأهل الخاصة كيف يقول فيه: «وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المتع، وأخف صبراً عند ملهمات الدهر من أهل الخاصة».

فهذه الجمل المتناسقة المتقابلة لم تقع على معنى واحد، بل وقع كل منها على معنى خاص لا بد منه.

ومهما كان فقد تأثر عبد الحميد ببلاغة الإمام علي تأثراً كبيراً ظهر في عهده هذا.

٤ - وكتبت السيدة زينب بنت الإمام علي رضي الله عنهما إلى الخليفة

يزيد بعد مقتل الحسين:

صدق الله ورسوله يا يزيد: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزون﴾^(١) أظننت يا يزيد أنه حين أخذت علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى، أن بنا هوانا على الله وبك عليه كرامة، وأن هذا لعظيم خطرك، فشمتخت بأنفك ونظرت في عطفك. جذلان فرحاً، حين رأيت الدنيا مسوقة لك، والأمور متسقة عليك وقد أمهلت ونفست، وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم. أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾^(٢). . . أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك نساءك وإماءك وسوقك بنات رسول الله ﷺ، قد هتكت ستورهن، وصحلت حدوجهن^(٣) مكتنبات تخدي^(٤) بهن الأباعر ويحدو بهم الأعادي، من بلد إلى بلد، لا يراقبن ولا يؤووين، يتشوفهن^(٥) القريب والبعيد؛ ليس معهن ولي من رجالهن. وكيف يستبطأ في بغضتنا من نظر إلينا بالشنف والشنآن، والإحن والأضغان. أتقول «ليت أشياخي بيدر شهدوا» غير متأثم ولا مستعظم، وأنت تنكت ثنايا أبي عبد الله بمخضرتك، ولم تكن كذلك، وقد نكأت^(٦) القرحة واستأصلت الشأفة، باهراقك دماء ذرية رسول الله محمد، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب. وليردن على الله وشيكا موردهم، ولتودن أنك عميت وبكمت. وأنت لم تقل: فاستهلوا وأهلوا فرحاً. اللهم خذ بحقنا وانتقم لنا ممن ظلمنا. والله ما قرئت إلا في جلدك، ولا حزرت إلا في لحمك، وسترد على رسول الله ﷺ برغمك، وعترته ولته في حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم، ملمومين من الشعث - وهو قول الله تبارك وتعالى ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾^(٧)، وستعلم من بوأك وممكنك من رقاب

(١) سورة الروم الآية ١٠.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٨.

(٣) صحلت. انشقت. والحدوج جمع حدج - بكسر الحاء - مركب للنساء كالمحفة.

(٤) خدا البعير والفرس، أسرع.

(٥) يتشوفهن: أن يجتليهن.

(٦) نكأت القرحة: حكها.

(٧) سورة آل عمران الآية ١٦٩.

المؤمنين. إذا كان الحكم الله؛ والخصم محمداً ﷺ، وجوارحك شاهدة عليك. بش للظالمين بدلاً، وأيكم شر مكاناً وأضعف جنداً، مع أني والله يا عدو الله وابن عدوه أستصغر قدرك، وأستعظم تقريعتك، غير أن العيون عبرى والصدور حرى، وما يجزي ذلك أو يغني عنا، وقد قتل الحسين عليه السلام. وحزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء، ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله، فهذه الأيدي تنظف من دماثنا، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الزواكي يعتامها عسلان^(١) الفلوات، فلئن اتخذتنا مغنماً لتخذنا مغرمًا. حين لا تجد إلا ما قدمت يداك، تستصرخ يا ابن مرجانة ويستصرخ بك، وتتعاوى ويتعاوى بك عند الميزان. ووجدت أفضل زاد زدك معاوية، قتلك ذرية محمد ﷺ. فوالله ما اتقيت غير الله، ولا شكواي إلا الله. فكذلك، واسع سعيك وناصب جهدك، فوالله لا يرخص عنك عار ما أتيت إلينا أبداً. والحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبان الجنان، فأوجب لهم الجنة. أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات. وأن يوجب لهم المزيد من فضله فإنه ولي قدير.

تطور حضارة التدوين:

وفي القرن التاسع للميلاد كان من البداهة عند الناس أن التاج العلمي والأدبي بجميع فروعه إنما يتم عن طريق تدوينه - فإن المعرفة في نظر الجاحظ ذلك الأديب الذي يحب الكتاب، هي تلك المعرفة التي يعتمد حفظها على الكتابة والتدوين. فقد جاء في كتاب الحيوان: «قال بعضهم: كنت عند بعض العلماء فكنت أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً. فقال لي: اكتب كل ما تسمع فإن مكان ما تسمع أسود خير من مكانه أبيض».

وحينما يذهب علماء الاعلام إلى أن الجاحظ كان صحفي عصره، فإنهم يعنون بذلك أن هذا الأديب كان خير مثال لحضارة التدوين في الاتصال بالجمهور فقد كان أدبه الغذاء الروحي والفكري والفني لكل طبقات الناس في

(١) عسلان: جمع عاسل: الذئب، واعتام الشيء اختاره.

زمنه، لم يترك مشكلة في عصره إلا كتب فيها، ولم يترك جانباً من جوانب الحياة إلا صوره، كان الخلفاء يكتبون إليه ليكتب بقلمه البليغ رسائل في السياسة تؤيد مبادئ الدولة ودعوتها الدينية والسياسية وتقوي حجتها على خصومها السياسيين، فكتب إلى المأمون رسائله في الإمامة، وكتب له رسالته «العباسية»، وكذلك كان موقفه مع الوزراء، وكتب للفتح بن خاقان رسالته المشهورة: مناقب الترك وعامة جند الخلافة، وكانت رسالته في «الرد على النصارى» جواباً عن أسئلة وجهت إليه فيها مشكلات دينية. وكانت رسالته في الشراب جواباً كذلك عن سؤال بعث به إليه بعض أصدقائه، وكان كثيراً ما يكتب الكتب في كل موضع ولمختلف الأغراض ثم لا يشير فيها إلى الباعث الذي حمله على تأليفها، وكتبه وأدبه عرض للمشكلات العديدة التي نجمت في عصره، سواء منها الدينية أم العقلية والروحية أم الفكرية. ومثل الجاحظ في آثاره تشعب الحركة الفكرية وانطلاق العلوم، واتساع الأفاق، والبحث العلمي المؤسس على العقل. وقد أخذ من كل فن بطرف، وخاص في أبواب شتى من الاجتماع والأخلاق والتربية والتعليم والطبيعة والتاريخ الطبيعي. وفلسفة اللغة والنقد والبلاغة. والقصة، والمقالة والرسالة، وما إلى ذلك كله. وصورها أروع تصوير وهو يتحدث عن طبقات أهل عصره، فصور ميل التجار، والمتسولين، وسخافات الشبان والمتخثئين وزندقة الزنادقة. وسوى ذلك.

وكان الجاحظ أستاذ عصره. وله مكانته ومنزلته وجراته، ونظره النقدي المقعد، المبني على التجربة والمعقول. واتساع آفاق موضوعاته حتى يجد فيها كل إنسان أمنيته. والتنوع الذي كان يبعد السأم. وتصويره أخلاق العصر. وهذا اللون من الأدب كثير الذبوع، إلى سخريته، وتبسيطه المسائل العلمية والفلسفية في أسلوب واضح. وهكذا وجد الناس صلة ما بينهم وبين الجاحظ. فأثروا وآثروا كتبه، لأنها أكثر استنباطاً، وأبرز شخصية، وأوسع مادة، وأبرع فناً، وأقرب إلى حياة الشعب^(١).

(١) راجع: ١٩٩ أدب الجاحظ للسندوبي، ٤٢ الجاحظ للفاخوري.

ولقد كتب الجاحظ في شتى ألوان الأدب. كتب في: البيان، والنقد، والمقالة والقصة وفي الحوار والجدل وفي السخرية والفكاهة:

١ - ففي أدب البيان والنقد. وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل، كتب الجاحظ أروع الفصول، وابتكر أعظم الأصول، وأسس للنقاد والبيانين قواعد بنوا عليها حتى كمل البناء وعظم الصرح.

٢ - وفي أدب المقالة كان للجاحظ برسائله القصار، وبفصوله الكثيرة فضل في ابتكار هذا اللون من الأدب. وتعد هذه الرسائل والفصول بالأمس البعيد كالصحف اليوم. وما أشبه أدبه بصحيفة عصره الذائعة، ينطق فيها بلسان الخلافة والشعب. بلسان الحاكم والمحكوم. بلسان العامل والفلاح والصانع. والموظف والوزير والأمير والخليفة. يدل به الناس إلى الصالح العام. ويكشف لهم خفايا الأمور، ويعلمهم الفضائل، ويلقنهم كل ما تستنير به عقولهم وجماعاتهم، ويوجههم في الحياة وجهة الخير والقوة والإرادة والإيمان والطموح والأمل ويهديهم فيها سواء السبيل.

وكان الجاحظ يكتب في كل مشكلات العصر والساعة. والناس يقبلون عليه، ويصغون إليه. ويلتهمون كتاباته التهاماً. وأصبح ذلك بعد قليل مادة للثقافة بين الناس في كل مكان.

٣ - وفي القصة كتب الجاحظ - في الحيوان، وفي المحاسن والأضداد على فرض صحة نسبته إليه. وفي البيان والتبيين - روائع من فن القصة. لا نجد لها شبيهاً فيما كتب العرب قبله من ألوان القصص. كتب قصصاً عربية، وعرب قصصاً هندية وفارسية، وصاغ كل ذلك بأسلوبه الرائع. وصور فيها شتى عناصر القصة. من الحادثة - والسرد والبناء والشخصية والزمان والمكان والفكرة تصويراً جديداً ساحراً. وكتب كذلك في القصة على لسان الحيوان^(١). وقصص البخلاء كثيرة ومشهورة^(٢) ومنها قصص رسم أبو عثمان فيها بقلمه البليغ بخل أهل مرو وخرسان. حتى لكأن البخل فيهم خلقة وطبيعة. ومن روائع قصص «الحيوان» قصته التي صور فيها موضوعها أدق

(١) راجع ١٢٢ - ١٢٥ المحاسن والأضداد.

(٢) راجع فن القصص في البخلاء لمحمد مبارك.

تصوير، وهي عن قاض ألح عليه الذباب إلحاحاً شديداً^(١). ومن قصص البخلاء قصة «قميص السكران»^(٢) وقصة شيخ ربيع الشاذرون ببغداد^(٣) ومريم الصنّاع^(٤) ومعازة العنبرية^(٥). وغيرها... وفي المحاسن والأضداد أروع القصص العربية والمنقولة من الفرس والهند... ولو حاولنا سرد بعض القصص مثلاً لذلك لأخذ منا ذلك وقتاً ومتسعاً كبيراً.

٤ - وفي الحيوان والمحاسن والأضداد كثير من القصص الشعري البديع. ومنها قصيدة قصصية شعرية لشهاب بن حرقة السعدي^(٦). وهو شاعر أموي من أنصار ابن الأشعث. وفيها أيضاً قصص على لسان «الحيوان»^(٧). وللجاحظ فصول قصصية في شتى كتب الأدب. ومنها كتاب «زهر الآداب» فقد ذكر قصة للفضل بن سهل مع رسل بعض الملوك^(٨).

٥ - وكتب الجاحظ في الفلسفة والعلم بأسلوب الأدب. واتخذ موضوعات شتى العلوم والفلسفة مادة لأدبه، وموضوعاً لكتاباته، وكان بذلك أول من أدب الفلسفة كما يقولون.

٦ - وفي أدب الجدل والحوار كتب أبو عثمان كذلك أروع الفصول، والكثير من الرسائل والكتب، التي ارتفعت بهذا الفن في الأدب العربي إلى منزلة سامقة. بعد أن كان بدائياً، وحلق به في أجواء عالية من الموهبة والبلاغة الأدبية والعبقرية الفنية.

٧ - وفي أدب السخرية والفكاهة لا تزال رسالته «التربيع والتدوير»

(١) ٣: ٣٤٣ الحيوان، ٢: ٣٨٧، ٣٩٠ أمراء البيان، والجاحظ للفاخوري.

(٢) ١: ٧٢ البخلاء - الجارم.

(٣) ١: ٥٦ المرجع.

(٤) ١: ٦٢ - ٦٤ المرجع.

(٥) ١: ٦٨ المرجع.

(٦) ٥٥ المحاسن والأضداد.

(٧) راجع ١٢٢ - ١٢٥ المرجع.

(٨) ١: ٢١٧، ٢١٨ زهر الآداب - الحلبي.

عموراً لفن الفكاهة في الأدب العربي. ومجالاً لدراسات كثيرة حول هذا الفن الجاحظي الرفيع. وتبدو خصائص فن الجاحظ في هذا الجانب في عناصرها الأساسية من الاستدراج والتهكم والتنادر والتصوير (الكاريكاتيري) لشخصية الذي يهجو أو يتهكم به. وكانت الفكاهة تغلب على طبعه^(١). وهذا الفن له صلة وثيقة بحياته ونفسه. فقد عاش في زمن جمع المتناقضات. وحال فقدان الحرية بينه وبين التصريح، وأدرك أن مرارة الحياة لا تحلو بعض الحلاوة بغير الدعابة، والاحماض، ووقف على أسرار نفس الإنسان فحاول أن يلفظ من شره الدنيا وشرورها وشقائقها، وقصد إلى تعليم الناس.

وقد تعلم الضحك أكثر مما تعلم العبوس، وقل بين الناس من تذوق الحياة كما تذوقها الجاحظ، فقد كان صارماً في جدّه، كما كان قاسياً في هزله، فروّج عن نفسه، وعمن كان يحف به ويعاشره، وعن قراء كتبه، يقول الجاحظ في تعليل استعمال الهزل^(٢): «إن الكلام قد يكون في لفظ الجدل، ومعناه معنى الهزل، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه الجدل، ولو استعمل الناس الدعابة في كل حال، والجد في كل مقال، لكان السفه صراحاً خيراً لهم والباطل محضاً أرد عليهم ولكن لكل شيء قدر، ولكل حال شكل فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه فإن ذمنا المزاح ففيه لعمرى ما يذم، وإن حمدناه ففيه ما يحمد، وفصل ما بينه وبين الجدل أن الخطأ إلى المزاح أسرع».

وقد كانت دمامة الجاحظ أحد الأسباب التي طبعت على السخرية والتندر حتى ليطلبها وهو يعالج أخطر الموضوعات، وكثيراً ما كان يدس التهكم في خلال كتاباته دساً، فيقضي على حجج مناوئيه، بقدر ما يقضي عليها ببراهينه المنطقية. وتظهر نواذره في «الحيوان» و«البخلاء» في أتم صورها... والجاحظ الذي قيل فيه:

(١) راجع ٥: ٣٤١ الحيوان.

(٢) ٢: ٢١٣ رسائل الجاحظ.

لو يُسخ الخنزير مسخاً ثانياً. ما كان إلا دون قبح الجاحظ
كان خفيف الروح والظل خفيفاً على قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم.
وكان له من حياته وهي سلسلة متصلة الحلقات من الكد والخفية
والحرمان ومن طبيعته السريعة التأثير الميالة إلى الملاحظة والنقد، كان له منها
طرائف ونوادر لا تبلى جدتها على مرور الأيام.

ويرى الجاحظ أن النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة
الحارة جداً. وإنما الكرب الذي يخيم على القلوب النادرة الفاترة التي لا هي
حارة ولا باردة. وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط. وإنما الشأن في الحارة
جداً أو الباردة جداً، وله في البخلاء والحيوان، وفي البيان والتبيين، وفي
رسالة «التربيع والتدوير» الكثير من الفكاهات والنكات اللاذعة.

قال أبو بكر محمد بن اسحاق. قال لي إبراهيم بن محمود. ونحن
ببغداد: ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ؟ فقلت: ما لي وله؟ فقال:
إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه. فلو دخلت إليه وسمعت كلامه.
فدخلنا عليه. فقدم لنا طبقاً عليه رطب. فتناولت منه ثلاث رطببات ثم
أمسكت. ومر فيه إبراهيم، فأشرت إليه أن يمسك. فرمقني الجاحظ، وقال
لي: دعه يا فتى، فقد كان عندي بعض إخواني. فقدمت إليه الرطب،
فامتنع. فحلفت عليه، فأبى إلا أن ير قسمني بثلاثمائة رطبة.

وقال الجاحظ: جاءني يوماً بعض الثقلاء. فقال: سمعت أن لك ألف
جواب مسكت. فعلمني منها. فقلت نعم. فقال: إذا قال لي شخص «يا
ثقل الروح» أي شيء أقول له؟ فقلت: قل له: صدقت.

وصنف الجاحظ كتاباً، فأخذه بعض أدعياء الأدب، فحذف منه أشياء
وجعله أشلاء. فأحضره الجاحظ. وقال له: يا هذا إن المصنف كالإنسان،
وإني قد صورت في تصنيفي صورة. كانت لها عيان فعورتها، أعمى الله
عينيك. وكان لها أذنان فصلمتها. سلم الله أذنك. وكان لها يدان فقطعتها.
قطع الله يديك. حتى عدد أعضاء الإنسان.

ويروى أن الجاحظ ألف كتاباً في نواذر المعلمين وغفلتهم. فعزم الله على تمزيقه، إذ رجع عن رأيه فيه. فلم يلبث الجاحظ أن دخل مدينة فلقي معلماً فحدثه فإذا هو أكثر ما يكون علماً وأدباً وظرفاً. فكان يختلف إليه ويزوره. جاءه يوماً، فوجد الكتاب مغلقاً. وأخبر أنه مات له ميت فذهب للعزاء. وسأله عن قرابة الميت له. فقال له المعلم إنها حبيبي. مر علي صديق عاشق، فعشقتها لعشقه إياها، ثم علمت منه أنها ماتت، فحزنت عليها وجلست في الدار للعزاء. فقال له الجاحظ. يا هذا إني كنت ألفت كتاباً في نواذركم، وكنت حين صاحبك عزمت على تمزيقه، والآن صبح عزمي على إبقائه^(١).

وللجاحظ نكات لازعة مع الجماز وأبي هفان المهزومي، وغيرهما من الشعراء والأدباء والكتاب.

لقد عرف الجاحظ النادرة الأدبية، وغلب على أسلوبه حب التندر والرغبة في الضحك حتى في أوقات الجد، وكتاب البخلاء كله فكاهة وضحك ونادرة؛ وكانت النادرة عنده تنبيهاً على خطأ، أو فضحاً لرديلة^(٢)، وكان الجاحظ يعجب بأحاديث الأعراب وبحوار المتنازعين في علم الكلام وهما لا يحسان منه شيئاً، وإنما يثيران من غريب الطب ما يضحك كل ثكلان^(٣)، وكان يقصد أحياناً إلى الهزل لكسب نشاط القارئ لكتبه^(٤).

وعلى الجملة فقد نقل الجاحظ موضوع الأدب من معناه الضيق المحدود إلى أوسع معنى، فجعله شاملاً لكل شيء، شمل الحياة كلها فالحياة عنده هي مادته وهي موضوعه. فكان الأدب في رأيه هو الحياة نفسها، أو تعبيراً عنها. مرة تصويراً لها، ومرة نقداً وتوجيهاً. وكذلك ذهب إلى أنَّ الأدب لا بد من

(١) راجع القصة كاملة في ص ٤٦٦ ج ٢ أمراء البيان.

(٢) راجع ١٢٨، ١٤٢ النقد المنهجي عند الجاحظ - داود سلوم.

(٣) ٦:٣ الحيوان.

(٤) ٣:٥ الحيوان.

إن يعمق فهمنا للحياة، بأن يطلعنا لا على عالم الرؤية الخارجي فحسب بل على العالم الداخلي للفكر والشعور، كذلك فالعمل الأدبي عنده يرتاد بنا الحياة ويخلق بيننا وبينها علاقات من الفهم والمعرفة وهي الغاية التي تسعى لها الإنسانية في نشاطها المستمر.

وكان الجاحظ يدرك أن العمل الأدبي مستمد من الحياة. متأثر ومتصل بها ومؤثر وعامل فيها. فالأدب عند أبي عثمان كائن حي، متجدد الحيوية. بمقدار ما يستمد من الحياة. وما يوصله إلى نفوس الآخرين من خبرة جديدة، ومن فهم عميق لهذه الحياة.

ولقد ازدهرت الحياة العقلية في عصر الجاحظ ازدهاراً كبيراً، وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة في العلم والثقافة. وأخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في شتى جوانبها. ويضيفون عليها ظلال رعايتهم وتشجيعهم. وكانوا يبالغون في إكرام الأدباء والعلماء ويجالسونهم ويقربونهم إليهم، وصار العلم والأدب وسيلة إلى المناصب العالية، والنفوذ والجاه. وكان كل من نبغ في العلم، أو شهر بالأدب ترفع منزلته، ويتنافسون في إنشاء دور العلم، وترجمة الكتب إلى العربية من مختلف اللغات.

وإذا كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة، كانت عقلية الشعب العربي آنذاك صدى لامتزاج الثقافات، وتلاقح الحضارات، ولتصافي الأجناس في غالب الأمر.

كانت الثقافة العربية الإسلامية هي الذائعة، وهي أساس التكوين العقلي للطالب العربي في عصر الجاحظ. وقوامها علوم الدين، واللغة والأدب، وما يتصل بكل ذلك من علوم ومعارف. ولها أكبر الأثر في الفكر الإسلامي في عصر الجاحظ، كما كانت المورد العذب للناس جميعاً.

وحيث كان النفوذ في عصر الجاحظ للفرس، فقد انتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على أيدي الوزراء والكتاب الفارسيين، ونقل المثقفون من

الفرس الذين أجادوا العربية، والعرب الذين أتقنوا الفارسية إلى العربية، تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة، ويقول ابن خلدون (٨٠٨هـ): إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم^(١).

ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بامتزاج العرب واليونان في الحياة الاجتماعية، وخاصة في الشام، وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية. وإذا كان خالد ابن يزيد (٨٩هـ) أول من ترجم له كتب النجوم والطب والكيمياء^(٢) فقد عني المنصور (١٥٨هـ) بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة. وبعث إلى إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واختار لها مهرة الترجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها^(٣)، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والسريانية والفهلوية^(٤).

وكذلك فعل الرشيد الذي أنشأ في بغداد بيت الحكمة ونقل إليه ما وجده من كتب في أنقرة وعمورية وبلاد الروم التي غزاها المسلمون، وقلد يوحنا بن ماسويه أمر الإشراف على ترجمة الكتب القديمة، وأوفد المأمون الرسل إلى ملك الروم في استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك^(٥)، وعين سهل بن هارون مشرفاً على بيت الحكمة التي امتلأت بالكتب المهداة إلى الخليفة من ملك جزيرة قبرص ومن ملك الروم. وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر العربي مباشرة وبوساطة الفرس أيضاً.

تجمعت هذه الثقافات في العراق في عصر الجاحظ، وأحدثت أثرها

(١) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون

(٢) ٣:١ البيان والتبيين للجاحظ ٤٩٧ فهرست لابن النديم. ٩٣ رسائل الجاحظ.

(٣) ٤٨٠ المقدمة، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي.

(٤) ٤٢١:٤ مروج الذهب.

(٥) ٤٨١ المقدمة.

العميق في العقول والأفكار، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات^(١)، وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب. فقدموا معاني لم يكن الأدباء والشعراء يعرفونها.

ومنذ عصر المتوكل زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها، بتطاول الزمن وتلاقح العلوم، وظهور آثار حركة الترجمة، وتشجيع الخلفاء والوزراء والأمراء والولاة للعلم والعلماء، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم في البلاد الإسلامية، ونبع أعلام خالدون في كل فرع من فروع الثقافة، وعرف الناس أن «كل عز لم يؤكد العلم فإلى ذل يؤول» فانكبوا على الثقافة، وعهد أهل اليسار إلى المؤيدين بتعليم أبنائهم، وبذلك أصبح التعليم صناعة، وصار التأديب طريقاً إلى المجد والسؤدد^(٢).

وكانت هذه الثقافات المتعددة تؤلف التراث العلمي في هذا العصر. وفيها زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان. وكان لا بد للرجل المستنير أن يأخذ بحظ من الثقافات جميعها^(٣). . . وكانت السيادة أولاً لتزعة الاعتزال التي أيدها المأمون بكل قوته. وفي عصر المتوكل انتهى سلطان المعتزلة وارتفع شأن المحدثين. وبطل القول في خلق القرآن واضطهد رؤساء المعتزلة.

وقد تعددت مراكز الحياة العقلية العربية في عصر الجاحظ فنشطت الدراسات الدينية واللغوية في مصر. وتفاوتت الشام في الشعر والآداب واللغة^(٤)، وكان للعراق الصدارة في العلم والأدب والفلسفة. وأصبحت بغداد والبصرة وحران من أهم مراكز البحث العلمي والحضارة في عصر الجاحظ. فالجاحظ والكندي (٢٥٣هـ) بصريان. والبتاني الرياضي الفلكي من حران. واشتهرت بلخ وخوارزم وأصفهان في ميدان الفكر والثقافة.

(١) ٣٨٠: ١ ضحى الاسلام.

(٢) ٣١٣: ٢ أمراء البيان - محمد كرم علي ط ١٩٣٧ القاهرة.

(٣) ١٢ الجاحظ للفاخوري.

(٤) ٨: ١ يتيمة الدهر للشعالي، ١٧٧: ١ ظهر الإسلام لأحمد أمين.

وقد عمرت مجالس العلم والأدب، واللغة بعلماء البصرة: يختلفون إلى المريد. وكان المسجديون والمريديون جماعاً من شعب الأدب والرواية. أما الكوفة فيختلف بنوها إلى الكناسة مجمع الشعراء والأدباء. وإلى مسجدهم مجمع العلماء. ومغنى القراء والمنافسة بين البصرة والكوفة على أشدها. أما بغداد فكانت تنعقد مجالسها، وتغص مساجدها بأرباب العقول وقادة الفكر وأمراء البلاغة وشعراء المحدثين^(١).

وهكذا كان عصر الجاحظ حافلاً بالعلوم قديمها وحديثها. كما كان حافلاً بالفلاسفة والمفكرين والعلماء. وصارت العلوم المترجمة شرطاً في تكوين ثقافة الكاتب والأديب. وعلى أي وجه فقد كانت مناهج التفكير متعددة. وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده في العراق. حتى رأينا ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ) يثور في مقدمة كتابه «أدب الكاتب» على الحالة في عصره، حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق^(٢) ولقد نبغ في عصر الجاحظ كثير من أئمة العلماء. ومن أشهرهم:

١ - في التشريع: الإمام مالك (١٧٩هـ). والليث بن سعد (٩٢ - ١٧٥هـ) والإمام الشافعي (٢٠٤هـ). والإمام أحمد بن حنبل (٢٤٠هـ) والكرابيسي (٢٤٥هـ). والزعفراني (٢٦٠هـ). وداد الظاهري (٢٠٢ - ٢٧٥هـ). والبويطي المصري (٢٣١هـ).

٢ - وفي العلم: أبو الحسن المدائني (١٣٥ - ٢٣٤هـ). والواقدي (١٣٠ - ٢٠٧هـ). والزهري كاتب الواقدي (٢٣٠هـ)، وابن السكّ (١٨٣هـ).

٣ - وفي التصوف: إبراهيم بن أدهم البلخي (١٦٢هـ). وصالح المري الزاهد واعظ البصرة (١٧٢هـ). ورابعة العدوية (١٠٠ - ١٨٠هـ)^(٣).

(١) ٣١٣: ٢ أمراء البيان.

(٢) ص ٢ وما بعدها - أدب الكاتب بهامش المثل السائر.

(٣) ٢٨٧: ١ العبر في خبر من غير الذهبي (٧٤٨هـ) الكويت ١٩٦٠.

وبشر الحافى البصري (٢٢٧هـ)، وذو النون المصري (٢٤٥هـ)، والمحاسبي (٢٤٣هـ)، والبسطامي (٢٦١هـ).

٤ - وفي علوم اللغة والأدب: الفضل الضبي (١٧٠هـ)، والخليل (١٠٠ - ١٧٥هـ)، وسيبويه (١٨٨هـ)، والأصمعي (٣١٦هـ)، وأبو زيد الأنصاري (٢١٤هـ)، وأبو عبيدة (١١٠ - ٢٠٨هـ)، وأبو محمد اليزيدي (٢٠٢هـ)، والقاسم بن سلام (١٥٠ - ١٢٣هـ)، وابن الأعرابي الكوفي (١٥٠ - ٢٣١هـ) وهو من أصل هندي. وابن سلام الجمحي البصري (٢٣١هـ) ومصعب الزبيري (٢٣٦هـ)، والتوزي (٢٣٨هـ)، وأبو العميل (٢٤٠هـ)، وابن السكيت (٢٤٤هـ)، ومحمد بن حبيب (٢٤٥هـ) والمازني (٢٤٩هـ) وأبو حاتم السجستاني وقد توفي - كالجاحظ - عام ٢٥٥هـ والوزير ابن بكار (٢٥٦هـ)، والرياشي (٢٥٧هـ)، وعمر بن شبة (١٧٣ - ٢٦٢هـ)، وابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ)، والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥هـ).

٥ - وفي علم الكلام ظهر في المعتزلة: بشر بن المعتمر (٢١٠هـ) وثامة ابن أشرس (٢١٣هـ)، والنظام (١٨٠ - ٢٢٣هـ). وابن أبي دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠هـ). ويحيى بن أكثم (٢٤٣هـ). وأبو الهزيل العلاف البصري (٢٣٥هـ)، والجاحظ (٢٥٥هـ).

٦ - ومن المفكرين والفلاسفة: ابن ماسويه الطبيب (٢٤٣هـ)، والكندي (٢٥٣هـ)، وتلميذه السرخسي (٢٨٦هـ)، وحنين بن اسحق (١٩٤ - ٢٦٠هـ)، وأبو حنيفة الدينوري (٢٨٢هـ)، وثابت بن قرة (٢٢١ - ٢٨١هـ)، ثم البتاني الخراساني (٣١٧هـ)، وأبو زيد البلخي (٣٢٢هـ) وسواهم.

وهكذا حفل عصر الجاحظ بأفذاذ العلماء والمفكرين ورجال الدين. كما حفل بالأدباء والكتاب والشعراء.

وتلك هي معالم الحياة العقلية في عصر الجاحظ، بما فيها من مؤثرات وتأثيرات، وبما اشتملت عليه من تطورات ونهضات، وكان الجاحظ يعيش في قمة هذا الطود الشامخ من الثقافات، يدرس هذه البيئات الثقافية، مصوراً

ومؤرخاً، يحيا ومراقب، يختبر وينظر، يمتزج وينعزل، وكان العصر كله مصوراً في نفسه وكتبه، تتجلى فيه وفيها العديد من النزعات والثقافات؛ فكان بذلك علماً من أكبر أعلام الفكر العربي، في عصره وبعد عصره على السواء.

ولقد صبغت آثار الثقافات المترجمة الحياة الاجتماعية والعقلية في عصر الجاحظ بأصباغ جديدة، ولكن أثرها في الأدب واللغة كان متفاوتاً، فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتابة والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل، من حيث نضجت معاني الكتاب وتخيلات الشعراء، وعمقت صياغتهم الذهنية وتفكيرهم العقلي إلى حد كبير... ظلت العربية هي لغة التفكير والأدب وإن سايرت حركة الرقي، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة. ولقد أثرى الأدب في عصر الجاحظ بما ترجم من فلسفة اليونان ومنطقهم، فقد صبغاً عقلية الأدباء والشعراء بآثارهما العميقة في التفكير والمعاني وطرافة التقسيم والخيال، كما أثرى كذلك بالترجم إلى العربية من قصص الهند وأدب الفرس، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية، وللفرس المتعربين، مجال كبير في الأدب العربي، ومن بينهم: بشار، وأبو نواس، والعتابي (٢٢٠هـ) وغيرهم.

وهؤلاء أنتجوا أدباً عربياً فيه معاني الفرس وبلاغة العرب. وكبار الكتاب والشعراء في هذا العصر من أصول فارسية، ممن أحدثوا آثاراً واسعة في الكتابة الفنية، كذلك في أغراض الشعر ومعانيه وأوزانه وقوافيه، وإذا كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً في المادة والمعنى، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظ روايته، فقد كان أثرهم في عهد بني العباس أعمق، لا في الأسلوب البياني، بل في التفكير والخيال، وبتأثيرهم تنوعت الأوزان وظهر التألق في النثر والشعر، وطلبت الرقة والدمائة، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها.

ويمتاز الأدب في هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية، وبكثرة الحكم والقصص فيه، وبظهور المؤلفات الجامعة فيه: كالبيان والحيوان وأمثالهما، وبأن الأدب أصبح صناعة علمية في الإنشاء

والتأليف، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال، والمبالغة الشديدة والإكثار من البراهين العقلية والأمثال... وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة في مقدمة كتاب «أدب الكاتب».

ولقد كان ظهور الموالى وعلو منزلتهم في المجتمع العباسي، مما أحيى في نفوسهم الشعور القومي، فظهرت الشعوية تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين، وتمجد العجم بإعلان مآثرهم، وتزري على العرب بتلمس المثالب لهم. وتسجل ذلك في الشعر، من أمثال بشار، والخرملي، وأبي نواس، وفي الكتب يضعها أمثال أبي عبيدة والهيثم بن عدي، وسعيد بن حميد، وعلان الشعوبي، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم، ويدفع عن العرب وينتصر لهم، كالجاحظ وابن قتيبة ومحمد بن يزيد الأموي.

وكان الأدب في هذا العصر يعيش في ظلال القصور، التي تملك من النفوذ والثراء وأسباب الترف ما لا يملكه الأدباء، ولا العامة من الشعب.

وظهر تأثير الحضارة في أدب الكتاب وشعر الشعراء واضحاً جلياً، خاصة في طبقة شعراء اللهو والغزل والمجون من أمثال بشار ومطيع بن إياس ووالبة وأبي نواس ومسلم وحسين بن الضحاك وغيرهم. وقد ضعفت الخطابة في هذا العصر بزوال أسبابها، وأعجمية رجال الدولة، ولأن العرش العباسي كان قد حكم بالاستبداد، وبطلت الخطابة في الجيوش، وضعفت الملكات.

وصار في الكتابة، وقد تنوعت أساليبها وأغراضها، غنى عن الخطابة فاحتلت كتابة الرسائل منزلة سامقة، وقد كان للإنقلاب العباسي أثر في الميول والعقول، ظهر على أفلام الكاتبيين فاستنبطوا عيون المعاني، وتخبروا شريف الألفاظ، مما لم يكن حوشياً ولا سوقياً، وفتحوا أبواب البديع، وبذ الكتاب فحول الشعراء في الثراء والجاه؛ ونبغ في الكتابة كما نبغ في الأدب والشعر جمهور كبير، ونهض الشعر في هذا العصر نهضته التي لم يبلغ مثيلتها في عصر من العصور.

وكانت مصادر الثقافة الأدبية في هذا العصر كثيرة، ومن أهمها: القرآن

والحديث، والكتب المؤلفة حولها مما يتصل بالأدب من مثل: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ونظم القرآن للجاحظ، والإعجاز للواسطي المعتزلي (٣٠٦هـ)، وكذلك خطب الخطباء وحكم الحكماء ورسائل الأدباء، وكتب التاريخ والسياسة وكتب الأدب الجامعة: كالحيوان والبيان والتبيين وعيون الأخبار، وكتب الكتابة والنقد والبيان ومنها كتاب الفصاحة للسجستاني والبلاغة للمبرد وقواعد الشعر لشعلب، والرسالة العذراء لابن المدبر. ثم كتب الشعر وأخبار الشعراء وطبقاتهم. وغير ذلك من روايات الرواة وأخبار الأخباريين وأحاديث الإعراب.

ويقول الجاحظ: «وقد أدركت رواة المسجدين والمريدين، ومن لم يَزُجْ أشعار المجانين ولصوص الإعراب ونسيبهم، والارجاز الأعرابية القصار، والأشعار المنصفة، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة، ثم استبدوا ذلك كله؛ ووقفوا على قصار الحديث والقصائد والفقر والتنف من كل شيء، ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف فما هو إلا أن أورد عليهم خلف نسيب الأعراب، فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب. ثم رأيتهم منذ سنين وما يروي عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر، أو فتياي متغزل، ولقد جلست إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نعيم وعمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين، فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده، وكان خلف الأحمر يجمع ذلك كله»^(١).

ومن ذلك نعلم أن الرواة كانت تختلف أذواقهم في الرواية بين وقت وآخر كما تختلف أذواق الناس في الملابس (المودات اليوم).

ومن أشهر أعلام النهضة الأدبية في عصر الجاحظ: أبو نواس (١٩٨هـ) ومسلم (٢٠٨هـ)، وأبو العتاهية (١٣٠ - ٢١١هـ)، وأبو تمام (١٩٢ - ٢٣١هـ)، وأبان اللاحقي (٢٠٠هـ)، والعتابي (٢٢٠هـ) وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥هـ) وعلي بن جبلة (١٦١ - ٢١٣هـ)، ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦هـ)، ومحمود بن الحسين

(١) ٢٣: ٤ و ٢٤ البيان والتبيين - نشر الخانجي.

الوراق (٢٢٠هـ)، وعبد الصمد بن المعذل (٢٤٠هـ) وكان شاعر البصرة^(١)، وعلي بن الجهم (٢٤٩هـ)، والحسين بن الضحاك الخليع (١٦٢ - ٢٥٠هـ)، وابن الرومي (٢٢١ - ٣٨٣هـ)، والبحري (٢٨٤هـ).

وكذلك: الفضل البرمكي (١٤٧ - ١٩٢هـ)، والفضل بن سهل (٢٠٢هـ)، والفضل بن الربيع (٢٠٨هـ)، وإبراهيم بن المهدي (٢٢٤هـ) وإبراهيم الموصلي (١٢٥ - ١٨٨هـ)، والحسن بن سهل (١٦٦ - ٢٣٦هـ)، وإسحاق الموصلي (٢٣٥هـ)، وعمرو بن مسعدة (٢١٤هـ) وأحمد بن يوسف (٢١٣هـ) وإبراهيم بن العباس الصولي (٢٤٣هـ)، وسعيد بن حميد (١٦٠هـ)، والحسن بن وهب (٢٦٥هـ)، وسليمان بن وهب (٢٧٢هـ)^(٢)، وإبراهيم بن المدبر (٢٧٩هـ) وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢هـ)، وابن أبي الدنيا (٢٨١هـ)، وابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ)، وأبو علي البصير (٢٥١هـ)، وجحظة البرمكي (٢٢٤ - ٣٢٦هـ) وسواهم.

وهكذا حفل عصر الجاحظ بكثير من أعلام اللغة والرواية والأدب والشعر والنقد؛ وكان الجاحظ درة العصر، وقمة ما بلغه من نهضة أدبية مرموقة.

وقد بقي من آثار الحضارة السمعية عدد من المظاهر التي انعكست على أدب الترف والتعيم الذي يعيش في مجالس الملوك والأمراء والوزراء والمترفين، من وصف للمتنزهات والقصور، والحفلات والمآدب، ومجالس الغناء واللهو والترف، ورأينا أدب الإخوانيات أو الرسائل الإخوانية يذيع في هذا العصر، ورأينا كذلك أدب الحرمان والفقر الذي كان صدى لحياة المحرومين والمكدودين، ومنه أدب الكدية (الأدب الساساني)^(٣) الذي كان أدب المقامات لونا منه، واشتهر من شعراء الكدية والصعلكة الأحنف العكبري، وأبو دلف الخزرجي،

(١) ٩٣ خاص للثالي، ٣: ٧٤ زهر الآداب للحصري.

(٢) ١: ٤٢٣ المعبر للذهبي.

(٣) نسبة إلى طبقة الساسانية التي احترفت الكدية.

والعكبري... وذاع كذلك أدب الشكوى، وأدب الزهد الذي كان رداً على أدب الترف... كما شاع أدب المجون واللهو، من وصف للخمر والغناء ولجالسهما. ومن غزل الجوّاري والغلمان، ومن عبث وتحلل مثلها: ابن الحجاج، وابن سكرة. وشاع كذلك أدب النقد للمجتمع ولأوضاعه المختلفة... إلى غير ذلك من مظاهر تأثير الحياة الاجتماعية في الأدب.

الحياة العقلية وأثرها في الأدب:

١ - انتشرت المدارس والمكتبات والعلوم في العصر العباسي الثاني. وتعددت الثقافات، وكثر الأساتذة والطلاب. وقامت الحلقات العلمية والدينية واللغوية في المساجد والكتاتيب في كل مكان. وقد كانت حركة الرقي العلمي أثراً للإسلام نفسه وحضه على المعرفة، ولحركة الترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية، ولتنافس الأمراء في العالم الإسلامي في رعاية العلوم والثقافة، والرحلات العلمية، بين عواصم الخلافة الإسلامية، ولإنشاء المكتبات والمدارس والجامعات، وكثرة حركة النسخ، وتنافس العلماء في خدمة المعرفة وحفظهم لدى الملوك والأمراء، وكثرة الفرق وجدلها ومحاولة كل منها الغلبة على الفرق الأخرى.

وأخذت الحركة العقلية في هذا العصر عن اليونان والفرس والهند وسواهم من الأمم العريقة في الثقافة والحضارة بالترجمة والاقتباس، مما ظهر في الترجمات المختلفة، ثم في الاقتباس من العلوم والمعارف الأجنبية، ثم في تأليف العلماء والفلاسفة المسلمين.

٢ - وقد تأثرت الحركة العقلية في الأدب تأثيراً كبيراً، فالعلوم الإسلامية والمترجمة قد أمدت الأدب بكثير من المعاني والأفكار والأخيلة والموضوعات والأساليب. وقد ظهرت علوم الأدب، وظهرت كذلك فنون النقد والموازنة وإعجاز القرآن والبلاغة. فأثرت في غمّ الأدب وازدهاره تأثيراً كبيراً، وابتكرت فنون أدبية جديدة نشأت بتأثير غمّ الثقافة والحركة العقلية كالأدب الفلسفي، الذي كان منه لزوميات المعري، وكأدب الزهد والتصوف

وأدب الطبيعة، وسوى ذلك، ولا شك أن الأدب القصصي ومنه فن المقامات مدين لنمو الثقافة والعلوم ومتأثر بالحركة العقلية في العصر العباسي الثاني.

هذا بالإضافة إلى ظهور مصطلحات العلوم الجديدة وذيوعها في أساليب بعض الأدباء والكتّاب، مما أثر في أساليب الأدب وألفاظه تأثيراً واضحاً في هذا العصر.

وهذه العلوم قد فتحت مجالات واسعة أمام الكتّاب والأدباء والشعراء للحديث عن مشكلات المجتمع والأخلاق والسياسة المدنية وتدبير الملك والفلسفة وسوى ذلك من مسائل الحضارة ومباحثات التفكير، على أن كثيراً من الأدباء قد اشتغل بعلوم الفلسفة والعلوم الجديدة، كما أن كثيراً من العلماء قد كان الأدب هوايته، وبذلك أصبح الفاصل بين الأدب والعلم ضئيلاً، ونشأ أثراً لذلك الشعر الفلسفي الذي يتجلى واضحاً في لزوميات المعري، وهو ديوان من الشعر ضمنه نتائج عزلته الفكرية خلال أربعين سنة؛ من آراء في الإلهيات والنبوات والمعجزات والأديان والوجود والزمان والمكان والمادة والصورة والقدم والخلود والفناء والأفلاك والنجوم والروح والجسد، والطبائع والأخلاق وسواها.

٣- وكان التدوين في المشرق سائراً في منهج التقدم في هذا العصر، بل وفي عدد المتوفرين عليه، وتعددت أغراضه وموضوعات علومه، وتتنوع أشكال كتبه من مبسوطات مفصلة ومختصرات مجملة ووسائط بينها معتدلة، ورغب العلماء والمصنفين في الإفادة والاستفادة وجود عدة دول متجاورة متنافسة كل منها تحرص أن تفوق الأخرى في إحراز وسائل القوة وعتاد الملك وترقية العيش، ولا يكون ذلك إلا بتأثيل الحضارة وتعضيد العلم، وأغدق ملوك هذه الدول ووزراؤها على العلماء والأدباء وتنافسوا في ضمهم إلى مجالسهم، وأغراهم هؤلاء بتأليفهم الكتب بأسمائهم واستنباط دقائق العلوم لفائدتهم، فكثرت الكتب والمصنفات في العلوم التي وضعت في العصر العباسي الأول وفي علوم أخرى اشتقت منها كعلوم الأخلاق وآداب الملوك. وسياسة الملك، وقيادة الحرب، وتعبئة الجيوش، واستعمال الأسلحة وتدبير

المال وتصرف وجوه الكسب في التجارة وتدبير المنزل، والبحث في معرفة أسباب العمران، واتسع مجال البحث في الطب والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة والفلك والجغرافيا وفن الخيل، والمنطق والكلام وعلم النفس، وسائر العلوم الحكيمة والدخيلة، فتثبتت أصولها، وتشعبت فروعها، وتعددت المذاهب، وأصبحت بعيدة الشبه بأصولها اليونانية، وانصبغت بصبغة إسلامية، وامتزجت بكل فن حتى الأدب والشعر.

واستفحل أمر اختراع الأساطير والأسفار الخرافية وقصص الشجعان، واستمر الحال على ذلك في الدول البوذية والسامانية والغزنوية حتى جاءت السلجوقية فكان لها أيضاً على عصبيتها مساعدة للعلم بإنشاء المدارس الخاصة بالتدريس وتوظيف الوظائف والجرايات للعلماء والطلاب وتخصيص كل عالم بعلم ومرتبة. وكان التدريس قبل في المساجد على غير نظام محدود أو جرایة دائمة، وحاکتهم في ذلك الممالك المجاورة، وأشهر مدرسة من هذا النوع هي المدرسة النظامية ببغداد، شرع في بنائها نظام الملك أبو الحسن بن علي الطوسي سنة ٤٥٧ وافتتحت للتدريس سنة ٤٥٩، ثم كان له ولغيره مدارس أخرى على هذا النمط بالري ونيسابور وهراة وبخارى، وكان يكون غالباً بجانب هذه المدارس أربطة للصوفية والسابلة وكتاتيب لصغار المتعلمين، ودور كتب عظيمة لمراجعة العلماء والطلاب، غير خزائن كتب الملوك والوزراء التي كانت تحوي مئات الألوف من المجلدات.

ثم فترت هذه الحركة في المشرق بضعف ممالكه واستعجام حكوماتها واستيلاء الجهل على رؤسائها قبيل إغارة التتار وأثناء غلبة الدولة الخوارزمية حتى اجتثت سيل التتار الجميع، وطمس في المشرق آثار العرب والمتعربين بآبادة العلماء وتحريق الكتب.

وكانت طريقة التأليف في العلوم اللسانية والشرعية يحرص فيها على ذكر الروايات باختلاف طرقها، وإثبات أسانيدھا، وأشد ما روعي ذلك في الحديث والتفسير. ثم يلي ذلك كتب الأدب كالأغاني، ثم يلي هذا التاريخ.

وفي أواسط هذا العصر وأواخره أهملت هذه الطريقة في كتب الأدب وقل الإطناب، واكتفي من الروايات بذكر محصلها، واختصرت القواعد والأحكام. وأدخلت تحت حدود وضوابط عامة وخصوصاً كتب الفقه والأصول والنحو لاتساع دائرة العلوم؛ وضيق العمر عن الإحاطة بالمطلوبات.

أما العلوم الدخيلة فقد كانت ترجمت وهذبت وصححت ونبغ فيها فطاحل تصرفوا فيها وتعمقوا في إيجاز عباراتها وإخفائها على غيرهم من الفقهاء المنكرين عليهم حتى كادت كتب الحكمة والتوحيد يكون لها لسان قائم بنفسه. وبقيت هذه الطريقة مراعاة في كتبها حتى سكنت ريح التأليف في العلوم العقلية أواخر القرن الثامن، غير أنه كان هناك جماعة من الحكماء ضجروا من كتم علوم الفلسفة وإغماض عباراتها، فتآخوا على بث علومها وإيجاد الصلات بينهما وبين مسائل الشرع وعقائد الدين، وألقوا بعبارة سهلة عدة رسائل فيها سموها «رسائل أخوان الصفا»، وأخفوا أسماءهم، وما لبثت أن عرفت وأقبل الناس عليها درساً ومحاكاة وهي باقية إلى وقتنا هذا مطبوعة بمصر والهند وأوروبا وغيرها، وترجمت إلى كثير من اللغات. . . وظهر في هذا العصر في كل فن من العلوم اللسانية والدخيلة رسائل مكتبية لأحداث المبتدئين روعي فيها الاقتصار على أصول القواعد بعبارة سهلة، فكانت أفضل وسائل نشر العلم في هذا العصر.

ومن العلوم التي ألفت فيها هذا العصر علوم الأدب، فقد انقضى العصر الأول وقد فرغ العلماء والرواة من جمع أخبار العرب ونوادرها وأيامها وأشعارها وخطبها وأودعوها بطون الكتب وأوعية الصدور، وانضم إليها أخبار الفتوح والمغازي وسير الخلفاء والقواد البلغاء، فينعت بها قرائح الأدباء، ولهجت بها ألسنة الندماء والسمار، وفاضت أقلام الكتاب، وبقيت أخبار المحدثين وبلاغة المولدين ونوادرهم وأشعارهم وجدهم وهزلهم مجالاً لعناية مصنفي الأدب من أهل عصرهم، وتلك سلسلة لا تنقطع ما دام اللغة حياة، وللأمة سلطان وحضارة، وللقرائح حرية، وللعلماء مكانة، وبعض ذلك فقد كان بالمشرق في مبدأ هذا العصر إلى أواسط القرن الخامس.

ولا غرو أن جاء هذا العصر وللأدب أقلام سيالة في أيدي كتّاب هم ثمرة العصر الماضي ونقلته آثاره للعصور الخالفة، ضموا ما كتبه سلفهم من كتب أو حدثوه من روايات إلى ما عرفوه وشاهدوه وسمعوه، وأودعوا الجميع كتباً مطولة جامعة لكثير من فنون الأدب المتنوعة أو رسائل قاصرة على فن منه، وكثير من الكتب المطولة لم يكن لجامعيها كتابة كثيرة فيها فوق الربط بين العبارات المنقولة والشواهد الموردة ككتاب الأغاني، وأكثر كتب أبي منصور الثعالبي، وكتاب الفرج بعد الشدة، وكثير من كتب الإمالي والمجالس ومنها ما هو ابتداء بحث ككتب المقامات للبديع والحريري والزخشري، وكتب نقد الشعر والموازنة بين الشعراء وكتب الأدب المزوجة بمباحث البلاغة.

ومن توابع كتب الأدب المبتدعة كتب الأسفار والخرافات والأساطير والقصص الحكيمية المحكية على السنة الحيوان وسير الأبطال والشجعان، وابتدأ الأدباء يعنون بوضعها أو ترجمتها منذ صارت المنادمة والسمر صناعة فريق عظيم منهم أي منذ زمن الوثائق إلى آخر الدولة حين استبد الجند من الأتراك ثم الديالم من بعدهم بالخلفاء وآل العباس وكفوا أيديهم عن العمل في شؤون المملكة وقصورهم على المقام في قصورهم وقلت العناية بتريتهم فلم يجدوا ما يقضون به أوقاتهم ويخففون عنهم ضجر بطالتهم غير مجاذبة أسباب اللهو والجلوس إلى الندماء والأسفار ومطالعة القصص والخرافات واللعب بالشطرنج أو النرد ونحوها، وبذلك وجد كثير من هذه الكتب في العصر الماضي، واتسعت دائرتها في هذا العصر، وصار كل سامر ونديم يزيد في أصل كل قصة نادرة طريفة أو شعراً يناسبها ويزخرفها بأنواع الغرائب والتهاويل، وأخبار الجن والسحرة ونحوها، وأفعال الشجعان التي تخرج عن الطوق. وقد ذكر ابن النديم في فهرسته عدداً وافراً من هذه الكتب.

ومن كتب الأسفار التي ترجمت في المشرق أواخر العصر الماضي، وتبدلت بما أضيف إليها في هذا العصر وما بعده إلى وقتنا هذا كتاب «ألف ليلة وليلة». وأصله من وضع الفرس، وكان يسمى بلغتهم (هزارأفسان) أي كتاب اللهو والخرافات، ولا يعلم أصل مترجمه وابتعد بما أضيف إليه من

الحكايات البغدادية والمصرية من أصله ولا يزال عليه بعد مسحة فارسية .

وراق الأوربيين هذا الكتاب فترجموه إلى جميع لغاتهم محافظين على أصله أو متصرفين فيه، ويسمونه الليالي العربية، ويعدونه من أجل الأداب العربية، وهو عند العرب كذلك؛ ووصفه ابن النديم قبل إدخال كثير من الحكايات المصرية فيه فقال: إنه «غث بارد» وهو عند ذوي الذوق السليم من أدباء العرب من الكتب الخالدة، وفي كتاب «ألف ليلة وليلة» كثير من الألفاظ والعبارات العامة لأجيال مختلفة، ويشتمل فوق هذا على كثير من العادات والأخلاق والأدب والخيالات والتصورات للحياة الاجتماعية في العصور القديمة.

٤ - أما في المغرب، فقد كان اشتغال علماء الجزيرة والشام بتدوين العلوم الأدبية والشرعية والتاريخ لا يقل عن اشتغال علماء المشرق، غير أن استيلاء بني حمدان وبني عقيل وبني منقذ والفاطميين على هذه الممالك أكثر من ثلثائة سنة، والجميع شيعية غالية، جعل قرائح علمائها تنصرف إلى تدوين فقه الشيعة والتفنن فيه وفي عقائدهم. وكان هؤلاء الخلفاء والأمراء أولي شغف عظيم بالحكمة والنجامة وسائر العلوم العقلية والطبيعية، فدون لهم علماءهم فيها وفي فقههم وعقائدهم ألوف الكتب وجمعوا في دور كتبهم وخزائنهم منها ومن كتب غيرهم مئات الألوف من المجلدات في مصر القاهرة وطرابلس الشام ودمشق وحلب وغيرها، فلما توالى المحن والمصائب على بلاد الجزيرة والشام بالثورات الأهلية وبغارة الصليبيين وأحرقت المدن وخربت انقرضت الكتب وعفت آثارها. ويقال إن دار الكتب التي أحرقتها الصليبيون بطرابلس الشام كانت تحتوي على ثلاثة آلاف ألف مجلد، ولو قدر أن هذا العدد مبالغ فيه إلى عشرة أمثاله للكانت البقية شيئاً جماً. وعقب هذا ما قام به صلاح الدين الأيوبي من تبديد كتب الفاطميين وبيعها للوراقين وأصحاب المواقف تعفية لأثارهم وتدميراً على عقائدهم، ففقد مع كتبهم شيء خطير من كتب غيرهم، وبقيت الكتب الأدبية والتاريخية اقتناها واحتبسها منها لنفسه القاضي الفاضل، ومن خزائنه انتشرت في بقاع الأرض.

وفي عصر الدولة الأيوبية كانت حركة التدوين منصرفة إلى تنويع كتب الحديث وتجديد فقه الشافعية والمالكية وتأيد مذهب الأشاعرة في الكلام وسير الأبطال والغزوات بمعاوضة صلاح الدين وآل بيته. فألفت في جميع ذلك كتب مختلفة لا يزال كثير منها باقياً بعد.

ومع كل هذا لم تصل عناية علماء هذه الممالك بتدوين العلوم ولا سيما العقلية منها مبلغ عناية علماء المشاركة لتأثير عظمة بغداد والمدرسة النظامية في الشرق، ولاشتغال بال المسلمين في الجزيرة والشام ومصر بالغارات الصليبية أكثر من مائتي سنة، وأعقبها غارة التتار المشؤمة على الجميع، والله الأمر من قبل ومن بعد.

وكانت كتابة التأليف في المغرب على نحو ما كانت عليه في المشرق من حيث النظام والتقسيم، غير أنها كانت أقرب إلى الفصاحة والسهولة ووضوح المعاني والأغراض وتحرير العبارة وإحكامها، من كتابة المشاركة. ويظهر هذا الفرق كل الظهور في كتب العلم وخاصة كتب فقه الشافعية أواخر هذا العصر. أما كتب المالكية فبقيت خالية من مزايا صناعة التأليف حتى أتى ابن الحاجب المتوفي سنة ٦٤٦هـ وعمل مختصره فكان من أجل كتبهم.

وكان الأدب في الجزيرة والشام ومصر فاشياً في كتابة الدواوين، وقول الشعر وحفظ مادته ورواية أخباره ومحاضراته أكثر من فشوه في صناعة التأليف، فكان الأدباء جلهم شعراء أو كتاباً بحيث لم يغلب على أديب منهم التأليف في الأدب حتى نعه في عداد كتابه فحسب، بل إن كثيراً من العلماء المؤرخين والمحدثين والنحاة كانت لهم كتب في الأدب كما كانت لهم فنونهم.

ومن أفضل من صنف في الأدب من الشعراء أبو العلاء المعري، ومن الكتاب العماد الكاتب الأصبهاني والقاضي الفاضل وعلي بن ظافر صاحب بدائع البدائيه المتوفي سنة ٦٣٣هـ، وعلي بن منجب بن الصيرفي المصري المتوفي بعد سنة ٥٥٠هـ، وابن الأثير نصر بن محمد المتوفي سنة ٦٣٨هـ. ومن المؤرخين محمد بن عبيد الله المسبحي المؤرخ المشهور المتوفي سنة ٤٢٠هـ،

والحسن بن إبراهيم بن زولاق المصري المتوفي سنة ٣٨٧هـ، والقاضي علي ابن يوسف القفطي ثم الحلي المتوفي سنة ٦٤٦هـ وغيرهم. ودخل في غمار كتاب الأدب في الجزيرة والشام ومصر أزمان الحروب الصليبية جماعة صنفوا قصصاً حماسية تتضمن سير الشجعان ومكايد الحروب ويرجع أكثرها إلى أصول تاريخية بولغ فيها. منها قصة عنتر بن شداد وزاد فيها القصاص على طول الزمان أشعاراً ووقائع، ويغلب على عبارتها السجع، وقصة ذات الهمة، ويظن أن مؤلفها لم يتمها. وكثير غيرها من كتب القصص التي حوكت بها كتب المغازي وفتوح البلدان، وهي محشوة بالمبالغات ومكتوبة بعبارة منحطة عن كتابة أصحاب المغازي، والتبس أمرها على بعض من يتعاطى التأليف في زماننا فذكرها في عداد كتب الواقدي وابن إسحق وغيرها لأن بعض الناسخين نحلها هذه الأسماء كما نحلوا رواية قصة عنتر الأصمعي، وعدوه ممن عمر وأدرك الجاهلية والإسلام.

الأدب في العصر العباسي الثاني؛

شمل العصر العباسي الثاني نهضة أدبية مزدهرة، عمت جميع ألوان الأدب وفنونه، وتناولت موضوعاته وصوره وأشكاله، وأخيلته ومعانيه وأساليبه وألفاظه، بالتحوير والتجديد، وسار التجديد في سبيله في ظلال الدولتين: البويهية والسلجوقية معاً.

الأدب في ظلال البويهيين:

١ - تأثر الأدب والأدباء في العهد البويهي بالحياة السياسية والاجتماعية والعقلية تأثراً واضحاً. كذلك كان للبيئة والطبيعة، أثرهما الواضح في الأدب في هذا العصر، وقد أثرت الروح الفارسية، والحياة الدينية، كذلك في الأدب... هذا بالإضافة إلى تشجيع ملوك بني بويه ووزرائهم للأدب والأدباء... مما كان من أثره ازدهار النهضة الأدبية ازدهاراً عظيماً لم يصل إليه الأدب في أي عصر من عصوره.

٢ - وقد كان من عوامل النهضة الأدبية في هذا العهد، وأسبابها أن بعض ملوك بني بويه تفرغوا للأدب والشعر، فعز الدولة وأبو العباس ابن ركن الدولة كانا شاعرين، وتاج الدولة بن عضد الدولة كان أدب آل بويه وأشعرهم وكان يلي الأهواز، وعضد الدولة كان شاعراً وأديباً، وقد قصده فحول الشعراء من أطراف البلاد كالمتنبي وغيره، وقال فيه الثعالبي: «كان يتفرغ للأدب، ويتشاغل بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء، ويقول شعراً كثيراً»^(١).

واستوزر البويهيون أبرع الكتاب وأبرزهم. من مثل: ابن العميد والصاحب والمهلي، وسواهم. وكان ابن سعدان من وزرائهم يميل إلى الفلسفة، وكان ابن العميد يميل إلى العلم، وكان المهلي والصاحب يميلان إلى الأدب، وكان سابور بن أردشير يحب الكتب ويعنى بها، وأنشأ مكتبة كبيرة في بغداد عام ٣٨١هـ. . . ويقول الثعالبي في ابن العميد: والكثيرون جلسوا منه مجلس الطلاب من الأستاذ، فأعجبوا به، وجاروه وقلدوه، واتسموا بطابعه، وجروا في نهجه، وقبسوا من ناره، واغترفوا من بحره، وساروا في طريقه ترسلاً وترسلاً^(٢).

وكذلك كان الصاحب (٣٢٦ - ٣٨٥هـ)، التف الأدباء والشعراء حوله، وعاشوا في كنفه وعطفه، وبره وحده^(٣). . . وكان المهلي أديباً كاتباً شاعراً، يترسل ترسلاً مليحاً، ويقول الشعر قولاً لطيفاً يضرب بحسنه المثل^(٤).

وقد اجتهد الأدباء والشعراء في العهد البويهي في التألق في الأسلوب واستعمال المحسنات البديعية، وكان رأسهم في ذلك ابن العميد، وقلده الأدباء والكتاب في طريقته. وكان الصاحب شديد الولع بالسجع إلى حد

(١) ٢: ٢ البيتة

(٢) ٣: ١٢٩ البيتة.

(٣) راجع بيتة الدهر ٣: ١٦٩ وما بعدها.

(٤) ٨: ٢ البيتة.

الإفراط، وكذلك كان الصابي^(١) الذي يقول فيه ابن خفاجة: «من كتاب
المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخل به». وهو أبو اسحاق
الصابي، وكانت المبالغة والإفراط في المعاني واضحة في أدب هذا العصر.

الأدب في ظلال السلجوقيين:

وسار الأدب في طريقه المرسوم في العصر السلجوقي أيضاً، لا شيء إلا
أثراً للنهضة الأدبية السالفة. أما تشجيعهم للأدب والشعر فقد كان معدوماً،
لأنهم أترك لا إدراك لهم في الأدب، ولا ذوق عندهم في الشعر، ولا ثقافة
لهم في علوم العربية ومعارفها، ولأنهم كانوا جد مشغولين بالحروب، وحفظ
سلطانهم من الدسائس والفتن. فلم يشجعوا شاعراً، ولم يرعوا أدبياً، وفعل
كذلك وزراؤهم وولاتهم، فضاعت أنفاس الشعر، وبارت سوق الأدب،
ووجدنا شاعراً كبيراً مثل التعاويذي المتوفي عام ٥٢٨هـ، والذي كان يعد
شاعر العراق في زمنه يقول في مدوحه:

فيا مولاي هل حدثت عني	بأني من ملائكة السماء؟
وأن وظائف التسبيح قوتي	وما أحيا عليه من الدعاء؟
وأني قد غنيت عن الطعام	الذي هو من ضرورات البقاء؟
وهل في الناس لو أنصفت خلق	يعيش كما أعيش من الهواء؟
فلا في جملة الأحرار أدعى	ولا بين العبيد ولا الإماء

وكان الأبيوردي شاعر العرب في القرن الخامس، كما كان المتنبي
شاعرهم في القرن الرابع، وكان شعره ينطق بإباء العرب وعزتهم، ويعرب
عن طباعهم وأخلاقهم، ويتحدث بمآثرهم ومفاخرهم، ويمدح كثيراً من
رؤسائهم، ويرثي لحالهم في عصره ويأنف ألا ينالوا حقهم، وهو كثير الحنين
إلى بلاد العرب، نزاع إلى البداوة وتشبهاً بهم، وكان يقول مثل قوله:

(١) ولد ببغداد عام ٣٢٠هـ، وتوفي بها عام ٣٨٤هـ. راجع يتيمة الدهر ٢: ٣١٨ ما بعدها.

ولاني إذا أنكرتني البلاد وشيب رضا أهلها بالغضب
لكالضيغم الورد كان الهوان يدب إلى غابه فاغترب

ويقول:

رأت أميمة أطماري وناظرها يعوم في الدمع منهالاً بواده
وما درت أن في أثنائها رجلاً ترخي على الأسد الضاري غداثه
أغر في ملتقى أوداجه صيد حمر مناصله، بيض عشائره
إن رث بردي فليس السيف محتفلاً بالغمد وهو وميض الغرب باتره
ويقول:

قضت وطراً مني الليالي فلم أبح بشكوى ولم يدنس علي قميص
أغالي بعرضي والنوائب تعترني وغيري يبيع العرض وهو رخيص
وقد علمت عليا كنانة أنني على ما يزين الأكرمين حريص
فظهري بأعباء الخصاصة مثقل وبطني من زاد اللثام خميص

الأدب في ظلال الدول الناشئة:

٣ - أما حياة الأدب في ظلال الدول الناشئة التي قامت أثناء حكم
البويهيين والسلجوقيين. فنستطيع أن نتحدث عنها في إيجاز شديد:

(أ) الأدب في ظلال الحمدانيين (٣١٧ - ٣٩٤هـ):

كانت الدولة الحمدانية تسيطر على حلب والموصل وديار بكر، وهي
تنتمي إلى عرب تغلب، وكان رأس أسرهم عبدالله بن حمدان يلي الموصل
للخليفة المكتفي، ولقب الخليفة ولده حسناً بناصر الدولة، وولده علياً بسيف
الدولة، وبعد سنة ٣٣٣هـ استولى سيف الدولة على حلب، ثم استقل سيف
الدولة بن حمدان (٣٣٣ - ٣٥٦هـ) بحكم شمال الشام، وكان أميراً عربياً
وأديباً شاعراً، نافس غيره من ملوك الدول الأخرى في العلم والأدب، فجمع
حوله العلماء، ومنهم أبو الفرج الأصفهاني، والشعراء وعلى رأسهم: المتنبّي،
وفتح لهم خزائن أمواله، فجادت قرائحهم بأعذب الشعر وأجمله، ووصفوا

بلاد الشام الجميلة، وبسانيتها العظيمة، والمعارك التي كانت بين سيف الدولة والروم، فنهض الشعر وراجت سوق الأدب في أيامه وبتشجيعه، وقد جمع (بلاط) سيف الدولة الكثير من الأدباء والشعراء. حتى قيل: لم يجتمع في قصر ملك من الأدباء والشعراء مثلاً اجتمع في قصر الرشيد وسيف الدولة والصاحب بن عباد.

وكان بعض أمراء الأسرة الحمدانية أدباء وشعراء. ومن بينهم: أبو فراس الحمداني الشاعر المشهور^(١). . . ولعروبة الحمدانيين ومواهبهم الأدبية ومنافستهم للعباسيين أثر في تشجيعهم للأدب والأدباء، ويروى عن سيف الدولة في ذلك ما لم يرو عن الكثيرين، حتى روي أن طبائخه كان شاعراً، وقيم دار كتبه كذلك كان شاعراً، وأحاط به من نجوم الشعر أمثال: أبي الطيب المتنبي، وأبي العباس النامي، وابن نباتة السعدي، وأبو فراس الحمداني، وأبو الفرج البغاء، والوأواء الدمشقي، والخليع الشامي، والسري الرفاء الموصلي، والأخوين الخالدين قيمي دار كتبه، وكشاجم طبائخه. غير من كانوا يقدون ويرحلون، وغير من كان يقيم بحضرته، أو يمر بها من شيوخ الأدب وأفاضل علمائه، فزها قصره بهؤلاء وأولئك على قصور زمانه، ولقوا بفنائه أكرم لقاء، وأجزل عطاء. وفي سيف الدولة، وبره بالأدب والأدباء، وكثرة من طاف ببابه من الشعراء يقول الثعالبي: «حضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال ومحط الرحال. وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء. ويقال: إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر؛ ونجوم الدهر^(٢)».

ويقول الثعالبي في بني حمدان: «كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء؛ أوجههم للصباح؛ وألستهم للفصاحة؛ وأيديهم للسباحة؛ وعقولهم للرجاحة؛ وسيف

(١) راجع فنون الشعر عند الحمدانيين للشكعة.

(٢) يتمية الدهر ص ١١-١٢ ج ١، وص ٨٠ دراسات في الأدب العربي وتاريخه.

الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلاذتهم؛ وكان غرة الزمان وعماد الإسلام^(١).

(ب) الأدب في ظلال الفاطميين (٣٥٩ - ٥٦٧هـ):

كان الفاطميون عرباً، ينتمون إلى البيت النبوي العظيم، وهم مثل الحمدانيين ثقافتهم عربية، وميولهم إلى الأدب والشعر ظاهرة، فهم يحبون الأدب، ويتذوقون الشعر، ويحتفلون به احتفالاً شديداً، وهم يعرفون للأدب والشعر تأثيرهما في النفوس، وسحرهما في القلوب، لذلك أكثروا من استرضاء الأدباء وأغدقوا الأموال على الشعراء، وقصصهم مع ابن هانئ معروفة، وكانوا قد أعدوه ليكون شاعرهم بمصر بعد الفتح، لولا أن سبقت منيته أمنيته، فمات قبيل الرحيل، وأسف المعز لدين الله حين بلغه نعيه بمصر، وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يقدر لنا ذلك». وهي عبارة تدل مع إيجازها على تقدير المعز للشعر، وعرفانه بقوة أثره في النفوس، فهل كان له وقد فاته مدح ابن هانئ^(٢)، أن يقعد عن اجتذاب غيره من الشعراء، لينال من قربه ما يريد؟ بل لقد كان في ديوانهم نائب يختص بالشعراء، يقدمهم في نظام على حسب أقدارهم ومنازلهم بين أيدي الخلفاء وفي أحفال المواسم والأعياد، وما أكثر ما كان لهم من مواسم وأعياد.

يروى المقرئ عن الخليفة الأمر بأحكام الله، أنه بنى منظره فيها طاقات تطل على بركة الحيش صور فيها الشعراء كل شاعر واسمه ويلده، وعند رأسه قطعة من شعره. وإلى جانب كل صورة رف لطيف مذهب. ثم يدخل الأمر بعد الفراغ من ذلك فيقرأ الأشعار. ويأمر أن يحط على كل رف صرة مخطومة. فيها خمسون ديناراً، وأن يدخل كل شاعر، ويأخذ صرته. وهذه الرواية تدل على حذبهم بالشعر، ورعايتهم للشعراء.

(١) ١١: ١ البيهقي.

(٢) هنا ابن هانئ المعز بفتح مصر بقصيدته:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضي الأمر

وقد ازدهر الأدب نثره وشعره في عهدهم. وعنوا بالكتابة والكتاب
وبديوان الإنشاء عناية ظاهرة. حتى ليقول القاضي الفاضل: «كان فن الكتابة
بمصر في زمن بني عبيد - الفاطميين - غزاً طرياً. وكان لا يخلو ديوان
المكاتب من رأس يرأس مكاناً وبياناً. ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً»^(١)
وكان كثير من الفاطميين أدباء وشعراء. ولا ننسى تميم بن المعز الفاطمي
(٣٣٧ - ٣٧٤هـ) الشاعر الكبير الذي يقرن بابن المعتز.

وكان كثير من القضاة والولاة في دولتهم يحتذون حذو الفاطميين في
تشجيعهم للأدب والأدباء. والشعر والشعراء. وكان قاضيهم مكين الدولة أبو
طالب أحمد بن عبد المجيد المعروف بابن حديد قاضيهم على الإسكندرية.
وكان - على ما يذكر المقرئ - يحتذي أفعال البرامكة، فتجمع حوله
الشعراء ومهم ظافر بن الحداد، وأميرة بن عبد العزيز أبي الصلت. ولهما
ولغيرهما فيه مدح كثير.

وكان لديوان الإنشاء والمكاتب أثر كبير في النهوض بالأدب. ويقول
فيه المقرئ: «كان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة. ويخاطب بالشيخ
الأجل. ويقال له كاتب الدست الشريف. ويسلم المكاتب الواردة مختومة،
فيرضها على الخليفة من بعده. وهو الذي يأمر بتنزيلها والإجابة عنها
للكتاب. والخليفة يستشير في أكثر أموره. ولا يحجب عنه متى قصد المثل
بين يديه».

وقد رثى عمارة اليماني الفاطميين ودولتهم بعد سقوطها بقصيدة مشهورة
يقول فيها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل	وجيده بعد حلي الحسن بالعطل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة	على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها	من المكارم ما أرى على الأمل

(١) ١٠٢:١ الروضتين.

وفيهما يندد بالفظائع التي أوقعها بهم بنو أيوب:

ماذا ترى كانت الأفرنج فاعلة في نسل آل أمير المؤمنين علي؟
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما ملكتم بين حكم السبي والنفل
ومنها ما ذكر مكارم الفاطميين وأيامهم وعاداتهم:

دار الضيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسم على طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست ورث منها جديد عنهم وبلي
وموسم كان في كسر الخليج لكم يأتي تمهلكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدان كان لكم فيهن من وبلى جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في عيد الغدير بما يهتز ما بين قصرىكم من الأسل
والخيل تعرض في وشي وفي شية مثل العرائس في حلي وفي حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الأ طباق إلا على الأطباق والعجل
وما خصصتم به من أهل ملتكم حتى عمتم به الأقصى من الملل
وللجوامع من أحباسكم نعم لمن تصدر في علم وفي عمل

وبسبب هذا القصيدة قتل عمارة...

ومن أشهر شعرائهم: ابن وكيع التنيسي م ٣٩٣هـ، والشريف العقيلي
م ٥٤٥هـ، وهما من شعراء الطبيعة. ومن كتّابهم: ابن الصيرفي، وابن قادوس
م ٥٥١هـ، والموفق بن الخلال، وسواهم^(١).

(ج) الأدب في ظلال الأيوبيين (٥٦٧ - ٦٤٨هـ):

ورث الأيوبيون ملك الفاطميين ودولتهم، واقتضوا آثارهم في رعاية
الأدب وتشجيع الشعر، وتابع الأدب سيره، بتأثير رعاية سلاطين الأيوبيين له

(١) راجع كتاب «في أدب مصر الفاطمية» محمد كامل حسين، وكتاب قصة الأدب في مصر - ٥
أجزاء، للمؤلف.

وانتشار العلوم والثقافة بكثرة ما أنشأوا من مدارس ومكتبات، وتنافس الأدباء ليصلوا إلى أعلى المناصب وينالوا وافر العطاء. وقد قامت الحروب الصليبية في عهدهم. فنهضت بالشعر والخطابة، وقد كان لاتصال الأدب المصري بالشامي أثره في نهضة الأدب وازدهاره^(١).

ظفر صلاح الدين بملك الفاطميين، وهو فارس مغوار، مجاهد فاتح، لا ينتهي من غزوة إلا ليأخذ العدة لأخرى، في سبيل نصر الإسلام. ورد غارات الصليبيين. فالتف الأدباء والشعراء بمصر والشام حوله، وأحاطوا بعرشه وما أسهل القول إن وجد الأدب مجالاً وما أسلس قياده إن ثار عن نازعة ووثب عن عقيدة! وهل هناك أقوى لإثارة الشعر من نازعة الدين ولا سيما إذا أحس الضعيف قوة بعد ضعف، وعزة بعد ذل. وقد كانت حال المسلمين كذلك. فتهف الشعراء بمخلصهم وبطلهم، وتوجوه بتيجان المجد والفخار. وكان صلاح الدين يفهم الشعر ويهتزل به، وكان جواداً سخياً. اجتمع عنده وفود القدس، ولم يكن بخزانته شيء، فباع قرية وخصص ثمنها بهم. وكان نواب خزنته يخفون عنه شيئاً من المال حذر أن يفجأهم مهم. لعلمهم أنه متى علم به أنفقه. وكذلك كان خلفاؤه كرماء ورعاية للأدب واحتضاناً للشعر.

ومن أشهر الشعراء في الدولة الأيوبية: ابن النبيه المصري، والبهاء زهير. ومن أشهر الكتاب القاضي الفاضل.

والأيوبيون أكراد، ولكنهم تعربوا كما تعرب البويهيون بالعراق. ونبغ منهم جماعة في الأدب والشعر. نذكر منهم بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك. فهو من أمرائهم وملوكهم، وهو مع ذلك شاعر وأديب. ثم إنهم جاءوا بعد الفاطميين، وللأدب والشعر في دولتهم صولة وللبلادة الكتابية

(١) راجع كتاب الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي تأليف عبد اللطيف حمزة، وكتاب قصة الأدب في مصر للمؤلف.

عندهم جناب مرعي. فقفوا آثارهم في رعاية الأدب رعاية تذوق وتقدير، واحتضنوا الشعراء عرفاناً بأقدارهم، ورغبة في نشر مناقبهم على ألسنتهم، وإذاعة محامدهم في أشعارهم، فكثرت عددهم حولهم. وسواء في برهم من بقي من شعراء الفاطميين ومن نشأ بعد ذلك في أكتافهم. وحسب مصر في عهد الفاطميين والأيوبيين، أنها تلقت زعامة الكتابة الإنشائية من العراق وما والاها من البلدان، واتجهت أنظار الكتاب إلى ديوانها يقلدون أساليبه. ويأتون بصاحبه وينسبون إليه الطريقة التي يمتدونها في كتابتهم وهي الطريقة الفاضلية، نسبة إلى القاضي الفاضل، آخر رؤساء ديوان الإنشاء في دولة الفاطميين، وأولهم في ديوان الأيوبيين^(١).

(د) الأدب في ظلال الدول الأخرى:

وكذلك نهض الأدب في كثير من الدول التي قامت في العصر العباسي الثاني غير تلك التي ذكرناها. كالدولة الزيارية التي نبغ منها قابوس بن وشمكير المعدد بين الأمراء الزياريين. وطبقة المجودين من الكتاب. وكان ينزع إلى الأدب، ويكلف الأدباء. يجتمع الشعراء على بابه كل نيزوز ومهرجان، فيرسل إليهم جوائزهم مع أحد أصحابه. ويقول له: وزع عليهم الهدايا بحسب رتبهم ولكني لا أستطيع سماع أكاذيبهم: التي أعرف من نفسي خلافها.

وكذلك كان حظ الأدب كبيراً في ظلال الدولة السامانية والدولة الغزنوية فشجعوا الأدباء وبالغوا في إكرام الشعراء. مجارة ومنافسة للملوك المعاصرين لهم ورغبة في أن تزدان بهم قصورهم ومجالسهم.

وإذا كانت أذواقهم الأعجمية ونأي مزارهم عن قلب المواطن الإسلامي قد جعلهم دون البويهيين مثلاً في الاحتفال بالشعر. واجتذاب كثير من الشعراء إليهم فقد جاهدوا أنفسهم أن يساموهم فيما استنوه لمنصب الوزارة إذ كانوا لا يوسدونه إلا الصفوة المختارة من نوابغ الكتاب، وقد حاول نوح بن

(١) دراسات في الأدب العربي.

منصور الساماني أن يجتذب صاحب بن عباد ويستأثر به دون البويهيين. فراسله يعرض عليه، ما يغريه بالرحلة إليه، والوزارة له. لولا اعتذار صاحب بما يشق عليه من نقل متاعه، ومن بينه كتبه التي تحتاج وحدها في النقل إلى أربعمئة جمل كما قال. ولعل بلاءهم يذكر في احتضان الكتاب، فقد ظهر في كتابهم بعدها من يقاربون ابن العميد وابن عباد؛ وفي الدرجة البلاغية وإحياء الحركة الأدبية، مثل الوزير البلعمي، والوزير الجيهاني في دولة السامانيين. ومن حولهم من آل ميكال الأمراء والكتاب الشعراء. ومثل أبي القاسم الميمندي وأبي الفتح البستي وأبي نصر العتبي: في بلاط الغزنويين. وعلى الجملة فقد تعدد بتعدد الدول موارد الأدباء. وتبارى الملوك من العرب والمتعربين ومن ساماهم من الأعاجم في تقريبهم، والاحتفال بهم. فسعد العصر من الشعراء والكتاب بعدد وافر لم يكن مثله من قبل، ومن الإنتاج الأدبي بما لم يضارعه مثله من بعد، وفي يتيمة الدهر للثعالبي صورة للمشرق الإسلامي حينذاك، وفي كل ركن منه ندوة أدبية، والأدباء يطوفون في أرجائه تطواف البلابل في الروض الأغن؛ لها منه الزهر والندى والجنى الشهي؛ وله منها التطريب والتغريد باللحن الفريد^(١).

نشأة الآداب القومية:

١ - وفي ظلال هذه الدول وبتشجيعها نشأت الآداب القومية. التي تمثل حياة الأمة التي نبع من ضميرها هذا الأدب، ويصور كل منها الحياة في الإقليم الذي ينشأ منه ويعيش فيه، ويتأثر بتاريخ الأمة وبيئتها وما يرى في موطنها من مشاهد ومناظر، وأخلاق وعادات، وعلوم وثقافات.

وقد نشأت الآداب القومية بعد انقسام الخلافة العباسية إلى دويلات، لأن الأدباء في كل إقليم، صرفوا همهم إلى مدح أمرائهم، ووصف بيئتهم

(١) ٨٥ دراسات.

والتحدث عما حولهم، مما كان سبباً في ظهور هذه الآداب الخاصة بكل إقليم. والتي سميت باسم الآداب القومية.

وهذه الآداب القومية التي نشأت في أقاليم الخلافة لم تتباعد كثيراً لاتحاد ممالك الخلافة في الدين واللغة والثقافة والأخلاق. ولكثرة الهجرات والرحلات بينها، ولاتحاد مصادر الثقافة.

وقد ذكر الثعالبي في «يتيمة الدهر» أن الصاحب بن عباد - حين إقامته ببلاد فارس - كان يعجب بأدب أهل الشام. ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم. ويستلي الطارئین عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من بدائعهم وطرائفهم. وجمع له من ذلك دفترأ ضخماً الحجم، لا يفارقه، ولا يمل مطالعته وكان لذلك آثار واضحة في محاضراته، وفي أدبه: شعره ونثره. ويروي ياقوت في «معجم الأدباء» أن الصاحب بن عباد سأل رجلاً طراً عليه من الشام، عن الرسائل التي يتدارسها الناس في بلاده. فأجابه إنها رسائل ابن عبدكان، ورسائل الصابي. والأول من كتّاب ديوان القاهرة، والثاني من كتّاب الديوان ببغداد. ويروي ياقوت أيضاً أن ابن خيران - وهو من كتّاب مصر في زمن الفاطميين - أرسل بمجموع رسائله إلى بغداد - ليعرض على الشريف المرتضي كي يودعه في دار العلم هناك لمن يريد مطالعته من الأدباء.

٢ - وقد ارتقى الأدب القومي في مصر بعد الانقسام، وكثر استخدامه في وصف البيئة المصرية، ومناظر البلاد الطبيعية، ونبيلها ومزارعها وخيراتها وآثارها. وفي مدح الخلفاء الفاطميين والإشادة بدعوتهم في وصف الحفلات والمواسم والأعياد التي أكثر منها الفاطميون إرضاء للمصريين. كعيد وفاء النيل وعيد المولد النبوي الشريف وأول العام الهجري، وفتح الخليج إلى غير ذلك...

وفي الشام في عهد الحمدانيين ظهر الأدب القومي. وأخذ يصف بيئة الشام ومناظرها وجبالها وثلوجها وجداولها وفاكحتها. وينطق بمدح أمراء بني حمدان بالإشادة بكرمهم وشجاعتهم وأدبهم. وبخاصة سيف الدولة. ويصف الحروب التي كانت تنشب بين سيف الدولة والروم، محرضاً على خوض

غمارها، واستخلاص المدن والأسرى من أيدي الأعداء، كما كثر في الفخر والحكمة والفلسفة.

ونشأ كذلك أدب قومي في فارس والعراق في ظلال البويهيين والسلجوقيين، أكثر من وصف البيئة والتحدث عن التاريخ، وأغرق في مدح الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء، كما أكثر من الفخر والحكمة والفلسفة.

النثر الأدبي في العصر العباسي الثاني:

نهض النثر الفني في العصر العباسي الثاني نهضة لم يبلغها في عصر من العصور، فازدان بالأعلام والبلغاء، وأئمة الكتاب، وحفل بكثير من روائع النثر وأوابده، وألفت أمهات الأدب وأصوله، ولقى النثر عناية كبرى من الدول التي قامت في هذا العصر، للحاجة إليه في شئون الملك، والسياسة والثقافة والاجتماع، ولازدهار الفكر الإسلامي وتأثره بما حوله من ثقافات.

ويتجلى النثر الفني في مظهرين، ويتضح في معرضين: هما الخطابة، والكتابة وستتحدث هنا عن الكتابة بشيء من التفصيل.

الكتابة الفنية في العصر العباسي الثاني:

ازدهرت الكتابة الفنية في العصر العباسي الثاني في العراق وفارس، ازدهاراً كبيراً، تمثل في منزلتها التي كانت لهم، ومدى ما وصلوا إليه من جاه ونفوذ وسلطان، حتى كان الوزراء يختارون غالباً منهم، كابن العسيدر، والصابي والمهلبى وهم كذلك يحصلون على ثروات طائلة لا يحلم بها إنسان، مما لهم من مراتب، ومنح وإعانات وإنعامات.

وكذلك كان شأن الكتابة في مصر والشام، فصاحب ديوان الإنشاء عند الفاطميين كانت منزلته ترتفع على كل منزلة، ومكانته تسمو على كل مكانة. وهو - كما يروى - مستشار الخليفة ونجيه، ولا يحجبه عنه حجاب، وله من المراتب، والإنعامات والأعوان ما ليس لغيره من رجال الدولة... وكذلك

كانت مكانته في ظلال الأيوبيين.

وقد تعددت ألوان الكتابة وفنونها، فمن كتابة ديوانية إلى كتابة الرسائل، إلى كتابة إخوانية، إلى كتابة القصص والمقامات، إلى الكتابة العلمية التي تمثلت في أسلوب التأليف.

ونحن نعلم ما آلت إليه الكتابة في العصر العباسي الأول، وكيف أخذت تنحو بالتدريج منحى خاصاً في كل شيء، من تنوع عباراتها بتنوع موضوعاتها وترسم آثار النظام والتقسيم والتفصيل فيها وترجيح كفة اللفظ على المعنى، وذلك بعد أن نضجت العلوم ووضعت اصطلاحاتها وتميزت مسائلها واضطلع بها كثير من ناشئ الأعاجم، وقام بالمراقبة عليها من العناصر العربية ساسة وعلماء. إذ كانت العناصر الفارسية شرعت في الاستقلال بحكومتها وعاداتها ونزعاتها، فآثر ذلك في الكتابة تأثيراً ظاهراً اشتد أمره باستيلاء الديالم ثم السلاجقة على ما بقي في يد الخلفاء العرب من النفوذ، فصار لكل علم كتابة خاصة تباعدت عن غيرها كلما طال الزمان.

ولما كانت الكتابة الأدبية من الرسائل والأخبار والقصص مثاراً للخيال ومظهراً لحركات الوجدان والشعور ومرآة لما يجيش في الإنسان من الرغبات والميول والأخلاق، اختلفت كل الاختلاف بجميع المؤثرات التي أحدثت باللغة وما جاء العصر الثاني حتى كان لها صبغة تختلف كل الاختلاف عن صبغتها أوائل العصر الماضي، وخاصة كتابة الرسائل.

ولقد نبغ فيها في هذا العصر، حرصاً عليها، واهتماماً بها، كثير من الأمراء، ومن بينهم: شمس المعالي قابوس بن وشمكير، فقد كان من مشاهير الكتاب، وهو واحد من ملوك الدولة الزيارية بجرجان، وطبرستان.

وكانت أسباب هذه النهضة كثيرة متعددة ترجع في جملة الأمر إلى:

- ١ - رقي صناعة الكتابة بجهود عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، وإبراهيم الصولي والجاحظ وابن المدبر، وسواهم.

٢ - انتشار الثقافة الأدبية والعقلية انتشاراً كان له أثره في أذواق الكتاب وعقولهم، وكذلك كان للعلوم المترجمة أثرها في أخيلتهم، وتفكيرهم.

٣ - رقي الحياة الاجتماعية، وازدهار الحضارة والمدنية في ظلال الخلافة العباسية.

٤ - نبوغ أكثر الكتاب في الشعر والنثر معاً، وتمكنهم من صناعتي: النظم والنثر جميعاً، كابن العميد والصاحب والخوازمي والبيديع، والصابي وأبي الفرج البغاء وأبي الفتح البستي. وكذلك اشتغل كثير من الشعراء بالكتابة: كالمعري والشريف الرضي، وسواهما... ولا شك أن ذلك أمد الكتابة بخيال الشعر وخصائصه وسماته.

٥ - ذبوع وسائل الترف والوشى الفني في الأسلوب، مما سماه النقاد «بديعاً» واهتمام الكتاب بصور هذا البديع وألوانه، اهتماماً يضارع اهتمام الشعراء، على الرغم من نقد اللغويين لكل من يحرص على استعمال البديع في نثره وفي شعره. وقد دافع ابن المعتز عن البديع، والف فيه كتابه المشهور: «البديع» وكذلك كتب فيه: قدامة، وأبو هلال العسكري، والأمدي والقاضي الجرجاني، وسواهم،

٦ - كثرة الدول التي تتنافس في تشجيع الكتابة، ورعاية الكتاب وتقريبهم.

ويقول الثعالبي في مقدمة كتابه «نثر النظم» عن أهمية الكتاب: «إن الكتاب، وهم السنة الملوك - إنما يتراسلون في جباية خراج، أو سداد ثغر، أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فتنة، أو دعاء إلى ألفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية في رزية، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، وأعظم الشئون، التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة، ومعارف مفتنة».

ثقافة الكتاب:

وقد تعددت ثقافة الكتاب في هذا العصر بتعدد العلوم والثقافات،

فشملت الثقافة الدينية واللغوية والأدبية؛ وشملت العلوم الجديدة التي استحدثت، والعلوم الدخيلة التي ترجمت، وشملت الإلمام بسياسة الملك وتدبيره، وبالنظم الاقتصادية التي تسير عليها الدولة من جباية للخراج، وتحصيل للجزية، وحساب للأموال وللمصارف والموارد، ومن ثم جرى الكتاب في شتى ميادين الثقافة مسافات بعيدة، فشاركوا كل طائفة فيما تخصصت فيه من علوم، حتى الفلاسفة والمنطقيين شاركوهم في الإلمام بمسائل هذين العلمين، وفي الإحاطة بفروعها، وكان الأدب في رأيهم هو الأخذ من كل فن بطرف، ويروى عن الصابي أنه كان مع معرفته بأحكام الإسلام، وإحاطته بثقافات العربية وآدابها، واسع العلم بالهندسة والهيئة والرياضيات، وكذلك كان ابن العميد متفوقاً - مع الثقافة الأدبية الواسعة في الفلسفة والمنطق، والهندسة والطبيعة والإلهيات والتصوير وغيرها، ويروي ابن مسكويه عنه، وهو قيم دار كتبه، أنه كان أكتب أهل عصره، وأجمعهم لآلات الكتابة، حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام. فأما تأويل القرآن، وحفظ مشكله ومتشابهه، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار؛ فكان منه أرفع درجة، وأعلى رتبة، ثم إذا ترك هذه العلوم وأخذ في الهندسة والتعاليم: لم يكن يدانيه فيها أحد. فأما المنطق، وعلوم الفلسفة، والإلهيات منها خاصة، فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته، ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة، كعلوم الحيل (الميكانيكا) التي يحتاج إليها في أواخر علوم الهندسة والطبيعة، والحركات الغريبة. وجر الأثقال، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع، والحيل على الحصون، ثم معرفته بدقائق علم التصاوير، ولقد رأيته يتناول - من مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته وأهل أنسه - التفاحة وما يجري مجراها، فيبعث بها ساعة، ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطها بظفره لو تعمد لها بالآلات المعدة، وفي الأيام الكثيرة، ما استوفى دقائقها. ولا تأتي مثلها؛ وكذلك كان صاحب من المحدثين والمتكلمين من المعتزلين، ومتبحراً في علوم اللغة، وبصيراً بالنقد ومشاركاً في الطب، يؤلف في كل هذه

الثقافات، ويحاضر فيها، ويحاور العلماء من أهلها.
وكذلك كان الأمر في الخوارزمي والبدیع وأبي حيان التوحيدي الذي
كان يلقب بالجاحظ الثاني، وسواهم.

ويروى أن الخوارزمي استأذن على صاحب بن عباد بآرجان - قبل أن
يعرفه - فبعث إليه حاجبه يقول: إني قد ألزمت نفسي ألا يدخل عليّ أحد من
الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فراجع الخوارزمي
يسأل عن هذا القدر: أمن شعر الرجال هو أم شعر النساء؟

كتابة الرسائل في المشرق:

١ - كانت كتابة الرسائل في هذا العصر ببغداد ومدن العراق وممالك
المشرق الإسلامية جميعها باللغة العربية، إلا قليلاً من الإمارات القاصية في
أواخر هذا العصر فقد استعملت فيها الفارسية أو التركية بحروف عربية،
وكان في كل مملكة جملة من أفاضل الوزراء والكتّاب ورؤساء الدواوين،
يلقب كل منهم (بالشيخ) في شرقي خراسان وخوارزم، و (بالأستاذ) أو
(الرئيس) بفارس وما يليها.

٢ - وقد امتازت كتابة الرسائل في هذا العصر أمتيازاً ظاهراً بلزوم
السجع القصير الفقرات لاسيما في الرسائل السلطانية، واستعمال الجناس
وبعض أنواع البديع من غير إفراط، واستخدام معاني الشعر وألفاظه فيها
بحل الأبيات السائرة والحكم المأثورة، حتى كادت الرسائل تكون شعراً
منثوراً، وازدادت فيها عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء والتهويل
بشأنهم، والاقتراس من كلام البلغاء وتضمين الأفاذ من أبيات الشعر.

وكان أكثر كتاب دول المشرق الذين اشتهرت على أيديهم هذه الطريقة
من الفرس، وهم أميل الناس إلى الحلية اللفظية والغلو في عبارات التمجيد
والتعظيم، فنقلوا طرق الفرس إلى العربية، وحاكاهم فيها كتاب سائر الأقاليم
حتى الأندلس وسرت عدواها من الرسائل الديوانية إلى كتب التأليف، فكتب

العتبي تاريخه اليميني سجعاً، وحاكاه العماد الكاتب من كتاب دول الجزيرة والشام في تاريخ السلجوقية، والفتح القدسي.

ومع هذا لم تفت كتابة هؤلاء جزالة اللفظ وانتقاؤه وحسن استعماله في مواضعه وجمال أسلوبه، غير أن هذه القيود والأغلال التي كبلت بها الكتابة عاقبتها أن تمثل للقارئ أغراض الكاتب واضحة جلية كاملة نافذة إلى خاطره من أقرب الطرق وأقومها، كما هو الشأن الطبيعي في الكتابة. وتجلى هذه الطريقة بأكمل صفاتها في مقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات الحريري. وكانت هذه الطريقة تكون غير منهكة لقوى البلاغة لو لم يستشر داؤها ويسوء استعمالها بعد عصر الذين انحلوها. إذ لم يكن من بعدهم على مثل سنتهم في الإحاطة باللغة وعلومها وتربية ملكتها. فأخطئوا التقليد في اللفظ كما حرموا الإجازة في المعنى.

ومما زاد من أغلال أسلوب كتابة الرسائل في هذا العصر العدول عن ذكر صريح أسماء الخليفة والرؤساء وألقابهم إلى الكناية عنها فيكنون عن الخليفة (بالحضرة المقدسة النبوية) أو (السدة النبوية) أو (الخدمة الشريفة) أو (الديوان الشريف) أي ديوان الإنشاء. ونحو ذلك. ويكنون عن الوزراء (بالحضرة الوزيرية) ونحوها ناسيين إلى نفس الألقاب. وأول من سن ذلك أبو الحسن علي بن حاجب النعمان الكاتب للفاطميين. وشاعت هذه الطريقة بعده في سائر الممالك، وأزالت بهجة البلاغة العربية.

ومن الأمور التي زادت على موضوعات كتابة الرسائل في هذا العصر: إحلالها محل الشعر في المناقضة والمفاخرة والمهاجاة والملاحاة والمعاية؛ وكان البديع والخوارزمي فيها فرسي رهان.

ابن العميد وأسلوبه:

ومن أشهر الكتاب في المشرق: ابن العميد، وهو الأستاذ الرئيس الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين العميد بن محمد كاتب المشرق وعماد ملك

آل بويه وصدر وزرائهم، والملقب بالجاحظ الأخير.

وابن العميد فارسي الأصل من أهل مدينة (قم) وكان أبوه كاتباً مترسلاً بليغاً، تولى ديوان الرسائل لنوح بن نصر الساماني ملك بخارى، ونشأ له أبو الفضل شغواً بتحصيل العلوم العقلية واللسانية، فبرع في علوم الحكمة والنجوم ونبغ في الأدب والكتابة نبوغاً جعله واحد عصره فكان يقال: «بدئت الكتابة بعبد الحميد. وختمت بابن العميد».

ولما صلبت قناته، وكملت أدواته، لم تتسع بخارى له ولأبيه، فأقام ببلاد الجبل من ملك آل بويه، وتقلد شريف الأعمال في دولتهم؛ وما زال ترقى به الحال من حسن إلى أحسن حتى تولى وزارة ركن الدولة بن بويه الديلمي أبي عضد الدولة بعد موت وزيره أبي علي القمي سنة ٣٢٧هـ؛ فساس دولته ووطد أركانها؛ وتشبه بالبرامكة؛ ففتح باباً للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء؛ وكان له مشاركة معهم في كل شيء، ما عدا الفقه. ولذلك كان يتهمة الفقهاء بأنه كان يرى رأي الأوائل من اليونان. فانتقل إليه أهل الأدب من بغداد والشام ومصر. وكان ممن قصده أبو الطيب المتنبّي بعد صدوره عن كافور الأخشيدي، فمدح عضد الدولة ومدح ابن العميد بقصيدته المشهورة التي أولها:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى
وفيها يقول:

من مبلغ الأعراب آني بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافني من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدياً متحضرأ
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا

وكان صاحب بن عباد ممن يتجعه ويلازم صحبته في أول أمره وبذلك لقب صاحب وله فيه مدائح طنانة. وما زال في وزارته نجعة الرائد وقبلة القاصد، حتى توفي سنة ٣٦٠هـ.

ويعتبر ابن العميد في الرسائل البديعية المسجوعة عميد رفقته وضيع طبقته، وكلهم كارع من حياضه، قاطف من رياضه، إن لم يكن باقتباس منه فبالمشاكلة له، غير أنه كان أقلهم التزاماً للمسجوع، وأقربهم إلى الكلام المطبوع، وكان كثيراً ما يجعل فقر رسائله أبياتاً منشورة، ويلمح فيها إلى الأمثال المشهورة والأحاديث المأثورة. حتى انطبعت كتابته على التمثيل والحكمة؛ فكان له منها فصول سائرة ومعان نادرة؛ ويكفيه فضلاً وشرفاً أن يكون الصاحب بن عباد من جملة مادحيه وفي عداد خريجيّه، ونستطيع أن نتبين خصائص كتابته من مثل رسالته إلى عبدالله الطبري التي يقول فيها:

كتابي إليك وأنا بحال لو لم ينغصها الشوق إليك، ولم يرتق صفوها النزوع نحك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظي منها في النعم الجليلة، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة، ونعمة تامة. وحظيت منها في جسمي بصلاح، وفي سعيي بنجاح، لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع بعدي عنك. ويخلو ذرعي مع خلوي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم لشمل أنسي، وقد حرمت رؤيتك وعدمت مشاهدتك. وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام. وينفع أنس بيت بلا نظام؟ وقد قرأت كتابك جعلني الله فداءك فامتلاّت سروراً بملاحظة خطك وتأمل تصرفك في لفظك. وما أفرظهما، فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما، فكل أمرك بمدوح في ضميري وعقدي، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك. فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك هواك وما ألقى على بصري.

أسباب نبوغ ابن العميد في الكتابة:

كان ابن العميد أستاذ الكتاب في عهد البويهيين، يجمعون على أستاذيته، ويقر له النقد بها، ولا ينكر فضله وبراعته وبلاغته أحد اتصل به من قريب أو بعيد. وقد ألف أبو حيان التوحيدي كتاباً في ذمه هو والصاحب ابن عباد، سماه: «مثالب الوزيرين»، وكان يكرههما، ومع ذلك فقد سلم لهما

بالكتابة فقال فيما قال في كتابه «ولو أردت أن تجد مع هذا لها ثالثاً في جميع من كتب للجبل والديلم لم تجد».

وقد كان لهذه الأستاذية والعمادة في الكتابة أسباب كثيرة في نفس ابن العميد: فبيئته وثقافته، وملكاته ومواهبه، وما أخذه عن أبيه في الكتابة، وتنافس الكتاب وازدياد منزلتهم من حوله، واعتداده بنفسه واعتماده على مواهبه، وإحاطته بشئون الملك، ودرايته بأمور الحياة والسياسة والاجتماع... كل ذلك كان له أثر فيما بلغه من منزلة في الكتابة. هذا بالإضافة إلى ثقافته العربية والأدبية الواسعة، فقد كان - فيما يقال عنه - أجمع أهل زمانه «لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام... إلى ما كان عليه من أرفع درجة في تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه، والمعرفة باختلاف الأمصار، كما كان لا يدانيه أحد في الهندسة، والتعاليم والمنطق، وعلوم الفلسفة، والإلهيات منها خاصة، يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة، كعلم الحيل (الميكانيكا) ويمتاز بلطف كف لم يسمع بمثله. ومعرفة بدقائق التصوير وتعاط له بديع».

هذا كله إلى الترف الذي ساد في عصره. والنعمة التي كان فيها في عيشه، مما أثر في نفسه وظهر في أسلوبه. وذلك كله مما جعله كاتباً من أعظم كتاب العربية وأرفعهم منزلة في صناعة الكتابة، وقلده الكتاب عامة في أسلوبه. وصارت طريقته هي الطريقة السائدة في الكتابة.

مميزات الكتابة في هذا العصر:

١ - ولقد انتقلت الكتابة العربية في هذا العصر بفضل ابن العميد من الاختصار على جزالة اللفظ ووضوح الدلالة والإيجاز وقلة السجع إلى العمل والمغالة في الصناعة اللفظية. باستعمال المحسنات البديعية: من التزام السجع بأنواعه، والجناس والطباق والتورية. والتكلف في ذكر المجاز والاستعارة

والتشبيه، وكثرة التضمنين، والاقتباس للأحاديث والأمثال والحكم والأبيات المشهورة، واث الفرس في الكتابة كثيراً من القاب التعظيم والتبجيل، وأدخلت بعض العبارات الفلسفية في كتابة الرسائل كما في كتابة ابن العميد وغيره. وأصبحت الصناعة غرضاً من أغراض الكتاب يمتاز بالبراعة فيها كبارهم. حتى سرى ذلك إلى المؤلفات العلمية والأدبية. وشاع في هذا العصر كتابة القصة وظهرت في مظهر عربي واضح. فنشأ من ذلك الرسائل القصصية المعروفة بالمقامات. وقد بلغت الكتابة في هذا العصر شأواً لم تبلغه في أي عصر من عصور اللغة، من حيث الصناعة اللفظية. ونبغ في هذا العصر أعلام الكتاب وكبار الأدباء. كابن العميد والبديع. والخوارزمي والحريري والصابي. والعماد الأصبهاني. ولم تعرف اللغة مثل هؤلاء بعد الجاحظ وابن المقفع ومن عاصرهما.

ولكن الكتاب اقتصروا على كتابة الدواوين والإخوانيات والرسائل الأدبية، ولم يعنوا بالموضوعات العامة: كالقصص والتوسع في أخيلة المقامات وأغراضها. ولا شك في أن استيلاء الأعاجم على الدولة الإسلامية كان من أسباب اتجاه الكتابة إلى العناية بالزخرف اللفظي، والمحسنات البديعية، وإهمال جانب المعنى إهمالاً قليلاً أو كثيراً.

ومن هذا نرى أن أهم مميزات الكتابة هي:

١ - التزام الجناس والسجع والطباق والاقتباس والتضمنين. وسواها من ألوان البديع.

٢ - التزام الإطناب والترادف.

٣ - الولع بالخيال الشعري، والهيام في أوديته.

٤ - الإغراق في عبارات التبجيل والتعظيم، والتفخيم للملوك والأمراء والوزراء والولاة.

وبذلك وبغيره أصبحت الكتابة فناً عريقاً من فنون الأدب. وصارت

صناعة الرسائل أفضل الصناعات الأدبية وأشرفها.

وقد تعددت موضوعات الكتابة فشملت: الأمور السياسية والاجتماعية والأدبية، واستخدمت في موضوعات الشعر من تهنئة وشكر وعتاب وتعزية ومدح، واستمتاح واستنجاز وإهداء واستهداء وشوق، وشكوى، وموازنة ومناقضة وفكاهة وسخرية وتهكم، ووصف، وسواها.

٢ - وظلت هذه المميزات سمة غالبية للكتابة في العصر السلجوقي الذي استمرت نهضة الكتابة وازدهارها فيه. وإن كان كتابه قد ساروا على تقليد أترابهم في العصر البويهي: لما كانوا عليه من اضطراب سياسي واجتماعي، ولأنهم لم يكونوا في مثل كفاية أسلافهم، ولم يمنحوا مثل مواهبهم وملكاتهم. ومن ثم كان غلبة اللفظ على المعنى، وكان التزام البديع وتكلفه يجنيان على المعنى جناية شديدة، وكان أئمة النحو يعينون في العصر السلجوقي في ديوان الإنشاء لمراقبة الرسائل خوفاً من الخطأ واللحن. ومن عين منهم فيه: ابن بابشاذ م ٤٦٩هـ، وابن بري م ٥٨٢هـ.

ومن أشهر كتاب العصر السلجوقي: الحريري المتوفي سنة ٥١٦هـ. وجار الله الزنجشري محمود بن عمر المتوفي سنة ٥٣٨هـ، ورشيد الدين الطواط محمد بن محمد بن عبد الجليل المتوفي سنة ٥٧٣هـ، والقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني المتوفي سنة ٥٩٦هـ، وعباد الدين الأصفهاني محمد ابن صفى الدين المتوفي سنة ٥٩٧هـ، وأبو الفرج الجوزي عبد الرحمن بن علي المتوفي سنة ٥٩٧هـ، وضياء الدين بن الأثير المتوفي سنة ٦٣٧هـ.

طريقة ابن العميد:

وتتلخص طريقة ابن العميد فيما يلي:

أولاً: الإكثار من السجع، وإيثار الجناس والطباق. مع اتباع طريقة الجاحظ في الإطالة والإكثار من الترادف والإطناب. مع حب الترتيب واللجوء إلى الازدواج إن فأت السجع، ومع كثرة التشبيهات والاستعارات،

التي تقرب المعنى إلى الذهن، وتؤديه إلى العقل، واضحاً غير خفي أو غامض... وقد يشير إلى مثل مشهور، أو حكمه مأثورة، أو إلى أحداث التاريخ وأعلامه، مما يسمى اقتباساً، أو يضمن أسلوبه ما يناسبه في المعنى من الشعر، مما يسمى تضميناً، أو يشير إلى بعض المعاني العلمية... وسع ذلك، ومع ما يؤثره أو يلتزمه ابن العميد في أسلوبه من ألوان البديع. فإنه كان يأتي به مطبوعاً لا متكلفاً. لقوة طبعه. وسمو ذوقه. وعلو كعبه في ثقافات الأدب، وعلوم العرب. فلا تحس تعقيداً ولا غمواً ولا قسراً، ولا جوراً على المعنى والفكرة.

وقد شاع السجع في رسائل الكتاب الذين قلدوا ابن العميد في طريقته كالصاحب، الذي يقول فيه أبو حيان، وإن كان يبدو في أسلوبه التهكم به والسخرية منه^(١)، «كان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الهزل والجد يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد. قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سبعة تنحل بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقل وكلفة صعبة، وتحشم أمور، وركوب أهوال، لما كان يخف عليه أن يخليها. بل يأتي بها ويستعملها ولا يعاباً بجميع ما وصفت عن عاقبتها». ثم قال - نقلاً عن ابن العميد -: «إن الصاحب خرج من الري متوجهاً إلى أصفهان ومنزله «ورامين»، وهي قرية كالمدينة، فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا شيء إلا ليكتب إلينا؛ كتابي هذا من النومار. يوم السبت نصف النهار»^(٢).

ثانياً: إشار الفخر القصار في التعبير، وكذلك كان أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، وقد زاد ابن العميد عليه بالتزامه المعادلة في الوزن بين المفردات المتقابلة في الجمل المتتابعة. كأن يقول: «قد يغرب العقل ثم يثوب، ويعزب اللب ثم يثوب»، وقوله: «عزت بعد الذلة، وكثرت بعد القلة».

(١) معجم الأدباء ٦: ٢٠٧.

(٢) معجم الأدباء ٦: ٢٢٠.

ثالثاً: الحرص على تأكيد المعنى وتقريره بمعاودته، وبإيثار الترادف والإلحاح عليه؛ وقد تأثر في ذلك بالجاحظ في كتابته. فنجده يقول مثلاً؛ «عرفت حالها، وحلبت شطريها» ويقول: «ركن ركين؛ وحصن حصين؛ ومكان مكين»، ويقول: «يكتفك من نوائب الزمان، ويحفظك من غوائل الحدثن»؛ إلى غير ذلك من جملة المترادفة، التي يبدو فيها الافتتان في التعبير والحرص على تأكيد المعنى وتثبيته، وعلى أداء ما يحبه من ازدواج وسجع وجناس وطباق.

رابعاً: الاهتمام بالمعنى اهتماماً واضحاً ظاهراً. وإعطاء الموضوع ما يستحقه من عناية. فهو يقسم عناصره. ويرتبها. ويعطي كل قسم منها من المعاني ما يوضحه ويبينه. وهو يأخذ هذه المعاني بالتحليل والتفصيل والتدقيق والتشقيق. ويتعهد بها بالتنوع والتفريع. ويقرن بعيدها بما يقربه إلى العقل من دليل أو نظير. ويولد بعضها من بعض. متكئاً على ثقافته وعقليته. وسعة إدراكه. وعمق تفكيره. ومن ثم صارت الرسالة عند ابن العميد تشملها وحدة موضوعية برغم ما فيها من الاستطراد. كما تشملها وحدة فنية كذلك. وأصبحت معاني الرسالة عند ابن العميد دقيقة الترتيب والتقسيم والتنسيق، قوية الترابط والتلاحم والالتصاق:

تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائعات المعاني

وهذه الميزات والسمات قد قلده فيها كتاب عصره وعدوه لهم أستاذاً وإماماً، وقالوا فيه إنه عين المشرق، وأوحد العصر في الكتابة، والضارب في الآداب بالسهم الفائزة.

ابن العميد وكتاب عصره:

ولا ريب في أن ابن العميد قد صبغ الكتابة الفنية بصبغته، في عصره وبعد عصره، وقلده كتاب الرسائل تقليداً واضحاً في طريقته. فصار الأدباء يسجعون ويجانسون ويطابقون، وشاع هذا الأسلوب حتى في التأليف. فكتب المقدسي كتابه «أحسن التقاسم» التزم فيه السجع.

وليس في كتاب هذا العصر من كان يراوح نثره بين السجع والمزاوجة كابن العميد إلا أبو حيان التوحيدي، وأبو هلال العسكري. أما سائر الكتاب فقد كانوا يلتزمون السجع التزاماً، ويتخذونه لإنشائهم طابعاً، حتى لقد تعدوا به الرسائل الأدبية إلى الموضوعات العلمية. وقد كتب كل من الخوارزمي وابن عباد رسالة في الطب لم تخلُ من السجع. بل نقلوه إلى لغة التأليف، والتزموه في الكتب الطوال. فقدم به الثعالبي الفصول اليتيمة وجرى عليه الصابي في كتابه «التاجي» وهو كتاب أرخ فيه لبني بويه، وكذلك العتيبي في كتابه «اليميني» الذي كتبه في بعض تاريخ الغزنويين.

وكذلك كان شأنهم في الطباق شأن ابن العميد، وقد يكون ذلك لأن المعنى يتحكم فيه، فما يقتضيه المقام فلا سبيل إلى تركه. اللهم إلا أن يكون العمد والاقتسار، وهذا ما لم يقعوا فيه. أما الجناس فقد أربوا على ابن العميد في تناوله، فتنوعت لديهم أنواعه وفنونه، واشتد إقبال بعضهم عليه حتى عرف به، ومنهم أبو الفتح البستي الذي يورد الثعالبي كثيراً من تجنيسه. ويقول فيه: «وهو صاحب الطريقة الأنيقة، في التجنيس الأنيس، البديع المأنوس. وكان يسميه المتشابه ويأتي فيه بكل طريقة لطيفة»^(١).

والتزم الكتاب كذلك من بعده التكرار والتقابل والتوازن والتماثل، فيقول البديع مثلاً: «العرب أوفى وأوفر، وأوقى وأوفر، وأنكى وأنكر، وأعلى وأعلم، وأسمى وأسمح، وأحصى وأحصف» وكذلك كان يفعل غيره من أمثال: الصاحب والصابي، والخوارزمي والميكالي، والضبي والبستي، والثعالبي وأبي هلال العسكري وأبي العلاء المعري، وقابوس بن وشمكير، وسواهم.

ولا شك أن كتابة ابن العميد أصبحت نموذجاً للكتاب، وطريقة تحتذى للمرسلين. وقد كان لشخصية ابن العميد ونفوذه ومزله، ولتلاميذه كذلك

(١) ص ١٢٢ دراسات في الأدب.

أثر فيما أحيط به في فن الكتابة من عبارات التبجيل والتقدير، وما يضاف عليه من ألقاب العمادة والإمامة والسبق في فن الرسائل.

كتابة الرسائل في مصر والشام:

١ - أما في مصر والشام فقد كانت كتابة الرسائل في النصف الأول من هذا العصر على مثل ما كانت عليه في المشرق، بل ربما قل فيها التزام السجع ومحسنات البديع، أي مدة بني حمدان والفاطمين. وكان آخر من نسج على هذا المنوال العماد الكاتب الأصبهاني المتوفي سنة ٥٩٧هـ.

٢ - ولما نبه شأن القاضي الفاضل في أواخر الدولة الفاطمية أراد أن يحاكي كتاب المشرق في البديع فزاد عليهم وأربى، واخترع طريقة جديدة يصح أن تسمى «الطريقة الفاضلية» وذلك أنه جرى من قبله من كتاب المشرق في التزام السجع والجناس والطباق، وزاد عليهم أن استعمل في رسائله أكثر أنواع البديع التي كانت فاشية وقتئذ في الشعر كالتورية والاستخدام والتلميح وغيرها، وأكثر من حل المنظوم، واقتباس الآيات، وتضمين الأمثال، ومشهور الأقوال، وأمعن في التشبيه والاستعارة، مع قلة المبالاة بالمبالغة والأغراق في ذلك. حتى جاءت معاني رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها. غير أن هذا التكلف لم يظهر في رسائله بقدر ما ظهر في رسائل من خلفه في دواوين الإنشاء بمصر والشام، لسلامة ذوق الرجل وانطباعه على طريقتة وسعة مادته في اللغة، ووفرة محفوظه من الأدب. فلما جرى في حلبيته من ليس في صفاته حسب أن البلاغة تملك ناصيتها بعشرات من أنواع البديع، فاسترسل في تكلفها تكلفاً أبعد الكتابة عن أساليب البلاغة العربية جملة، ولم يظهر أثر ذلك جلياً إلا بعد سقوط بغداد، وتراجع الرسائل العربية إلى دواوين مصر والشام والمغرب.

وبرع في كتابة الرسائل الديوانية في مصر والشام كتاب بلغاء مشهورون منهم:

١ - ضياء الدين نصر الله محمد بن محمد بن الأثير صاحب المثل السائر

المتوفي سنة ٦٣٧هـ، وأبو القاسم علي بن منجب بن الصيرفي المصري المتوفي بعد سنة ٥٥٠هـ؛ وموفق الدين يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال كاتب المصريين وصاحب ديوان الإنشاء المتوفي سنة ٥٦٦هـ؛ والأمير أبو المظفر أسامة ابن مرشد الشهير بابن منقذ المتوفي سنة ٥٨٤هـ؛ وأبو عبد الله محمد بن محمد عماد الدين الكاتب الأصبهاني المتوفي سنة ٥٩٧هـ، والقاضي الفاضل، وقد كان رئيس الكتاب وإمامهم.

٢ - والقاضي الفاضل: هو أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين المجد علي البيساني اللخمي كاتب الديار المصرية وصاحب الطريقة الفاضلية، والكتابة البديعية. ووزير صلاح الدين ومدير مملكته في الحروب الصليبية. وهو عربي الأصل من بيت علم وقضاء، وكان أبوه من أهل عسقلان وقاضياً عليها، ثم تولى نيابة الحكم بمدينة بيسان من أرض فلسطين فنسب إليها.

وقد ولد القاضي الفاضل بمدينة عسقلان سنة ٥٣٩هـ. وتعلم على أبيه وغيره، ولما شدا العربية قدم مصر وهو شاب صغير لتعلم الكتابة والخدمة في الديوان في أواخر الدولة الفاطمية، وتوجه إلى ثغر الإسكندرية للخدمة في ديوان ابن حديد قاضي الإسكندرية وكاتبها فتعلم عليه وكانت كتبه البليغة ترد بإنشاء القاضي الفاضل إلى القاهرة، وظهر بها فضله. فاستقدم أيام الظافر إلى القاهرة ودخل في عداد كتّاب ديوانه، غير أنه لم يقنع بما حصل بل لازم خدمة أكابر القضاة والكتّاب في الديوان، وأخذ عنهم وحاكاهم. مثل القاضي أبي الفتح محمود بن قادوس وموفق الدين يوسف بن الخلال وغيرهما من رؤساء دواوين الإنشاء، فمهر في الكتابة، وطوح به استقلاله إلى توليد طريقة غريبة أخذ أصولها من بعض كتّاب الشام والعراق وبعض كتّاب الدولة المصرية، فجعل أصولها السجع والاستعارة والطباق ومراعاة النظير والتلميح، وغالى جداً في التورية والجناس فأصبحت الكتابة بهذه الطريقة صناعية محضة تجري مع مناسبات الألفاظ أكثر من جريانها مع إصابة الغرض والبلاغة العربية.

وكانت كتابة القاضي الفاضل مع كل هذه القيود مقبولة بلغية في ذاتها لطول بابه في اللغة وكثرة اطلاعه على صنوف الكتابة وسرعة بديته وصفاء خاطره إلا أن طريقته خدعت بعده كتاب مصر والشام وغربت إلى الأندلس. فجاراه في كتابته كل قليل البضاعة من الأدب معتمداً على تعمل البديع الذي لا يكلف صاحبه أكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعاً من أساليب الكلام. وظهرت سيئات هذه الطريقة مجسمة في القرن السابع والثامن في دولة المماليك فضربت بها الكتابة ضربة لم تنتعش منها حتى فاجأتها ضربة أشد وأنكى بجعل اللغة الرسمية هي التركية زمن العثمانيين.

ولما سقطت الدولة الفاطمية تولى القاضي الفاضل وزارة صلاح الدين وكان يتردد بين مصر والشام في الحروب الصليبية ودبر المملكة أحسن تدبير، وصدرت عنه مكاتبات بين مصر والشام وبينها وبين دار الخلافة في العراق مما لو أحصى لبلغ مجلدات. ولا تزال كتب التاريخ والأدب ملأى بكثير منها، وبقي في وزارة صلاح الدين حتى مات، فوزر لابنه العزيز على مصر. ثم وزر من بعده لأخيه الملك الأفضل، ثم نازع الملك العادل أخو صلاح الدين ابن أخيه ملك مصر، فمات القاضي الفاضل في يوم دخوله القاهرة سنة ٥٩٦هـ.

وكان القاضي الفاضل خيراً ديناً محسناً وفيماً محباً لجمع الكتب، وبلغ عدد كتبه التي جمعها من أقطار الأرض مائة ألف مجلد، ووقف أوقافاً على مدارس التي بناها للشافعية والمالكية وفك رقاب الأسرى، وله رسائل كثيرة مطولة... وله شعر بديع، وشعره أرق من كتابته، ومن رسائله القصيرة رسالة كتبها على يد خطيب عيذاب إلى صلاح الدين يتشفع له في توليه خطابة الكرك وهي:

«أدام الله السلطان الملك الناصر صلاح الدين وثبته، وتقبل عمله بقبول صالح وأثبتته، وأخذ عدوه قاتلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكتبته. خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب، ولما نبا به المنزل عنها، وقل عليه المرفق منها، وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها، ووجب

على أهلها شكرها، هاجر من هجير عذاب وملحها، سارياً في ليلة أمل كلها
نهار فلا يسأل عن صباحها، وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب؛ وتوسل
بالمملوك في هذا الملتبس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام وعن عذاب
إلى الكرك وهذا عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف،
ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف؛ والسلام».

طريقة القاضي الفاضل:

ولقد ذاع أسلوب ابن العميد في العراق وما جاوره، وفتن به الكتاب.
ووصلت الصناعة اللفظية الذروة في فن الرسائل. فوقف القاضي الفاضل على
صناعة الكتابة، لدى كبار الكتاب في المشرق والمغرب، وعمل على ابتكار
طريقة جعل أساسها الصناعة اللفظية، وأخصها السجع والتورية والجناس
ومراعاة النظر والاستعارة وغيرها. وكان الناس يعشقون التلاعب بالألفاظ،
ويرون بلاغة القول في ذلك. فانتشرت طريقة القاضي الفاضل بمصر حتى
كانت مذهباً لكتّابها، جرى عليه كبارهم، وأصبحت الكتابة ضرباً من المبالغة
في الصناعة، وتمكن ذلك من نفوس الناس، وبقيت هذه الطريقة بمصر إلى
زمن قريب جداً، بل تخطت مصر إلى غيرها من البلدان. كما تخطت طريقة
ابن العميد بلاد الجزيرة وما حولها إلى غيرها من المدن الإسلامية، وقد كان
من جراء ذلك أن شغل الكتاب بالألفاظ والصناعة عن المعاني؛ فكانت
الكتابة أشبه بطلاء لامع يبهرك منظره ولا يروقك نغمه.

ومن ثم نرى أن طريقة القاضي الفاضل تتلخص فيما يلي:

العناية المسرفة في اقتناص حلى البديع، والترصد لزخارفه ومراكمة
الصور البيانية والإفراط فيها: فهو يقبل كل الإقبال على السجع والجناس
والاقتباس، ويتكرر كثيراً من الاستعارات والتشبيهات، ولا ينسى مع ذلك
الطباق، والتورية، والتضمنين، وغيرها من أصباغ البديع التي تنوعت
حينذاك. وفي سبيل تلك الزخارف وتحقيقها تتسع عليه العبارة، فيردف
الجملة بأخرى في معناها، وتكثر في أسلوبه الجملة الفرعية، لا يدفعه إلى

ذلك مقتض من المعنى، وإنما تدفعه الرغبة في تحقيق حلية لفظية، أو إعطاء صورة من صور البيان.

وأشهر كتاب الطريقة الفاضلية هم: عماد الدين الأصفهاني م ٥٩٧هـ، وابن الأثير ضياء الدين م ٦٣٧هـ، وابن الجوزي م ٥٩٧هـ، وسواهم. وفي العصر الحديث نشأت مذاهب أدبية في الكتابة لا تخفى على أحد.

هذا وقد ألف الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد العلوي المتوفي في دمشق سنة ٩٨١هـ، ١٥٧٣م كتاباً سماه «المعيد في أدب المفيد والمستفيد» عالج فيه قضية أسلوب الرواية المدونة للعلم وأساليبها وطرائقها وشروطها. وألف ابن جماعة كتاب «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» ألفه عام ٦٧٢هـ ١٢٧٣م، وهذان الكتابان كما يقول مرجليوث «لا مجال للشك في قيمتهما لمن ينشد الدقة والأمانة»^(١).

وفي الكتاب الأول للعلوي يذكر روزنتال عدداً من المسائل في الأدب مع الكتابة التي هي آلة العلم وما يتعلق بتصحيحها وضبطها وعملها وشرائعها وعارياتها ونسخها وغير ذلك.

وفي هذه الحضارة يبرز كتاب الدواوين، الذين يعدون أهم من عني من الكاتبتين بصيانة النثر العربي حينئذ. إذ كانوا يختارون من الفصحاء البلغاء، ويذهب الدكتور شوقي ضيق^(٢) إلى أنهم تحولوا بالدواوين العباسية إلى ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة. إذ كانوا يتعهدون من تحت أيديهم من صغار الكتاب. وكانوا يأخذون أنفسهم بالتثقف ثقافة عربية أصيلة. وهي ثقافة تمثلت خصائص التدوين في تجنب «الساقط والوحشي» والتدقيق في انتخاب الألفاظ وفي التخلص إلى المعاني الطريفة. وقد تمثل الشعر كذلك خصائص التدوين، فلم يعد كما كان عند جرير شاعر العصر الأموي متأثراً بالحضارة

(١) P.S Margoliouth, Lectures on Arabic Historians 20 Calcuta 1930

(٢) ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي ص ٢١.

السمعية يحتفظ بموضوعاته وتقليده الجاهلية وإنما أصبح كما هو الحال عند بشار شاعر العصر العباسي الأول ينزع منزعين مختلفين يمثلان تداخل حضارة التدوين والحضارة السمعية في بعضهما البعض، فوجدنا أن بشاراً يحتفظ بالتقاليد الموروثة مع شيء من التطور وتبعه الشعراء العباسيون ينزعون في شعرهم نفس المنزعين^(١).

ثم ما لبثت «الطباعة» أن اخترعت لتضيف إلى اللغة المكتوبة بعداً آخر يؤكد النظرة الجزئية والإدراك المتجزئ للأشياء. وفي إطار هذه البيئة الجديدة كان الفكر يتخذ شكل التسلسل أو التتابع، فلم يكن غريباً أن يظهر مفهوم العجلة والآلة وخط الإنتاج وكلها أفكار ميكانيكية، تتمشى تماماً مع وسيلة الطباعة بحروفها المرصوفة جنباً إلى جنب في شكل أسطر محتوية على كلمات متتالية.

وهكذا ووفقاً لنظرية «ماكلوهان» الاعلامية - انتقلت الحضارات من الحضارة السمعية، إلى حضارة التدوين، إلى الحضارة الطباعية، ثم حضارات التلفزيون، والسينما والإذاعة والتلفزيون، حتى حضارة الآلية الذاتية.

وفي القرآن الكريم نجد ما يؤكد فضل الكتابة والحض عليها من جهة وتطري ما هو منطوق محفوظ من جهة أخرى، الأمر الذي يجعلنا نتمثل في القرآن الكريم الحضارات السمعية والكتابية، والطباعية، على اعتبار أنها امتداد لحضارة التدوين، ثم حضارة وسائل الإعلام الألكترونية التي أعادت الحضارة السمعية إلى الوجود وبعثتها من جديد. نجد مثلاً الآيات الآتية:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَقِيلَ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِهِ﴾^(٢)

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٣)

(١) المرجع السابق ص ٢٤

(٢) سورة الحاقة الآية ١٩.

(٣) سورة الاسراء الآية ١٤.

﴿ولن نؤمن لرفيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾^(١)
 ﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾^(٢)
 ﴿إنه لقرآن كريم* في كتاب مكنون* لا يمسه إلا المطهرون﴾^(٣)
 وفي سورة العلق: ﴿اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم﴾ وهي أول
 سورة نزلت على الرسول الكريم.

وقد أدرك الجاحظ الفارق بين الحضارتين السمعية والكتابية حين فرق
 بين الشعر العربي الخاضع لسلطان الذاكرة^(٤) وبين النثر الحقيقي:

«أليس معلوماً أن شيئاً هذه بقيته وفضلته، وسوره وصبابته وهذا مظهر
 حاله على شدة الضيم. وثبات قوته على الفساد، وتداول النقص، حري
 بالتعظيم وحقيق بالتفضيل على البنيان والتقديم على الشعر إن هو حول تهافت
 نفعه مقصور على أهله، وهو يعد من الأدب المقصور وليس بالمبسوط، ومن
 المنافع الاصطلاحية، وليست بحقيقة بينة وكل شيء في العالم من الصناعات
 والإرفاق، والآلات فهي موجودات في هذه الكتب دون الأشعار»^(٥).

وفي حضارة التدوين حلت العين محل الأذن كوسيلة أساسية للحس
 يكتسب الإنسان معلوماته عن طريقها «وتجمد» الكلام البشري زمنياً، بفضل
 الحروف الهجائية، التي تقوم على بناء الأجزاء أو القطع المجزأة والتي يجب أن
 توضع مع بعضها البعض في أسطر وفي ترتيب معين ليصبح لها معنى. وتقوم
 الحضارة على تعليم القراءة والكتابة لأنها - كما يقول «ماكلوهان» حين تمد
 حاسة البصر في الزمان وفي المكان فإنها تزودها بالقدرة على توحيد الثقافات.
 ففي الثقافة القبلية تسيطر على التجربة حياة حسية سمعية تكبح القيم المروية.
 وحاسة السمع - على خلاف «العين الباردة المحايدة». هي مفرطة الحساسية،
 دقيقة وشاملة. والثقافات الشفهية تفعل وتتفاعل في نفس الوقت. أما

(١) سورة الاسراء الآية ٩٢.

(٢) سورة النمل الآية ١.

(٣) سورة الواقعة الآيات ٧٧ - ٧٩.

(٤) الشير بن سلامة: نفس المرجع ص ٥١.

(٥) الجاحظ. كتاب الحيوان ط عبد السلام هارون ج ١ ص ٨٠.

الثقافات الصوتية فتزود الإنسان بوسائل كبت مشاعره وعواطفه في أثناء الفعل، فالميزة الفريدة للإنسان المتعلم هي قدرته على الفعل دون الانفعال، ونصف قصة «الأمريكي القبيح» المخاخي التي لا نهاية لها والتي يرتكبها أمريكيون متحضرون حضارة مرثية عندما يواجهون بثقافات الشرق السمعية.

ويذهب «ماكلوهان» إلى أن الفصل بين الصوت والصورة ومعناهما في الأبجدية الصوتية، يمتد أيضاً إلى آثارها الاجتماعية والنفسية، فالإنسان الذي يعرف القراءة والكتابة يعاني من عمق الانفصال في حياة واسعة الخيال والعاطفة والحس على النحو الذي أشار إليه روسو منذ زمان مضى (بعده الشعراء والفلاسفة الرومانسيون) ويكفي اليوم الإشارة إلى «د.ه. لورانس» لتتذكر الجهد الذي بذل في القرن العشرين لتجاوز الإنسان القلري الكاتب ولاستعادة الشمول الإنساني، جملة بعد جملة، قبل أن يتمكن من القول لشخص آخر ما الذي يعنيه الفجر بالنسبة له وقد أتم اختراع جوتنبرج ثورة الحروف الهجائية، فأسّرت الكتب بعملية فك الرموز التي تمثل صلب عملية القراءة، وتعددت النسخ المتطابقة. وساعد المطبوع على نشر الفردية لأنه شجع - كوسيلة أو أداة شخصية للتعليم - المبادرة والاعتماد على الذات. ولكن المطبوع أدى إلى عزل البشر فأصبحوا يدرسون وحدهم، ويكتبون وحدهم. وأصبحت لهم وجهات نظر شخصية يعبرون عنها للجمهور الجديد».

ويتأثير الطباعة نشأت الملاحم الشعرية الطويلة في أدبنا الحديث، وقد بدأ شعراء العصر التجديد وأحياناً يكون تقليداً في ثوب التجديد كما فعل الشاعر محمد عبد المطلب في وصفه الطائفة في ملحمة العلوية التي بدأها بوصف هذا الاختراع الجديد، ويقول العقاد: إن هذا إنما هو تقليد للشاعر القديم حين كان يصف الجمل، والجمل عند الشاعر القديم جزء من حياته، أما الطائفة فهي ليست كذلك عند شاعرنا المعاصر، وإن كانت موضوعاً جديداً تحدث فيه عبد المطلب ليرضي نزعة التجديد وأصحاب المذهب الحديث في الشعر... وأقول: إن التجديد في القريض جميل ومطلوب إذا صاحبه عمق التجربة، وليس بلازم أن يكون الموضوع جزءاً من حياة الشاعر إلا

بمقدار ما يكون للتجربة الشعرية عمقها في نفس الشاعر وشاعريته .

وقد تخلص الشاعر من وصف الطائفة إلى مدح الإمام تخلصاً ساذجاً كما رأينا. ثم عاد إلى الحديث عن الإمام في صباه، وعن إسلامه، ثم عن استخلافه ليلة الهجرة. ثم عن حياته في المدينة، وزواجه من فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، ومواقفه في بدر وأحد، وبطولته يوم الخندق، وقتله لعمر بن ود في هذا اليوم وشجاعته يوم خيبر وقتله لمحب اليهودي، وعن زعامته في المواطن، ومواقفه أيام السلام، ويصور شخصيته ونفسه ووجهه وجوده وتبته، وموقفه من قتل عثمان ومن اختلاف المسلمين حول الخلافة، تصويراً جميلاً قوياً مؤثراً .

وهذه الملحمة هي العلوية الكبرى، وله علوية أخرى صغيرة تقع في سبعة وأربعين بيتاً وهي من بحر الرمل، وأوثر أن أسميها «العلوية الصغرى» وقد بدأها كذلك بوصف الطائفة، ثم تحدث فيها عن حنينه لنجد والجزيرة العربية، ومدح الإمام مدحاً رائعاً، ومطلع هذه العلوية:

أصغر الأرض وما فيها مقاما	فاعتلى يضرب في السحب الخياما
حسد الطير على الجوفسر	عان ما حلق في الجوى وحامما
سابحا فوق ابنة النار على	مرح النجم جنوباً وشامما
يا خليلي احملاني فوقها	علني ألقى على السحب الإماما

والبيت الأخير يشير إلى أنه لم يركب الطائفة، وأنه كان يتمنى ركوبها، ويبدو أن الشاعر نظم العلوية الصغرى أولاً، ثم نظم الكبرى - التي نحن بصددتها ثانياً .

ولانستطيع الاسترسال في ذكر صور من هذه الملحمة في هذا المقام، فهي - على أية حال - تجمع بين التاريخ والفن، ويبدع الشاعر فيها في الفكرة والغرض، ويرسم صورة محبة للزمان والمكان والشخصية، ولم يستوح الشاعر فيها الأساطير كما فعل هوميروس في الألياذة، بل أغناه واقع التاريخ المضيء عن تلفيق الخيال، فاستلهمه، مسجلاً للحياة والتاريخ تسجيلاً وفيماً أميناً . . .

وفي الملحمة يلقب الشاعر (عليا) بأنه أخو الرسول، ويذكر أنه أول مسلم صلى وصام وذلك مما يمكن أن يوضع موضع النقد.

أما الملحمة البكرية للشاعر عبد الحلیم المصري فلقد صور فيها الشاعر حياة وتاريخ الخليفة الأول أبي بكر الصديق تصويراً جميلاً.

وقد عمد الشاعر فيها إلى المواقف الوضاعة الرائعة في حياة الصديق، فسجلها في الملحمة بأسلوب شعري قوي وغني بالبلاغة، وفي مطلعها يقول الشاعر:

أفضني أبا بكر عليهم قوافيا وأمطر لساني حكمة ومعانيها
وقل لرسول الله لم أعد مدحه وإن لم أكن فيه بشعري باديا
مقام رسول الله فوق قصائدي وهل شرر النبراس يجدي الدراريا
وانك في الإسلام من حسناته فمدحك كنى عنه دون بيانها

وهو هنا يقول إن مدحه لأبي بكر مدح لرسول الله وللإسلام... ثم يصور غايته من كتابة الملحمة فيقول:

وأضرب أمثالا لقومي تحيئهم بصورة شيخ المسلمين كما هيا

وهو غط جليل من البلاغة وقوة التصوير... ويأخذ الشاعر في تصوير مواقف الصديق من بلال، ومن الهجرة. وحرب تبوك. ووفاة الرسول، ومن الخلافة، ومن جيش أسامة، ومن بطولته في حروب الردة وشجاعته، ويتحدث عن وفادة ملك حمير ذي الكلاع عليه وبين يدي الملك ألف عبد من عبيده والخليفة في أسأله وجلاله.

وصور الشاعر في ملحمة مواقف الخليفة في حروب الردة وفي معارك فارس والروم تصويراً مؤثراً، كما صور موته كذلك فقيراً لم يرتضع من الخلافة أفلايق نعمة أو ثراء...

ومن الملاحم الجديدة. الألياذة الإسلامية للشاعر الكبير أحمد محرم (١٩٤٥) وهي في سيرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ومنها: عين

جالوت. والمحمدية للشاعر كامل أمين «وقد أدت مهمتها في البعث الأدبي والوطني والديني وقد حفلت بها الصحف والمجلات، ونشرت في كتيبات صغيرة، وفي دواوين الشعراء أنفسهم، وشرحها أدباؤنا الأجلاء شروحاً عدة». وقد أعقبت العمرية والبكرية والعلوية ثورة الشعب ١٩١٩، وظهر التيار الإسلامي في الشعر، وحفل أدبنا الحديث بكثير من الكتابات والمؤلفات والدواوين الإسلامية الموجهة.

الفصل التاسع

الأدب في الحضارة الطباعية

إن تطور الصحافة المطبوعة في أوروبا في القرن الخامس عشر بفضل اختراع جوتنبرج للحروف المتحركة، كان أكثر الابتكارات التكنولوجية تأثيراً على الإنسان. فالمطبوع جعل الإنسان يتخلص من القبلية... ذلك أن الحروف الهجائية مكنته من ضغط الواقع وتحريره من خلال مرشحها. وأصبح الواقع يأتي إلينا قطرة قطرة في الوقت الواحد. فالواقع يأتي مجزئاً، متسلسلاً. فهو مجزأ على طول خط مستقيم، وهو تحليلي ومكثف، ويقتصر على حاسة واحدة، وعلى وجهة نظر موحدة ويمكن تكرارها. وكما يقول «ماكلوهان» فإن العين لا تستطيع اختيار ما تراه. وليس في مقدورها أن توقف الأذن عن الاستماع ذلك أن أجسامنا أينما وجدت تشعر. سواء بارادتنا أو بالرغم منا. وكان على الفرد لكي يشرح رد فعله البسيط على طلوع الفجر مثلاً والذي قد يستغرق خمس ثوان، أن يضعه في كلمات وفي جملة بعد جملة، قبل أن يتمكن من القول لشخص آخر ما الذي يعنيه الفجر بالنسبة له. وقد أتم اختراع جوتنبرج ثورة الحروف الهجائية، فأسّرت الكتب بعملية فك الرموز التي تمثل صلب عملية القراءة. وتعددت النسخ المتطابقة. وساعد المطبوع على نشر الفردية لأنه شجع - كوسيلة أو أداة شخصية للتعليم - المبادرة والاعتماد على الذات. ولكن المطبوع عزل البشر فأصبحوا يدرسون وحدهم ويكتبون وحدهم وأصبحت لهم وجهات نظر شخصية يعبرون عنها للجُمهور الجديد الذي خلقه المطبوع.

ونكتفي هنا بالحديث عن أثر المطبوع على الأدب العربي. بالإشارة إلى أن القصة الحديثة كانت ثمرة من ثمار الصحافة التي قدمت فنونها مترجمة أول الأمر ثم قدمت هذه الفنون مؤلفة بعد ذلك وطبعتها بطابع الوسيلة الإعلامية الجديدة شكلاً ومضموناً، فهذا هو عبدالله أبو السعود صاحب جريدة «وادي النيل» يقوم بترجمة المسرحية المشهورة باسم (عايدة) في عام ١٨٨١م، ويعني ابنه محمد أنسي صاحب «روضة الأخبار» بالقصة المترجمة عن الفرنسية. ولعل أول قصة قدمها إلى قرائه يومئذ هي القصة التي كتبها الأديب الفرنسي المعروف باسم Lesage وعنوانها Jules Blas وهو اسم لبطل من أبطال القصة^(١).

وهذا هو محمد عثمان جلال صاحب (نزهة الأفكار) يقوم بترجمة القصة المشهورة «بول وفرجين» غير أنه عبث بالعنوان وجعله «الأمانى والمنة في حديث قبول وورد جنة» ثم يترجم أديب اسحق صاحب جريدتي «مصر» و«التجارة» روايتي اندروماك و «شارلمان» وروايات أخرى، ومنذ ذلك الحين أصبح للقصص المترجمة جزء معلوم في كل جريدة من الجرائد المصرية وما زالت هذه السنة متبعة في بعض الصحف إلى عهد قريب^(٢).

وقد حدث نفس الشيء بالنسبة للصحافة اللبنانية التي عنت بالقصص المترجمة. بل وإصدار مجلات تعني بالقصة وحدها نذكر منها «ديوان الفكاهة» لسليم شحادة، وسليم طراد - بيروت ١٨٨٥م - «النفائس» لأنيس الخوري - بيروت ١٩٠٠م - و«سلسلة الروايات» لمحمد خضر، وبشير الحلبي في القاهرة ١٨٩٩م وغيرها.

والتفسير الإعلامي للأدب العربي يذهب إلى أن القصة العربية - المصرية - خاصة قد اتجهت منذ أول الأمر اتجاهًا اجتماعياً خالصاً. ذلك أنها نشأت في أحضان الصحافة التي كانت منذ ظهورها منبراً عاماً لرجال الإصلاح

(١) د. عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية في مصر ح ١ ص ٢٠١.

(٢) د. عبد اللطيف حمزة: مستقل الصحافة ص ٤٣.

من أمثال محمد عبده، وعبدالله نديم، والمويلحي الكبير، والمويلحي الصغير، والسيد علي يوسف^(١) ولطفي السيد، ومصطفى كامل ومن إليهم.

وعلى ذلك فإن ظهور الصحافة المصرية كان في حد ذاته نشاطاً فكرياً سبق القصة المصرية، وقد مثل هذا الاتجاه (حديث عيسى بن هشام) للمويلحي و «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل، وإذا كان «حديث عيسى ابن هشام» يموج بتيارات النقد الاجتماعي الذي يشير إلى ما نعينه صراحة، فإن «زينب» التي كتبها هيكل في ١٩١٠م وهو طالب يتلقى العلم في باريس ونشرها فصلاً «بالجريدة» لمحررها لطفي السيد عام ١٩١٤م تؤكد ما نذهب إليه تماماً. ذلك أن هيكل قد تمثل من «الجريدة» فكرة «المصرية» التي روج لها لطفي السيد، هذه الفكرة هي التي دفعت به إلى أن يوقع القصة بإمضاء (مصري فلاح) ثم أن هيكل كان يتمثل الاتجاه الاجتماعي الذي بلورته الصحافة المصرية وقتذاك وخاصة ما أثاره كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين منذ نشر على صفحات جريدة (المؤيد) عام ١٨٨٩م... ثم أننا نجد أثر الحروف المتحركة في لغة القصة المصرية الأم وهي اللغة التي تغلب عليها، «الصبغة المصرية» ومنها على سبيل المثال هذه التراكيب: «بقيت في مكانها ساكنة لا تبدي حراكاً. ثم فردت ذراعيها من جديد... الخ^(١)» «جلست العائلة كلها حول «المشنة» وأكل كل منهم رغيفه بحصوة ملح. ثم قام الرجل وابنه إلى عملهما» و«فأخذ حصاة وحذف بها الثور»... إلخ.

ومن ذلك يتضح أن هيكل في قصته التي جاءت ثمرة إعلامية، قد تمكن من خلال حروف الطباعة من ضغط الواقع المصري وتمثيله من خلال مرشح الحروف الهجائية وأصبح يصور الواقع المصري قطرة قطرة في وقت واحد. فالواقع في القصة المطبوعة يأتي مجزئاً ويأتي بتسلسل. ثم إن التفسير الإعلامي للأدب في مرحلة الحروف المتحركة يذهب إلى أن الأفراد يعتمدون في الحصول على معلوماتهم أساساً عن طريق الرؤية. أي عن طريق الكلمة

(١) قصة زينب ص ١٠.

المطبوعة لذلك أصبحت حاسة الإبصار هي المسيطرة. فبدلاً من الاعتماد على الاستماع، أو على الكلمة المنطوقة أصبح الاعتماد أساساً على الرؤية وعلى الكلمة المطبوعة، وحول المطبوع الأصوات إلى رموز مجردة، إلى حروف، وهذا ما نجده في الأدب المتمثل لهذه المرحلة ففي «زينب» نجد عناية بالتفصيل في «رسم» الصور من خلال «الحروف» المجردة منها وصفه (لعملية التشويق)^(١) عند الشيوخ من أهل الريف ومنها وصفه «لصلاة الجماعة في المساجد»^(٢) وما إلى ذلك، ثم أن الطبعة الأولى من القصة في سنة ١٩١٤م جاءت بعنوان يؤكد هذا التمثيل للمنظور: «زينب» مناظر وأخلاق ريفية - بقلم مصري فلاح-^(٣).

وللطباعة - شأنها شأن أي ضرب من امتدادات الإنسان كما يقول «ماكلوهان» - نتائج سيكلولوجية واجتماعية تتجلى بوضوح فيما تحدثه من تغيير مفاجئ لحدود ونماذج الثقافة السابقة، وحينما تم مزج العصر القديم بالعصر الوسيط - أو الخلط بينهما - فإن الكتب المطبوعة قد خلقت حينئذ عالماً ثالثاً هو العالم الحديث الذي يواجه الآن تكنولوجيا جديدة، وامتداداً جديداً للإنسان. ألا وهي التكنولوجيا الكهربائية، ولقد غيرت الوسائل الكهربائية المستخدمة في نقل المعلومات من ثقافتنا الطباعية، بنفس الطريقة التي غيرت بها المطبوعات الثقافة المدرسية المخطوطة التي سادت العصور الوسطى.

يقول «ماكلوهان»، وأي دارس لوسائل الإعلام من وجهة نظر علم الاجتماع لا يمكن إلا أن يستغرب لعدم وجود فهم للتأثير السيكلولوجي والاجتماعي للطباعة، فخلال خمسة قرون من الطباعة لا نجد سوى قدر يسير جداً من التعليقات التي تنم عن وعي واضح لآثار المطبوع على الإحساس الإنساني، بيد أن هذه الملاحظة تنطبق أيضاً على كل صور امتدادات الإنسان، ويبدو الامتداد في البداية كما لو أنه تضخيم لعضو أو لحس أو

(١) المرجع السابق ص ٣٣، ١١١.

(٢) المرجع السابق ص ٣٣، ١١١.

(٣) المرجع السابق ص ٣٣، ١١١.

لوظيفة، وأنه يمكن لجهازه العصبي، المركزي حماية لنفسه أن يجدر المنطقة الممتدة. على الأقل فيما يتعلق بالنقص والفهم المباشرين. غير أن التعليقات غير المباشرة التي تناولت آثار الكتاب المطبوع عديدة ومتنوعة وفي متناول اليد. ويكفي أن نشير إلى أعمال رابليه Rabelais وسيرفانتس Cervantes ومونتاني Montaigne وسويفت Swift وبوب Pope وجويس Joyce، فلقد استخدم هؤلاء الكتاب الطباعة وسيلة لخلق أشكال فنية جديدة.

ومن الناحية السيكلوجية يذهب «ماكلوهان» إلى أن الكتاب المطبوع بوصفه امتداداً لحاسة البصر قد كشف فكرة المنظور ونقطة النظر الثابتة. ومن الإصرار البصري على المنظور، وعلى النقطة التي تعطي منظوراً وهمياً، ينشأ وهم آخر يتمثل في أن الفضاء ذو خصائص بصرية، فضلاً عن أنه يتصف بطابع الاستمرار، ولا يمكن في حقيقة الأمر الفصل بين الطابع الخطي الدقيق التمثيلي الذي تعكسه حروف الطباعة المتحركة عن الأشكال الثقافية الكبرى، والاكتشافات الهامة التي ظهرت خلال عصر النهضة. إن القرن الأول للطباعة شاهد اتجاه الكتابة الجديدة للتوجيه البصري وللمنظر الشخصي بوسائل التعبير عن الذات التي أوجدها الامتداد الطباعي للإنسان.

وإلى جانب النتائج السيكلوجية والاجتماعية. يذكر ماكلوهان نتيجة أخرى وهي مد طابعها الانشطاري والتماثلي إلى مناطق مختلفة ومجانستها تدريجياً مما يؤدي إلى زيادة قدرتها وطاقاتها وعدوانيتها وهي الصفات الأصلية للقوميات الجديدة الناشئة. ومن الناحية السيكلوجية فقد أدى الامتداد البصري والتضخيم للذات أحدثتهما الطباعة في الإنسان إلى نتائج عديدة منها ما ذكره «فورستر» في دراسة عن بعض حروف الطباعة في عصر النهضة فلقد قال «فورستر» أن الطباعة التي لم يكن قد مضى على اختراعها قرن من الزمن، كانت تعتبر خطأ آلة قادرة على ضمان الخلود.

وهناك جانب آخر هام أحدثته نمطية وتكرارية الصفحة المطبوعة وهو ما يطلق عليه «ماكلوهان» بالتأكيد على الهجاء «الصحيح» والاعراب، والنطق وفضلاً عن ذلك أدت الطباعة إلى نتائج أخرى. فلقد أسهمت في فصل

الشعر عن الغناء، وفي فصل النثر عن البلاغة، وفي فصل اللغة العامية عن لغة المعلمين. ففي مجال الشعر مثلاً- أصبح بالإمكان قراءة الشعر دون سماعه، والعزف على آلة موسيقية دون أن يصاحب هذا العزف قصيدة شعرية. لقد انفصلت الموسيقى عن الكلمات، ليلتقيا- مرة أخرى- مع بارتوك وشوينبرج.

وفي تقديرنا أن ما أسماه المرحوم الدكتور محمد مندور «بالشعر المهموس» إنما هو استجابة لطبيعة الحضارة الإذاعية، فهو يريد به الأدب المهموس الأليف الإنساني، فالشاعر هو الذي يهمس فتحس صوته خارجاً من أعماق نفسه في نغمات حارة ولكنه غير الخطابة (التي هي بنت الحضارة السمعية) التي تغلب على شعرنا فتفسده، إذ تبعد به عن النفس، وعن الصدق، عن الدنو من القلب- الهمس ليس معناه الارتجال فيتغنى الطبع في غير جهد ولا إحكام صناعة، وإنما هو إحساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر في تحريك النفوس وشفائها مما تجد^(١).

ويعتبر «ماكلوهان» ظهور القومية واحدة من أهم وأشهر النتائج غير المنتظرة والعديدة التي أحدثتها الطباعة... فالتوحيد السياسي للسكان- من خلال اللغات العامية والتجمعات اللغوية- كان أمراً غير معقول قبل أن تحول الطباعة كل لغة عامية في أوروبا إلى وسيلة اتصال جماهيرية ممتدة. فالقبيلة- بوصفها شكلاً ممتداً للأسرة ولروابط الدم- تفجرت بفعل الطباعة ثم ما لبثت أن حلت محلها روابط اجتماعية متجانسة مؤلفة من أناس أهلوا لأن يكونوا أفراداً، ولقد ظهرت القومية ذاتها في شكل صورة بصرية جديدة ومكثفة تعبر عن المصير وعن الكائن المشتركين، وتعتمد على سرعة حركة الإعلام التي لم تكن معروفة قبل ظهور الطباعة.

وتأسيساً على هذا الفهم، فإننا نذهب إلى أن دعوة العقاد والدكتور هيكل إلى الأدب القومي أثر من آثار هذه المرحلة الطباعية. وفي هذا القصد

(١) د. محمد مندور: في الميزان الجديد.

يرى العقاد أن الشعر شيء يتصل بالإنسان من حيث هو كائن حي، لا من حيث هو ابن وطن أو ابن جامعة أخرى، من لغة أو عقيدة، ومن ثم يكون الشعر شعراً لا غبار عليه وهو خلو من الأسماء والألفاظ التي تلاك في نهضات الأوطان والأديان ويكون الشعر محارباً للنهضات أو سابقاً لها وليس فيه تلك الأناشيد ولا تلك الحماسيات التي يعينها بعض النقاد^(١).

وترتبط الثورة التي حدثت في مجال التعبير ارتباطاً وثيقاً بالقوى التي يراها «ماكلوهان» قابلة للتحدد. ففي عهد التدوين كان دور المؤلف غامضاً، شأنه في ذلك شأن المنشد «المتجول» وكان التعبير الذاتي لا يثير أي اهتمام. غير أن الطباعة قد أوجدت وسيلة كانت تسمع بالكلام بصوت عال وجمهوري، وبالتوجه للعالم ذاته، كما كانت تتيح التجوال في عالم الكتب واكتشافه، وكانت هذه الكتب - حتى ذلك الوقت - مغلقاً عليها في العالم التعددي لصوامع الأديرة. لقد أضفت حروف الطباعة على الإنسان شخصية قوية وأعطته شجاعة التعبير.

ولعل في ذلك ما يجعلنا نعيد النظر في تفسير ثورة العقاد، ومدرسة الديوان على شوقي والمدرسة التقليدية، وذلك أن مدرسة الديوان في تمثلها للطباعة، رفضت دور المنشد المتجول «في الحضارة السمعية» الذي مثله شوقي ومدرسته، فأرادت مدرسة الديوان أن يعبر الشعر عن الذات على النحو الذي يلخصه شكري في ديوانه الأول «ضوء الفجر» الذي صدر سنة ١٩٠٩م: ألا ياطائر الفردوس إن الشعر وجدان

ثم أن هذه المدرسة المجددة رفضت تقليد القدماء من الشعراء، وتجنب شعر المناسبات. وفي ذلك ما يشير إلى تمثل خصائص الحضارة الطباعية التي ترفض الحضارة السمعية. ثم أن أقطاب هذه المدرسة اتجهوا إلى التحرر من القافية الواحدة ونوعوا فيها ودعوا إلى الوحدة العضوية في القصيدة والقضاء

(١) العقاد: ساعات بين الكتب ص ١٢٧.

على ظاهرة التفكك التي صبغت الشعر التقليدي، وعنوا بالمعنى والأفكار الفلسفية والتأملية.

وهنا نجد العقاد يلح على شعر «الشخصية» وعلى أن الشاعر لابد أن يعرف من شعره، هذا الإلحاح. يمثل ثورة على عهد المخطوط. حيث كان دور المؤلف غامضاً، كما يمثل ثورة على الحضارة السمعية التي اصطبغ فيها «المنشد المتجول» بدوره الغامض كذلك. لقد أخذ العقاد من حضارة الطباعة الشخصية القومية والشجاعة في التعبير، ولذلك يرى العقاد أن الملامح التي يشترطها في الشاعر ليعرف من شعره بعضها نفسي والبعض الآخر منها لفظي «يرجع إلى الصياغة وأسلوب التعبير والنزعة الفنية التي ينفرد بها الشاعر بين الشعراء وإن تساوا في الإجابة، كما ينفرد الجميل بين ذوي الجمال بسمة خاصة، تستحب فيه وإن تساوا كلهم في الجمال.

وحين يقول طه حسين: إن محمد عبده رد إلى العقل المصري الحديث حريته في التفكير، وحين ذهب محمود تيمور^(١) إلى أن فترة الأدب الحديث هي المائة سنة الأخيرة (١٨٥٠ - ١٩٥٠م)، فإن الأثر الطباعي واضح في الأدب الحديث، وإن كان الأدب الذي ظهر بعد الثورة العربية يخالف الأدب قبلها. فبينما كان الأدب قبلها أدباً لفظياً ركيك الصياغة انقلب بعدها إلى أدب أفكار وموضوعات ومناح متعددة في الحياة، وإلى أساليب عالية تحاكي أروع الأساليب في تاريخ آدابنا العربية.

أما الأدب المعاصر فالرأي فيه من حيث بدوّه، يختلف أيضاً:

فمندوريكاد يعتد بثورة ١٩١٩ بدءاً للأدب المعاصر^(٢)، ويقلده في ذلك بعض الكتاب. ومنهم مؤلف كتاب في «تاريخ الأدب الحديث» إذ ذهب^(٣) إلى أن «الأدب الحديث في مصر يبدأ من الحملة الفرنسية إلى اليوم... أما

(١) مجلة الرسالة - المصرية - عدد ١٩٦٤/٤/٢.

(٢) مجلة الهدف - يونيو ١٩٥٦.

(٣) ص ٦ تاريخ الأدب الحديث ١٩٦٨ القاهرة - د. حامد حفي داود.

الأدب المعاصر فنعني به الأدب الذي نعيشه خلال الخمسين عاماً الأخيرة أي من ثورة ١٩١٩. لأن متوسط عمر الأدب هو خمسون عاماً، وذلك هو المفهوم الزمني للمعاصرة أما المفهوم الفني لها فهو المشاركة الأدبية الفعالة بين المتعاصرين من حيث تأثرهم بأحداث هذا العصر وتأثيرهم فيها ومن حيث انفعالهم بالتيارات الأدبية.

وفي مقال لطف حسين عن الأدب العربي المعاصر. نشره في مجلة الرسالة الجديدة ذهب فيه إلى أن إنشاء الجامعة المصرية القديمة، ومدرسة «الجريدة» وشعر حافظ وشوقي ونثر المنفلوطي^(١) قد أثرت في تغيير العقلية في مصر في أوائل القرن العشرين وفي قيام الأدب المعاصر.

وفي رأينا أن نؤرخ لقيام الأدب المعاصر لعام ١٩٣٠م، وذلك أن المعاصرة هي حياة جيل تعيش معه ويعيش معك، وقد قدر ابن خلدون في «المقدمة» امتداد الجيل بثلاثة وثلاثين عاماً، وفي هذا التاريخ (١٩٣٠) كانت مدرسة شوقي وحافظ في قمة مجدها الأدبي، وبعده بقليل أنشئ المجمع اللغوي في مصر وقامت مجلة الرسالة التي أصدرها أحمد حسن الزيات. وأنشئت كلية اللغة العربية. ثم قامت جماعة أبولو ومجلتها الشعرية، وقوى نفوذ الرومانسية الأدبي. إلى غير ذلك من المظاهر الأدبية التي صاحبت هذه الفترة التي بدأت ببدء العقد الرابع من القرن العشرين، حيث انتقل الشعر من شعر النماذج العامة إلى شعر التعبير عن الشخصية المستقلة وأثمرت دعوة شكري والعقاد ومطران إلى وحدة القصيدة، وهي ليست وحدة موضوعية. بل أن يبدأ الشاعر قصيدته بالتصميم الفكري لها. ثم وجدنا الأدب القومي والوطني الواقعي يظهر في مصر ويزدهر أيما ازدهار.

وكل ذلك من آثار حضارة الاتصال بالجهان بعامة، ومن آثار الحضارة الطباعية بخاصة، وهي الحضارة التي ولدت في حناياها الحركة الفكرية الحديثة، فانطلقت منها في العالم العربي.

(١) سبقه أحياء أسلوب المقامات على يدي محمد المولحي في كتابه «حديث عيسى بن هشام» واليازمي في كتابه «مجمع البحرين».

الحركة الفكرية الحديثة ونقطة الانطلاق فيها في العالم العربي:

كانت ليلة خالدة في تاريخنا القومي وفي الفكر العربي الإسلامي تلك التي جمعت بين رائدي النهضة الفكرية والإسلامية في العالم الإسلامي محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني.

كان الأفغاني يومئذ في الثلاثين من عمره، وكانت شهرته قد رن صداها في كل مكان. رائداً مصلحاً، وفيلسوفاً حكيماً، وثائراً مجدداً، ومناهضاً للاستعمار والملكية والاستبدادية، والفساد السياسي في الشرق الإسلامي. كان قد أبلى بلاء حسناً في مقاومة الطغیان العباسي في إيران والأفغان، وذاعت آراؤه الثائرة في الإصلاح والتجديد الديني، وفي مكافحة الاستعمار البريطاني في الهند، ونفته حكومة التاج من الهند على باخرة بريطانية متجهة نحو أوروبا، وفي السويس نزل جمال الدين في أواخر عام ١٢٨٦هـ - ١٨٦٩م، ويم وجهه شطر القاهرة ملاذ الأحرار. فأقام فيها أربعين يوماً، تردد خلالها على الجامع الأزهر، واتصل به كثير من المفكرين والعلماء والطلاب.

وكان محمد عبده آنذاك من أنه شباب الأزهر، وأذكى طلابه في نحو الخامسة والعشرين من عمره. يمتلئ صدره بأضخم الآمال لشعبه ووطنه العريق في المجد والتاريخ والنضال، وفي يوم قص عليه طالب سوري في رواق الشوام بالأزهر قصة قدوم عالم أفغاني عظيم إلى مصر، وحديثه أنه يقيم في خان الخليلي، وأنه يذهب إليه كل مساء - حيث يقيم - في رفقة بعض الزملاء، يتعلمون عليه، ويأخذون عنه، وعجب محمد عبده من الأمر، وأخبر أستاذه «حسن الطويل» بالقصة. فاستعدا لزيارة جمال الدين الأفغاني والتعرف به ليلة أول المحرم عام ١٢٨٧هـ، ودخلا عليه فوجداه يتناول طعام العشاء، ورحب بهما. ثم أخذ يحدثهما في التصوف والتفسير والمفسرين وأشياء أخرى، وكان بين الحين والحين يصوب بصره نحو محمد عبده، فيدرك ما كانت تنطوي عليه جوانحه من توثب، وما كانت تنم عليه نظراته من حيرة وثورة، وشوق إلى المعرفة، وإيمان بمستقبل الإسلام والمسلمين، ولم ينته سمر

الثلاثة وتحوارهم ليلتئذ. إلا وقد اطمأن محمد عبده إلى جمال الدين، ووثق به، وصمم على ملازمته، والإفادة من علمه وتفكيره ونزعة المتوثبة الحرة.

وانتهت إقامة الأفغاني في القاهرة بعد نحو أربعين يوماً من وصوله إليها، وعزم على السفر إلى الآستانة، بعد أن كانت وجهته الحجاز لأداء فريضة الحج وودعه تلميذه محمد عبده وداعاً حاراً، والتفت الأفغاني إلى مودعيه يقول لهم: «إني خلفت في مصر خيراً كثيراً في علم الشيخ محمد عبده».

وفي الآستانة - عاصمة الخلافة العثمانية - تعرف جمال الدين برجال الدولة ومفكرها وعلمائها، واختير عضواً في مجلس المعارف هناك، ولكن الدسائس والوشايات حيكت له. فعاد إلى القاهرة في أول المحرم من عام ١٢٨٨هـ - ١٨٧١م، واستقبله تلميذه محمد عبده استقبالاً يليق بمكانته، وأخذ يلزمه ليشبع رغبته في طلب العلم، ومعرفة كنوز الفلسفة وحقائق الحياة، وصار يدعو زملاءه وأصدقاءه، إلى غشيان مجلس الأفغاني، والإفادة من تفكيره الثوري وتوجيهه الإسلامي، واندمج جمال الدين في حياة مصر الاجتماعية والفكرية، وتردد على دار «إبراهيم المويلحي» بشارع محمد علي وهي في ذلك الوقت ندوة المفكرين والعظماء والقادة، فلما أجرى عليه رياض «باشا» مرتباً شهرياً قدره عشرة جنيهاً مصرية، واستأجر منزلاً في حارة اليهود، وصار من يومئذ بيت الأفغاني مدرسة جامعة. يقصدها النابهون من طلاب الأزهر، ويدرس لهم فيها أمهات الكتب في العقائد والحكمة والمنطق والفلسفة، والتصوف، وأصول الفقه، والفلك والتاريخ، ولم يكن يقصد من دروسه التعليم فحسب بل كان يهدف من ورائها كذلك إلى الدعوة للإصلاح وفتح باب الاجتهاد في الدين والعلم، وبث الأخلاق العالية في النفوس، والتبصير بالشئون السياسية وحقوق الشعب والأمة وكان إلى هذا يرشد الطلاب إلى مطالعة الكتب الأدبية لتنضج مواهبهم في الأدب، وليستطيعوا أن ينهضوا بالأمة عن طريق الكتابة في الصحف والمجلات، وعرف طلاب العلم الأفغاني واهتدوا إليه، واستوروا زنده فأورى، واستفاضوا بحره ففاض دُرّاً كما يقول الإمام محمد عبده نفسه... أيقظ جمال الدين العقول من غفلتها، ونبه

شباب الأزهر إلى ضعف التوجيه الفكري في العالم الإسلامي. حتى لقد ألفوا من بينهم جماعة تسعى في إصلاحه وكان من تلاميذه المقربين: محمد عبده، وعبد الكريم سلمان، وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوي، وعبدالله النديم، وقاسم أمين، وحسن عاصم، وحسن عبد الرازق. وسواهم.

ويتوجه جمال الدين أقبل محمد عبده على الثقافات المترجمة إلى العربية فاستوعبها، ونبغ في الكتابة الوطنية والصحفية. وكان لجمال الدين ندوة ثانية في قهوة البوسطة بجوار الأزبكية، وكان من رواده فيها: محمد عبده. والبارودي. وعبد السلام المولحي. وإبراهيم المولحي. وسعد زغلول. وأديب إسحاق. وعلي مظهر. وسواهم، وفي هذه الندوة حول جمال الدين وتلاميذه مجرى الأدب. فجعلوه في خدمة الأمة. يطالب بحقوقها، ويدفع عنها من ظلمها. ويحرض الناس على أن يتغنوا بحقهم في الحرية، وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته إلا بهم، وأخذ الأدب يتحدث عن الشعب، وينشد التحرر. ويفيض في الحديث عن حقوق الناس. وواجبات الحاكم. وبدأ ذلك واضحاً في مقالات محمد عبده وسعد زغلول. وأديب إسحاق. وكتب جمال الدين نفسه مقالتين في جريدة «مصر» كانت إحداهما في «الحكومات الشرقية» وأنواعها. وكان لها صدى بعيد؛ وكتب محمد عبده كذلك عدة مقالات تأثر فيها بروح أستاذه ونشرها في جريدة الأهرام أولاها في فلسفة التربية، والثانية في فلسفة الصناعة. وكان «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المولحي أثراً من آثار هذه الثورة الفكرية التي غرسها الأفغاني في عقول الشباب.

ومن مثل اهتمام الأفغاني بالحركة الأدبية تشجيعه لسليمان البستاني على ترجمة الإلياذة. فقال له كما يروي البستاني «إنه يسرنا أن نفعل اليوم ما كان يجب على العرب أن يفعلوه قبل ألف عام ونيف، ويا حبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون بادروا إلى نقل الإلياذة بادئ بدء، ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها»^(١).

(١) ٦٦ جمال الدين الأفغاني - لعبد القادر المغربي - سلسلة اقرأ عدد ٦٨.

ومن المثل أيضاً أن الأفغاني حصل على نسخة من كتاب علي بابا تأليف جيمس مورير، فترجمها إلى الفارسية وجعل يبعث بنسخ منها إلى إيران ليقرأها النشء الجديد، ويعرفوا كيف يستهزئ بهم الأجانب، ويهبوا إلى الإصلاح^(١).

ويكمل العقاد «هذا الموضوع فيقول^(٢): إن جيمس مورير إنجليزي طاف بالشرق وكتب كتابه. مغامرات حاجي بابا أو «حاجي بابا الأصفهاني» كما سمي بعد؛ وأن الكتاب كان سخرية لاذعة بإيران، وأن الأفغاني أمر بعض مرديه بأن يترجم هذا الكتاب إلى الفارسية، وترجم فعلاً إليها... وهذه القصص الطريفة ترجمت إلى العربية أيضاً عام ١٨٩١، وقد يكون جمال الدين هو الموحى بترجمتها للعربية.

وكان الأفغاني يميز استعمال كلمات غير عربية بالتعريب، ويقول: إذا أردتم استعمال كلمة غير عربية فما عليكم إلا أن تلبسوها كوفية وعقالا فتصبح عربية^(٣)، يريد أن نعربها إلى العربية.

ومن الحرية اللغوية عند الأفغاني استعمال كلمة بقروت للبليد، وكلمة سياسة بقروية أي غاشمة، ولما نوقش في هذه اللفظة لأنها لم ترد عن العرب قال: وهل تريدون مني أن أنكر نفسي^(٤).

وهكذا عمل جمال الدين على توسيع المدارك وتوجيه الأفكار وتعويد الشباب على الحرية في البحث والنقد، وتبصير الشعب بحقوقه وبواجبات الحاكم ومسئوليته تجاهه، وتحدث في صميم السياسة، ورأى أن الحكم النيابي لا قيمة له مادام الشعب غافلاً جاهلاً، ولما أثرت النهضة الفكرية التي غرسها بيديه أخذ يلح في طلب الحكم النيابي ويدعو إليه، وكان ذلك فيما بعد هو

(١) ٣٦ المرجع السابق.

(٢) ص ٣٦١ - ٣٦٥ ساعات بين الكتب والناس للعقاد ط ١٩٥٢ - مطبعة بنك مصر.

(٣) ص ١٠٩ جمال الدين الأفغاني المغربي.

(٤) ص ١١٠ المرجع نفسه.

الرافد العظيم للثورة العربية الخالدة والموجه لأقطابها إلى العمل من أجل وطنهم، وفي مقدمتهم بالطبع: عرابي، ومحمد عبده، والبارودي. وسواهم.

وظفر محمد عبده بشهادة العالمية عام ١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م، وأصبح مدرساً بالأزهر، واختير بعد قليل مدرساً للتاريخ الإسلامي بدار العلوم، والعلوم العربية بمدرسة الألسن، وفي الأزهر أخذ يدرس المنطق والعقائد على نحو جديد، ويدعو إلى تدريس الفلسفة. وإلى فتح باب الاجتهاد والعودة إلى أمهات مصادر الثقافة العربية الإسلامية.

وفي دار العلوم قرأ لتلاميذه «مقدمة ابن خلدون»، وفي داره كان يتحدث مع زائريه في السياسية والاجتماع وشئون الفكر وأصول الدين، وهو في كل ذلك متأثر بنزعات أستاذه جمال الدين الأفغاني. الذي أثر فيه تأثيراً بليغاً لازمه طول حياته، وكان الأفغاني كثير الإثناء عليه والتقدير له وكان يعبر عنه بالصادق، ويعجب لأخلاق الإمام وعزة نفسه، ويقول له: قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت؟.

وفي زحام هذه الثورة الفكرية ظهر شعار «مصر للمصريين» أي ليست للأتراك ولا للأوروبيين ولا للخديويين وأذناهم، ووقف الأفغاني في الإسكندرية قبل خلع إسماعيل يخطب جموع الشعب، ويقول: أنت أيها الفلاح تشق قلب الأرض لتنبث فيها ما تسد به الرمق ويقوم بأود العيال. فلماذا لا تشق قلب ظالمك. لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة كفاحك وتعبك؟

وطويت صحائف الأيام، ومر عام وعام، وعزل إسماعيل، وخلفه توفيق في السادس والعشرين من يونيو عام ١٨٧٩م (٦ من رجب ١٢٩٦هـ).

وكان توفيق من قبل يظهر الصداقة والمحبة للإمامين، ويعاهدهما على إيجاد حكم سياسي نظيف في مصر، فيما لو آلت الأمور إليه، وكان من أجل ذلك هوى جمال وحزبه معه، ولم يتوان توفيق في أن يستدعي جمال الدين ويقول

له: «أنت أيها السيد أملي في مصر الآن» فنصحه جمال الدين بتأييد الدستور، وإقامة حكم نيابي في مصر يشترك فيه الشعب اشتراكاً فعلياً في حكم البلاد «ولم يمض غير قليل حتى كان رد توفيق عليه أن انعقد مجلس وزرائه في ٢٤ أغسطس عام ١٨٧٩م أواسط رمضان ١٢٩٦هـ. وقرر نفي جمال الدين من مصر، وإقالة محمد عبده من وظائفه العلمية، وتحديد إقامته في قريته «محلة نصر». وصدر بلاغ رسمي من إدارة المطبوعات يتهم جمالا وحزبه بالإفساد والتضليل وإثارة الفتن.

وبعد ثمان سنوات من إقامة الأفغاني في القاهرة رحل عن مصر التي أحبها، وسعى مخلصاً لها. بعد أن عاش فيها أعواماً. كانت كلها نضالاً وجهاداً من أجل مستقبل مصر السياسي، وحقوق شعبها المكافح الأبي، وعاد إلى الهند مرة أخرى، وكان ذلك آخر عهده بمصر، وقبل أن يغادر الأفغاني البلاد قال كلمته المشهورة: «إني تركت في أرض مصر الشيخ محمد عبده يتم ما بدأت به».

وتلفت الناس إلى خليفة جمال الدين ليجدوه شبه معتقل في قريته وأشفق رياض «باشا» من الأمر فشفع في الإمام عند توفيق، وانتهى الأمر بتعيينه محرراً بالوقائع المصرية صحيفة الدولة الرسمية، ولم يلبث محمد عبده أن نهض بها وصار المحرر الأول فيها، واختار معه سعد زغلول، والهللأوي. وعبد الكريم سليمان، وسيد وفا، وهم من تلامذة الأفغاني، وأخذ يعلمهم الكتابة الصحفية، ويعودهم على تدبيج المقالات وتحريرها، وأحدث محمد عبده ثورة صحفية واجتماعية وفكرية وأدبية عن طريق الوقائع التي كان فيها معلماً، ومصلحاً ورائداً لشعبه وللأحرار فيه، وكثيراً ما كان ينقد أعمال الحكومة ويدعو الحاكم والمحكوم إلى احترام القانون، دعوته إلى تنمية الاقتصاد الوطني، وفتح أبواب التعليم أمام الراغبين فيه من أبناء الشعب، وإنشاء المدارس النهارية والليلية، وبمجهوده أسس مجلس المعارف الأعلى في ٣١ مارس عام ١٨٨١م، وانتخب عضواً فيه، وهو في ذلك كله إنما يعمل وفق تعاليم أستاذه؛ وما برح يواصل جهوده في خدمة الشعب وإعداد الرأي

العام الوطني المستنير، حتى نشبت الثورة العربية عام ١٨٨١ وهي التي كان هو وأستاذه من أكبر الممهدين لها، والغارسين لبذورها، بل كان محمد عبده كما يقول اللورد كرومر: «الروح المدبرة للثورة» وكان هو الواضع لصيغة اليمين الوطني الذي أقسم به جميع رجالات مصر وقوادها على أن يكونوا يداً واحدة. وهو الواضع كذلك لصيغة القرار الذي عزلت الأمة به «توفيق بن إسماعيل». ودعا محمد عبده إلى التطوع في صفوف الجيش المدافع عن أرض الوطن وإلى التبرع له بالموثون والمال والسلاح.

وكان الأفغاني^(١) إبان ذاك قد اعتقلته بريطانيا في الهند وانتهت الثورة العربية بالقبض على زعمائها، ومن بينهم الإمام، وحبس مائة يوم، حكم عليه بعدها بالنفي ثلاث سنين، واختار سوريا منفى له فوصلها في نهاية عام ١٧٧٢م وأقام في بيروت، يعاود نضاله وكفاحه من أجل الشرق العربي الإسلامي عامة ومصر وشقيقتها السودان خاصة. وفي عام ١٨٨٣ أطلقت بريطانيا سراح جمال الدين، وسمحت له بالسفر «فسافر إلى لندن» وفي طريقه إليها كتب إلى محمد عبده في بيروت يبشره بفك أسره وبسفره إلى العاصمة البريطانية، ووصل جمال الدين إلى إنجلترا. ثم سافر منها إلى باريس، وأرسل إلى الإمام محمد عبده يستدعيه ليلحق به هناك، فلبى النداء وشد رحاله إلى باريس.

وفي باريس أخذ الإمامان يجاهدان من أجل مستقبل الشرق العربي الإسلامي، ويعملان ليعود للإسلام مجده، وألغا عام ١٨٨٤م جمعية «العروة الوثقى» للجهاد في سبيل الإسلام والدعوة إليه، والكفاح من أجله، والذود عن شعوبه، وخلق الوعي المستنير فيها، ومناهضة الحكم الديكتاتوري، والعمل على إحياء الأخوة الإسلامية بين شعوب الشرق، وعلى قيام الحكم فيها على أساس الدين الذي يأمر بالشورى والعدل بين الناس وقد كان من أهدافها الكبرى تحرير مصر والسودان من الاستعمار البريطاني - ومن أجل هذه

(١) راجع مجموعة مستندات ووثائق عن الأفغاني - طبع إيران.

الأهداف أنشأ الإمامان «جريدة العروة الوثقى» في باريس، وصدر العدد الأول منها في ٥ جمادى الأولى عام ١٣٠١هـ - ١٣ مارس عام ١٨٨٤م ولخصاً فيه أهدافهما فيما يلي:

- ١ - بيان الواجب على الشرقيين، وأسباب فساد أجيالهم.
- ٢ - إشراب النفوس عقيدة الأمل وترك اليأس.
- ٣ - الدعوة إلى التمسك بالأصول التي كان عليها أسلافهم.
- ٤ - الدفاع عما يتهم به الشرقيون من أنهم لن يتقدموا ما داموا متمسكين بدينهم.
- ٥ - إخبارهم بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.
- ٦ - تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، وتقوية فكرة الرابطة الشرقية، بتقوية العلاقات السياسية والتجارية بين شعوب الشرق، صدًا لتيار الغرب وزحفه. . . وأخذاً يناهضان الاستعمار، ويدعوان إلى الاجتهاد وترك التقليد ويبينان أن الاشتراكية في الإسلام ملتزمة مع العقيدة، ملتصقة بالأخلاق يبعث عليها حب الخير، على النقيض من اشتراكية الغرب التي يبعث طيها جور الحكام، ونوازع الحسد في نفوس العمال لأصحاب رؤوس الأموال، وأعلننا في قوة أن الدين لا يخالف الحضارة العلمية والفكر الحر النزيه، فالقرآن أجل من أن يخالف نواميس العلم الحقيقي خصوصاً في الكليات، وظلت جمعية العروة الوثقى وصحيفتها تؤديان رسالتهما، ومن خلفهما فروع الجمعية السرية العديدة في شتى الأقطار، ولكن قوى الاستعمار اجتمعت على محاربة الصحيفة، فتوقفت عن الصدور بعد العدد الثامن عشر الذي صدر في ٦ من ذي الحجة عام ١٣٠١هـ - ١٦ أكتوبر عام ١٨٨٤م وفي يوليو عام ١٨٨٤م وقبل إغلاق الصحيفة بقليل، أوفد جمال الدين الإمام محمد عبده إلى لندن لمفاوضة الإنجليز في القضية المصرية والسودانية فسافر الإمام إلى لندن ومعه ميرزا محمد باقر، وهناك قابل محمد عبده أقطاب الزعماء والسياسة والنواب والمفكرين، وتحدث معهم في المسائل السياسية وكان صوته أول صوت مصري يرتفع بالمطالبة بحقوق مصر والسودان بعد الاحتلال البريطاني.

وهذا الصوت العظيم في مكافحة الاستعمار لا يقل عنه صوت محمد عبده كذلك في الرد على هانتو دافعاً عن الإسلام، مما بهر الغربيين وهزهم وأثار تأملاتهم. وسافر الإمام محمد عبده سراً إلى تونس ومنها إلى بيروت، وألف هو وميرزا محمد باقر «جمعية التأليف والتعريب» للدعوة إلى الإسلام والتعريف به ومقاومة اضطهاد أوربا للشرق والمسلمين، ودعوة المفكرين والمستشرقين ورجال الدين في أوربا إلى الإيمان بالإسلام وأصوله، وكان قيام هذه الجمعية امتداداً لتعاليم الأفغاني وتفكيره الثوري، وفي أواخر ١٨٨٨م عاد محمد عبده من المنفى إلى وطنه واتخذ سكناً له في شارع الشيخ ربحان بجوار عابدين، وكان يقول لأصدقائه: اخترنا هذا المكان لئلا نطرح عابدين وننازلها، والتف حوله أصدقاؤه ومريدوه ينشرون دعوته في الإصلاح الديني والتجديد العقلي والتفاني للوطن وأبنائه، وأسندت إليه وظائف كثيرة: كالفتيا، والإشراف على المحاكم الشرعية وإصلاحها، وعضوية مجلس الأوقاف الأعلى، ومجلس شورى القوانين، والجمعية الخاصة الإسلامية وجمعية إحياء الكتب العربية. وكان الأفغاني آنذاك في باريس ثم سافر منها إلى الآستانة، وفيها توفي في صباح الثلاثاء، ٥ شوال ١٢١٤هـ - ٩ مارس ١٨٩٧م، ولم يبق للعالم الإسلامي والعربي من موئل سوى محمد عبده وعقله البعيد الأفق، المنير في ظلمات الخطوب والأحداث، واستمر محمد عبده في كفاحه الديني والوطني والقومي، كافح حلف كرومر وغرور عباس وجهل أئداده الخاقدين عليه، إلى أن خر شهيداً في ساحة الجهاد في ٨ جمادى الأولى ١٣٢٣هـ - ١١ يوليو ١٩٠٥م في الذكرى الثالثة والعشرين لضرب الأسطول الإنجليزي للإسكندرية.

وهكذا عمل محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني على غرس روح الثورة والحرية في نفوس الملايين من المصريين والعرب والمسلمين، وناضلاً في سبيل تحرير الشرق العربي من نير الاستعمار العثماني والغربي نضال الأبطال، وكانت حركتهما الفكرية هي نقطة الانطلاق الأولى في حياتنا الفكرية والثقافية والأدبية في مصر والعالم العربي.

الحياة الفكرية في مطلع القرن العشرين :

أوقد الأفغاني في مصر والشرق الإسلامي نار ثورة فكرية عارمة. تنزع إلى الإحياء والنهضة والتجديد وحرية الشعوب الإسلامية، وقد ساعده على نشر أفكاره وظهور طبقات من المصلحين في مصر، من مثل رفاة الطهطاوي ثم عبد الله فكري (١٨٣٤ - ١٨٩٠) والبارودي (١٨٣٨ - ١٩٠٤) وعلي مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣)، وسواهم، إلى أثر الأزهر الشريف في حركات الإحياء والتجديد.

وكان أعظم وارث لآراء الأفغاني وأفكاره الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥)، الذي أذكى الشعلة الوطنية والروح الدينية والأدبية في مصر، ودعا إلى الاقتباس من حضارة الغرب وثقافته، واعتبر ماضي الأمة الإسلامية هو الأساس العام لحياة القومية ولل فكر في مصر والشرق. وقد أوضح أفكاره في مجموعة من المقالات والدراسات تعتبر في لغتها وأسلوبها فتحاً جديداً، لما امتازت به من القوة والمتانة وجزالة العبارة وهي مزايا الأسلوب القديم، ومن الدقة والمرونة ووضوح الشخصية مما هو أثر لثقافته الحديثة.

وكان محمد عبده ركيزة وطنية في ذروة طغيان الاحتلال، وتلاميذه هم الذين حملوا راية الدعوة إلى التجديد والحرية والاستقلال، ومنهم قاسم أمين، وسعد زغلول، ومحمد مصطفى المراغي وغيرهم.

وبجانب هؤلاء الأعلام في النهضة كان كثير من العلماء والأدباء يعملون لإذكاء النهضة وتجديد الثورة الفكرية وإحياء الثقافة العربية. ومن بينهم الشيخ قدرى أستاذ ولي عهد الخلافة العثمانية. وكان مفكراً مزوداً بقسط كبير من الثقافة، وقد وفد على مصر وأقام فيها. وكان يحضر مجلسه أعلام الفكر في وادي النيل.

وفي عام ١٩٠٥ قامت نخبة تسعى إلى إحياء الفكرة العربية. وتجديد ثقافتها القديمة. فكانت هذه الحركة قسماً سطع منه نور عهد الإحياء العربي.

وواجهت هذه اليقظة حركة سياسية. قام بها فتیان الأتراك من أجل تترك العنصر غير التركية في إمبراطوريتهم. فكان من أثر ذلك انبثاق الوطنية الشعبية العربية. وعلى رأسها طلاب الأزهر والشباب الذين تعلموا في جامعات أوروبا والقسطنطينية.

وعززت جريدة المؤيد (١٨٩٥-١٩١٤) التي أنشأها علي يوسف، ثم اللواء التي أصدرها الحزب الوطني، فالجريدة التي أصدرها أحمد لطفي السيد، عززت الروح الوطنية والوعي القومي في مصر.

واجتمع في العاصمة في فجر القرن العشرين طبقات من الرجال الممتازين، ومنهم الكتّاب اللغويون والأدباء والخطباء والشعراء والعلماء. ممن قادوا حركة البعث والإحياء والتجديد في مصر. وطالبوا بالحرية، وقاوموا الاحتلال وطفغائه.

مذاهب وتيارات الادب الحديث:

تمهيد:

إذا جاز لنا أن نعد بدء الآداب العربية في العصر الحديث، أو في عصر النهضة، هو احتكاك الشرق بالغرب إثر حملة نابليون على الشرق العربي (١٧٩٨-١٨٠١). فإن نهضة الأدب العربي الحديث لم تظهر - كما نرى إلا في آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث كان الاتصال الثقافي بأوروبا، وحركات اليقظة العربية في كل مكان، وتأثير جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وتلاميذهما. وزيادة اهتمام العرب بالثقافة والأدب والتراث القديم، وانتشار الطباعة والصحافة ودور الكتب والمدارس والجامعات في بلادهم، كان كل ذلك تمهيداً لقيام الأدب الحديث، الذي أخذ من الماضي والحاضر، وتطلع إلى الشرق والغرب، وعبر عن ذات البيئة العربية، وعن نفوس أديبائها تعبيراً صادقاً.

المدرسة الكلاسيكية:

ويطل القرن العشرون على صيحات محمد عبده والكواكبي وأحمد لطفي

السيد، وعلى طبقات الشعراء المجددين، من ذوي الرصانة الكلاسيكية، بزعامة رائدهم الأول: محمود سامي البارودي، ومن بينهم: شوقي، وحافظ، وعمر، وولي الدين يكن، وحفني ناصف، وإسماعيل صبري، والرصافي، والزهاوي، والكاظمي، وفؤاد الخطيب، وشكيب أرسلان. ثم من جاء بعدهم من أمثال: الجارم، والأسمر، وعلي محمود طه، ورضا الشيباني، وبشارة الخوري، وعزيز أباظة، وعمر أبي ريشة، ومحمود غنيم، وعلي الجندي، وحمزة شحاتة، وإبراهيم هاشم الفلاحي الحجازيين وسواهم، ممن أحيوا عمود الشعر القديم، وجددوا في الألفاظ والأساليب والصور والمعاني والأخيلة، وعبروا عن أنفسهم ومجتمعاتهم تعبيراً قوياً مؤثراً. وظهر على يدي شوقي الشعر القصصي والمسرحي، وعلى أيدي حافظ ومحرم الرصافي الشعر الوطني والاجتماعي، وعلى يدي الزهاوي شعر الفلسفة ونقد المجتمع، متأثراً في ذلك بأبي العلاء.

المذهب الرومانسي ومدارسه:

وزاد اتصال العرب بآداب الغرب، عن طريق الترجمة والبعثات العربية إلى جامعات أوروبا، والمستشرقين والأساتذة الغربيين الذين عملوا في الجامعات العربية، وعنوا بنشر الأدب الغربي بين الشباب العربي، وبخاصة آداب شكسبير وشلي، وهوجو، وموباسان، ولامارتين، وأنانول فرانس، وألفريد دي موسيه، وجوته... وكذلك عن طريق المدارس الأجنبية التي أنشئت في ربوع الشرق العربي.

وبتأثير ذلك كله ظهر الاتجاه الرومانسي في الأدب العربي الحديث، وكان أول من دعا إليه حاملاً راية التجديد والابتداع في الشعر هو الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩)، الذي دعا إلى الحرية الفنية، التي تحترم شخصية الشاعر واستقلال الفن عن الصناعة والأناقة الزخرفية. ودعم وحدة القصيدة، وأبرز كل شيء في هذا الوجود - صغيراً أو كبيراً - كموضوع شعري خليق بعناية الشاعر، وأهل للتناول الفني إذا ما استطاع الشاعر أن يتجاوب معه، وطرق الموضوعات الانسانية بدل الاقتصاد على العواطف

الذاتية، وكان يقول: «أريد التجديد أكثر مما أردته في كل آن، أريده ولا أكيّفه أريد أن تكون لغتي شريكتي رؤية وسامعاً وشعوراً تلقاء كل ما يجد، وأن تتناوله وأن تعينني على الإفصاح عنه».

وصيغ المنفلوطي (المتوفي عام ١٩٢٤) النثر العربي الحديث بصيغة رومانسية واضحة: تتجلى في آثاره المشهورة، ومن بينها: النظرات، والعبرات، والفضيلة. وجاء طه حسين، فعزز نهضة الأدب والنثر العربي بجميع فنونه، وأيد هذه النهضة كتاب شاركوا في كل حقل ثقافي ومن بينهم، محمد حسين هيكل، وأحمد أمين، ومصطفى عبد الرزاق، وعبد الوهاب عزام، ومنصور فهمي، ومصطفى صادق الرافعي، ومحمد كرد علي، والعقاد، وزكي مبارك، ومحمد فريد أبو حديد، وأحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة الخالدة، وكذلك محمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وهم رواد القصة العربية الحديثة التي دعم نهضتها كذلك: يحيى حقي، وثروت أباظة، وعلي باكثير، وعبد الحميد جودة السحار، وإبراهيم المصري، ومحمود البدوي، ويوسف إدريس وغيرهم، وجبران، وميخائيل نعيمة، وكرم محلم كرم، وأحمد السيد العراقي، ومعروف الأرنؤوط، وجعفر الخليلي ووداد سكاكيني، وسهيل إدريس، وفؤاد الشايب، منزلة معروفة في فن القصة.

وعززت الاتجاه الرومانسي في الشعر العربي الحديث ثلاث مدراس كبيرة ذوات أثر ضخم في تطوره والتجديد فيه.

أولاهما: مدرسة شعراء الديوان - شكري والمازني والعقاد -، وقد دعا ثلاثتهم إلى شعر الوجدان، وأكدوا وحدة القصيدة، واحتفوا بالأخيلة والصور الجديدة والمضمون الشعري سواء استمدّه الشاعر من الطبيعة الخارجية - أو من ذات نفسه العاطفية أو الفكرية، والشعر عندهم تعبير عن وجدان الشاعر، وإن ذهب «شكري» إلى التأمل الوجداني والاستبطان الذاتي، وعبر «المازني» عن روح رومانسي شاك متبرم، ونظم «العقاد» في الجانب الوجداني والفلسفي وفي المناسبات، وقال في (الديوان): «إن كان الشعر لا يرجع إلى

مصدر أعمق الحواس فذلك شعر القشور والطلاء، وإن كنت تلمح من وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود إليه المحسوسات، كما تعود الأغذية إلى الدم، ونفحات الزهر إلى عنصر العطر، فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة والجوهر، وهناك ما هو أحقر من شعر القشور، وهو شعر الحواس الضالة، والمدارك الزائفة». وكتب «العقاد» كذلك يقول: «الشعر يقاس بمقاييس ثلاثة: أولها أن الشعر قيمة إنسانية قبل أن يكون قيمة لفظية فيحتفظ الشعر بقيمته إذا ترجم إلى لغة من اللغات، وثانيها أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه. فالشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع وليس ذا شخصية أدبية. ثالثها أن القصيد ذات بنية حية وليست أجزاء متناثرة يجمعها الوزن والقافية».

وثانيتهما: مدرسة «أبولو» التي كونها الشاعر الكبير الدكتور أبو شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) عام ١٩٣٢م، وأحدثت أثراً كبيراً في النهضة الأدبية المعاصرة. وقد دعا أبو شادي إلى الأصالة والفطرة الشعرية والعاطفة الصادقة وإلى الوحدة التعبيرية والتناول الفني السليم للفكرة والمعنى والموضوع، ودعم وحدة القصيدة وامتاز شعره بوحدة المعاني، وبالانسجام الموسيقي، والتحرر البياني، وبالخيال الغربي، وبالتأمل الصوفي، والتعمق الفكري والنفسي والفلسفي. وقد امتاز بجوانب شعره الإنساني، وبشعره القصصي والتمثيلي، وبشعره في الطبيعة. ومن شعراء هذه المدرسة: إبراهيم ناجي، ومحمود أبو الوفا، وعلي محمود طه، والصيرفي. ومن نقادها: مصطفى السحرقي مؤلف «الشعر المعاصر» و«شعر اليوم» و«النقد الأدبي». ثم وديع فلسطين صاحب كتاب «قضايا الفكر في الأدب المعاصر»، وقد تأثر باتجاهات المدرسة دون أن يكون عضواً فيها. وفي شعر أبي القاسم الشابي، وإبراهيم طوقان، والتيجاني بشير، تأثيرات واضحة بمدرسة أبولو. ويلح شعراء هذه المدرسة في التعبير عن نفوسهم وعن فلسفة الالم التي تنطوي عليها جوانحهم، ويمزجون مشاعرهم بمراثي الجمال في الطبيعة، ويدعون إلى الوحدة العضوية للقصيدة، وإلى صدق العاطفة والبعد عن الزيف.

وثالثهما: مدرسة المهجرين التي أحدث كتابها وشعراؤها من أمثال: الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠)، وجبران، ونعمية، وصيدح، ونظير زيتون، - (١٩٦٧)، وعبد المسيح حداد - (١٩٦٣)، ونسيب عريضة، وأبو ماضي - (١٩٥٧)، والشاعر القروي، والياس فرحات، وشفيق المعلوف، دويماً شديداً في الشرق العربي، لا يزال صدهاء مستمراً حتى اليوم، وقد أكدوا الدعوة إلى التجديد، وكتبوا القصة والمسرحية، ونظموا في شتى الأغراض وظهر في كتاباتهم ونظمهم أدب المناجاة أو الأدب المهموس، وجددوا في الصور والمعاني والأخيلة تجديداً كبيراً، وعنوا بالموسيقى الشعرية عناية شديدة.

أدباء الالتزام:

وقد دعا كثير من الأدباء والنقاد إلى أدب ملتزم وهادف، ومنهم الناقد المشهور الدكتور محمد مندور، وهم في اتجاههم ذوو نزعة واقعية عبر عنها شعراء عديدون، ومن بينهم: سليمان العيسى، وبدوي الجبل، والجواهري، ورثيف خوري. وإن كان الالتزام من أصول مذهب «سارتر» في الأدب، إلا أن آراءه تمثل نزعة واقعية: ويمثل هذه النزعة معظم كتاب مجلة الآداب اللبنانية التي أنشأها الدكتور سهيل إدريس.

ودعا آخرون إلى الرمزية، متأثرين بمالارمي، وبول فرلين، وستيفن سبندر، ومنه بشر فارس، وألبير أديب صاحب مجلة الأديب اللبنانية. ونازك الملائكة، وفدوى طوقان، ومحمد العامر الرميح الحجازي (-١٩٧٨).

ومن المذاهب الأخرى: السريالية التي يمثلها شعر محمود حسن إسماعيل، والوجودية، وغيرهما.

أدباء وخصائص:

وقد نبغ في الأدب العربي الحديث أعلام مشهورة، منهم: مندور، وشوقي ضيف، وزكي المحاسني، وسامي الكيالي السورياني، وروكس العزيزي، وعيسى الناعوري وهما أردنيان. ويوسف أسعد داغر اللبناني

صاحب كتاب «مصادر الدراسات الأدبية» ويوسف عز الدين العراقي، ومن الأدبيات العربيات: وداد السكاكيني، وبت الشاطي، وسهير القلماوي، وجليلة رضا، وجميلة العلايلي، ونازك الملائكة، وفدوى طوقان، وملك عبد العزيز، وشريفة فتحي، وعلية الجعار وسواهن.

ويمتاز الأدب العربي الحديث بتطوره وتعدد بيئاته وثقافته ومذاهبه، وبأنه جملة يمثل ثراء هذا الأدب وخصوبته؛ ومع ذلك فلا يزال ينقصه الكثير من العمق والثقافة والأصالة، وقد ضعف أدب الترجمة وأدب تحقيق التراث ضعفاً واضحاً، ولوديع فلسطين أعمال أصيلة في أدب الترجمة.

ولا يزال هذا الأدب كذلك يظهر فيه بين الحين والحين بعض الدعوات المنحرفة، ومن بينها الدعوة إلى العامية.

وقد قل حظ الأديب العربي المعاصر من الثقافة الأدبية القديمة، حتى كادت تنسى آداب: ابن المقفع، والجاحظ، وابن العميد، وأبي حسان، والبديع، والحريري. وأعمال النقاد العرب القدامى.

وقيام الجامعات اللغوية والعلمية - كالمجمع اللغوي في القاهرة (١٩٣٢)، والمجمع العلمي العربي في دمشق (١٩٢٠)، والمجمع العلمي العراقي - كفيل بالقضاء على أسباب ما يسود أفقنا الأدبي من اضطراب وتناقض، وانحراف.

ولاشك أن ضجة الحياة أمام الأديب العربي، وتعدد المذاهب والمناهج، وقلة اهتمام المجتمعات العربية اليوم بالآداب. لها أثر في حاضر الأدب العربي الحديث، وإن كنا نرجو أن يسير قدماً إلى غاياته الإنسانية النبيلة.

الأدب الحديث ومدارسه:

الأدب المصري الحديث الذي يبتدئ بقيام الثورة العربية في ٩ سبتمبر عام ١٨٨١م، والذي بشر به محمد عبده، وحمل راية الشعر فيه البارودي

مجدداً وملقحاً له بالشعر العباسي وبلاغاته، والذي لم يكن يعرف الأدباء والدارسون منهجاً في دراسته غير المنهج القديم الذي اختطه الشيخ سيد بن علي المرصفي، حتى نقل حسن توفيق العدل (المتوفي عام ١٩٠٤) بعد عودته من ألمانيا منهج المستشرقين في دراسات تاريخ الأدب ونقده... هذا الأدب قد تعددت بيئاته ومدارسه في مصر منذ مطلع القرن العشرين.

في بيئة الأزهر خرج: المنفلوطي، وحزمة فتح الله، والغياطي، وسيد المرصفي (١٩٣١)، وعبد الرحمن البرقوقي، وطه حسين، وعبد العزيز البشري (١٩٤٣)، ومصطفى عبد الرزاق (١٥ فبراير ١٩٤٧)، وعلي عبد الرازق، وزكي مبارك، والأسمر.

ومن بيئة مدرسة القضاء الشرعي: خرج عبد الوهاب النجار - (١٩٤١) وأحمد السكندري - (١٩٣٨)، وأمين الخولي، وعبد الوهاب عزام، وأحمد أمين.

ومن بيئة دار العلوم: خرج حفيي ناصف - (١٩١٩)، وعبد العزيز جاويش؛ والشيخ الخضري، والجارم (١٩٤٩)... ومن مدرسة المعلمين خرج: عبد الرحمن شكري، وإبراهيم المازني، والدكتور أحمد زكي، ومحمد فريد أبو حديد.

ثم قامت الجامعة وخرج من صفوفها: الدكتور هيكل، ومنصور فهمي، وأحمد ضيف، وعبد الحميد بدوي، ثم توفيق الحكيم، والدكتور محمد مندور، ومصطفى السحرقي، وإسماعيل أدهم، ومحمد لطفي جمعة، وشوقي ضيف، وسواهم.

وكانت هناك مدرسة أدبية أخرى خرجت من بيئة الصحافة وفي مقدمتها العقاد... ومن الصحف المشهورة جريدة اللواء التي صدر العدد الأول منها في أول يناير عام ١٩٠٠، والجريدة التي أصدرها لطفي السيد، ومجلة البيان التي أصدرها عبد الرحمن البرقوقي عام ١٩١١، وتوقفت عن الصدور عام ١٩٢٣ ومجلة الزهور التي كان يصدرها أنطوان الجميل، ومجلة

الدستور التي كان يصدرها محمد فريد وجدي - (٥ فبراير ١٩٥٤) وسواها. وكانت هناك جماعات من أعلام الأدب في مصر تتلمذت عليها هذه الطبقات، وفي مقدمتهم الأفغاني، ومحمد عبده، وعلي مبارك، ورفاعة رافع الطهطاوي^(١)، وعبد الله فكري، ومحمد وإبراهيم المويلحيان، وحسن المرصفي، وعلي يوسف، وسيد المرصفي، ومحمد المهدي، ومحمد السباعي، ومصطفى المنفلوطي.

وقد أثرت هذه الحركة الأدبية في النثر، الذي انتقل من الأسلوب القديم، الذي كان يمثل عبد الله فكري في رسالته «السفر إلى المؤتمر»، وتوفيق البكري في كتابه «صهاريج اللؤلؤ»، ومحمد المويلحي في كتابه «حديث عيسى ابن هشام»، إلى الأسلوب الاجتماعي الوجداني ممثلاً في كتابة المنفلوطي، ثم طه حسين.

وأحدثت طبقة رجال الصحافة أثراً كبيراً في تطور أساليب النثر وفي مقدمتهم: عبد القادر حمزة، وأنطوان الجميل، وصروف، وجرجي زيدان - (١٩٥٤) وخليل مطران، وأحمد حافظ عوض، وسواهم.

وكان لمجلة المقتطف (١٨٧٦-١٩٥٣)، ولمجلة الهلال (١٨٩٢). ثم الرسالة (١٩٣٣-١٩٥٣)، ومجلة أبولو، ومجلة العصور لإسماعيل مظهر، ومجلة الثقافة (١٩٣٩-١٩٥٣)، ومجلة السياسة الأسبوعية، أثر عميق في النهضة الأدبية، وقامت في الهلال والسياسة عام ١٩٢٥ معركة حول القديم والجديد، اشترك فيها مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠-١٠ مايو ١٩٣٧)، وطه حسين وسلامة موسى، ورفيق العظم، وسواهم.

وقد نشأت المدرسة الجديدة في الشعر والنثر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة كما ذهب إليه بعض الكتاب، أو عام ١٩٢٢م. كما أرجح.

وكان لإحياء التراث القديم، والأخذ من الآداب الغربية أثر في تعزيز

(١) راجع: رفاعه الطهطاوي لجمال الدين الشيال، ولوحة تاريخية عن حياة ومؤلفات رفاعه لفتحي رفاعه الطهطاوي.

نهضة الأدب والسير به قدماً في سبيل الإزدهار والقوة. حيث كان الأدب القديم والأدب العربي منبعين أصيلين من منابع الأدب في القرن العشرين.

وقد تطور أسلوب القصة، فانتقل من السجع، ممثلاً في أسلوب «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي إلى أسلوب متحرر ممثلاً في قصة «زينب» لهيكل، وفي قصص: محمود تيمور، وطاهر لاشين، وإبراهيم المصري. وانصرف القصاصون من الموضوعات الرومانسية إلى تصوير الحياة ومعيشة الناس في أحياء المدن، وفي أغوار الريف، وغلبت القصص القومية والوطنية والفكرية وغيرها من مختلف ألوان القصص.

أما الشعر فقد اتجه بعد البارودي إلى الجانب الاجتماعي الذي مثله رائداً الشعر الحديث: أمير الشعراء أحمد شوقي، وشاعر النيل حافظ إبراهيم.

ونستطيع أن نقسم الشعراء إلى مدارس هي:

١ - المدرسة الكلاسيكية وفي مقدمتها: البارودي، وحافظ، وشوقي، والجارم، والجندي، وغنيم، والأسمر، وسواهم، ومنها المدرسة الكلاسيكية الجديدة التي يمثلها: عزيز أباظة، وعلي محمود طه، وسواهما.

٢ - المدرسة الرومانسية، وفي مقدمتها: مطران، وشكري، والعقاد، والمازني، وأبو شادي، وإبراهيم ناجي.

٣ - المدرسة الواقعية وشعراءها عديدون من الشعراء اليوم، وفي مقدمتهم: عبد الحميد الديب، وكامل أمين، وعمد مفتاح الفيتوري، وكمال عبد الحليم، وسواهم.

وفي عام ١٩٠٨ أصدر مطران الجزء الأول من ديوانه، فكان فاتحة لدعوة التجديد في الشعر المصري الحديث... ويصور خليل مطران رأيه في التجديد في الشعر فيقول: أريد التجديد يتمثل في التفكير بمعناه البعيد الغور الذي هو منبع الابتكار، ليحل ذلك التفكير تدريجاً محل الخيال المشتت

الذاهب في تشتيت الذهن ضروب المذاهب ، الخيال الذي يصدر عن الحقيقة غالباً التي هي مصدر كل جمال ثابت...».

ومذهب مطران (١٩٤٩م) في الشعر يجمعه قوله في تصديره «ديوان الخليل»: «هذا شعر عصري، وفخره أنه عصري وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر... هذا شعر ليس ناظمه بعبده ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الصحيح، وينظر فيه إلى جمال البيت ذاته وفي موضعه، وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها، مع ندور التصور، وغرابة الموضوع، ومطابقة كل ذلك للحقيقة؛ وشفوفه عن الشعر الحر؛ وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر».

وقد تتلمذ أحمد زكي أبو شادي وشعراء مدرسة أبولو على وجه العموم في الشعر والنقد على مطران، فنظم أبو شادي الشعر القصصي والتمثيلي، ولقح شعره بأخيلة ومعاني الشعراء الأوربيين، ودعا إلى التجديد في الشعر دعوة جريئة، وكان أكثر فهماً لأصول الأدب والشعر والنقد، وأصرح دعوة إلى التجديد، وإلى الشعر المرسل والحر، وأنشأ جمعية أبولو ومجلتها الشعرية الدائنة... وكان أبو شادي يعد مطران أول شاعر ابتداعي في الأدب العربي الحديث... ويبسط أبو شادي شعوره الشديد بأستاذية مطران له في الشعر في ديوانه «أنداء الفجر» إذ يقول: «فما نشوء الشعر المرسل ولا الشعر الحر، ولا ما بلغناه من الحركة التحريرية للنظم، ولا ما نتناوله من الموضوعات الإنسانية والعالمية إلا الرقي الطبيعي لرسالة مطران، وأول تعاليم مطران ترك النفس على سجيتها، وترك التصنع...» ويؤمن أبو شادي بأن مذهبه في الشعر هو وحده التطور الطبيعي للمذهب مطران. وقد زاد أبو شادي على أستاذه تطور لغته وأخيلته وتعبيره ومثله العليا وتجاوبه مع الطبيعة... ويقول أبو شادي: إن الشخصية الفنية الحرة هي أهم ما يؤكد مطران، وهي ما تعودت أن أقدمه في ذاتي وفي غيري، وهذه الشخصية الحرة هي روح شعري، وقد عشت تلميذاً على الطبيعة وعلى الثقافة الإنسانية...» يقول أبو شادي في

أنداء الفجر: إن مذهبي في الشعر يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من مطران.

فمطران عند أبي شادي هو رائد الحركة الابتداعية في الشعر الحديث، ويقول الدكتور مندور عنه في محاضراته عن خليل مطران: «مطران شاعر رومانتيكي أصيل» ويقول عنه في مقالة نشرها في بغض المجلات الأدبية: إنه يعتبر رائد التجديد في الشعر العربي المعاصر.

ونذكر هنا أن بداية مدرسة شعراء الديوان كان عام ١٩١٣ حيث كان عبد الرحمن شكري وإبراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد يتلاقون على أفكار جديدة في الأدب والشعر والنقد وإعلان الخصومة الأدبية على المدارس القديمة، وأخرج شكري ديوانه الأول عام ١٩٠٩، وأصدر المازني ديوانه الأول عام ١٩١٣، وتبعهما العقاد فأخرج ديوانه الأول عام ١٩١٦ وفي عام ١٩٢١ ترك شكري هذه المدرسة... ولما صدر الجزء الأول من الديوان في يناير عام ١٩٢١ والثاني كذلك عام ١٩٢١ كان من ضمن بحوثه مقالة عن شكري بقلم المازني وعنوانها «صنم الألاعيب» وفي عام ١٩٣٠ ترك المازني هذه المدرسة وتنصل من آرائه فيها... وصار العقاد وحده هو ممثل هذه المدرسة.

والجزء الأول من الديوان تناول فيه العقاد والمازني أحمد شوقي وعبد الرحمن شكري بالنقد اللاذع المرير.

ويقص الدكتور رمزي مفتاح في كتابه «رسائل النقد» الذي أخرجه عام ١٩٢٩ قصة شكري مع المازني والعقاد، ووصف شكري فيه بأنه زعيم مدرسة التجديد، وأنه رأس المدرسة الحديثة، وقال عن العقاد والمازني: إنهما ستأثران بشكري.

وكذلك فعل د. مختار الوكيل في كتابه «رواد الشعر الحديث».

والشعراء الثلاثة: شكري والعقاد والمازني من أثر الأدب الإنجليزي في

أخيلتهم ومعانيهم وفي شعرهم عامة، ومرجع العقاد والملازمي في النقد إلى هازليت وماكولي وأرنولد وشاستري؛ وأغلب آراء العقاد في النقد متأثرة بآراء وليام هازليت ومحاضراته عن الشعراء الانجليز، ويشبهه العقاد كثيراً في عنفه النقدي^(١). ومذهب العقاد في النقد النفسي هو مذهب ناقد غربي مشهور، هو ريتشاردز، ويذهب كتاب «مبادئ النقد الأدبي» الذي ألفه أ.أ. ريتشاردز عام ١٩٢٤ وترجمه محمد مصطفى بدوي منذ سنوات إلى العربية إلى تقرير الصلة بين مسائل النقد الأدبي وعلم النفس، فالنقد في نظره يؤثر جميع الموضوعات السيكلوجية ووظيفة الناقد هي التمييز بين مختلف التجارب وتقويمها عن طريق الإدراك الواضح لطبيعة التجربة.

والشعر عند شكري هو وصف الحالات النفسية والمواقف العاطفية والإحساسات المختلفة وكل ما يتفاعل به العقل المفكر مع الشعور الحي المثقف، وقصائد شكري صور كاملة لرسم النفس وحالاتها، والوحي أو الهاتف عند شكري معناه استكمال المعنى في ذهن الشاعر ونضوجه في نفسه واستيفاء الإحساس به.

والشعر عند مدرسة الديوان تغلب عليه النزعة الوجدانية الذاتية بينما تغلب على مدرسة خليل مطران النزعة الموضوعية.

والعقاد لا يقر لشوقي بأية موهبة في الشعر كما تطالع ذلك في الديوان بجزأيه، إنه لا يريد أن يعترف بشاعر لا تطالعنا - كما يقول - شخصيته ومزاجه الخاص ونظراته إلى الحياة وفلسفته فيها من خلال شعره، ولا تتكامل وحدة القصيدة في شعره.

ويؤمن أصحاب مدرسة الديوان بأن الشعر يجب أن يكون تعبيراً عن وجدان الشاعر وحياته الباطنية، أي أن يكون صورة لنفسه، وصادراً عن نفس الشاعر وطبعه، إن مدرسة الديوان تدعو إلى صدق الشاعر في الإحساس والتعبير.

(١) ص ٢٠٢ نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر لعز الدين الأمين.

وقد مات المازني في أغسطس عام ١٩٤٩ ومات شكري عام ١٩٥٩ وكانت مدرسة الديوان من أسبق المدارس الشعرية في مصر، ولا شك أنها أثرت في كل المدارس الشعرية المعاصرة، وكانت تندد بمدرسة شوقي وحافظ، وتدعو إلى التجديد وعلى أوسع نطاق، ويجعل بعض الكتاب شكري بدء المدرسة الحديثة المعاصرة في الشعر، من حيث يجعل العقاد نفسه هو بدء هذه الانطلاقة... ومهما كان فقد انفصل شكري عن هذه المدرسة، ولذلك نقده المازني في الجزء الأول من الديوان، ثم تنكر عام ١٩٣٠ لآرائه التي أعلنها في هذه المدرسة ووقف العقاد وحده.

ولكن فريقاً من النقاد يجعلون مطران هو بدء المدرسة الشعرية الحديثة ويبدء حركة التجديد في الشعر، وكان ديوانه، أو الجزء الأول منه قد صدر عام ١٩٠٨، ويعتد الدكتور أبو شادي بمطران اعتداداً كبيراً، ويتابعه في ذلك مندور، والسحرتي، وقد ظهر أول ديوان لأبي شادي ممثلاً لاتجاهات أستاذه مطران في الشعر والتجديد فيه وهو ديوان «أنداء الفجر» عام ١٩١٠.

ومن يعتدون بشكري رمزي مفتاح في كتابه «رسائل النقد» وأنور الجندي في كتابه «نزعات التجديد في الأدب العربي المعاصر».

وقامت معارك جديدة حول الشعر وحول حافظ وشوقي، وكان من أبطالها العقاد، وطه حسين، وسواهما.

وفي عام ١٩٢٥ قامت في الهلال معركة حول القديم والحديث اشترك فيها: سلامة موسى وطه حسين وهيكل... كما قامت من قبل معركة بين طه حسين ورفيق العظم في السياسة حول كتاب «حديث الأربعاء»، وآراء طه حسين فيه.

وفي عام ١٩٣٢ ظهرت مجلة أبولو ومدرستها الشعرية على يدي الدكتور أبي شادي والدكتور إبراهيم ناجي وسواهما، وتعد مدرسة أبولو انتصاراً للمدرسة الرومانسية في الشعر المعاصر التي كان من أعلامها: مطران وشكري والمازني والعقاد، ومثلها أتم تمثيل أبو شادي وتابعهم في هذه الحركة الشابي

والتيجاني بشير. وكان من أنصارهما السحرتي، ومن الذين تابعوها: الهمشري وصالح جودت والدكتور مختار الوكيل والدكتور عبد العزيز عتيق، وسواهم. وقد أثرت هذه المدرسة في طبقة الكلاسيكيين، فظهرت الكلاسيكية الجديدة ممثلة في شعر عزيز أباظة، ومحمود غنيم، وعلي الجندي، ومحمد الأسمر، ومحمود أبو الوفا، وسواهم.

واستمر صدى مدرسة أبولو إلى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ حيث ظهرت المدرسة الواقعية ممثلة في شعر: عبد الحميد الديب، وكامل أمين، وكمال عبد الحليم صاحب ديوان «إصرار» والفيتوري والجيلي، وتاج السر ومحمي الدين فارس، وسواهم.

وظهر التجديد كذلك واضحاً في الأدب المسرحي وفي الكتابة في الأدب الوصفي من نقد وتاريخ أدب، وفي فن المقالة، والترجمة الذاتية. ويقسم أبو شادي المدارس الشعرية المعاصرة في العالم العربي إلى ثلاث مدارس رئيسية:

١ - المدرسة الكلاسيكية المجددة تحت الراية الابتداعية وهي التي كان يتزعمها مطران^(١)، ومن أعلامها: الأخطل الصغير، وبدوي الجبل، والشاعر القروي، وشفيق العلوف، وإيليا أبو ماضي، وميخائيل نعيمة، وعبد الرحمن شكري، وإبراهيم ناجي، وسواهم.

٢ - المدرسة التجديدية المتطرفة، ومن أعلامها: نزار قباني، ونازك الملائكة.

٣ - المدرسة الوسطى التي تحفل أشد ما تحفل بالموسيقى الاتباعية، وبجزالة الألفاظ، وبالصيف العريقة الماثورة وبالإشراق الغامر، ويمثلها: عزيز أباظة وعلي محمود طه المهندس.

وكانت غاية مدرسة أبولو هي الدعوة إلى التجديد وإلى الجديد، وإلى

(١) مطران كلاسيكي في أسلوبه، رومانسي في خياله وأفكاره وموضوعاته.

الحرية الفكرية والأدبية والفنية، وإلى تمثيل الشعر لتأملات الفكر ونبضات الأفتدة وهزات العواطف والمشاعر... وكانت مجلة أبولو أول مجلة تقف نفسها على الشعر العربي المعاصر، ومن أجل النهوض به وإحياء روح الشعر الأصيل، وتهذيبه مما علق به من أوهام التقليد والصنعة والابتذال... ورسالة الشعر عنده هي أداء رسالة «الشعر بالشعر للشعر».

وقد ظل أبو شادي يعلن الثورة على التقليد والجمود ويدعو إلى الأصالة والفطرة وإلى الوحدة التعبيرية، وإلى التناول الفني السليم للفكرة والموضوع والمعاني، وأسمى رسالة للشعر عنده هي النهوض بالإنسانية عن طريق هذا الفن الجميل... ويرى أبو شادي أن الطلاقة الفنية هي صفة فطرية في كل فنان موهوب.

وكان أبو شادي من أشد الشعراء تحمساً وفهماً للتجديد ودعوة إليه وحرصاً عليه، وقد طاف بكثير من بلاد أوروبا، وقرأ الآداب العالمية، ووقف على الفكر الإنساني في مختلف العصور، وله ثلاثة وعشرون ديواناً شعرياً، وهي ثروة ضخمة في الشعر الحديث.

وأغراض مدرسة أبولو هي كما رسمها وحددها أبو شادي:

- ١ - السمو بالشعر العربي وتوجيه جهود الشعراء توجيهاً شريفاً.
 - ٢ - مناصرة النهضة الفنية في عالم الشعر.
 - ٣ - ترقية مستوى الشعراء أدبياً واجتماعياً ومادياً والدفاع عن كرامتهم.
- وكانت الجمعية مفتوحة للشعراء خاصة والأدباء عامة في جميع الأقطار العربية.

وفي سبتمبر عام ١٩٣٢ صدر العدد الأول من مجلة أبولو في القاهرة وظلت تصدر أعدادها كل شهر حتى توقفت عام ١٩٣٥، وتولى أبو شادي رئاسة تحرير المجلة، وسكرتيرية الجماعة، واختير لرئاسة الجماعة أحمد شوقي، ولما توفي شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢) في الرابع عشر من أكتوبر ١٩٣٢ اختير مطران رئيساً لها.

وكان من أعضائها: أحمد محرم، وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه،
ومحمود أبو الوفا، والهمشري، ومصطفى السحرتي، وسواهم.

هذه هي أهم مدارس الأدب ومذاهب الشعر في مصر، وقد كان ولا يزال لها صدى عميق في الأدب والشعر في شتى أنحاء العالم العربي.

تطور الأدب العربي الحديث الى اليوم

وإذا كان من المصطلح عليه أن العصر الحديث يبدأ في الغرب من منتصف القرن الثامن عشر، وأنه كان عصر الحرية والعلم والثورة على القديم، فإن الأدب الحديث لا يمكن أن يظهر مع منتصف هذا القرن، ولا بعده مباشرة، لأن تطور الآداب لا يظهر فجأة ومباشرة، وإنما يحتاج إلى زمن طويل، والشرق العربي لم تكن أحواله السياسية ولا الاجتماعية ولا الثقافية تسمح له بظهور الأدب الحديث في بلادنا إلا في أواخر القرن التاسع عشر، أما أدب ما قبل ذلك فهو تقليد أو استمرار لأدب عصري المالك والعثمانيين.

وقد تميز الأدب الحديث في الفترة الأخيرة المعاصرة بالطموح والتجديد والازدهار، ونطلق عليه في هذه الفترة التي نعيشها اسم «الأدب المعاصر».

ومن غير ريب أننا لا نكون بعيدين عن الصواب حينما نجعل بدء أدبنا المعاصر هو مطلع عام ١٩٣٢، الذي قامت بعده بقليل «جماعة أبولو» ومجلتها (سبتمبر ١٩٣٢). والمجمع اللغوي^(١)، ومجلة الرسالة (١٥ يناير ١٩٣٣) ثم مجلة الثقافة، والعام الذي بلغ فيه شوقي وحافظ قمة مجدهما الشعري، وازداد نشاط الأدباء والنقاد في مختلف مجالات الأدب وجوانبه في أنحاء العالم العربي كله.

ومنذ ذلك التاريخ بذلت محاولات صادقة لتطوير الأدب وتجديده، وقامت معارك نقدية كثيرة بين المدارس الأدبية المختلفة النزعات والاتجاهات،

(١) في ١٤ شعبان ١٣٥١: ١٣ ديسمبر ١٩٣٢ (٣: ١٤٤ قصة الأدب في مصر).

وأذكت الحركات الوطنية في العالم العربي جذوة الأدب، وجددت المعاهد الأدبية واللغوية نظمها ومناهجها، ونشأت طبقة من الكتاب والشعراء الرومانسيين الذين فتحوا الباب واسعاً للتجديد، ودعوا إليه ودافعوا عنه، وتزعم النثر الفني طه حسين، كما تزعم الشعر الجديد الدكتور أحمد زكي أبو شادي، وكان العقاد والملازمي يكافحان بأدبهما مع طبقات الشعب، من حيث صمت عبد الرحمن شكري إلا قليلاً، وكان لأحمد أمين، والزيات، وزكي مبارك، ومحمد حسين هيكل، وعبد العزيز البشري، ومحمد كرد علي، ومصطفى صادق الرافعي، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، آثار كبيرة في النشاط الأدبي، وظهر ناجي، وعلي محمود طه، ومحمود أبو الوفا، والشابي، والتيجاني بشير، والهمشري.

وامتدت موجة شعراء الكلاسيكية الجديدة، ومن بينهم: الأخطل الصغير، وأبو ريشة، ومحمد الأسمر، وعزيز أباظة، ومحمد عبد الغني حسن، ومحمود غنيم والجواهري، وعلي الجندي، وسواهم، وأخذت طبقة شوقي وحافظ تشق طريقها إلى عتبات المجد، وتوفي الكاظمي والزهاوي، ثم الرصافي، ومطران، وزاد نصيب الأدب من الاتصال بأداب الغرب والشرق على السواء، وكان لاتصال الفكر العربي بالفكر العالمي أثر واضح في ازدهار الأدب، وفيما كسبه من ثروة غنية بألوان التجديد في الصور والأساليب والأخيلة والمعاني والموضوعات والأغراض.

وظهر الأدب القصصي والتمثيلي، ونشأت القصة التاريخية، والقصة الشعرية وفن المقالة، وأدب الترجمة، وأثرى النقد وتعددت مناهجه ومدارسه، وصار الشعر بعد موت شوقي وقبله في أيدي مدارس شعرية جادة، ومن بينها «مدرسة أبولو»، ومدرسة شعراء الديوان، التي يتحدث عنها العقاد في آخر كتابه «شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي» فيصفها بأنها مدرسة أوغلت في القراءة الإنجليزية، وهي على قراءتها إنتاج الأدباء والشعراء الإنجليز لم تنس الألمان والطلليان والروس والأسبان واليونان واللاتين الأقدمين. واستفادت من النقد الإنجليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى. وشيخ هذه

المدرسة كلها في النقد هو «هازلت»؛ وهذه المدرسة أي مدرسة الديوان ليست مقلدة للأدب الإنجليزي، وإنما هي قد استفادت منه، واسترشدت به.

ثم قامت الحرب. فاختلفت منابر الأدب واشتدت قسوة الحياة على الأدباء وصمت الشعراء والكتاب إلا قليلاً. وبانتهاء الحرب العالمية الثانية قامت حياة جديدة في الشرق العربي تخالف حياته قبل الحرب. وكان من مقدماتها قيام «جامعة الدول العربية» عام ١٩٤٥. وكان قيامها أملاً من آمال الشعوب العربية التي اختتمت صفحات نضالها الوطني بحصولها على حريتها واستقلالها دولة بعد دولة وشعباً إثر شعب. وبدأ الناس يفكرون في البناء الاجتماعي. فنشأت طبقة من الشعراء والكتاب الواقعيين الذين يحملون بمجتمع أفضل يعمه الأمن والرفاهية.

وفي ظلال ذلك الواقع الاجتماعي الجديد، نشأت مذاهب أدبية ونقدية وشعرية متميزة. وبدأت محاولات الشعر الحر في الظهور، وقامت مجلات وجماعات أدبية كثيرة في العالم العربي. بينما اختلفت مجلات أخرى كالرسالة والثقافة والمقتطف والكتاب والكتاب المصري. وعقدت مواسم ثقافية وأدبية كثيرة. وأنشئت مجالس للأدب والفنون، وزاد اتصال الأدب في العالم العربي بآداب المهجر ومدارسه الشعرية قوة ووثوقاً. فجاء على أثر ذلك كله نهضة أدبية وشعرية خصبة. وأصبح الأدب القصصي والمسرحي والمقالة الصحفية تحتل الصدارة، من حيث تأخر الشعر والنثر الفني والنقد قليلاً.

ولنجيب محفوظ، ويحيى حقي، وثروت أباظة، ووداد سكاكيني، وجعفر الخليلي، جهود صادقة في أدب القصة، وقد غذى عزيز أباظة المسرح بكثير من التمثيليات والقصص الشعرية.

وللدكتور محمد مندور ومصطفى عبد اللطيف السحرتي وأحمد الشايب آثار عالية في النقد.

وقد رفد الأدب بكثير من حيويته ونشاطه مفكرون وأدباء كبار، أسهموا في الحقل الأدبي إسهاماً فعالاً. ومن بينهم: أحمد لطفي السيد، وطه حسين،

ومحمد مندور، وعباس محمود العقاد، وأحمد أمين، وأحمد حسن الزيات،
ومحمود تيمور، وأحمد زكي أبو شادي، ومحمد رضا الشبيبي، ومصطفى
الشهابي وجورج صيدح، ونظير زيتون وسواهم.

وقد وقفت خلفهم طبقة كبيرة من الكتاب والأدباء تجاهد من أجل
رسالة الأدب وتكافح لخلق بيئة أدبية جديدة متطورة. ومن بينهم: خفاجي،
ووديع فلسطين، ومحمد عبد الغني حسن، وزكي المحاسني، والسحري،
وكامل كيلاني، وعبد الله عبد الجبار، وروكس العزيزي، ويوسف عز الدين،
وأسعد داغر، وعيسى الناعوري، وشوقي ضيف، ورشاد رشدي، وبنت
الشاطئي، وسهير القلماوي، وأبو القاسم كرو، وإسحاق الحسيني وسواهم.

وفي مجال الشعر ما زال أعلام المدرسة المهجرية يوالون تجاربهم الشعرية
وفي مقدمتهم الشاعر القروي والياس فرحات وصيدح. وقد رقد إخوان لهم في
مرقد الأبدية، كجبران وإيليا أبو ماضي ونسيب عريضة وغيرهم. وفي الشعر
العربي تقف مدارس: الكلاسيكية الجديدة، والرومانسية، والواقعية،
والرمزية، والشعر الحر. ونسمع الصدى العميق لشعر نازك الملائكة، وجلييلة
رضا، وجمييلة العلايلي، وملك عبد العزيز، وشريفة فتحي، وعزيزة هارون
وعاتكة الخزرجي. كما نقرأ لمحمود حسن إسماعيل، وسليمان العيسى، وحمة
شحاته، وإبراهيم هاشم الفلاي، وصالح جودت، وأحمد رامي، وأنور العطار
وخلفهم طبقات كثيرة من الشعراء، نقرأ لهم ونعجب بأثارهم الشعرية حيناً
أو نسخط عليها حيناً آخر.

ومع كل ما بلغه أدبنا المعاصر اليوم من تطور وتجديد واتساع أفق، فلا
يزال أمامه كثير من الخطى التي يجب أن يخطوها ليلبلغ غاية ما نرجو له من
قوة ونهضة.

ولا يزال أمام أدب الترجمة رسالة تنتظره ليوسع مجال الصلات بين
الأدب العربي والغربي، ومن سوء الحظ أن يوقف نشاط أندية القلم في الشرق
العربي، فانقطعت الصلة التي كانت من قبل موصولة بنادي القلم الدولي،

الذي قام لتوثيق الروابط والصلات بين الأدباء في جميع أنحاء العالم، وخدمة أهداف إنسانية منها: حرية الرأي ونصرة السلم، والتفاهم بين الأمم... وفي مجال أدب الترجمة تجدد لوديع فلسطين، ومحمد عوض محمد وغيرهما أعمالاً أصيلة.

ولا يزال أمام النقد مراحل شاقة لكي يؤكد فهمنا للأدب ومذاهبه ومناهجه ويعمق الشعور بأهمية مشاركته الفعالة في الخلق الأدبي. وأمامنا جهود مضيئة تنتظرنا من أجل خدمة تراثنا الأدبي وإحيائه وتحقيقه ونشره.

وقد تضاعفت الجهود الرفيعة في باب النشر الفني، من حيث احتلت المقالة السياسية القمة، أما أدب المقامة، والرسالة الأدبية، وفن المناظرة والحوار والجدل، فلا تكاد تنال منا نصيباً من الاهتمام والإيثار.

والأديب العربي لا يكاد يهتدي للكثير من مقومات حريته الفكرية، التي هي الأصل في كل عمل أدبي جديد وأصيل.

وتتأثر المدارس الشعرية اليوم واضطرابها عامل فعال في ضعف تأثير الشعر والشعراء في الحياة العربية المعاصرة، ونرجو أن يحل محل هذا التناقص اتساق وسلام يعاوان على إيجاد بيئة حية متطورة للشعر العربي في مجتمعاتنا الراهنة.

ولا يزال أمامنا خطوات أخرى، لكي يصبح أدبنا العربي إنسانياً وعالمياً، يحتل مكانته بين الآداب العالمية، ونعرف بآثاره المشهورة الأدباء في كل شعب وبكل لغة.

أهم من ذلك كله ما نشعر به اليوم من الحاجة الملحة إلى الأصالة والعمق ونضوج الثقافة وسعة التجربة وإنسانية التفكير في كل جوانب حياتنا الأدبية وإنتاجنا الفني.

هل تقدم الأدب العربي بعد الحرب العالمية الثانية أو تأخر؟ وهل شارك

الأدب العربي المشاركة الكاملة الفعالة في بناء المجتمع والحياة ومن حوله؟
وبخاصة بعد قيام ثورة ١٩٥٢ المصرية العربية العملاقة، وهل بلغ الأدب ما
نرجوه له في عالم اليوم؟

اسئلة قد يستطيع القارئ أن يفهم بعد ما أوردناه وجه الرأي فيها.
وإن كانت الأحكام حولها قابلة للاختلاف حيناً، وللتناقض حيناً آخر. ومع
ذلك فإن الشعوب العربية تسير، ويسير معها الأدب، الذي لا بد أن يثمر
ثمراً جليلاً وجديداً في مستقبل الأيام.

وقد يمكن لقائل أن يقول: إن نهضة الأدب العربي في العصر الحديث
قد أصبحت كما ينبغي عالمية عربية. لأن العالمية في صورتها الصحيحة هي
وحدة إنسانية تقوم على التضامن بين الأمم ولا تقوم على هدم هذه الأمة أو
تلك في بلادها وبناء العالم - المهذوم - من الاخلاط والفوضى التي لا تعرف
القومية ولا تعرف الإنسانية على السواء.

وقد سارت النهضة بالأدب العربي إلى السمة العالمية بهذا المعنى الذي لا
اختلاف عليه بين طلاب الثقافة الإنسانية. وإنما يكون الأدب عالمياً إذا اتسع
لكل موضوع من الموضوعات الإنسانية المشتركة كما يحسها أبناء كل أمة في
الزمن الذي يعيشون فيه. وليس بالشرط اللازم في الأدب العالمي أن يكتب
باللغة التي يستطيع أن يقرأها أبناء العالم أجمعين. فإن اللغة الصينية يتكلمها
أكثر من ثمانمائة مليون ولا يقال عن آدابها الحاضرة، إنها أجدر بوصف العالمية
من آداب الأمة السويدية أو البلجيكية أو التشيكية. وإنما تكون عالمية بمقدار
نصيبتها من موضوعات الأدب التي تشترك فيها أمم الحضارة في العصر
الحديث، وبخاصة تلك الموضوعات «التعبيرية» التي تصاحب الأمم الحية في
كل زمن ولا تتوقف على نصيبها من المزايا العرضية بين حين وحين. فربما كثر
عدد الفلاسفة والرياضيين في زمن من الأزمنة وقل في زمن آخر. والأمة هي
الأمة في علاقاتها العالمية وتعبيراتها عما تكنه من الشعور، ولكن المعبرين عن
ذلك الشعور من الشعراء والأدباء والفنانين يقلون، وتكون قلتهم دليلاً على

نقص الحيوية، ويكثر وتكون كثرتهم دليلاً على قوتها واندفاعها إلى إثبات وجودها والتعبير عن مواطنها

ومن الأدلة على الصبغة العالمية في أدبنا الحديث أنه يمثل العواض العالمية في نواحيها المتعددة بما يصيبها من نشاط وفنور أو محافظة وتجديد، فكل ما هو شائع رائج من الفنون بين أمم الحضارة له مثل هذا النصيب من الشيوع والرواج بين المتكلمين بالعربية، وكل ما يقال عنه إنه شيء في غير أوانه يعاد فيه هذا القول بيننا مع اختلاف العبارة كما ينبغي أن نعرف بين قوم وقوم يخالفونهم باللغة والتاريخ.

إن الشعر - مثلاً - من الفنون التي يقال عنها إنها تحيا في غير أوانها بين أبناء العصر الحديث، ويعتقد النقاد ما يعتقدون في تحليل ذلك، ونعتقد نحن أن المسألة كلها مسألة توزيع لمواضع التعبير وليست مسألة انصراف عن وسائله وأدواته، فإن العصر الذي يملك من وسائل التعبير عن العاطفة الإنسانية فناً - تتوزع بين المسرح والقصة والصور المتحركة وأغاني الإذاعة والحكاكي (الجرامفون) وأخبار الصحف وغيرها من فنون العاطفة - لا يعقل أن يكون نوع الشعر الذي يطلب فيه كنوع الشعر الذي كان يطلب من قبل، وهو هو الفن الوحيد المعبر عن عواطف الشعراء والمستمعين.

وأياً كان سبب (التغير) في مناهج الشعر وميادينه فالمهم فيما نحن بصدد أن الظاهرة العالمية تظهر عندنا كما ظهرت بين أمم الحضارة الحديثة، وأنها آية من آيات الصبغة العالمية التي ترقى إليها نهضة الأدب العربي الحديث^(١).

وما دمنا نعالج تأثير وسائل الاتصال الأدبي في الجماهير، فمن واجبتنا أن نؤكد أن هذه الوسائل تتعامل مع الثقافة بمعناها الاجتماعي كمجال لجميع الأفراد في قومية من القوميات، وفي وطن من الأوطان، ومن أجل ذلك ينبغي

(١) من مقال للعقاد عن نهضة الأدب الحديث - مجلة القافلة ١٩٦٥.

أن ننظر إلى التراث الثقافي الحي الفعال، ولا ننظر إليه على أنه شيء جامد لا يتغير في زمان أو مكان، ووسائل الاتصال بالجماهير إنما تتصل بهذا المجال الثقافي الحي الفعال بالاتصال الوثيق، ذلك لأنها تتوسل بأقوى المنظمات في الحياة الاجتماعية وهي اللغة!

وهذه الوسائل الاعلامية امتداد تكنولوجي للغة أو الكلمة والإيماء، ويقول «ماكلوهان»: إن وسائل الاعلام التي يستخدمها المجتمع، أو يضطر إلى استخدامها، تحدد طبيعته وكيفية علاج مشكلاته، وأي وسيلة جديدة، أو امتداد للإنسان، تشكل ظروفًا جديدة، تسيطر على ما يفعله الأفراد الذين يعيشون في ظل هذه الظروف، وتؤثر على الطريقة التي يفكرون بها ويعملون وفقاً لها. «الوسيلة امتداد للإنسان» فالملابس والمساكن امتداد لجلدنا، والعجلة امتداد لأقدامنا، والكتاب امتداد لعيوننا، والكهرباء امتداد لجهازنا العصبي المركزي كله، وكاميرا التلفزيون تمد أعيننا والميكروفون يمد آذاننا.

ويتفق هذا الاتجاه الإعلامي مع أساس التفسير الفني، الذي يذهب إلى أن الحياة تجربة وتتمثل في «خمس حواس صغيرة تنتفض بالبهجة والسرور» وقد نذكر أو نسجل أجزاء أو جوانب من تلك التجربة، التي تحقق الصفاء والوضوح والحدة والعمق - إنه مجال الفن ومبحثه على حد تعبير «آرون ادمان» - وبغض النظر عن مجرد العلاقة القائمة بين الفن والتأثيل والصور والسمفونيات، فالفن اسم يطلق على الادراكات كلها التي بها تعي الحياة ما يكتنفها من ظروف خاصة ثم تحيل هذه الظروف إلى شيء غاية في الطرافة والابداع.

إن الفن - كما يقول أرسطو - يمكن أن يعد سياسة لو قدرت أهميته تقديراً جديداً. عند ذلك يكون موضوعه هذه التجربة بأسرها، وتكون الحياة كلها هي مسرحه ومادته.

لقد كان على الفنان، بحكم الأمر الواقع، أن يعالج قطاعات من التجربة ولو أنه قد يوصي بها أو يضمها كلها. والتجربة بغض النظر عن

الفن والادراك، متقلبة ومشوشة، إنها مادة بلا شكل، وحركة بدون اتجاه، ويقدر ما يكون للحياة شكل، تكون فناً. وكل ما يسمى «عادة» أو كل تطبيق في أو نظام هو عمل من أعمال العقل، أو ربما تراثه المبدد. وحينما تتخذ المادة شكلاً والحركة اتجاهاً والحياة خطأ وتكويناً مثلاً. هنا يكون لدينا عقل وإدراك. وهنا تتحول الفوضى (اللاتكون) إلى نظام نسبي ومرغوب فيه نسميه «الفن». إن التجربة بعيداً عن الفن والإدراك مادة بلا شكل وحركة بلا اتجاه.

ومن ثم فمن أهم وظائف الفنان أن يجعل التجربة أخاذة بأن يمنحها الحياة. إن الفنان سواء أكان شاعراً أم رساماً أم مثلاً يتناول الأشياء كما يتناول الشاعر والقصاص الأحداث على نحو يجبر العين على التوقف ونشدان المتعة في الرؤية، كما يجبر الأذان على الاستماع لمجرد الاستماع. والعقل على التلهف على لذة الاكتشاف التي لا تسعى إلى نفع. أو الحيرة أو الدهشة. وفيما يتصل بوظيفة تركيز الحياة وتقويتها، فإن حواسنا، كما يقول البيولوجيون، عبارة عن تحورات وتكيفات مع البيئة المتغيرة غير المستقرة التي لا يؤمن لها.

وهكذا يتضح أن حواسنا عملية في أصلها وليست جمالية. وتبقى في حياتنا اليومية ذات سمة عملية. وتقاس وظيفة الفنان ونجاح العمل الفني، جزئياً بالقدر الذي تصبح فيه حواسنا لا إشارات للفعل وإنما للإيماء بالمحسوس والمللموس والإبانة عنها.

وهكذا تزداد التجربة في الفنون الجميلة ثباتاً ورسوخاً وحدة عن طريق استيلائها على الأحاسيس والمشاعر. والوظيفة البارزة للفنون الجميلة تكون أساساً في حدود هذين الجهازين المتميزين في دقة وعمق: العين والأذن. وفي حين تجد اللون هو ذلك الجانب من المنظور الذي يهمل عادة لأغراض عملية أكثر من غيره، إذ به يصبح المادة التي بها يعنى الرسام خاصته. وفروق الإيقاع والنغم التي تهمل في الاتصال العملي تصبح بالنسبة للموسيقى مصدراً لكل فنه ومصدر امتاع عاشق الموسيقى. وهكذا تتحول الحواس من مجرد كونها مثيرات للفعل والحركة إلى مجالات للإمتاع.

وتأسيساً على هذا الفهم نذهب في التفسير الإعلامي للأدب، إلى أن «الوسيلة هي الرسالة» على حد تعبير «ماكلوهان». وهذا يعني أن النتائج الفردية والاجتماعية في الأدب لأية وسيلة من الوسائل تتوقف على تغيير المقياس الذي تحدثه تكنولوجيا جديدة، وكل امتداد لأنفسنا في حياتنا. والواقع أن «رسالة» وسيلة أو تكنولوجيا ما هي إلا تغيير المقياس، أو الإيقاع أو النماذج التي تحدثها في الإبداع الأدبي. فإذا سألنا هنا: ما هو مضمون الكلام، يجيب «علماء الإعلام» بأنه عملية تفكير «فعلية غير شفوية في ذاتها».

خاتمة الكتاب

وبعد: فهذا هو نهاية كتابنا «التفسير الإعلامي للأدب العربي» الذي تناول شرح عملية التفسير الإعلامي للأدب العربي، إلى ما تناوله من تحليل مضمون أدبنا في مختلف عصوره ومدارسه ومذاهبه وتياراته وأعلامه.

ولا ريب أننا نقف اليوم على أبواب عصر جديد للأدب يصح لنا أن نطلق عليه: «عصر بداية القرن الخامس عشر الهجري» حيث يقف الأدب العربي على أبوابه شاخاً سامقاً مرفوع الرأس، مستعداً لأن يؤدي أضخم رسالة، وأن يسير إلى أكرم غاية، وأنبل هدف.

ونحن بدورنا ننتظر، لنعرف إلى أي مدى سوف يسير، وأية نتائج سوف يحققها.

فليكن الحلم والواقع أخوين يسيران وسط هذه التيارات المتشابكة إلى غايات، سوف نعرف بعد قليل مداها.

ومهما كان، فلنا أن نقول: إن كتابنا هذا يستقبل العصر الجديد، عصر القرن الخامس عشر بذراعيه المفتوحين، مؤملاً أن يكون الغد أجمل من الحاضر، وأن يصبح المستقبل أنضر من الغد، ونحن معه نهتف من أعماق قلوبنا للغد ولما وراء الغد.

وما توفيقنا إلا بالله.

أول المحرم ١٤٠١هـ

١١ من نوفمبر ١٩٨٠م

المؤلفان

محتويات الكتاب

مدخل: مفهوم التفسير الإعلامي	٥
الفصل الاول: التفسير الإعلامي للأدب	٢٠
الفصل الثاني: الرسالة الإبداعية	٢٤
الفصل الثالث: لمن	٤٥
الفصل الرابع: ما هو تأثير ما يُقال ؟	٥٩
الفصل الخامس: وفي أي الظروف ؟	٨٠
العوامل المؤثرة في الادب	٨١
مدى عناية الاندلسيين بالشعر	٩٣
نحن المقامة	١٠٧
الفصل السادس: لأي هدف ؟	١١٨
بين الجاهلية والإسلام	١٢١
موقف الإسلام من الشعر	١٢٤
اغراض الشعر في صدر الإسلام	١٢٦
معاني الشعر وأساليبه	١٢٨
شعراء المدر والوبر	١٣٠
أغراض الشعر الأموي	١٣١
المذاهب الأدبية الحديثة	١٤٩
الفصل السابع: وسائل الاتصال الأدبي	١٦٥
بأية وسيلة ؟	١٦٥
الحضارة السمعية	١٦٧

أولية الشعر العربي	١٧١
شاعرية العرب	١٧٩
الحضارة السمعية وسلطان	
الذاكرة	١٨٠
النثر في الحضارة السمعية	١٨٧
الحكم والأمثال الجاهلية	١٩٠
الخطابة الجاهلية	١٩٨
النثر الفني في الأدب الجاهلي	٢١٦
المعلقات	٢٢٠
الفصل الثامن: حضارة التدوين	٢٤٤
موضوعات القرآن والقراءات والأسلوب	٢٤٥
إعجاز القرآن	٢٥٧
أثر الإسلام في اللغة العربية	٢٧٠
أثر الإسلام في حياة العرب الأدبية	٢٧٣
نصوص من الكتابة الفنية في العصر الأموي	٣٠٠
تطور حضارة التدوين	٣٠٩
الفصل التاسع: الأدب في الحضارة الطباعية	٣٦٩
الحركة الفكرية الحديثة	٣٧٨
الحياة الفكرية في مطلع القرن العشرين	٣٨٧
الأدب الحديث ومدارسه	٣٩٣
خاتمة الكتاب	٤١٣

